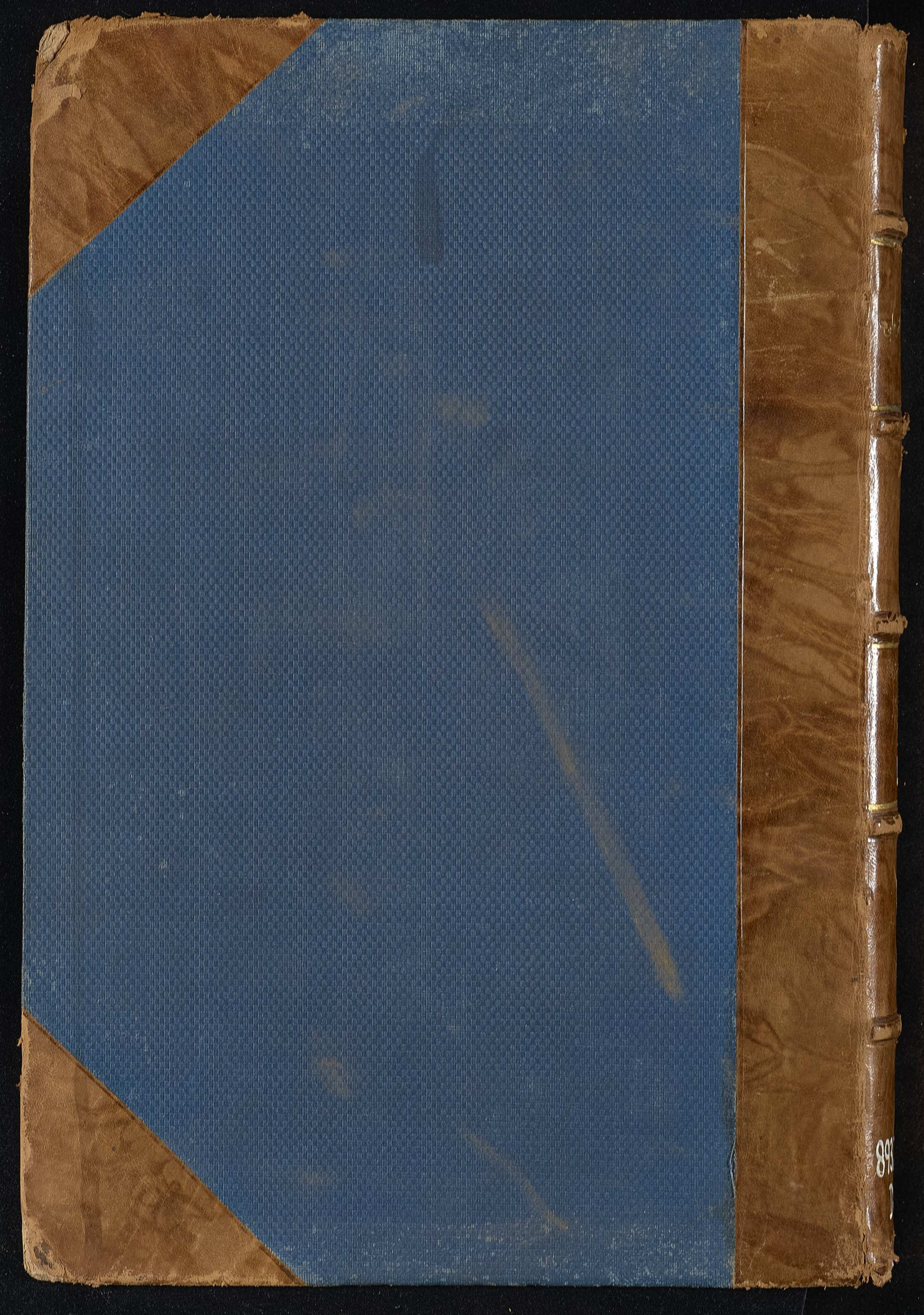
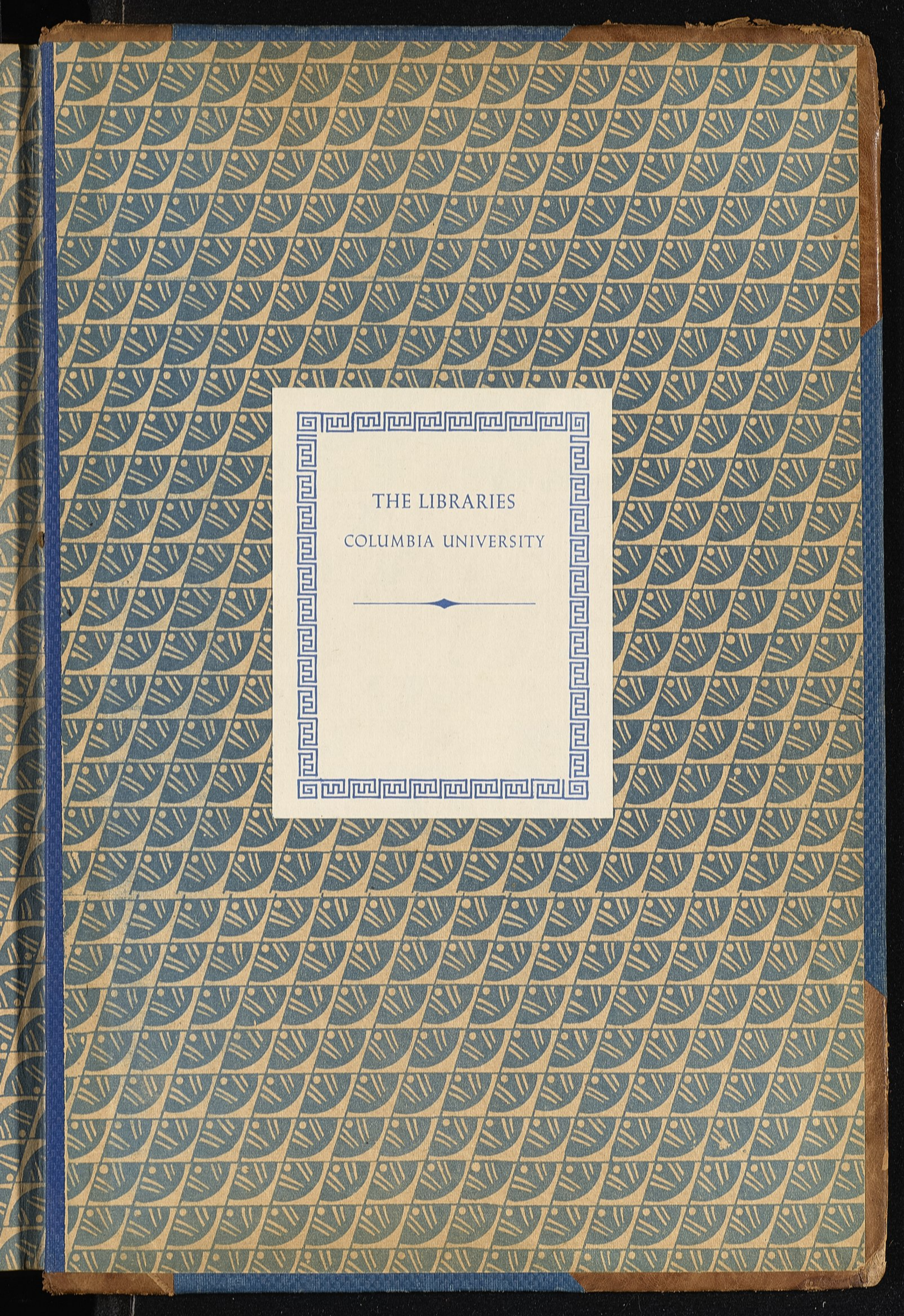
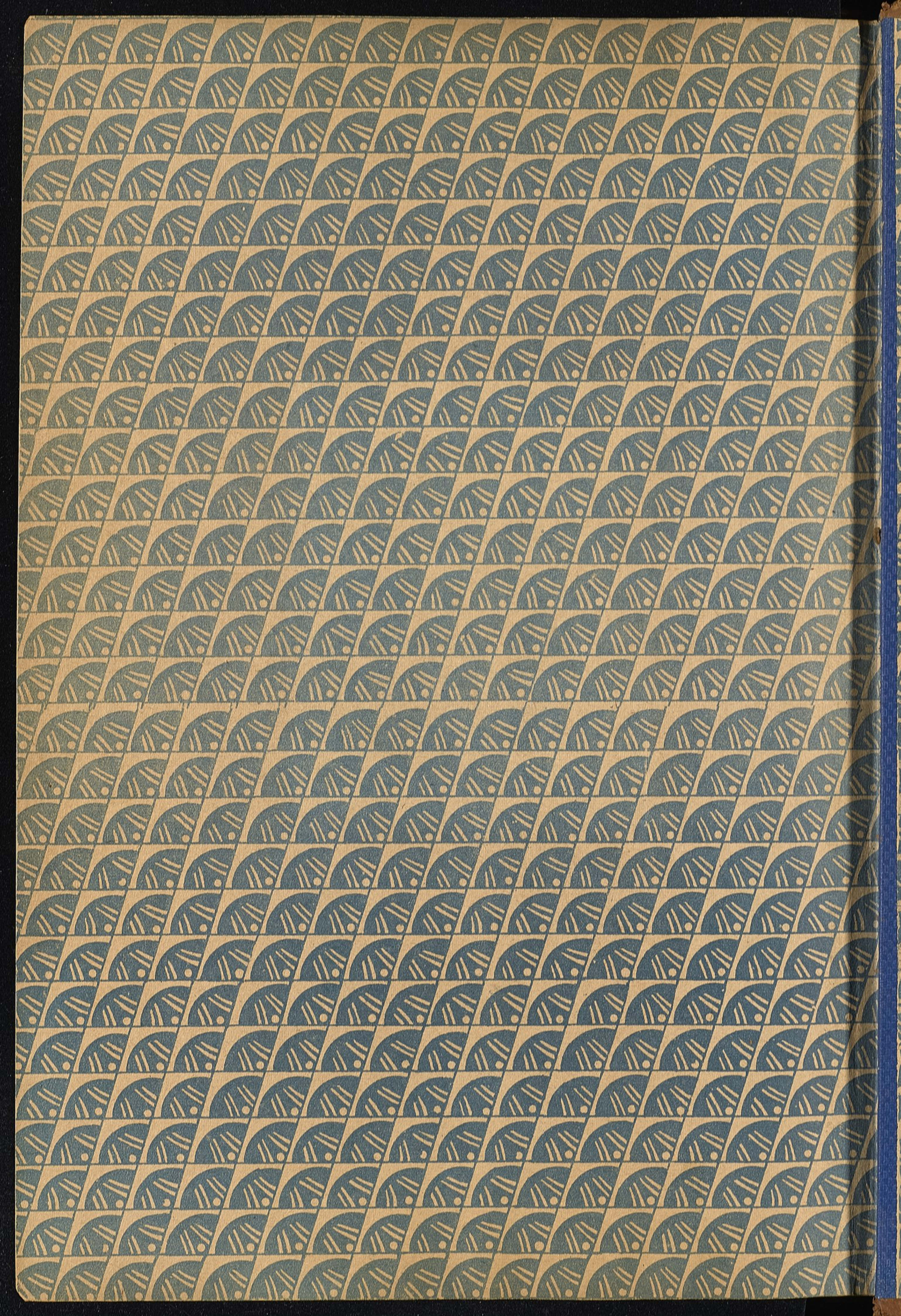



THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY



دار الكتب المصرية

القسم الأدبي

الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي

الجزء الحادي عشر

القاهرة

مطبعة دار الكتب المصرية

١٣٦٠ هـ — ١٩٤١ م

الطبعة الثانية بمطبعة دار الكتب المصرية

فهـرس الجـزء الحـادى عشر

تفسـير سـورة الكهف

صفحة

تفسير قوله تعالى : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ... » الايات . الرد على طوائف من المنجمين وأهل الطبائع وسواهم ١

تفسير قوله تعالى : « ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل ... » الآيات . ٤

تفسير قوله تعالى : « و إذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين ... » الآية . فيه مسائل : الجمهور على أنه موسى بن عمران . سبب قصة موسى والخضر عليهما السلام . رحلة العالم فى طلب الأزدياد من العلم . ندب الشريعة إلى تسمية الخادم بالفتى ٨

تفسير قوله تعالى : « فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما ... » الآيات . آتخاذ الزاد فى الأسفار لا ينافى التوكل . الخلاف فى أن الخضر نبى أو ولى ١٢

تفسير قوله تعالى : « قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمنى مما علمت رشدا ... » الآيات . بيـان أن المتعلم تبع للعالم و إن تفاوتت المراتب ١٦

تفسير قوله تعالى : «فا نطلقا حتى إذا ركبا فى السفينة خرقها ...» الآيات . فيه مسئلتان : قصة ركوب موسى والخضر السفينة وخرقها . للولى أن ينقص مال اليتيم للمصلحة ١٨

تفسير قوله تعالى : « فآنطلقا حتى إذا لقيا غلاما فقتله ... » الآيات... ... ... ٢٠

تفسير قوله تعالى : « فا نطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية آستطعما أهلها » الآيات . فيه مسائل : بيان اختـلاف العلماء فى القـرية . وجوب سؤال القوت للمحتاج . النهى عن الجلوس تحت جدار مائل . ثبوت الكرامة للاولياء . هـل يجوز أن يعلم الولى أنه ولى أم لا . لا ينكر أن يكون للولى مال وضيعة . صحة جواز الإجارة ٢٣

تفسير قوله تعالى : « أما السفينة فكانت لمسا كين ... » الآيات . الرد على زنادقة الباطنية فى القول باستغنائهم عن نصوص الشريعة بما يقع فى قلوبهم . الكلام على حياة الخضر وموته والآختلاف فى آسمه ٣٣

تفسير قوله تعالى : « و يسألونك عن ذى القرنين ... » الآيات . خبر ذى القرنين . ذكر نبوة خالد بن سنان العبسى ٤٥

صفحة

تفسير قوله تعالى : « ثم أتبع سببا ... » الايات . الكلام على يأجوج ومأجوج . آتخاذ السجون . ما يجب على الملك للخلق ٥٥

تفسير قوله تعالى : « وتركنا بعضهم يومئذ يموج فى بعض ... » الآيات . ما يحبط العمل . ذم السمن بالأكل الزائد والترفه . الكلام على الرياء ٦٤

تفسير سورة مريم

تفسير قوله تعالى : « كٓهيعٓصٓ . ذكر رحمة ربك عبده زكريا ... » الآيات ... ... الكلام على وراثة الأنبياء . حكم آرتفاع الإمام على المأمومين ٧٣

تفسير قوله تعالى : « وآذكر فى الكتاب مريم ... » الآيات . قصة مريم وحملها بعيسى وولادته . القول فى كسب الرزق . فائدة الرطب للنفساء . نذر الصمت ٨٩

تفسير قوله تعالى : « فأتت به قومها تحمله ... » الآيتين ٩٩

تفسير قوله تعالى : « فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ... » الآيات . حكم قذف الأخرس ولعانه ١٠١

تفسير قوله تعالى : « ذلك عيسى بن مريم قول الحق ... » الآيات . اختلاف فرق النصارى فى عيسى . سبب آنتقال المسيح وأمه من بيت لحم إلى مصر . ذبح الموت يوم القيامة ١٠٥

تفسير قوله تعالى : « وآذكر فى الكتاب إبراهيم ... » الآيات . القول فى تحية غير المسلم ١١٠

تفسير قوله تعالى : « وآذكر فى الكتاب موسى ... » الآيات ١١٣

تفسير قوله تعالى : « وآذكر فى الكتاب إسمعيل ... » الآيتين . فيه مسائل : صدق الوعد . الأقوال فى العدة بالهبة ١١٤

تفسير قوله تعالى : « وآذكر فى الكتاب إدريس ... » الآيتين . ما قيل فى سبب رفع إدريس عليه السلام ١١٧

تفسير قوله تعالى : « أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين ... » الآيات . القول فى سجود التلاوة ١٢٠

تفسير قوله تعالى : « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة ... » الآيات . الكلام على إضاعة الصلاة . بعض أحوال أهل الجنة ١٢١

صفحة
تفسير قوله تعالى : « وما نتنزل إلا بأمر ربك ... » الايتين ١٢٨
تفسير قوله تعالى : « ويقول الإنسان أئذا ما مت لسوف أخرج حيا ... » الآيات .
موت الأطفال وقاية لآبائهم من النار . أطفال المسلمين فى الجنة ١٣١
تفسير قوله تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ... » الآيات ١٤١
تفسير قوله تعالى : « ويزيد الله الذين اهتدوا هدى ... » الآية ١٤٤
تفسير قوله تعالى : « أفرأيت الذى كفر بآياتنا ... » الآيات ١٤٥
تفسير قوله تعالى : « واتخذوا من دون الله آلهة ... » الآيتين ١٤٨
تفسير قوله تعالى : « ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين » . الآيات ١٤٩
تفسير قوله تعالى : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ... » الآيات ١٥٥
تفسير قوله تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ... » الآية ١٦٠
تفسير قوله تعالى : « فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين ... » الآية ١٦١
تفسير قوله تعالى : « وكم أهلكنا قبلهم من قرن ... » الآية ١٦٢

تفسير سورة طه عليه السلام

تفسير قوله تعالى : « طه . ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ... » الآيات ١٦٥
تفسير قوله تعالى : « وهل أتاك حديث موسى ... » الآيات . حكم الصلاة فى النعل .
ما يطهرها إذا تنجست . أقوال العلماء فى من نام عن صلاة أو نسيها أو تركها عمدا ١٧١
تفسير قوله تعالى : « وما تلك بيمينك يا موسى ... » الآيات . منافع العصا ١٨٥
تفسير قوله تعالى : « اذهب إلى فرعون إنه طغى ... » الآيات... ... ... ١٩١
تفسير قوله تعالى : « قال قد أوتيت سؤلك يا موسى ... » الآيات ١٩٤
تفسير قوله تعالى : « اذهبا إلى فرعون إنه طغى ... » الآيات ١٩٩
تفسير قوله تعالى : « قال فما بال القرون الأولى ... » الآيتين . الكلام على تدوين
العلوم وكتبها... ... ... ٢٠٥
تفسير قوله تعالى : « الذى جعل لكم الأرض مهدا ... » الآيات ٢٠٩
تفسير قوله تعالى : « ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى ... » الآيات ٢١١

صفحة
تفسير قوله تعالى : « فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى ... » الآيات ٢١٥
تفسير قوله تعالى : « قالوا يا موسى إما أن تلق و إما أن نكون أول من ألق ... »
الايات ٢٢١
تفسير قوله تعالى : « قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ... » الايات ٢٢٥
تفسير قوله تعالى : « ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى ... » الآيات ٢٢٧
تفسير قوله تعالى : « يا بنى إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ... » الايات ٢٢٩
تفسير قوله تعالى : « وما أعجلك عن قومك يا موسى ... » الايات ٢٣٢
تفسير قوله تعالى : « ولقد قال لهم هرون من قبل ياقوم إنما فتنتم به » الآيات .
الرد على الصوفية فى رقصهم وتواجدهم ٢٣٦
تفسير قوله تعالى : « قال يابن أم لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى ... » الآيات .
الكلام على نفى أهل البدع والمعاصى وعدم مخالطتهم ٢٣٨
تفسير قوله تعالى : « كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق ... » الآيات ٢٤٣
تفسير قوله تعالى : « و يسئلونك عن الجبال فقل ينسفها ربى نسفا ... » الآيات ٢٤٥
تفسير قوله تعالى : « وعنت الوجوه للحى القيوم ... » الآيتين ٢٤٨
تفسير قوله تعالى : « وكذلك أنزلناه قرآنا عربيا ... » الآيتين ٢٥٠
تفسير قوله تعالى : « ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسى ... » الآية... ... ... ٢٥١
تفسير قوله تعالى : « و إذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا ... » الآيات ٢٥٢
تفسير قوله تعالى : « فوسوس إليه الشيطان... » الآيات . القول فى ذنوب الأنبياء .
محاجة آدم وموسى عليهما السلام ٢٥٤
تفسير قوله تعالى : « قال اهبطا منها جميعا ... » الآيات ٢٥٧
تفسير قوله تعالى : « قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا...» الآيات... ... ٢٥٨
تفسير قوله تعالى : « أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون ... » الآيات ٢٦٠
تفسير قوله تعالى : « ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ... » الآيتين... ٢٦١
تفسير قوله تعالى : « وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه ... » الآيات ٢٦٤

صفحة

تفسير سورة الأنبياء

تفسير قوله تعالى : « اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ... » الآيات . ٢٦٦

تفسير قوله تعالى : « قال ربى يعلم القول فى السماء والأرض ... » الآيات ٢٧٠

تفسير قوله تعالى : « وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم ... » الآيات . على العامة تقليد العلماء ٢٧١

تفسير قوله تعالى : « وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة ... » الآيات ٢٧٣

تفسير قوله تعالى : « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ... » الآيات ... ٢٧٥

تفسير قوله تعالى : « وله من فى السموات والأرض ... » الآيات ٢٧٧

تفسير قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ... » الآيات ٢٧٨

تفسير قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه ... » الآية . ٢٨٠

تفسير قوله تعالى : « وقالوا اتخذ الرحمن ولدا سبحانه ... » الآيات ٢٨١

تفسير قوله تعالى : « أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما ... » الآيات ٢٨٢

تفسير قوله تعالى : « وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد ... » الآيات... ... ... ٢٨٧

تفسير قوله تعالى : « خلق الإنسان من عجل ... » الآيات ٢٨٨

تفسير قوله تعالى : « قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن ... » الآيات ٢٩٠

تفسير قوله تعالى : « قل إنما أنذركم بالوحى ... » الايات ٢٩٢

تفسير قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى وهرون الفرقان ... » الآيات ٢٩٥

تفسير قوله تعالى : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل ... » الآيات ٢٩٥

تفسير قوله تعالى : « ولوطا آتيناه حكما وعلما ... » الآيتين ٣٠٦

تفسير قوله تعالى : « ونوحا إذ نادى من قبل فاستجبنا له ... » الآيتين... ... ... ٣٠٦

تفسير قوله تعالى : « وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث ... » الآيات. فيه مسائل : اختلاف العلماء فى جواز الاجتهاد على الأنبياء . الكلام على المجتهدين فى الفروع إذا اختلفوا . القول فى رجوع الحاكم بعد قضائه من اجتهاده الى اجتهاد آخر . حكم ما أفسدت الماشية فى شرعنا ٣٠٧

صفحة

تفسير قوله تعالى : « وعلمناه صنعة لبوس لكم ... » الآية . فيه مسائل : الاية أصل فى آتخاذ الصنائع والأسباب ٣٢٠

تفسير قوله تعالى : « ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره ... الآيتين ٣٢١

تفسير قوله تعالى : « وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر ... » الآيتين... ... ... ٣٢٢

تفسير قوله تعالى : « وإسمعيل وإدريس وذا الكفل كل من الصابرين » الآيتين ٣٢٧

تفسير قوله تعالى : « وذا النون إذ ذهب مغاضبا ... » الآيتين ٣٢٩

تفسير قوله تعالى : « وزكريا إذ نادى ربه ربى لا تذرنى فردا ... » الآيتين . كيفية الدعاء ٣٣٥

تفسير قوله تعالى : « والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا » الآية ٣٣٧

تفسير قوله تعالى : « إن هذه أمتكم أمة واحدة ... » الآية ٣٣٨

تفسير قوله تعالى : « وتقطعوا أمرهم بينهم ... » الآيتين ٣٣٩

تفسير قوله تعالى : « وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون » الآيات ٣٤٠

تفسير قوله تعالى : « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ... » الآية . بيان أن الآية أصل فى القول بالعموم ٣٤٣

تفسير قوله تعالى : « لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها ... » الآية ٣٤٤

تفسير قوله تعالى : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون ... » الآيات ٣٤٥

تفسير قوله تعالى : « يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب ... » الآية ٣٤٦

تفسير قوله تعالى : « ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ... » الآيتين ٣٤٩

تفسير قوله تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ... » الآيات ٣٥٠

بسم الله الرحمن الرحيم

قوله تعالى : مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

قوله تعالى : ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ﴾ قيل : الضمير عائد على إبليس وذريته ؛ أى لم أشاورهم فى خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم ، بل خلقتهم على ما أردت . وقيل : ما أشهدت إبليس وذريته خلق السموات والأرض «ولا خلق أنفسهم» أى أنفس المشركين فكيف آتخذوهم أولياء من دونى؟ . وقيل : الكناية فى قوله : « مَا أَشْهَدْتُهُمْ » ترجع إلى المشركين ، و إلى الناس بالجملة ، فتتضمن الآية الرد على طوائف من المنجّمين وأهل الطبائع والمتحكمين من الأطباء وسواهم من كل من ينخرط فى هذه الأشياء . وقال آبن عطية : وسمعت أبى رضى الله عنه يقول سمعت الفقيه أبا عبد الله محمد بن معاذ المهدىّ بالمهدية يقول : سمعت عبد الحق الصقلىّ يقول هذا القول ، و يتأوّل هذا التأويل فى هذه الآية ، وأنها رادة على هذه الطوائف ، وذكر هذا بعض الأصوليين . قال آبن عطية وأقول : إن الغرض المقصود أولا بالآية هم إبليس وذريته ؛ و بهذا الوجه يتجه الرد على الطوائف المذكورة ، وعلى الكهان والعرب والمعظمين للجن ؛ حين يقولون : أعوذ بعزيز هذا الوادى ؛ إذ الجميع من هذه الفرق متعلقون بإبليس وذريته وهم أضلوا الجميع ، فهم المراد الأوّل بالمضلّين ؛ وتندرج هذه الطوائف فى معناهم . قال الثعلبى : وقال بعض أهل العلم «مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ» ردّ على المنجّمين أن قالوا : إنّ الأفلاك تُحدث فى الأرض وفى بعضها فى بعض ، وقوله : «والأرض» ردّ على أصحاب الهندسة حيث قالوا :

إن الأرض كرّية والأفلاك تجرى تحتها، والناس ملصَقون عليها وتحتها، وقوله : « ولا خلق أنفسهم» ردّ على الطبائعيين حيث زعموا أن الطبائع هى الفاعلة فى النفوس . وقرأ أبو جعفر « ما أشهدناهم » بالنون والألف على التعظيم . الباقون بالتاء بدليل قوله : «وما كنت متخذ» يعنى ما آستعنتهم على خلق السموات والأرض ولا شاورتهم . ﴿ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ ﴾ يعنى الشياطين . وقيل : الكفار . ﴿ عَضُـدًا ﴾ أى أعوانا . يقال : آعتضدتُ بفلان إذا آستعنتَ به وتقويتَ . والأصل فيه عضد اليـد، ثم يوضع موضع العون؛ لأن اليد قوامها العضد . يقال: عَضَده وعَاضَدَه على كذا إذا أعانه وأعزّه . ومنه قوله : « سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ » أى سنعينك بأخيك . ولفظ العضد على جهة المثَل ، والله سبحانه وتعالى لا يحتاج إلى عون أحد . وخصّ المضـلّين بالذكر لزيادة الذم والتوبيخ . وقرأ أبو جعفر الجَحْـدَرِىّ «وَمَا كُنْتَ» بفتح التاء؛ أى وما كنت يا محمد متخذ المضلّين عضدا . وفى عضد ثمانية أوجه: «عَضُدًا» بفتح العين وضم الضاد وهى قراءة الجمهور، وهى أفصحها . و «عَضْدًا» بفتح العين وإسكان الضاد، وهى لغة بنى تميم . و « عُضُدًا » بضم العين والضاد ، وهى قراءة أبى عمرو والحسن. و «عُضْدًا» بضم العين و إسكان الضاد، وهى قراءة عكرمة. و «عِضَدًا» بكسر العين وفتح الضاد، وهى قراءة الضحاك . و «عَضَدًا» بفتح العين والضاد وهى قراءة عيسى بن عمر. وحكى هرون القارئ « عِضُدًا » . واللغة الثامنة «عِضْدا» على لغة من قال: كِتْف وفِخْذ .

قوله تعـالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِىَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ ﴾ أى آذكروا يوم يقول الله : أين شركائى ؟ أى آدعوا الذين أشركتموهم بى فليمنعوكم من عذابى . وإنمـا يقول ذلك لعبدة الأوثان . وقرأ حمزة ويحيى وعيسى بن عمر « نقول » بنون . الباقون بالياء ؛ لقوله : « شركائى » ولم يقـل : شركائنا . ﴿ فَدَعَوْهُمْ ﴾ أى فعـلوا ذلك . ﴿ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ ﴾ أى لم يجيبوهم إلى نصرهم ، ولم يكفّوا عنهـم شيئا . ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُـمْ مَوْبِقًا ﴾ قال أنس ابن مالك : هو وادٍ فى جهـنم من قيح ودم . وقال ابن عبـاس : أى وجعلنا بين المؤمنين والكافرين حاجزا . وقيـل : بين الأوثان وعبـدتها ، نحو قوله : « فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُـمْ » .

قال ابن الأعرابي : كل شيء حاجز بين شيئين فهو مَوْبِق . وذكر ابن وهب عن مجاهد في قوله تعالى : « مَوْبِقا » قال وادٍ في جهنم يقال له مَوْبِق . وكذلك قال نَوْف البِكَالي إلا أنه قال : يحجز بينهم وبين المؤمنين . عِكرمة : هو نهر في جهنم يسيل نارا ، على حافتيه حيات مثل البغال الدهم ، فإذا ثارت إليهم لتأخذهم آستغاثوا منها بالاقتحام في النار . وروى زيد[1] بن درهم عن أنس بن مالك قال : « مَوْبقا » وادٍ من قيح ودم في جهنم . وقال عطاء والضحاك : مَهْلِكا في جهنم ؛ ومنه يقال : أوبقته ذنوبه إيباقا . وقال أبو عبيدة : موعدا للهلاك . الجوهري : وَبَق يَبِق وبوقا هَلَك ، والمَوْبِق مثل الموعد مَفعِل من وعد يعد ، ومنه قوله تعالى : « وجعلنا بينهم موبقا » . وفيه لغة أخرى : وَبِق يَوْبَق وَبَقًا . وفيه لغة ثالثة : وَبِق يَبِق بالكسر فيهما ، وأوبقه أي أهلكه . وقال زهير :

ومن يشترى حُسنَ الثَّناءِ بمالِهِ * يَصُنْ عِرضَه من كلّ شَنْعاءَ مُوبِقِ

قال الفراء : جعل تواصلهم في الدنيا مَهلِكا لهم في الآخرة .

قوله تعالى : ﴿ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ ﴾ « رأى » أصله رَأَيَ ؛ قلبت الياء ألفا لانفتاحها وآنفتاح ما قبلها ؛ ولهذا زعم الكوفيون أن « رأى » يكتب بالياء ، وتابعهم على هذا القول بعض البصريين . فأما البصريون الحذّاق ، منهم محمد بن يزيد فإنهم يكتبونه بالألف . قال النحاس : سمعت عليّ بن سليمان يقول سمعت محمد بن يزيد يقول : لا يجوز أن يكتب مضى ورمى وكل ما كان من ذوات الياء إلا بالألف ، ولا فرق بين ذوات الياء وبين [ذوات][2] الواو في الخط ، كما أنه لا فرق بينهما في اللفظ ، ولو وجب أن يكتب ذوات الياء بالياء لوجب أن يكتب ذوات الواو بالواو ، وهم مع هذا يناقضون فيكتبون رمى بالياء ورماه بالألف ، فإن كانت العلة أنه من ذوات الياء وجب أن يكتبوا رماه بالياء ، ثم يكتبون ضُحًا جمع ضَحْوة ، وكُسًا جمع كِسوة ، وهما من ذوات الواو بالياء ، وهذا ما لا يحصل ولا يثبت على أصل . ﴿ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا ﴾ « فظنّوا » هنا بمعنى اليقين والعلم ، كما قال[3] :

* فقلتُ لهم ظُنُّوا بألْفَيْ مُدَجَّجٍ *

(١) في الأصل يزيد وهو تحريف ؛ والتصويب عن « التهذيب » . (٢) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .

(٣) هو دريد بن الصمة ؛ وتمام البيت : * سراتهم في الفارسي المسرد *

أى أيقنوا؛ وقد تقدّم[1] . قال ٱبن عباس : أيقنوا أنهم مواقعوها . وقيل : رأوها من مكان بعيد فتوهموا أنهم مواقعوها ، وظنوا أنها تأخذهم فى الحال . وفى الخبر : " إن الكافر ليرى جهنم ويظن أنها مواقعته من مسيرة أربعين سنة " . والمواقعة ملابسة الشىء بشدّة . [وعن علقمة أنه قرأ] « فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُلَافُوهَا » أى مجتمعون فيها ، واللَّفَف الجمع .[2] ﴿ وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴾ أى مهربا لإحاطتها بهم من كل جانب . وقال القتبى : مَعْدِلا ينصرفون إليه . وقيـل : ملجأ يلجئـون إليـه ؛ والمعنى واحد . وقيل : ولم تجد الأصنام مصرِفا للنار عن المشركين .

قوله تعالى : وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ ٱلْحَقَّ وَٱتَّخَذُوٓا ءَايَٰتِي وَمَآ أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴿٥٩﴾

---

(١) راجع جـ ١ ص ٣٧٥ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) الزيادة من تفسير « البحر المحيط » .

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما — ما ذكره لهم من العبر والقرون الخالية. الثاني — ما أوضحه لهم من دلائل الربوبية وقد تقدم في «سبحان» (١)؛ فهو على الوجه الأول زجر، وعلى الثاني بيان. ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ أى جدالا ومجادلة، والمراد به النضر بن الحرث وجداله في القرآن. وقيل: الآية في أبيّ بن خلف. وقال الزجاج: أى الكافر أكثر شيء جدلا؛ والدليل على أنه أراد الكافر قوله: « وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ ». وروى أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « يؤتى بالرجل يوم القيامة من الكفار فيقول الله له ما صنعتَ فيما أرسلتُ إليك فيقول رب آمنتُ بك وصدّقت برسلك وعملتُ بكتابك فيقول الله له هذه صحيفتك ليس فيها شيء من ذلك فيقول يارب إني لا أقبل ما في هذه الصحيفة فيقال له هذه الملائكة الحفظة يشهدون عليك فيقول ولا أقبلهم يارب وكيف أقبلهم ولا هم من عندى ولا من جهتى فيقول الله تعالى هذا اللوح المحفوظ أمّ الكتاب قد شهد بذلك فقال يارب ألم تُجرنى من الظلم قال بلى فقال يارب لا أقبل إلا شاهدا عليّ من نفسى فيقول الله تعالى الآن نبعث عليك شاهدا من نفسك فيتفكر من ذا الذى يشهد عليه من نفسه فيختم على فيه ثم تنطق جوارحه بالشرك ثم يُخلَّى بينه وبين الكلام فيدخل النار وإنّ بعضه ليلعن بعضا يقول لأعضائه لعنكنّ الله فعنكنّ كنتُ أناضل فتقول أعضاؤه لعنك الله أفتعلم أن الله تعالى يُكتَم حديثا فذلك قوله تعالى « وكان الإنسان أكثر شيء جدلا » أخرجه مسلم بمعناه من حديث أنس أيضا. وفي صحيح مسلم عن عليّ أن النبي صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة فقال: "ألا تصلّون" فقلت: يارسول الله إنما أنفسنا بيد الله فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا؛ فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قلت له ذلك، ثم سمعته وهو مدبر يضرب فخذه ويقول: «وكان الإنسان أكثر شيء جدلا».

قوله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى ﴾ أى القرآن والإسلام ومحمد عليه الصلاة والسلام. ﴿ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أى سنتنا في إهلاكهم؛

---

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٦٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

أى ما منعهم عن الإيمان إلا حكمى عليهم بذلك ؛ ولو حكمت عليهم بالإيمان آمنوا . وسنة الأوّلين عادة الأوّلين فى عذاب الاستئصال . وقيل: المعنى وما منع الناس أن يؤمنوا إلا طلب أن تأتيهم سنة الأولين فخذف . وسنة الأولين معاينة العذاب ، فطاب المشركون ذلك ، وقالوا : « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ » الآية . ﴿ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قِبَلًا ﴾(١) نصب على الحال ، ومعناه عيانا ؛ قاله ابن عباس . وقال الكلبي : هو السيف يوم بدر . وقال مقاتل : فجأة . وقرأ أبو جعفر وعاصم والأعمش وحمزة ويحيي والكسائى « قُبُلًا » بضمتين أرادوا به أصناف العذاب كلّه ؛ جمع قَبِيل نحو سَبِيل وسُبُل . النحاس : ومذهب الفراء أن « قُبُلا » جمع قَبِيل أى متفرّقا يتلو بعضه بعضا . ويجوز عنده أن يكون المعنى عِيانا . وقال الأعرج : وكانت قراءته « قُبُلًا » معناه جميعا . وقال أبو عمرو : وكانت قراءته « قِبَلًا » ومعناه عِيانا .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ ﴾ أى بالجنة لمن آمن . ﴿ وَمُنْذِرِينَ ﴾ أى مخوّفين بالعذاب من كفر . وقد تقدّم . ﴿ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴾ قيل : نزلت فى المقتسمين ، كانوا يجادلون فى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : ساحر ومجنون وشاعر وكاهن كما تقدّم(٢) . ومعنى « يدحضوا » يزيلوا ويبطلوا . وأصل الدَّحْض الزَّلَق . يقال : دَحَضتْ رِجلُه أى زَلِقت ، تَدْحَض دَحْضًا ، ودَحَضتِ الشمسُ عن كبد السماء زالت ، ودَحَضت حُجّتُه دُحوضا بطَلت ، وأدحضها الله . والإدحاض الإزلاق . وفى وصف الصراط : " ويُضرَب الجسرُ على جهنم وتَحِلُّ(٣) الشفاعةُ فيقولون اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ " قيل : يا رسول الله وما الجسر؟ قال : " دَحْضٌ مَزْلَقة " أى تزلَق فيه القدم . قال طَرَفة :

أبا منذرٍ رُمْتَ الوفاءَ فهِبتَه * وحِدْتَ كما حادَ البعيرُ عن الدَّحْضِ

(١) هذه قراءة « نافع » التى كان يقرأ بها المفسر رحمه الله تعالى .

(٢) راجع ج ١٠ ص ٥٨ طبعة أولى أو ثانية .

(٣) تحل : تقع و يؤذن فيها ، وهو (بكسر الحاء) وقيل : (بضمها) . النووى .

﴿ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي ﴾ يعني القرآن ﴿ وَمَا أُنْذِرُوا ﴾ من الوعيد ﴿ هُزُوًا ﴾ . و «ما» بمعنى المصدر أى والإنذار . وقيل : بمعنى الذى ؛ أى اتخذوا القرآن والذى أنذروا به من الوعيد هزوا أى لعبا وباطلا ؛ وقد تقدّم فى « البقرة »(١) بيانه . وقيل : هو قول أبى جهل فى الزُّبد والتمّر هذا هو الزقّوم . وقيل : هو قولهم فى القرآن هو سحر وأضغاث أحلام وأساطير الأوّلين ، وقالوا للرسول : « هَلْ هَـذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » ، « وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ » و « مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴾ أى لا أحد أظلم لنفسه ممن وعظ بآيات ربه، فتهاون بها وأعرض عن قبولها . ﴿ وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ﴾ أى ترك كفره ومعاصيه فلم يتب منها؛ فالنسيان هنا بمعنى الترك . وقيل : المعنى نسى ما قدّم لنفسه وحصّل من العذاب ؛ والمعنى متقارب . ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴾ بسبب كفرهم ؛ أى نحن منعنا الإيمان من أن يدخل قلوبهم وأسماعهم . ﴿ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى ﴾ أى إلى الإيمان ﴿ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴾ نزل فى قوم معينين ، وهو يردّ على القدرية قولهم ؛ وقد تقدّم معنى هذه الآية فى «سبحان»(٢) وغيرها .

قوله تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ﴾ أى للذنوب . وهذا يختص به أهل الإيمان دون الكفرة بدليل قوله : « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ » . « ذو الرحمة » فيه أربع تأويلات : أحدها — ذو العفو . الثانى — ذو الثواب ؛ وهو على هذين الوجهين مختص بأهل الإيمان دون الكفر . الثالث — ذو النعمة . الرابع — ذو الهدى ؛ وهو على هذين الوجهين يعم أهل الإيمان والكفر، لأنه ينعم فى الدنيا على الكافر كإنعامه على المؤمن . وقد أوضح هداه للكافر كما أوضحه للؤمن و إن آهتدى به المؤمن دون الكافر . ومعنى قوله : ﴿ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا ﴾ أى من الكفر والمعاصى ﴿ لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ﴾ ولكنه يمهل . ﴿ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ ﴾ أى أجل مقدّر يؤخرون إليه . نظيره « لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ » ، « لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ »

(١) راجع ج ٣ ص ١٥٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ١٠ ص ٢٧١ طبعة أولى أو ثانية .

أى إذا حلّ لم يتأخر عنهم إما فى الدنيا وإما فى الآخرة . ﴿ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا ﴾ أى ملجأ؛ قاله ابن عباس وابن زيد، وحكاه الجوهرىّ فى الصحاح . وقد وَأَلَ يَئِلُ وَأْلًا وَوُءُولًا على فُعول أى لجأ، وواءَل منه على فاعل أى طلب النجاة . وقال مجاهد : مَحْرِزا . قتادة : وليًّا . وأبو عبيدة : مَنْجًى . وقيل : مَحِيصا؛ والمعنى واحد . والعرب تقول : لا وَأَلَتْ نفسُه أى لا نَجَت؛ ومنه قول الشاعر :

لا وَأَلَتْ نفسُك خَلَّيْتَها * للعامِرِيَّيْنِ ولم تُكْلَمِ

وقال الأعشى :

وقد أُخَالِسُ رَبَّ البيتِ غَفْلَتَهُ * وقد يُحَاذِرُ منِّى ثم ما يَئِلُ

أى ما ينجو .

قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ « تلك » فى موضع رفع بالابتداء . « القرى » نعت أو بدل . و « أهلكناهم » فى موضع الخبر محمول على المعنى؛ لأن المعنى أهل القرى . ويجوز أن تكون « تلك » فى موضع نصب على [قول](١) من قال : زيدا ضربته ؛ أى وتلك القرى التى قصصنا عليك نبأهم، نحو قُرى عاد وثمود ومدين وقوم لوط أهلكناهم لما ظلموا وكفروا . ﴿ وَجَعَلْنَا لِمُهْلَكِهِمْ(٢) مَوْعِدًا ﴾ أى وقتا معلوما لم تَعْدُه . و « مُهْلَك » من أُهلِكوا . وقرأ عاصم « مَهْلَكهم » بفتح الميم واللام وهو مصدر هَلَك . وأجاز الكسائى والفراء « لِمَهْلِكِهِم » بكسر اللام وفتح الميم . النحاس : [قال الكسائى](٣) وهو أحبّ إلىّ لأنه من هلك . الزجاج : اسم للزمان والتقدير : لوقت مَهْلِكهم، كما يقال : أتت الناقة على مَضْرِبِها(٤) .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ ﴾

---

(١) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس . (٢) هذه قراءة الجمهور كما فى البحر وغيره .
(٣) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس . (٤) ضرب الجمل الناقة يضربها إذا نزا عليها، وأتت الناقة على مضربها : أى على الزمن والوقت الذى ضربها الفحل فيه؛ جعلوا الزمان كالمكان .

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ لَا أَبْرَحُ﴾ الجمهور من العلماء وأهل التاريخ أنه موسى بن عِمران المذكور فى القرآن ليس فيه موسى غيره. وقالت فرقة منها نَوْف البِكَالى : إنه ليس ابن عمران وإنما هو موسى بن منشا بن يوسف بن يعقوب وكان نبيا قبل موسى ابن عمران. وقد ردّ هذا القول ابن عباس فى صحيح البخارى وغيره. وفتاه : هو يوشع بن نون. وقد مضى ذكره فى « المائدة »(١) وآخر « يوسف »(٢) . ومن قال هو ابن منشا فليس الفتى يوشع بن نون . « لَا أَبْرَحُ » أى لا أزال أسير؛ قال الشاعر(٣) :

وأَبرحُ ما أدامَ اللهُ قومِى * بحمد الله مُنْتَطِقًا مُجِيدَا

وقيل : « لَا أَبْرَحُ » لا أفارقك . ﴿حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أى ملتقاهما . قال قتادة : وهو بحر فارس والروم؛ وقاله مجاهد . قال ابن عطية : وهو ذراع يخرج من البحر المحيط من شمال إلى جنوب فى أرض فارس من وراء أَذْرَبِيجان ، فالركن الذى لاجتماع البحرين مما يلى بَرّ الشام هو مجمع البحرين على هذا القول . وقيل : هما بحر الأُرْدُنّ و بحر القُلْزُم . وقيل : مجمع البحرين عند طنجة؛ قاله محمد بن كعب . وروى عن أبيّ بن كعب أنه بأفريقية . وقال السدى : الكُرّ والرَّسّ(٤) بأرمينية . وقال بعض أهل العلم : هو بحر الأندلس من البحر المحيط؛ حكاه النقاش؛ وهذا مما يذكر كثيرا . وقالت فرقة : إنما هما موسى والخضر؛ وهذا قول ضعيف؛ وحكى عن ابن عباس ، ولا يصح؛ فإن الأمر بيِّن من الأحاديث أنه إنما وُسِم له بحر ماء . وسبب هذه القصة ما خرجه الصحيحان عن أبيّ بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن موسى عليه السلام قام خطيبا

---

(١) راجع جـ ٦ ص ١٣٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٧٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٣) هو خداش بن زهير؛ يقول : لا أزال أجنب فرسى جوادا؛ و يقال : إنه أراد قولا يستجاد فى الثناء على قومى . وفى (اللسان) : « على الأعداء » بدل « بحمد الله » .

(٤) الكروالرس : نهران .

فى بنى إسرائيل فسئل أى الناس أعلم فقال أنا فعتَب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه فأوحى الله إليه إن لى عبدًا بمجمع البحرين هو أعلم منك قال موسى يارب فكيف لى به قال تأخذ معك حوتا فتجعله فى مِكْتَل فحيثما فَقَدتَ الحُوت فهو ثَمَّ" وذكر الحديث، واللفظ للبخارى .
وقال ابن عباس : لما ظهر موسى وقومه على أرض مصر أنزل قومه مصر، فلما استقرت بهم الدار أمره الله أن ذكّرهم بأيام الله، فخطب قومه فذكّرهم ما آتاهم الله من الخير والنعمة إذ نجاهم من آل فرعون، وأهلك عدوّهم، واستخلفهم فى الأرض، ثم قال : وكلم الله نبيكم تكليما، واصطفاه لنفسه، وألقى علىّ محبة منه، وآتاكم من كل ما سألتموه، فجعلكم أفضل أهل الأرض، ورزقكم العز بعد الذل، والغنى بعد الفقر، والتوراة بعد أن كنتم جهالا؛ فقال له رجل من بنى إسرائيل : عَرَفنا الذى تقول، فهل على وجه الأرض أحد أعلم منك يانبى الله؟ قال : لا؛ فعتب الله عليه حين لم يرد العلم إليه، فبعث الله جبريل : أن ياموسى وما يدريك أين [أضع][1] علمى ؟ بلى ! إن لى عبدا بمجمع البحرين أعلم منك؛ وذكر الحديث . قال علماؤنا : قوله فى الحديث "هو أعلم منك" أى بأحكام وقائع مفصَّلة، وحُكم نوازل معينة، لا مطلقا، بدليل قول الخضر لموسى : إنك على علم علّمكه الله لا أعلمه أنا، وأنا على علم علّمنيه لا تعلمه أنت، وعلى هذا فيصدق على كل واحد منهما أنه أعلم من الآخر بالنسبة إلى ما يعلمه كل واحد منهما ولا يعلمه الآخر، فلما سمع موسى هذا تشوقت نفسه الفاضلة، وهمته العالية، لتحصيل علم ما لم يعلم، وللقاء من قيل فيه : إنه أعلم منك؛ فعزم فسأل سؤال الذليل بكيف السبيل، فأمر بالارتحال على كل حال . وقيل له احمل معك حوتا مالحا فى مِكْتَل — وهو الزنبيل — فحيث يحيا وتفقده فثَمَّ السبيل، فانطلق مع فتاه لما واتاه، مجتهدا طلبا قائلا : «لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين» . ﴿ أَوْ أَمْضِىَ حُقُباً ﴾ بضم الحاء والقاف وهو الدهر، والجمع أحقاب . وقد تسكن قافه فيقال : حُقْب . وهو ثمانون سنة . ويقال : أكثر من ذلك . والجمع حِقاب . والحِقْبة بكسر الحاء واحدة الحِقَب وهى السنون .

---

(١) الزيادة من كتب التفسير .

الثانيــة — فى هذا من الفقه رحلة العالم فى طلب الازدياد من العلم، والاستعانة على ذلك بالخادم والصاحب، واغتنام لقاء الفضلاء والعلماء وإن بعدت أقطارهم، وذلك كان فى دأب السلف الصالح، وبسبب ذلك وصل المرتحلون إلى الحظ الراجح، وحصلوا على السعى الناجح، فرسخت لهم فى العلوم أقدام، وصح لهم من الذكر والأجر والفضل أفضل الأقسام. قال البخارى: ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد الله بن أنيس فى حديث.

الثالثــة — قوله تعالى: « وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِفَتَاهُ » للعلماء فيه ثلاثة أقوال: أحدها — أنه كان معه يخدمه، والفتى فى كلام العرب الشاب، ولما كان الخدمة أكثر ما يكونون فتيانا قيل للخادم فتى على جهة حسن الأدب، وندبت الشريعة إلى ذلك فى قول النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يقل أحدكم عبدى ولا أمتى وليقل فتاى وفتاتى" فهذا ندبٌ إلى التواضع؛ وقد تقدم هذا فى « يوسف »[1]. والفتى فى الآية هو الخادم وهو يوشع بن نون بن إفرائيم ابن يوسف عليه السلام. ويقال: هو ابن أخت موسى عليه السلام. وقيل: إنما سمى فتى موسى لأنه لزمه ليتعلم منه وإن كان حرا؛ وهذا معنى الأول. وقيل: إنما سماه فتى لأنه قام مقام الفتى وهو العبد، قال الله تعالى: « وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ ٱجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ » وقال: « تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ » قال ابن العربى: فظاهر القرآن يقتضى أنه عبد، وفى الحديث: أنه كان يوشع بن نون. وفى « التفسير » أنه ابن أخته، وهذا كله مما لا يُقطع به، والتوقف فيه أسلم.

الرابعــة — قوله تعالى: « أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا » قال عبد الله بن عمر: والحُقب ثمانون سنة. مجاهد: سبعون خريفا. قتادة: زمان. النحاس: الذى يعرفه أهل اللغة أن الحُقب والحِقبة زمان من الدهر مبهم غير محدود؛ كما أن رهطا وقوما مبهم غير محدود: وجمعه أحقاب.

---

(١) راجع جـ ٩ ص ١٩٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴾ الضمير فى قوله : « بينهما » للبحرين؛ قاله مجاهد . والسَّرَب المسلك ؛ قاله مجاهد . وقال قتادة : جَمَد الماء فصار كالسَّرَب . وجمهور المفسرين أن الحوت بقى موضع سلوكه فارغا ، وأن موسى مشى عليه متبعا للحوت ، حتى أفضى به الطريق إلى جزيرة فى البحر، وفيها وجد الخضر . وظاهر الروايات والكتاب أنه إنما وجد الخضر فى ضفة البحر . وقوله : « نسيا حوتهما » وإنما كان النسيان من الفتى وحده فقيل : المعنى ؛ نسى أن يُعلِم موسى بما رأى من حاله فنسب النسيان إليهما للصحبة ، كقوله تعالى : « يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان » وإنما يخرج من الملح ، وقوله : « يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم » وإنما الرسل من الإنس لا من الجن . وفى البخارى ؛ فقال لفتاه : لا أكلفك إلا أن تخبرنى بحيث يفارقك الحوت ، قال : ما كلفتَ كثيرا؛ فذلك قوله عز وجل : « وإذ قال موسى لفتاه » يوشع بن نون — ليست عن سعيد — قال (١) فبينا هو فى ظل صخرة فى مكانٍ ثَرْيَانَ (٢) إذ تَضَرَّبَ (٣) الحوتُ وموسى نائم

(١) أى قال ابن جريج — هو أحد رواة الحديث — ليست تسمية الفتى عن سعيد بن جبير . (قسطلانى) .

(٢) ثريان : يقال مكان ثريان وأرض ثريا إذا كان فى ترابهما بلل وندى . (٣) تضرب : اضطرب وتحرك إذ حيى فى المكتل .

فقال فتاه : لا أوقظه ؛ حتى إذا آستيقظ نسى أن يخبره ، وتَضَرَّبَ الحوتُ حتى دخل البحر ، فأمسك الله عنــه جِرْيَةَ البحرِ حتى كأنّ أثرَه فى حَجَر ؛ قال لى عمرو[(1)] : هكذا كأنّ أثره فى حَجَر وحَلَّق بين إبهاميه واللتين تَليانِهما . وفى رواية : وأمسك الله عن الحوت جِرْيَة المـاءِ فصار مثل الطاق[(2)] ، فلما آستيقظ نسى صاحبُه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتهما ، حتى إذا كان من الغــد قال موسى لفتاه : « آتِنَا غَدَاءَنَا لَقَــدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا » ولم يجد موسى النَّصَبَ حتى جاوز المكان الذى أمر الله به ، فقال له فتاه : « أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُـوتَ وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ » . وقيل : إن النسيان كان منهما لقوله تعالى : « نَسِيَا » فنسب النسيان إليهما ؛ وذلك أن بدو حمل الحوت كان من موسى لأنه الذى أمر به ، فلما مضيا كان فتاه هو الحامل له حتى أويا إلى الصخرة نزلا ؛ ﴿ فَلَمَّا جَاوَزَا ﴾ يعنى الحوت هناك منسيا — أى متروكا — فلما سأل موسى الغداء نسب الفتى النسيان إلى نفسه عند المخاطبة ، و إنما ذكر الله نسيانهما عند بلوغ مجمع البحرين وهو الصخرة ، فقــد كان موسى شريكا فى النسيان ؛ لأن النسيان التأخير ؛ من ذلك قولهم فى الدعاء : أنسأ الله فى أجلك . فلما مضيا من الصخرة أخّرا حوتهما عن حمــله فلم يحمله واحد منهما ، فجاز أن ينسب إليهما لأنهما مضيا وتركا الحوت .

قوله تعالى : ﴿ آتِنَا غَدَاءَنَا ﴾ فيــه مسئلة واحدة ، وهو آتخاذ الزاد فى الأسفار ، وهو ردٌّ على الصوفية الجهلة الأغمار[(3)] ، الذين يقتحمون المهامه والقِفار ، زعما منهم أن ذلك هو التوكل على الله الواحد القهار ؛ هذا موسى نبى الله وكليمه من أهل الأرض قد آتخذ الزاد مع معرفته بربه ، وتوكله على رب العباد . وفى صحيح البخارى : إن ناسا من أهــل اليمن كانوا يحجون ولا يتزوّدون ، ويقولون : نحن المتوكلون ، فإذا قدموا سألوا الناس ، فأنزل الله تعـالى « وتزودوا » . وقــد مضى هــذا فى « البقرة »[(4)] . واختلف فى زاد موسى ما كان ؛ فقال ابن عباس : كان حوتا مملوحا فى زنبيــل ، وكانا يصيبان منه غداء وعشاء ، فلما آنتهيا إلى

(١) أى قال ابن جريج قال لى عمرو ... الخ . (٢) الطاق : عقد البناء . (٣) الأغمار جمع غمر (بالضم) : وهو الجاهل الغر الذى لم يجرب الأمور . (٤) راجع ﺟ ٢ ص ٤١١ وما بعدها طبعة ثانية .

الصخرة على ساحل البحر، وضع فتاه المكتل، فأصاب الحوت جرى البحر فتحرك الحوت فى المكتل، فقلب المكتل وانسرب الحوت، ونسى الفتى أن يذكر قصة الحوت لموسى. وقيل: إنما كان الحوت دليلا على موضع الخضر لقوله فى الحديث: احمل معك حوتا فى مكتل فحيث فقدت الحوت فهو ثَمّ؛ على هذا فيكون تزوّدا شيئا آخر غير الحوت، وهذا ذكره شيخنا الإمام أبو العباس وآختاره. وقال آبن عطية: قال أبى رضى الله عنه، سمعت أبا الفضل الجوهرى يقول فى وعظه: مشى موسى إلى المناجاة فبقى أربعين يوما لم يحتج إلى طعام، ولما مشى إلى بَشَر لحقه الجوع فى بعض يوم. وقوله: « نَصَبًا » أى تعبا، والنصب التعب والمشقة. وقيل: عنى به هنا الجوع، وفى هذا دليل على جواز الإخبار بما يجده الإنسان من الألم والأمراض، وأن ذلك لا يقدح فى الرضا، ولا فى التسليم للقضاء لكن إذا لم يصدر ذلك عن ضجر ولا سخط. وفى قوله: «وَمَا أَنْسَانِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ» أن مع الفعل بتأويل المصدر، وهو منصوب بدل اشتمال من الضمير فى «أنسانيه» وهو بدل الظاهر من المضمر، أى وما أنسانى ذكره إلا الشيطان؛ وفى مصحف عبد الله «وما أنسانيه أن أذكره إلا الشيطان». وهذا إنما ذكره يوشع فى معرض الآعتذار لقول موسى: لا أكلفك إلا أن تخبرنى بحيث يفارقك الحوت؛ فقال: ما كَلَّفتَ كثيرا؛ فاعتذر بذلك القول.

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾ يحتمل أن يكون من قول يوشع لموسى؛ أى آتخذ الحوت سبيله عجبا للناس. ويحتمل أن يكون قوله: «وآتخذ سبيله فى البحر» تمام الخبر، ثم آستأنف التعجب فقال من نفسه: « عجبا » لهذا الأمر. وموضع العجب أن يكون حوت قد مات فأكل شقّه الأيسر ثم حَيِىَ بعد ذلك. قال أبو شجاع فى كتاب «الطبرى»: رأيته — أتيت به — فإذا هو شقّ حوت وعين واحدة، وشق آخر ليس فيه شىء. قال ابن عطية: وأنا رأيته والشقّ الذى ليس فيه شىء عليه قشرة رقيقة ليست تحتها شوكة. ويحتمل أن يكون قوله: « وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ» إخبارا من الله تعالى، وذلك على وجهين: إما أن يخبر عن موسى أنه آتخذ سبيل الحوت من البحر عجبا، أى تعجب منه. وإمّا أن يخبر

عن الحوت أنه اتخذ سبيله عجبا للناس . ومن غريب ما روى فى البخارى عن ابن عباس من قصص هذه الاية : أن الحوت إنما حي لأنه مسّه ماء عين هناك تدعى عين الحياة، ما مست قط شيئا إلا حَيِي . وفى « التفسير » : إن العلامة كانت أن يحيا الحوت؛ فقيل : لما نزل موسى بعد ما أجهده السفر على صخرة إلى جنبها ماء الحياة أصاب الحوت شيء من ذلك الماء فحيي . وقال الترمذى فى حديثه قال سفيان : يزعم ناس أن تلك الصخرة عندها عين الحياة، ولا يصيب ماؤها شيئا إلا عاش . قال : وكان الحوت قد أكل منه فلما قطر عليه الماء عاش . وذكر صاحب كتاب « العروس » أن موسى عليه السلام توضأ من عين الحياة فقطرت من لحيته على الحوت قطرة فحيي؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِى[(١)] ﴾ أى قال موسى لفتاه أمرُ الحوت وفقدُه هو الذى كنا نطلب ، فإن الرجل الذى جئنا له ثَمَّ ؛ فرجعا يقصّان آثارهما لئلا يخطئا طريقهما . وفى البخارى : فوجدا خضرا على طِنْفِسة خضراء على كَبِد البحر مُسَجًّى بثوبه ، قد جعل طَرَفه تحت رجليه ، وَطَرَفه تحت رأسه ، فسلّم عليه موسى ، فكشف عن وجهه وقال : هل بأرضك من سلام؟! من أنت؟ قال : أنا موسى . قال : موسى بنى إسرائيل؟ قال : نعم . قال : فما شأنك ؟ قال جئتُ لتعلّمنى مما علّمت رشدا ؛ الحديث . وقال الثعلبىّ فى كتاب «العرائس» : إن موسى وفتاه وجدا الخضر وهو نائم على طِنْفِسة خضراء على وجه الماء وهو مُتَشِّح بثوب أخضر فسلّم عليه موسى ، فكشف عن وجهه فقال : وأنَّى بأرضنا السلام؟ ! ثم رفع رأسه واستوى جالسا وقال : وعليك السلام يا نبىّ بنى إسرائيل ، فقال له موسى : وما أدراك بى ؟ ومن أخبرك أنّى نبىّ بنى إسرائيل ؟ قال : الذى أدراك بى ودَلّك علىّ[(٢)] ؛ ثم قال : ياموسى لقد كان لك فى بنى إسرائيل شغل ، قال موسى : إن ربى أرسلنى إليك لأتبعك وأتعلم من علمك ، ثم جلسا يتحدّثان ، فجاءت خُطّافة وحملت بمنقارها من الماء ؛ وذكر الحديث على ما يأتى .

---

(١) فى الأصل : « نبغى » بالياء وهى قراءة «نافع» .　(٢) الذى فى كتاب « العرائس » للثعلبى : «فقال أنا موسى ، فقال : موسى بنى إسرائيل؟ قال نعم ؛ قال : ياموسى لقد كان لك فى بنى إسرائيل شغل ... الخ» ولعل ما هنا زيادة فى بعض النسخ .

قوله تعالى : ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا ﴾ العبد هو الخضر عليه السلام فى قول الجمهور، وبمقتضى الأحاديث الثابتة . وخالف من لا يعتد بقوله، فقال : ليس صاحب موسى بالخضر بل هو عالم آخر . وحكى أيضا هذا القول القشيرى، قال : وقال قوم هو عبد صالح، والصحيح أنه كان الخضر؛ بذلك ورد الخبر عن النبى صلى الله عليه وسلم . وقال مجاهد : سمى الخضر لأنه كان إذا صلى اخضر ما حوله . وروى الترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إنما سُمّى الخضر لأنه جلس على فروة بيضاء فإذا هى تهتز تحته خضراء" هذا حديث صحيح غريب . الفروة هنا وجه الأرض؛ قاله الخطّابى وغيره . والخضر نبىّ عند الجمهور . وقيل : هو عبد صالح غير نبىّ، والآية تشهد بنبوّته؛ لأن بواطن أفعاله لا تكون إلا بوحى . وأيضا فإن الإنسان لا يتعلم ولا يَتّبع إلا من فوقه، وليس يجوز أن يكون فوق النبىّ من ليس بنبىّ . وقيل : كان ملَكا أمر الله موسى أن يأخذ عنه مما حمله من علم الباطن . والأوّل الصحيح؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ الرحمة فى هذه الآية النبوة . وقيل : النعمة . ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴾ أى علم الغيب . ابن عطية : كان علم الخضر علم معرفة بواطنَ قد أوحيت إليه، لا تُعطى ظواهرُ الأحكام أفعالَه بحسبها؛ وكان علم موسى علم الأحكام والفتيا بظاهر أقوال الناس وأفعالهم .

قوله تعالى : قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ » هذا سؤال الملاطف، والمخاطب المستنزل المبالغ فى حسن الأدب، المعنى: هل يتفق لك ويخف عليك؟ وهذا كما فى الحديث: هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ ؟ وعلى بعض التأويلات يجىء كذلك قوله تعالى : « هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ » حسب ما تقدم بيانه فى « المائدة »(١) .

الثانيــة — فى هذه الآية دليل على أن المتعلم تبع للعالم وإن تفاوتت المراتب، ولا يظن أن فى تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل منه ، فقد يشذ عن الفاضل ما يعلمه المفضول، والفضل لمن فضله الله؛ فالخضر إن كان وليا فموسى أفضل منه، لأنه نبيّ والنبي أفضل من الولىّ، وإن كان نبيا فموسى فضله بالرسالة . والله أعلم . « ورشدا » مفعول ثان بـ«ـعلمنى» . ﴿قال﴾ الخضر : ﴿ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴾ أى إنك يا موسى لا تطيق أن تصبر على ما تراه من علمى؛ لأن الظواهر التى هى علمك لا تُعطيه، وكيف تصبر على ما تراه خطأ ولم تُخبَر بوجه الحكمة فيه، ولا طريق الصواب؛ وهو معنى قوله : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ والأنبياء لا يُقرّون على منكر، ولا يجوز لهم التقرير . أى لا يسعك السكوت جريا على عادتك وحُكمك . وآنتصب « خُبْرًا » على التمييز المنقول عن الفاعل . وقيل : على المصدر الملاقى فى المعنى، لأن قوله : « لَمْ تُحِطْ » معناه لم تَخبُرْه، فكأنه قال : لم تَخبره خُبرا؛ وإليه أشار مجاهد . والخبير بالأمور هو العالم بخفاياها وبما يختبر منها .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا ﴾ أى سأصبر بمشيئة الله . ﴿ وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ أى قد ألزمت نفسى طاعتك . وقد آختلف فى الآستثناء، هل هو يشمل قوله : «وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا» أم لا؟ فقيل: يشمله كقوله: « وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ » . وقيــل : آستثنى فى الصبر فصبر، وما آستثنى فى قوله : « وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا » فاعترض

(١) راجع جـ ٦ ص ٣٦٥ طبعة أولى أو ثانية .

وسأل . قال علماؤنا : إنما كان ذلك منه ؛ لأن الصبر أمر مستقبل ولا يدرى كيف يكون حاله فيه، ونفيُ المعصية معزوم عليه حاصل فى الحال، فالآستثناء فيه ينافى العزم عليه . ويمكن أن يفرق بينهما بأن الصبر ليس مكتسبا لنا بخلاف فعل المعصية وتركه ،فإن ذلك كله مكتسب لنا، والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ أى حتى أكون أنا الذى أفسره لك ، وهذا من الخضر تأديب وإرشاد لما يقتضى دوام الصحبة ،فلو صبر ودأب لرأى العجب ،لكنه أكثر من الاعتراض ،فتعين الفراق والإعراض .

قوله تعالى : فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا ﴿٧٣﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — فى صحيح مسلم والبخارى : فانطلقا يمشيان على ساحل البحر ، فمرّت سفينة فكلّموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوه بغير نَوْل ، فلما ركبا فى السفينة لم يَفْجأ [موسى](١) إلا والخضر قد قلع منها لوحا من ألواح السفينة بالقَدُوم، فقال له موسى : قوم حملونا بغير نَوْل عَمَدْتَ إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها « لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا . قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا » . قال : وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "وكانت الأولى من موسى نِسيانا" قال : وجاء عصفور فوقع على حَرْف السفينة فنقر نَقْرة فى البحر، فقال له الخضر : ما علمى وعلمك من علم الله إلا مثل ما نَقَص هذا العصفورُ من هذا البحر . قال علماؤنا : حَرْف السفينة طرفها وحَرْف كل شىء طرفه، [ومنه حرف الجبل](٢) وهو أعلاه المحدّد . والعِلم هنا بمعنى المعلوم، كما قال :

---

(١) الزيادة من البخارى . (٢) الزيادة من كتب اللغة .

« وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ » أى من معلوماته ، وهـذا من الخضر تمثيل ؛ أى معلوماتى ومعلوماتك لا أثرلها فى علم الله ، كما أن ما أخذ هذا العصفور من هذا البحر لا أثرله بالنسبة إلى ماء البحر ، وإنما مثّل له ذلك بالبحر لأنه أكثر ما يشاهده مما بين أيدينا ، وإطلاق لفظ النقص هنا تجوّز قصد به التمثيل والتفهيم ، إذ لا نقص فى علم الله ، ولا نهاية لمعلوماته . وقد أوضح هـذا المعنى البخارى فقال : والله ما علمى وما علمك فى جنب علم الله إلا كما أخذ هذا الطير بمنقاره من البحر . وفى « التفسير » عن أبى العالية : لم يرالخضرَ حين خرق السفينة غيرُ موسى وكان عبدا لا تراه إلا عين من أراد الله له أن يريه ، ولو رآه القوم لمنعوه من خرق السفينة . وقيـل : خرج أهـل السفينة إلى جزيرة ، وتخلف الخضر فخرق السفينة . وقال ابن عباس : لمـا خرق الخضر السفينة تنحى موسى ناحية ، وقال فى نفسه : ما كنت أصنع بمصاحبة هـذا الرجل ! كنت فى بنى إسرائيل أتلو كتاب الله عليهم غدوة وعشيّة فيطيعونى ! قال له الخضر : يا موسى أتريد أن أخبرك بمـا حدّثتَ به نفسك ؟ قال : نعم . قال : كذا وكذا . قال : صدقت ؛ ذكره الثعلبى فى كتاب « العرائس » .

الثانيــــة — فى خرق السفينة دليل على أن للولىّ أن ينقص مال اليتيم إذا رآه صلاحا ، مثل أن يخاف على رَيْعه ظالما فيخرّب بعضَه . وقال أبو يوسف : يجوز للولىّ أن يصانع السلطان ببعض مال اليتيم عن البعض . وقرأ حمـزة والكسائى « لِيَغْرَقَ » باليـاء « أَهْلُهَا » بالرفع فاعل يغرَق ، فاللام على قراءة الجماعة فى « لِتغرِق » لام المآل مثل « لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا » . وعلى قراءة حمزة لام كى ، ولم يقل لتغرقنى ؛ لأن الذى غلب عليـه فى الحـال فرط الشفقة عليهم ، ومراعاة حقهم . و « إِمْرًا » معناه عجبا ؛ قاله القتبىّ . وقيـل : منكرا ؛ قاله مجاهد . وقال أبو عبيدة : الإمر الداهية العظيمة ؛ وأنشد :

قد لَقِىَ الأقرانُ مِنّى نُكْرَا * داهِيــةً دَهْيَاءَ إدًّا إِمْرَا

وقال الأخفش : يقال أَمِرَ أَمْرُه يَأْمَر [أَمْرًا][1] إذا اشتدّ ، والاسم الإِمْر .

---

(١) الزيادة من كتب اللغة .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ ﴾ فى معناه قولان : أحدهما — يروى عن ٱبن عباس، قال : هـذا من معاريض الكلام . والآخر — أنه نسى فاعتذر؛ ففيه ما يدل على أن النسيان لا يقتضى المؤاخذة، وأنه لا يدخل تحت التكليف، ولا يتعلق به حكم طلاق ولا غيره؛ وقد تقدّم . ولو نسى فى الثانية لاعتذر .

قوله تعالى : فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَـٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَىْءٍۭ بَعْدَهَا فَلَا تُصَـٰحِبْنِى قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّى عُذْرًا ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ فَٱنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ ﴾ فى البخارى قال يَعْلَى قال سعيد : وجد غلمانا يلعبون فأخذ غلاما كافرا فأضجعه ثم ذبحه بالسكين، « قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ » لم تعمل بالحِنث[1] . وفى الصحيحين وصحيح الترمذى : ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه بيده فٱقتلعه بيده فقتله ، قال له موسى : «أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا . قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا » قال[2] : وهذه أشد من الأولى . « قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا » . لفظ البخارى . وفى « التفسير » : إن الخضر مرّ بغلمان يلعبون فأخذ بيده غلاما ليس فيهم أضوأ منه ، وأخذ حجرا فضرب به رأسه حتى دَمَغه ، فقتله . قال أبو العالية : لم يره إلا موسى ، ولو رأوه لحالوا بينه وبين الغلام .

---

(١) لأنها لم تبلغ الحلم ، وهو تفسير لقوله : « زكية » أى أقتلت نفسا زكية لم تعمل الحنث بغير نفس . ولأبى ذر : لم تعمل الخبث (بخاء معجمة وموحدة مفتوحتين) . قسطلانى . (٢) هو سفيان بن عيينة ، كما فى القسطلانى . وقيل : كانت هذه أشد من الأولى لما فيها من زيادة « لك » .

قلت : ولا آختلاف بين هذه الأحوال الثلاثة ، فإنه يحتمل أن يكون دَمَغه أوّلا بالحجر، ثم أضجعه فذبحه ، ثم آقتلع رأسه ؛ والله أعلم بما كان من ذلك ؛ وحسبك بما جاء فى الصحيح . وقرأ الجمهور « زَاكِيَةً » بالألف . وقرأ الكوفيون وآبن عامر « زَكِيَّةً » بغير ألف وتشديد الياء ؛ قيل : المعنى واحد ؛ قاله الكسائى . وقال ثعلب : الزكية أبلغ . قال أبو عمرو : الزاكية التى لم تذنب قط ، والزكية التى أذنبت ثم تابت .

قوله تعالى : « غلاما » آختلف العلماء فى الغلام هل كان بالغا أم لا ؟ فقال الكلبى : كان بالغا يقطع الطريق بين قريتين ، وأبوه من عظماء أهل إحدى القريتين ، وأمه من عظماء القرية الأخرى ، فأخذه الخضر فصرعه ، ونزع رأسه عن جسده . قال الكلبى : وآسم الغلام شمعون . وقال الضحاك : حَيْسون . وقال وهب : آسم أبيه سلاس وآسم أمه رُحْمَى . وحكى السهيلى أن اسم أبيه كازير وآسم أمه سهوى . وقال الجمهور : لم يكن بالغا ؛ ولذلك قال موسى زاكية لم تذنب . وهو الذى يقتضيه لفظ الغلام ؛ فإن الغلام فى الرجال يقال على من لم يبلغ ، وتقابله الجارية فى النساء . وكان الخضر قتله لما علم من سِرّه ، وأنه طُبع كافرا كما فى صحيح الحديث ، وأنه لو أدرك لأرهق أبويه كفرا . وقتلُ الصغير غير مستحيل إذا أذن الله فى ذلك ؛ فإن الله تعالى الفعّال لما يريد ، القادر على مايشاء . وفى كتاب « العرائس » إن موسى لما قال للخضر : « أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً » — الآية — غضب الخضر وآقتلع كتف الصبى الأيسر ، وقشر اللحم عنه ، وإذا فى عظم كتفه مكتوب : كافر لا يؤمن بالله أبدا . وقد آحتج أهل القول الأول بأن العرب تبقى على الشاب آسم الغلام ، ومنه قول ليلى الأخيلية[(١)] :

شَفَاهَا من الدَّاءِ العُضَالِ الذِى بِهَا * غُلامٌ إذا هَزَّ القَنَاةَ سَقَاهَا

وقال صفوان لحسان[(٢)] :

تَلَقَّ ذُبَابَ السَّيفِ عَنِّى فإنَّنِى * غُلامٌ إذا هُوجِيتُ لَسْتُ بشاعِرِ

---

(١) البيت من قصيدة مدحت بها الحجاج بن يوسف ؛ وقبله :

إذا نزل الحجاج أرضا مريضة * تتبـع أقصى دائها فشفاها

(٢) قد كان حسان رضى الله عنه قال شعرا يعرض فيه بصفوان بن المعطل وبمن أسلم من العرب من مضر ، فاعترضه آبن المعطل وضربه بالسيف وقال البيت . (راجع القصة فى سيرة ابن هشام) .

وفى الخبر : إن هـذا الغلام كان يفسد فى الأرض، ويقسم لأبويه أنه ما فعل، فيقسمان على قسمه، ويحميانه ممن يطلبه، قالوا وقوله : «بِغَيْرِ نَفْسٍ» يقتضى أنه لوكان عن قتل نفس لم يكن به بأس، وهذا يدل على كِبَر الغلام، وإلا فلوكان لم يحتلم لم يجب قتله بنفس، وإنما جاز قتله لأنه كان بالغا عاصيا . قال ابن عباس : كان شابا يقطع الطريق . وذهب ٱبن جبير إلى أنه بلغ سنّ التكليف لقراءة أُبىّ وٱبن عباس «وأما الغلام فكان كافرا وكان أبواه مؤمنين» والكفر والإيمان من صفات المكلَّفين، ولا يطلق على غير مكلَّف إلا بحكم التبعية لأبويه، وأبوا الغلام كانا مؤمنين بالنص فلا يصدق عليه ٱسم الكافر إلا بالبلوغ، فتعين أن يصار إليه . والغلام من الٱغتلام وهو شدة الشَّبَق .

قوله تعالى : ﴿ نُكْرًا ﴾ ٱختلف الناس أيهما أبلغ «إمرا» أو قوله «نكرا» فقالت فرقة : هذا قَتْلٌ بيِّن، وهناك مُترقَّب، فـ«نكرا» أبلغ . وقالت فرقة : هذا قَتْلُ واحدٍ وذاك قتلُ جماعة فـ«إمرا» أبلغ . قال ٱبن عطية : وعندى أنهما لمعنيين وقوله : «إِمْرًا» أفظع وأهول من حيث هو متوقع عظيم، و«نُكْرًا» بيّن فى الفساد لأن مكروهه قد وقع؛ وهذا بيّن . قوله : ﴿ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي ﴾ شرط وهو لازم، والمسلمون عند شروطهم، وأحقّ الشروط أن يُوفَّى به ما التزمه الأنبياء، والتزم للأنبياء . وقوله : ﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴾ يدل على قيام الٱعتذار بالمرة الواحدة مطلقا، وقيامِ الحجة من المرة الثانية بالقطع؛ قاله ٱبن العربى . ٱبن عطية : ويشبه أن تكون هـذه القصة أيضا أصلا للآجال فى الأحكام التى هى ثلاثة، وأيام المتلوم ثلاثة؛ فتأمله .

قوله تعالى : «فَلَا تُصَاحِبْنِي» كذا قرأ الجمهور؛ أى تتابعنى . وقرأ الأعرج «تَصَّحَبَنِّي» بفتح التاء والباء وتشديد النون . وقرئ «تَصْحَبْنِي» أى تتبعنى . وقرأ يعقوب «تُصْحِبْنِي» بضم التاء وكسر الحاء؛ ورواها سهل عن أبى عمرو؛ قال الكسائى : معناه فلا تتركنى أصحبك . «قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا» أى بلغت مبلغا تعذر به فى ترك مصاحبتى . وقرأ الجمهور : «مِنْ لَدُنِّي» بضم الدال، إلا أن نافعا وعاصما خففا النون، فهى «لدن» ٱتصلت بها ياء

المتكلم التي في غلامي وفرسي ، وكسر ما قبل الياء كما كسر في هذه . وقرأ أبو بكر عن عاصم «لَدْنِي» بفتح اللام وسكون الدال وتخفيف النون . وروى عن عاصم «لُدْنِي» بضم اللام وسكون الدال ؛ قال ابن مجاهد : وهي غلط ؛ قال أبو علي : هذا التغليط يشبه أن يكون من جهة الرواية ، فأما على قياس العربية فهي صحيحة . وقرأ الجمهور «عُذْراً» . وقرأ عيسى «عُذُرا» بضم الذال . وحكى الداني[(١)] أن أبيًّا روى عن النبيّ صلى الله عليه وسلم «عُذْرِي» بكسر الراء وياء بعدها .

مسـألة — أسند الطبريّ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دعا لأحد بدأ بنفسه ، فقال يوما : "رحمة الله علينا وعلى موسى لو صَبَر على صاحبه لرأى العجب ولكنه قال «فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً»". والذي في صحيح مسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "رحمة الله علينا وعلى موسى لولا أنه عَجَّل لرأى العجب ولكنه أخذته من صاحبه ذَمَامة ولو صَبَر لرأى العجب" قال : وكان إذا ذَكَر أحدا من الأنبياء بدأ بنفسه : رحمة الله علينا وعلى أخي كذا . وفي البخاري عن النبيّ صلى الله عليه وسلم قال : "يرحم الله موسى لوددْنا أنه صَبَر حتى يقص علينا من أمرهما" . الذَّمامة بالذال المعجمة المفتوحة ، وهو بمعنى المَذَمَّة بفتح الذال وكسرها ، وهي الرقة والعار من تلك الحرمة : يقال أخذتني منك مَذَمَّة ومَذِمَّة وذَمَامة . وكأنه ٱستحيا من تكرار مخالفته ، ومما صدر عنه من تغليظ الإنكار .

قوله تعالى : فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾

(١) في بعض النسخ : « وحكى الداراني » .

فيه ثلاث عشرة مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ﴾ فى صحيح مسلم عن أبىّ بن كعب عن النبىّ صلى الله عليه وسلم : لئاما؛ فطافا فى المجالس ف﴿ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ ﴾ يقول : مائل قال : ﴿ فَأَقَامَهُۥ ﴾ الخضر بيده قال له موسى : قوم أتيناهم فلم يضيّفونا، ولم يطعمونا ﴿ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا . قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِى وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴾ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "يرحم الله موسى لوَدِدْتُ أنه كان صَبَر حتى يقصّ علينا من أخبارهما" .

الثانيـة — واختلف العلماء فى القرية؛ فقيل : هى أُبُلَّة؛ قاله قتادة، وكذلك قال محمد ابن سيرين، وهى أبخل قرية وأبعدها من السماء . وقيـل : أَنْطاكية . وقيل : بجزيرة الأندلس؛ روى ذلك عن أبى هريرة وغيره، ويذكر أنها الجزيرة الخضراء . وقالت فرقة : هى بَاجَرْوان وهى بناحية أَذْرَبيجان . وحكى السهيلىّ وقال : إنها برقة . الثعلبى : هى قرية من قرى الروم يقال لها ناصرة، وإليها تنسب النصارى؛ وهذا كله بحسب الخلاف فى أى ناحية من الأرض كانت قصة موسى . والله أعلم بحقيقة ذلك .

الثالثـة — كان موسى عليه السلام حين سقى لبنتى شعيب أحوج منه حين أتى القرية مع الخضر، ولم يسأل قوتا بل سقى ٱبتداء، وفى القـرية سألا القوت؛ وفى ذلك للعلماء انفصالات كثيرة؛ منها أن موسى كان فى حديث مَدْين منفردا وفى قصة الخضر تبعا لغيره .

قلت : وعلى هـذا المعنى يتمشى قوله فى أوّل الآية لفتاه « آتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا » فأصابه الجوع مراعاة لصاحبه يوشع؛ والله أعلم .

وقيـل : لمـا كان هـذا سفر تأديب وُكِل إلى تكلّف المشقة، وكان ذلك سـفر هجرة فوكل إلى العون والنصرة بالقوت .

الرابعـة — فى هذه الآية دليل على سؤال القوت، وأن من جاع وجب عليه أن يطلب ما يردّ جوعه خلافا لجهال المتصوفة . والاستطعام سؤال الطعام، والمراد به هنا سؤال الضيافة،

بدليل قوله : « فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا » فآستحق أهل القرية لذلك أن يُذمّوا ، وينسبوا إلى اللؤم والبخل ، كما وصفهم بذلك نبينا عليه الصلاة والسلام . قال قتادة فى هذه الآية : شر القُرَى التى لا تضيف الضيف ولا تعرف لابن السبيل حقّه . ويظهر من ذلك أن الضيافة كانت عليهم واجبة ، وأن الخضر وموسى إنما سألا ما وجب لهما من الضيافة ، وهذا هو الأليق بحال الأنبياء ، ومنصب الفضلاء والأولياء . وقد تقدّم القول فى الضيافة فى «هود»[1] والحمد لله . ويعفو الله عن الحريرى[2] حيث آستخف فى هذه الآية وتمجّن ، وأتى بخطل من القول وزلّ ، فآستدل بها على الكُدْية[3] والإلحاح فيها ، وأن ذلك ليس بمعيب على فاعله ، ولا منقصة عليه ، فقال :

وإنْ رُدِدْتَ فما فى الردِّ مَنقصةٌ * عليكَ قد رُدَّ موسى قبلُ والخَضِرُ

قلت : وهذا لعب بالدين ، وآنسلال عن آحترام النبيين ، وهى شِنْشِنَة أدبية ، وهفوة سخافية ، ويرحم الله السلف الصالح ، فلقد بالغوا فى وصية كل ذى عقل راجح ، فقالوا : مهما كنت لاعبا بشىء فإياك أن تلعب بدينك .

الخامسة — قوله تعالى : « جِدَارًا » الجدار والجَدْر بمعنًى ؛ وفى الخبر : "حتى يبلغ الماء الجدر"[4] . ومكان جَدِيرٌ بُنِى حواليه جدار ، وأصله الرفع . وأجدرت الشجرةُ طلعت ؛ ومنه الجدرى .

السادسة — قوله تعالى : « يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ » أى قرب أن يسقط ، وهذا مجاز وتوسع وقد فسره فى الحديث بقوله : " مائل " فكان فيه دليل على وجود المجاز فى القرآن ، وهو مذهب الجمهور . وجميع الأفعال التى حقها أن تكون للحى الناطق متى أسندت إلى جماد أو بهيمة فإنما هى آستعارة ، أى لو كان مكانهما إنسان لكان ممتثلا لذلك الفعل ، وهذا فى كلام العرب وأشعارها كثير ؛ فمن ذلك قول الأعشى :

---

(١) راجع ج ٩ ص ٦٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٢) هو صاحب المقامات المشهورة ، والبيت الآتى الذى لمح فيه إلى الآية من مقامته « الصعدية » .
(٣) الكدية : تكفف الناس .
(٤) الحديث فى مخاصمة الزبير لرجل من الأنصار فى سيول شريج الحرة فقال صلى الله عليه وسلم : "آسق يا زبير ثم آحبس الماء حتى يرجع إلى الجدر" أراد ما رفع حول المزرعة كالجدار .

أَتَنْتَهُونَ وَلاَ يَنْهَى ذَوِى شَطَطٍ (١) * كالطَّعْنِ يَذهبُ فيه الزيتُ والفُتُلُ

فأضاف النهى إلى الطعن . ومن ذلك قول الآخر :

يُرِيدُ الرمحُ صدرَ أَبِى بَرَاءٍ * ويرغبُ عن دماء بنى عقيل

وقال آخر :

إنَّ دهرا يلفُّ شَمْلِي بِجُمْلٍ * لَزَمَانٌ يَهُمُّ بالإحسانِ

وقال آخر :

فى مهمهٍ فُلِقَت به هاماتُها * فَلْقَ الفئوسِ إذا أردن نُصُولاَ

أى ثبوتا فى الأرض ؛ من قولهم : نَصَل السيفُ إذا ثبَتَ فى الرمية ؛ فشبَّه وقع السيوف على رءوسهم بوقع الفئوس فى الأرض، فإن الفأس يقع فيها ويثبت لايكاد يخرج . وقال حسان بن ثابت :

لو أنّ اللؤمَ يُنسبُ كان عَبْدًا * قبيحَ الوجهِ أعْوَرَ من ثَقِيفِ

وقال عَنْتَرة :

فَازْوَرَّ من وَقْعِ القَنَا بِلَبَانِهِ * وشَكَا إلىّ بعَبْرةٍ وتَحَمْحُمِ

وقد فسّر (٢) هذا المعنى بقوله :

* لوكان يَدْرِى ما المُحَاوَرةُ اشتكى *

وهذا فى هذا المعنى كثير جدا . ومنه قول الناس : إن دارى تنظر إلى دار فلان . وفى الحديث : "اشتكت النارُ إلى ربها" . وذهب قوم إلى منع المجاز فى القرآن ، منهم أبو إسحق الإسْفَراينى وأبو بكر محمد بن داود الأصبهانى وغيرهما ، فإن كلام الله عز وجل وكلام رسوله حمله على الحقيقة أولى بذى الفضل والدِّين ؛ لأنه يقصّ الحق كما أخبر الله تعالى فى كتابه . ومما احتجوا به أن قالوا : لو خاطبنا الله تعالى بالمجاز لزم وصفه بأنه متجوز

(١) الشطط : الجور والظلم ؛ يقول : لا ينهى الظالم عن ظلمه إلا الطعن الجائف الذى يغيب فيه الفتل .

(٢) أى عنترة، وتمام البيت :

* ولكان لو علم الكلامَ مُكلِّمِى *

أيضا ، فإن العدول عن الحقيقة إلى المجاز يقتضى العجز عن الحقيقة ، وهو على الله تعالى محال ؛ قال الله تعالى : « يَوْمَ تَشْهَدُ عليهم أَلْسِنَتُهُمْ وأَيْدِيهِمْ وأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وقال تعالى : « وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ » وقال تعالى : « إذا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا » وقال تعالى : « تَدْعُو مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى » و "اشتكت النار إلى ربها" "واحتجت النار والجنة" وما كان مثلها حقيقة ، وأن خالقها الذى أنطق كل شىء أنطقها . وفى صحيح مسلم من حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم " فيُخْتَم على فِيهِ ويقال لفخذه انطق فتنطق فخذُه ولحمه وعظامه بعمله وذلك لِيُعْذِر (١) من نفسه وذلك المنافق وذلك الذى يَسخط الله عليه". هذا فى الآخرة . وأمّا فى الدنيا ، ففى الترمذى عن أبى سعيد الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " والذى نفسى بيده لا تقومُ الساعةُ حتى تكلم السباع الإنسَ وحتى تُكلِّمَ الرجلَ (٢) عَذَبَةُ سَوْطِهِ وشِراكُ نعله وتُخبره فخذُه بما أَحدثَ أهلهُ مِن بعده " [قال أبو عيسى] : وفى الباب عن أبى هريرة ، وهذا حديث حسن غريب .

السابعة — قوله تعالى : « فَأَقَامَهُ » قيل : هدمه ثم قعد يبنيه ، فقال موسى للخضر : « لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا » لأنه فعلٌ يستحق أجرا . وذكر أبو بكر الأنبارى عن ابن عباس عن أبى بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قرأ « فوجدا فيها جدارا يريد أن ينقض فهدمه ثم قعد يبنيه » قال أبو بكر : وهذا الحديث إن صح سنده فهو جارٍ من الرسول عليه الصلاة والسلام مجرى التفسير للقرآن ، وأن بعض الناقلين أدخل [تفسير] (٣) قرآن فى موضع فَسَرى أن ذلك قرآن نَقَصَ من مصحف عثمان ، على ما قاله بعض الطاعنين . وقال سعيد بن جبير : مسحه بيده وأقامه فقام ، وهذا القول هو الصحيح ، وهو الأشبه بأفعال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، بل والأولياء . وفى بعض الأخبار : إن سُمْك ذلك الحائط كان ثلاثين ذراعا بذراع ذلك القرن ، وطوله على وجه الأرض خمسمائة ذراع ، وعرضه خمسون ذراعا ، فأقامه الخضر

---

(١) ليعذر : بالبناء للفاعل من الإعذار ، والمعنى : ليزيل الله عذره من قبل نفسه .

(٢) الزيادة من صحيح الترمذى .　(٣) زيادة يقتضيها السياق . وفى الأصل : «أدخل قرآنا ... الخ»

عليه السلام أى سوّاه بيده فٱستقام، قاله الثعلبى فى كتاب « العرائس » . فقال موسى للخضر: « لَوْ شِئْتَ لَٱتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا » أى طعاما تأكله ، ففى هذا دليل على كرامات الأولياء، وكذلك ما وصف من أحوال الخضر عليه السلام فى هذا الباب كلها أمور خارقة للعادة ؛ هذا إذا تنزلنا على أنه ولىّ لانبىّ .

وقوله تعالى : « وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِى » يدل على نبوّته وأنه يوحى إليه بالتكليف والأحكام، كما أوحى للأنبياء عليهم الصلاة والسلام غير أنه ليس برسول؛ والله أعلم .

الثامنة — واجب على الإنسان ألا يتعرض للجلوس تحت جدار مائل يخاف سقوطه، بل يسرع فى المشى إذا كان مارا عليه؛ لأن فى حديث النبى عليه الصلاة والسلام "إذا مرّ أحدكم بطِرْبالٍ مائل فليُسرِع المشى" . قال أبو عبيد القاسم بن سلام : كان أبو عبيدة يقول : الطِّرْبال شبيهٌ بالمنظرة من مناظر العجم كهيئة الصّومعة، والبناء المرتفع؛ قال جرير :

أَلْوَى(1) بها شَذْبُ العُرُوقِ مُشَذَّبٌ(2) * فكأنما وَكَنَتْ على طِرْبالِ

يقال منه : وَكَن يَكِن إذا جلس . وفى الصحاح : الطِّرْبال القطعة العالية من الجدار، والصخرة العظيمة المشرفة من الجبل، وطَرَابيل الشام صوامعها . ويقال : طَرْبل بَوْلَه إذا مدّه إلى فوق .

التاسعة — كرامات الأولياء ثابتة، على مادلت عليه الأخبار الثابتة، والآيات المتواترة، ولا ينكرها إلا المبتدع الجاحد، أو الفاسق الحائد؛ فالآيات ما أخبر الله تعالى فى حق مريم من ظهور الفواكه الشتوية فى الصيف، والصيفية فى الشتاء — على ما تقدم — وما ظهر على يدها حيث أمرت النخلة وكانت يابسة فأثمرت، وهى ليست بنبيّة؛ على الخلاف . ويدل عليها ما ظهر على يد الخضر عليه السلام من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار . قال بعض العلماء : ولا يجوز أن يقال كان نبيا؛ لأن إثبات النبوة لا يجوز بأخبار

---

(1) ألوى : ذهب بها حيث أراد .

(2) شذب العروق : ظاهر العروق لقلة اللحم، من قولهم : رجل مشذب أى خفيف قليل اللحم .

الآحاد، لاسيما وقد روى من طريق التواتر — من غير أن يحتمل تأويلا — بإجماع الأمة قوله عليه الصلاة والسلام: "لانبيّ بعدى" وقال تعالى: «وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ» والخضر و[إلياس](١) جميعا باقيان مع هذه الكرامة، فوجب أن يكونا غير نبيين، لأنهما لو كانا نبيين لوجب أن يكون بعد نبينا عليه الصلاة والسلام نبيّ، إلا ما قامت الدلالة فى حديث عيسى أنه ينزل بعده .

قلت : الخضر كان نبيا — على ما تقدم — وليس بعد نبينا عليه الصلاة والسلام نبيّ، أى يدعى النبوة بعده أبدا؛ والله أعلم .

العاشرة — اختلف الناس هل يجوز أن يعلم الولىّ أنه ولىّ أم لا ؟ على قولين : أحدهما — أنه لا يجوز؛ وأن ما يظهر على يديه يجب أن يلاحظه بعين خوف المكر، لأنه لا يأمن أن يكون مكرا واستدراجا له؛ وقد حكى عن السَّرىّ أنه كان يقول : لو أن رجلا دخل بستانا فكلمه من رأس كل شجرة طير بلسان فصيح : السلام عليك يا ولىّ الله؛ فلو لم يخف أن يكون ذلك مكرا لكان ممكورا به؛ ولأنه لو علم أنه ولىّ لزال عنه الخوف، وحصل له الأمن . ومن شرط الولىّ أن يستديم الخوف إلى أن تتنزل عليه الملائكة، كما قال عز وجل: «تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا» ولأن الولىّ من كان مختوما له بالسعادة، والعواقب مستورة ولا يدرى أحد ما يختم له به؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : "إنما الأعمال بالخواتيم".
القول الثانى — أنه يجوز للولىّ أن يعلم أنه ولىّ؛ ألا ترى أن النبى عليه الصلاة والسلام يجوز أن يعلم أنه ولىّ، ولا خلاف أنه يجوز لغيره أن يعلم أنه ولىّ الله تعالى، فجاز له أن يعلم ذلك . وقد أخبر النبى عليه الصلاة والسلام من حال العَشرة من أصحابه أنهم من أهل الجنة، ثم لم يكن فى ذلك زوال خوفهم، بل كانوا أكثر تعظيما لله سبحانه وتعالى، وأشد خوفا وهيبة؛ فإذا جاز للعشرة ذلك ولم يخرجهم عن الخوف فكذلك غيرهم . وكان الشبلىّ يقول : أنا أَمَانُ هذا الجانب؛ فلما مات ودُفن عبر الديلم دجلة ذلك اليوم، وآستولوا على بغداد، ويقول الناس : مصيبتان موت الشبلىّ وعبور الديلم . ولا يقال : إنه يحتمل أن يكون ذلك آستدراجا لأنه

(١) فى الأصل : «دانيال» وهو تحريف .

لو جاز ذلك لجاز ألا يعرف النبي أنه نبيّ وولى الله، لجواز أن يكون ذلك آستدراجا، فلما لم يجز ذلك لأن فيه إبطال المعجزات لم يجز هذا، لأن فيه إبطال الكرامات . وما روى من ظهور الكرامات على يدى بلعام وآنسلاخه عن الدين بعدها لقوله : «فانسلخ منها» فليس فى الآية أنه كان وليا ثم آنسلخت عنه الولاية . وما نقل أنه ظهر على يديه ما يجرى مجرى الكرامات هو أخبار آحاد لا توجب العلم؛ والله أعلم . والفرق بين المعجزة والكرامة أن الكرامة من شرطها الآستتار، والمعجزة من شرطها الإظهار . وقيل : الكرامة ما تظهر من غير دعوى، والمعجزة ما تظهر عند دعوى الأنبياء، فيطالبون بالبرهان فيظهر أثر ذلك . وقد تقدم فى مقدّمة الكتاب شرائط المعجزة، والحمد لله تعالى وحده لا شريك له . وأما الأحاديث الواردة فى الدلالة على ثبوت الكرامات، فمن ذلك ما خرجه البخارى من حديث أبى هريرة قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة رَهْط سَرِيّةً عَيْناً وأَمَّر(١) عليهم عاصمَ بن ثابت الأنصارىّ(٢) وهو جدّ عاصم بن عمر بن الخطاب رضى الله عنه، فانطلقوا حتى إذا كانوا بالهَدْأَة وهى بين عُسفان ومكة ذُكِروا لحىٍّ من هُذَيْل يقال لهم بنو لحيان، فنفروا إليهم قريبا من مائتى راجل كلهم رام، فاقتصُّوا آثارهم حتى وجدوا مأكلهم تمرا تزودوه من المدينة، فقالوا : هذا تمر يثرب؛ فآقتصوا آثارهم، فلما رآهم عاصم وأصحابه لجئوا إلى فَدْفَد(٣)، وأحاط بهم القوم، فقالوا لهم : آنزلوا فأعطونا أيديكم ولكم العهد والميثاق ألا نقتل منكم أحدا؛ فقال عاصم بن ثابت أمير السريّة : أما فوالله لا أنزل اليوم فى ذمة الكافر، اللهم أخبر عنا نبيّك، فرَمَوا بالنّبل فقتلوا عاصما فى سبعة، فنزل إليهم ثلاثة رهط بالعهد والميثاق، وهم خُبَيْب الأنصارىّ وآبن الدَّثِنة ورجل آخر(٤)، فلما آستمكنوا منهم أطلقوا أوتار قسيهم فأوثقوهم، فقال الرجل الثالث : هذا أوّل الغدر ! والله لا أصحبكم؛ إن لى فى هؤلاء لأسوة — يريد القتلى — فجرّروه وعالجوه على أن يصحبهم فلم يفعل فقتلوه؛ فآنطلقوا بخُبيب وآبن الدَّثِنة حتى باعوهما بمكة بعد وقعة بدر، فابتاع خُبيبا بنو الحرث بن عامر بن نوفل بن عبد مناف، وكان خُبيب هو الذى قتل الحرث بن

(١) وقيل : أمر عليهم مرثد بن أبى مرثد الغنوى . (٢) قال القسطلانى : هذا وهم؛ وإنما هو خال عاصم، لأن أم عاصم جميلة بنت ثابت. (٣) فدفد : رابية مشرفة. (٤) الرجل الآخر هو عبدالله بن طارق.

عامر يوم بدر ، فلبث خُبيب عندهم أسيرا ؛ فأخبر عبيد الله بن عياض أن بنت الحرث أخبرته أنهم حين آجتمعوا آستعار منها موسى يَسْتحِدُّ بها فأعارته ، فأخذ آبنٌ لى وأنا غافلة حتى أتاه ، قالت : فوجدته مُجلسَه على فخذه والموسى بيده ، ففزعتُ فزعة عرفها خُبيب فى وجهى ؛ فقال : أتخشَيْن أن أقتله ؟ ما كنت لأفعل ذلك . قالت : والله ما رأيت أسيرا قطّ خيرا من خُبيب ؛ والله لقد وجدته يوما يأكل قِطْف عنب فى يده ، وإنه لموثق بالحديد وما بمكة من ثمر ؛ وكانت تقول : إنه لرزق رزقه الله تعالى خُبيبا ؛ فلما خرجوا به من الحرم ليقتلوه فى الحلّ قال لهم خُبيب : دعونى أركع ركعتين ؛ فتركوه فركع ركعتين ثم قال : لولا أن تظنوا أن ما بى جزع من الموت لزدت ؛ ثم قال : اللهــمَّ أَحْصِهم عددا ، وآقتلهم بَدَدًا ، ولا تُبْق منهم أحدا ؛ ثم قال :

ولست أبالِي حِينَ أُقْتَــلُ مُسْلِماً * على أىِّ شِــقٍّ كان لِله مَصْرَعِى
وذلك فى ذاتِ الإلهِ وإنْ يَشَــأْ * يبارِكْ على أوصالِ شِــلْوٍ مُمَزَّعِ

فقتله بنو الحرث ، وكان خُبيب هو الذى سنّ الركعتين لكل آمرئ مسلم قُتل صَبْرًا ؛ فآستجاب الله تعالى لعاصم يوم أصيب ؛ فأُخبر النبىّ عليه الصلاة والسلام وأصحابه خبرهم وما أصيبوا . وبعث ناسٌ من كفار قريش إلى عاصم حين حُدّثوا أنه قتل ليؤتوا بشىء منه يعرفونه ، وكان قد قتل رجلا من عظمائهم يوم بدر ؛ فبعث الله على عاصم مثل الظُّلَّة من الدَّبْر(١) فحمته من رُسلهم ، فلم يقدروا على أن يقطعوا من لحمه شيئا . وقال ابن إسحق فى هذه القصة : وقد كانت هذيل حين قتِل عاصم بن ثابت أرادوا رأسه ليبيعوه من سُلَافة بنت سعد بن شُهَيْد ، وقد كانت نذرت حين أصاب آبنيها بأُحُد لئن قَدَرتْ على رأسه لتشربَنّ فى قِحْفِهِ(٢) الخمر فمنعهم الدَّبْر ، فلما حالت بينه وبينهم قالوا : دعوه حتى يُمسِى فتذهب عنه فنأخذه ، فبعث الله تعالى الوادى فآحتمل عاصما فذهب ، وقد كان عاصم أعطى الله تعالى عهدا ألّا يمسّ مشركا ولا يمسّه مشركٌ أبدا فى حياته ، فمنعه الله تعالى بعد وفاته مما آمتنع منه فى حياته . وعن عمرو بن أمية الضَّمْرِىّ :

---

(١) الدبر : الزنابير أو ذكور النحل . (٢) القحف : الجمجمة .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعثه عينا وحده فقال : جئت إلى خشبة خُبَيب فرقيت فيها وأنا أتخوف العيون فأطلقته ، فوقع فى الأرض ، ثم اقتحمت فانتبذت قليلا ، ثم ٱلتفت فكأنما ٱبتلعته الأرض . وفى رواية أخرى زيادة : فلم نذكر لخبيب رِمّة حتى الساعة ؛ ذكره البيهقى .

الحادية عشرة — ولا ينكر أن يكون للولىّ مال وضَيْعة يصون بها ماله وعياله ، وحسبك بالصحابة وأموالهم مع ولايتهم وفضلهم ، وهم الحجة على غيرهم . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : " بينما رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتا فى سحابةٍ ٱسقِ حديقةَ فلان فتنحّى ذلك السَّحابُ فأفرغَ ماءَه فى حَرَّةٍ (١) فإذا شَرْجَةَ من تلك الشِّراج قد ٱستوعبت ذلك الماء كلَّه فتتبع الماءَ فإذا رجلٌ قائم فى حديقته يُحوِّل الماءَ بمسحاته (٢) فقال يا عبد الله ما ٱسمك قال فلان الاسم الذى سمعه فى السّحابة فقال له يا عبد الله لم سألتنى عن ٱسمى قال إنى سمعت صوتا فى السحاب الذى هذا ماؤه يقول ٱسق حديقة فلان لاسمك فما تصنع فيها قال أمّا إذ قلتَ هذا فإنى أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه وآكل أنا وعيالى ثلثا وأرد فيها ثلثه " وفى رواية " وأجعل ثلثه فى المساكين والسائلين وٱبن السبيل " .

قلت : وهذا الحديث لا يناقضه قوله عليه الصلاة والسلام : " لا تتخذوا الضَّيْعة فتركنوا إلى الدنيا " خرجه الترمذى من حديث ابن مسعود وقال فيه حديث حسن ؛ فإنه محمول على من ٱتخذها مستكثرا أو متنعما ومتمتعا بزهرتها ، وأما من ٱتخذها معاشا يصون بها دينه وعياله فاتخاذها بهذه النية من أفضل الأعمال ، وهى من أفضل الأموال ؛ قال عليه الصلاة والسلام : " نعم المال الصالح للرجل الصالح " . وقد أكثر الناس فى كرامات الأولياء وما ذكرناه فيه كفاية ؛ والله الموفق للهداية .

الثانية عشرة — قوله تعالى : « لَٱتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا » فيه دليل على صحة جواز الإجارة ، وهى سنة الأنبياء والأولياء على ما يأتى بيانه فى سورة « القصص » (٣) إن شاء الله تعالى . وقرأ الجمهور « لَٱتَّخَذْتَ » وأبو عمرو « لَتَخِذْتَ » وهى قراءة ابن مسعود والحسن وقتادة ، وهما

(١) حرة : أرض ذات حجارة سود . والشرجة : طريق الماء ومسيله . (٢) المسحاة : المجرفة من الحديد .
(٣) فى تفسير قوله تعالى : « قالت إحداهما يا أبت ٱستأجره ... الخ » آية ٢٦

لغتان بمعنى واحد من الأخذ، مثل قولك : تَبِـع واتّبع ،وتَقِى واتّقى . وأدغم بعض القراء الذال في التاء، ولم يدغمها بعضهـم . وفي حديث أبيّ بن كعب : لو شئت لأوتيت أجرا . وهذه صدرت من موسى سؤالا على جهة العَرْض لا الاعتراض، فعند ذلك قال له الخضر : « هَذا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ » بحكم ما شرطت على نفسك. وتكريره « بيني وبينك » وعدوله عن بيننا لمعنى التأكيد . قال سيبويه : كما يقال أخزى الله الكاذب مني ومنك؛ أي منّا . وقال ابن عباس : وكان قول موسى في السفينة والغلام لله، وكان قوله في الجدار لنفسه لطلب شيء من الدنيا، فكان سبب الفراق. وقال وهب بن مُنَبِّه : كان ذلك الجدار جدارا طوله في السماء مائة ذراع .

الثالثة عشرة — قوله تعالى : « سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا » تأويل الشيء مآله ؛ أي قال له : إني أخبرك لم فعلتُ ما فعلتُ . وقيل في تفسير هذه الآيات التي وقعت لموسى مع الخضر : إنها حُجّة على موسى ، وعجبا له . وذلك أنه لما أنكر أمر خرق السفينة نودي : يا موسى أين كان تدبيرك هـذا وأنت في التابوت مطروحا في اليم ! فلما أنكر أمر الغلام قيل له : أين إنكارك هذا من وكزك القبطي وقضائك عليه ! فلما أنكر إقامة الجدار نودي : أين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر !

قوله تعالى : أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَٰكِينَ يَعْمَلُونَ فِي ٱلْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ ﴾ آستدل بهذا من قال : إن المسكين أحسن حالا من الفقير ، وقد مضى هـذا المعنى مستوفى فى سـورة « براءة »[1] .
وقد قيل : إنهـم كانوا تجارا ولكن من حيث هم مسافرون عن قـلّة فى لجـة بحر ، وبحال ضعف عن مدافعـة خطب عَبَّر عنهم بمساكين ؛ إذ هم فى حالة يُشْـفَق عليهم بسببها ، وهذا كما تقـول لرجل غنىّ وقع فى وَهْـلَة أو خَطْب : مسـكينٌ . وقال كعب وغيره : كانت لعشرة إخـوة من المساكين ورثوها من أبيهم ؛ خمسـة زَمْنَى ، وخمسة يعملون فى البحر . وقيـل : كانوا سـبعة لكل واحد منهم زَمَانة ليست بالآخر . وقـد ذكر النقاش أسماءهم ؛ فأما العمال منهـم فأحدهم كان مجذوما ، والثـانى أعور ، والثالث أعرج ، والرابع آدر ، والخامس محموما لا تنقطع عنـه الحمى الدهر كله وهو أصغرهم ؛ والخمسـة الذين لا يطيقون العمل : أعمى وأصم وأخرس ومقعد ومجنون ، وكان البحر الذى يعملون فيـه ما بين فارس والروم ؛ ذكره الثعلبى . وقرأت فرقة : « لِمَسَّاكِينَ » بتشديد السين ، وآختلف فى ذلك فقيل : هم مَلَّاحو السفينة ، وذلك أن المَسّاك هو الذى يمسك رجل السفينة ، وكل الخدمة تصلح لإمساكه فسمى الجميع مسّاكين . وقالت فرقـة : أراد بالمسّاكين دبغة المُسُوك وهى الجلود واحدها مَسْك . والأظهر قراءة « مساكين » بالتخفيف جمع مسكين ، وأن معناها : إن السفينة لقوم ضعفاء ينبغى أن يشفق عليهم . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا ﴾ أى أجعلها ذات عيب ، يقـال : عِبتُ الشىء فعاب إذا صار ذا عَيب ، فهو معِيب وعائب . وقوله : ﴿ وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴾ قرأ ابن عباس وابن جبير « صَحِيحةٍ » وقرأ أيضا آبن عبـاس وعثمان بن عفان « صالحةٍ » . و « وراء » أصلها بمعنى خلف ؛ فقال بعض المفسرين : إنه كان خلفه وكان رجوعهم عليه . والأكثر على أن معنى « وراء » هنا أمام ؛ يَعضُده قراءة آبن عباس وآبن جبير « وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَحِيحَةٍ غَصْبًا » . قال ابن عطية : « وراءهم » هو عنـدى على بابه ؛ وذلك

(١) راجع جـ ٨ ص ١٦٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

أن هذه الألفاظ إنما تجيء مراعى بها الزمان ، وذلك أن الحدث المقدم الموجود هو الأمام، والذى يأتى بعده هو الوراء وهو ما خلف ، وذلك بخلاف ما يظهر بادى الرأى، وتأمل هذه الألفاظ فى مواضعها حيث وردت تجدها تطرد ، فهذه الآية معناها : إن هؤلاء وعملهم وسعيهم يأتى بعده فى الزمان غصب هذا الملك؛ ومن قرأ «أمامهم» أراد فى المكان، أى كأنهم يسيرون إلى بلد، وقوله عليه الصلاة والسلام : " الصلاةُ أمامك "(١) يريد فى المكان، و إلا فكونهم فى ذلك الوقت كان أمام الصلاة فى الزمان؛ وتأمل هذه المقالة فإنها مريحة من شغب هذه الألفاظ؛ ووقع لقتادة فى كتاب الطبرى «وكان وراءهم ملك» قال قتادة : أمامهم ألا تراه يقول : مِن « ورائِهِم جهنم » وهى بين أيديهم؛ وهذا القول غير مستقيم، وهذه هى العجمة التى كان الحسن بن أبى الحسن يضجّ منها؛ قاله الزجاج .

قلت : وما آختاره هذا الإمام قد سبقه إليه فى ذلك آبن عرفة؛ قال الهَرَوى: قال آبن عرفة : يقول القائل كيف قال «من ورائه» وهى أمامه؟ فزعم أبو عبيد وأبو علىّ قُطْرُب أن هذا من الأضداد، وأن وراء فى معنى قدام، وهذا غير محصّل ؛ لأن أمام ضد وراء، و إنما يصلح هذا فى الأوقات، كقولك للرجل إذا وعد وعدا فى رجب لرمضان ثم قال : ومن ورائك شعبان لجاز و إن كان أمامه، لأنه يخلفه إلى وقت وعده؛ وأشار إلى هذا القول أيضا القشيرى وقال : إنما يقال هذا فى الأوقات ، ولا يقال للرجل أمامك إنه وراءك؛ قال الفراء : وجوزه غيره؛ والقوم ما كانوا عالمين بخبر الملك ، فأخبر الله تعالى الخضر حتى عَيَّب السفينة ؛ وذكره الزجاج . وقال الماوردىّ : آختلف أهل العربية فى آستعمال وراء موضع أمام على ثلاثة أقوال : أحدها — يجوز آستعمالها بكل حال وفى كل مكان وهو من الأضداد قال الله تعالى : «وَمِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ»(٢) أى من أمامهم : وقال الشاعر :

أَترجو بَنُو مَرْوانَ سَمْعِى وطاعَتى * وقَوْمِى تَمِيمٌ والفَلَاةُ وَرَائِيَا

(١) الحديث فى الجمع بين المغرب والعشاء بالمزدلفة .

(٢) هو سوار بن المضرب .

يعنى أمامى . والثانى — أن وراء تستعمل فى موضع أمام فى المواقيت والأزمان لأن الإنسان يَجُوزها فتصير وراءه ولا يجوز فى غيرها . الثالث — أنه يجوز فى الأجسام التى لا وجه لها كحجرين متقابلين كل واحد منهما وراء الآخر ولا يجوز فى غيرها؛ وهذا قول على بن عيسى . واختلف فى اسم هذا الملك فقيل : هُدَد بن بُدَد . وقيل : الجَلَنْدى؛ وقاله السهيلى . وذكر البخارى اسم الملك الآخذ لكل سفينة غصبا فقال : هو [هُدَد بن بُدَد والغلام المقتول] اسمه جَيْسور(١)، وهكذا قيدناه فى «الجامع» من رواية يزيد المَرْوزىّ، وفى غير هذه الرواية حَيْسور بالحاء وعندى فى حاشية الكتاب رواية ثالثة : وهى حَيْسون . وكان يأخذ كل سفينة جيدة غصبا فلذلك عابها الخضر وخرقها؛ ففى هذا من الفقه العمل بالمصالح إذا تحقق وجهها، وجواز إصلاح كل المال بإفساد بعضه، وقد تقدّم . وفى صحيح مسلم وجه الحكمة بخرق السفينة وذلك قوله : فإذا جاء الذى يسخرها وجدها منخرقة فتجاوزها، فأصلحوها بخشبة؛ الحديث . وتحصّل من هذا الحضّ على الصبر فى الشدائد، فكم فى ضمن ذلك المكروه من الفوائد، وهذا معنى قوله : « وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ » .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ ﴾ جاء فى صحيح الحديث : "أنه طُبع يوم طُبع كافرا" وهذا يؤيّد ظاهره أنه غير بالغ، ويحتمل أن يكون خبرا عنه مع كونه بالغا؛ وقد تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا ﴾ قيل : هو من كلام الخضر عليه السلام، وهو الذى يشهد له سياق الكلام، وهو قول كثير من المفسرين؛ أى خفنا أن يرهقهما طغيانا وكفرا، وكان الله قد أباح له الاجتهاد فى قتل النفوس على هذه الجهة . وقيل : هو من كلام الله تعالى وعنه عبّر الخضر؛ قال الطبرىّ : معناه فعلمنا؛ وكذا قال ابن عباس أى فعلمنا، وهذا كما كنى عن العلم بالخوف فى قوله : « إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ » . وحكى أن أُبيًّا قرأ « فَعَلِمَ ربك» . وقيل : الخشية بمعنى الكراهة؛ يقال : فرّقت بينهما خشية أن يقتتلا؛ أى كراهة

(١) الزيادة من صحيح البخارى .

ذلك . قال ابن عطية : والأظهر عندى فى توجيه هذا التأويل وإن كان اللفظ يدافعه أنها آستعارة، أى على ظن المخلوقين والمخاطبين لو علموا حاله لوقعت منهم خشية الرهق للأبوين. وقرأ ابن مسعود «نخاف ربك» وهذا بين فى الآستعارة، وهذا نظير ما وقع فى القرآن فى جهة الله تعالى من لعل وعسى وأن جميع ما فى هذا كله من ترجٍّ وتوقع وخوف وخشية إنما هو بحسبكم أيها المخاطبون . و «يرهقهما» يجشّمهما ويكلّفهما؛ والمعنى أن يلقيهما حبّه فى آتّباعه فيضلّا ويتدينا بدينه .

قوله تعالى : ﴿فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾ قرأ الجمهور بفتح الباء وشد الدال. وقرأ عاصم بسكون الباء وتخفيف الدال؛ أى أن يرزقهما الله ولدا . ﴿خَيْراً مِنْهُ زَكَاةً﴾ أى دينا وصلاحا؛ يقال : بدّل وأبدل مثل مهّل وأمهل ونزّل وأنزل . ﴿وَأَقْرَبَ رُحْماً﴾ قرأ ابن عباس «رُحُماً» بالضم ، قال الشاعر :

وكيف بظلم جاريةٍ * ومنها اللِّينُ والرُّحُمُ

الباقون بسكونها؛ ومنه قول رُؤْبَة بن العجّاج :

يا مُنزِلَ الرُّحْمِ على إدريسَا * ومُنْزِلَ اللّعْنِ على إبليسَا

وآختلف عن أبى عمرو . و «رحما» معطوف على «زكاة» أى رحمة؛ يقال : رَحِمه رحمة ورحما؛ وألفه للتأنيث، ومذكره رُحْم . وقيل : الرُّحم هنا بمعنى الرَّحِم؛ قرأها آبن عباس «وأوصل رُحْماً» أى رَحِما ، وقرأ أيضا «أزكى منه» . وعن آبن جبير وآبن جريج أنهما بُدِّلا جارية؛ قال الكلبى فتزوجها نبى من الأنبياء فولدت له نبيا فهدى الله تعالى على يديه أمة من الأمم . قتادة : ولدت آثنى عشر نبيا . وعن ابن جريج أيضا أنّ أمّ الغلام يوم قتل كانت حاملا بغلام مسلم وكان المقتول كافرا . وعن آبن عباس : فولدت جارية ولدت نبيا؛ وفى رواية : أبدلها الله به جارية ولدت سبعين نبيا؛ وقاله جعفر بن محمد عن أبيه؛ قال علماؤنا : وهذا بعيد ولا تُعرف كثرة الأنبياء إلا فى بنى إسرائيل، وهذه المرأة لم تكن فيهم ؛ ويستفاد من هذه الآية تهوين المصائب بفقد الأولاد وإن كانوا قطعا من الأكباد، ومن سلّم للقضاء

أسفرت عاقبته عن اليد البيضاء . قال قتادة : لقد فرح به أبواه حين وُلد وحَزِنا عليه حين قُتل، ولو بقى كان فيه هلاكهما، فالواجب على كل آمرئ الرضا بقضاء الله تعالى، فإن قضاء الله للؤمن فيما يكره خير له من قضائه له فيما يحب .

قوله تعالى : ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ ﴾ هذان الغلامان صغيران بقرينة وصفهما باليتم، واسمهما أصرم وصريم . وقد قال عليه الصلاة والسلام : "لا يُتْم بعد بلوغ" هذا هو الظاهر . وقد يحتمل أن يبقى عليهما آسم اليتم بعد البلوغ إن كانا يتيمين، على معنى الشفقة عليهما . وقد تقدم[1] أن اليتم فى الناس من قِبل فقد الأب؛ وفى غيرهم من الحيوان من قبل فَقْد الأم . ودل قوله : « فى المدينة » على أن القرية تسمى مدينة؛ ومنه الحديث "أُمِرتُ بقرية تأكل القُرَى"[2] وفى حديث الهجرة "لمن أنت" فقال الرجل : من أهل المدينة؛ يعنى مكة .

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا ﴾ آختلف الناس فى الكنز؛ فقال عِكرِمة وقتادة : كان مالا جسيما وهو الظاهر من آسم الكنز إذ هو فى اللغة المال المجموع؛ وقد مضى القول[3] فيه . وقال ابن عباس : كان عِلما فى صحف مدفونة . وعنه أيضا قال : كان لوحا من ذهب مكتوبا فيه بسم الله الرحمن الرحيم، عجبت لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، عجبت لمن يؤمن بالرزق كيف يتعب، عجبت لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، عجبت لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، عجبت لمن يؤمن بالدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن لها، لا إله إلا الله محمد رسول الله . وروى نحوه عن عكرمة وعمر مولى غُفْرة، ورواه عثمان بن عفان رضى الله عنه عن النبيّ صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا ﴾ ظاهر اللفظ والسابق منه أنه والدهما دِنْية[4] . وقيل : هو الأب السابع؛ قاله جعفر بن محمد . وقيل : العاشر فحُفِظا فيه وإن لم يُذْكَر بصلاح؛ وكان يسمى كاشحا؛ قاله مقاتل . وآسم أمهما دنيا[5]؛ ذكره النقاش . ففيه ما يدل على أن الله تعالى

(١) راجع جـ ٢ ص ١٤ طبعة ثانية . (٢) القرية هى مدينة الرسول عليه الصلاة والسلام ، ومعنى أكلها القرى ما يفتح على أيدى أهلها من المدن ، و يصيبون من غنائمها . (٣) راجع جـ ٨ ص ١٢٣ طبعة أولى أو ثانية . (٤) دنية : لحا ، وهو الأب الأقرب . (٥) فى روح المعانى : دهنا .

يحفظ الصالح فى نفسه وفى ولده وإن بعدوا عنه . وقد روى أن الله تعالى يحفظ الصالح فى سبعة من ذريته؛ وعلى هذا يدل قوله تعالى : « إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ » .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ﴾ يقتضى أن الخضر نبى ؛ وقد تقدم الخلاف فى ذلك . ﴿ ذَلِكَ تَأْوِيلُ ﴾ أى تفسير . ﴿ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً ﴾ قرأت فرقة «تَسْتَطِعْ» . وقرأ الجمهور «تَسْطِعْ» قال أبو حاتم : كذا نقرأ كما فى خط المصحف . وهنا خمس مسائل :

الأولى — إن قال قائل لم يسمع لفتى موسى ذكر فى أوّل الآية ولا فى آخرها ، قيل له : آختلف فى ذلك؛ فقال عكرمة لابن عباس : لم يسمع لفتى موسى بذكر وقد كان معه؟ فقال : شرب الفتى من الماء فخلّد ، وأخذه العالم فطبّق عليه سفينة ثم أرسله فى البحر ، وإنها لتموج به فيه إلى يوم القيامة ، وذلك أنه لم يكن له أن يشرب منه فشرب منه . قال القشيرى : وهذا إن ثبت فليس الفتى يوشع بن نون؛ فإن يوشع بن نون قد عُمّر بعد موسى وكان خليفته؛ والأظهر أن موسى صرف فتاه لما لقى الخضر . وقال شيخنا الإمام أبو العباس : يحتمل أن يكون آكتفى بذكر المتبوع عن التابع ؛ والله أعلم .

الثانية — إن قال قائل : كيف أضاف الخضر قصة استخراج كنز الغلامين لله تعالى ، وقال فى خرق السفينة : « فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا » فأضاف العيب إلى نفسه ؟ قيل له : إنما أسند الإرادة فى الجدار إلى الله تعالى لأنها فى أمر مستأنف فى زمن طويل غيب من الغيوب ، فحسن إفراد هذا الموضع بذكر الله تعالى ، وإن كان الخضر قد أراد ذلك فالذى أعلمه الله تعالى أن يريده . وقيل : لما كان ذلك خيرا كله أضافه إلى الله تعالى ، وأضاف عيب السفينة إلى نفسه رعاية للأدب ، لأنها لفظة عيب ، فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا إلى نفسه ، كما تأدب إبراهيم عليه السلام فى قوله : « وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ » فأسند الفعل قبلُ وبعدُ إلى الله تعالى ، وأسند إلى نفسه المرض ، إذ هو معنى نقص ومصيبة ، فلا يضاف إليه سبحانه وتعالى من الألفاظ إلا ما يستحسن منها دون ما يستقبح ، وهذا كما

قال تعالى: «بِيَدِكَ الْخَيْرُ» وآقتصر عليه فلم ينسب الشر إليه، و إن كان بيده الخير والشر والضر والنفع، إذ هو على كل شيء قدير، وهو بكل شيء خبير . ولا اعتراض بما حكاه عليه السلام عن ربه عز وجل أنه يقول يوم القيامة : « يا ابن آدم مرضتُ فلم تَعُدْنى وآستطعمتُك فلم تُطعمنى وآستسقيتك فلم تَسقنى » فإن ذلك تَنزُّلٌ فى الخطاب، وتلطُّف فى العتاب، مقتضاه التعريف بفضل ذى الجلال، و بمقادير ثواب هذه الأعمال . وقد تقدم هذا المعنى . والله تعالى أعلم . ولله تعالى أن يطلق على نفسه ما يشاء، ولا نطلق نحن إلا ما أذن لنا فيه من الأوصاف الجميلة، والأفعال الشريفة . جل وتعالى عن النقائص والآفات علوا كبيرا . وقال فى الغلام : « فأردنا » فكأنه أضاف القتل إلى نفسه، والتبديل إلى الله تعالى . والأشد كمال الخَلْق والعقل . وقد مضى الكلام فيه فى « الأنعام »(١) والحمد لله .

الثالثة — قال شيخنا الإمام أبو العباس : ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق تلزم منه هذه الأحكام الشرعية، فقالوا : هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يحكم بها على الأنبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون إلى تلك النصوص، بل إنما يراد منهم ما يقع فى قلوبهم، ويحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم . وقالوا : وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار، وخلوها عن الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، و يعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، كما آتفق للخضر، فإنه آستغنى بما تجلى له من العلوم، عما كان عند موسى من تلك الفُهوم . وقد جاء فيما ينقلون : آستفت قلبك و إن أفتاك المُفْتون . قال شيخنا رضى الله عنه : وهذا القول زندقة وكفر يقتل قائله ولا يستتاب، لأنه إنكار ما عُلم من الشرائع، فإن الله تعالى قد أجرى سنّته، وأنفذ حكمته، بأن أحكامه لا تعلم إلا بواسطة رسله السفراء بينه و بين خلقه، وهم المبلّغون عنه رسالته وكلامه، المبيّنون شرائعه وأحكامه، آختارهم لذلك، وخصّهم بما هنالك، كما قال تعالى : « اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ

(١) راجع جـ ٧ ص ١٣٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » وقال تعالى : « اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ[1] » وقال تعالى : « كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ » إلى غير ذلك من الآيات . وعلى الجملة فقد حصل العلم القطعى، واليقين الضرورى، واجتماع السلف والخلف على أن لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى التى هى راجعة إلى أمره ونهيه، ولا يعرف شىء منها إلا من جهة الرسل، فمن قال : إن هناك طريقا آخر يُعرَف بها أمرُه ونهيُه غيرَ الرسل بحيث يستغنى عن الرسل فهو كافر، يُقتل ولا يستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال ولا جواب، ثم هو قول بإثبات أنبياء بعد نبينا عليه الصلاة والسلام؛ الذى قد جعله الله خاتم أنبيائه و رسله ، فلا نبىّ بعده ولا رسول . و بيان ذلك أن من قال يأخذ عن قلبه وأن ما يقع فيه حكم الله تعالى، وأنه يعمل بمقتضاه، وأنه لا يحتاج مع ذلك إلى كتاب ولا سنة، فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة، فإن هذا نحو ما قاله عليه الصلاة والسلام : " إن روح القدس نَفَثَ فى رَوْعى " الحديث .

الرابعة — ذهب الجمهور من الناس إلى أن الخضر مات صلى الله عليه وسلم . وقالت فرقة : حىّ لأنه شرب من عين الحياة، وأنه باق فى الأرض، وأنه يحج البيت . قال ابن عطية : وقد أطنب النقّاش فى هذا المعنى، وذكر فى كتابه أشياء كثيرة عن علىّ ابن أبى طالب وغيره، وكلها لا تقوم على ساق . ولو كان الخضر عليه السلام حيا يحج لكان له فى ملة الإسلام ظهور؛ والله العليم بتفاصيل الأشياء لا ربّ غيره . ومما يقضى بموت الخضر عليه السلام الآن قوله عليه الصلاة السلام : " أرأيتكم ليلتكم هذه فإنه لا يَبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحدٌ " .

قلت : إلى هذا ذهب البخارى واختاره القاضى أبو بكر بن العربى، والصحيح القول الثانى وهو أنه حىّ على ما نذكره . والحديث خرجه مسلم فى صحيحه عن عبد الله بن عمر قال صلّى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة صلاة العشاء فى آخر حياته فلما سلّم قام فقال : " أرأيتكم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحدٌ "

(١) فى الأصل : «رسالاته» وهى قراءة نافع التى كان يقرأ بها المفسر .

قال ابن عمر : فوَهِلَ[١] الناسُ فى مقالة رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك فيما يتحدّثون من هذه الأحاديث عن مائة سـنة ؛ وإنما قال عليه الصلاة والسلام : " لا يبقى ممن هو اليـوم على ظهر الأرض أحد" يريد بذلك أن يَنْخَرِمَ ذلك القَرْن. ورواه أيضا من حديث جابر بن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل أن يموت بشهر : " تسألونى عن الساعة وإنما علمها عنـد الله وأقسم بالله ما على الأرض من نفس مَنْفُوسَة[٢] تأتى عليها مائة سنة " وفى أخرى قال سالم : تذاكرنا أنها " هى مخلوقة يومئـذ " . وفى أخرى : " ما من نفس منفوسة اليوم يأتى عليها مائة سنة وهى حية يومئذ " . وفسرها عبد الرحمن صاحب السقاية قال : نقص العمر . وعن أبى سـعيد الخدرى نحو هـذا الحديث . قال علماؤنا : وحاصل ما تضمنه هـذا الحديث أنه عليه الصلاة والسلام أخبر قبل موته بشهر أن كل من كان من بنى آدم موجودا فى ذلك لا يزيد عمره على مائة سنة ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : " ما من نفس مَنْفوسة " وهـذا اللفظ لا يتنـاول الملائكة ولا الجن إذ لم يصح عنهم أنهـم كذلك ، ولا الحيوان غير العاقل ؛ لقوله : " ممن هو على ظهر الأرض أحد" وهذا إنما يقال بأصل وضعه على من يعقل ، فتعين أن المراد بنو آدم . وقد بين ابن عمر هذا المعنى ؛ فقال : يريد بذلك أن يَنْخرم ذلك القَرْن . ولا حجة لمن استدل به على بطلان قول من يقول : إن الخضر حى لعموم قوله : "ما من نفس منفوسة" لأن العموم وإن كان مؤكّد الاستغراق فليس نَصًّا فيه ، بل هو قابل للتخصيص ، فكما لم يتناول عيسى عليـه السلام ، فإنه لم يمت ولم يقتل فهو حىّ بنص القرآن ومعناه ، ولا يتناول الدجال مع أنه حىّ بدليـل حديث الجَسّاسـة[٣] ، فكذلك لم يتناول الخضر عليـه السلام وليس مشاهدا للنـاس ، ولا ممن يخالطهم حتى يخطر ببالهم حالة مخاطبة بعضهم بعضا ، فمثل هذا العموم لا يتناوله . وقد قيل : إن أصحاب الكهف أحياء

(١) وهل إلى الشيء كضرب ؛ أى غلط وذهب وهمه إلى خلاف الصواب ، والمعنى أن الصحابة رضى الله عنهـم غلطوا وذهب وهمهم إلى خلاف الصواب فى تأويل مقالة النبى صلى الله عليه وسلم فكان بعضهم يقول : تقوم الساعة عند انقضاء مائة سنة ؛ فبين ابن عمر مراد النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : يريد بذلك أن ينخرم ذلك القرن . ويجوز وهل كتعب . (٢) منفوسة : مولودة . (٣) الجساسة : دابة الأرض التى تخرج آخر الزمان ، وسميت جساسة لتجسسها الأخبار للدجال .

ويحجون مع عيسى عليه الصلاة والسلام، كما تقدّم . وكذلك فتى موسى فى قول ابن عباس كما ذكرنا . وقد ذكر أبو إسحق الثعلبي فى كتاب «العرائس» له : والصحيح أن الخضر نبيّ مُعمَّر محجوب عن الأبصار؛ وروى محمد بن المتوكل عن [ضمرة بن ربيعة] عن عبد الله بن [شوذب](١) قال : الخضر عليه السلام من ولد فارس، و إلياس من بنى إسرائيل يلتقيان كل عام فى الموسم . وعن عمرو بن دينار قال : إن الخضر و إلياس لا يزالان حيين فى الأرض ما دام القرآن على الأرض، فإذا رفع ماتا . وقد ذكر شيخنا الإمام أبو محمد عبد المعطى بن محمود بن عبد المعطى اللخمى فى شرح الرسالة له للقشيرى حكايات كثيرة عن جماعة من الصالحين والصالحات بأنهم رأوا الخضر عليه السلام ولقوه، يفيد مجموعها غاية الظن بحياته مع ما ذكره النقاش والثعلبي وغيرهما . وقد جاء فى صحيح مسلم : "أن الدجال ينتهى إلى بعض السباخ التى تلى المدينة فيخرج إليه يومئذ رجل هو خير الناس — أو — من خير الناس" الحديث؛ وفى آخره قال أبو إسحق : يعنى أن هذا الرجل هو الخضر . وذكر ابن أبى الدنيا فى كتاب « الهواتف » بسند يوقفه إلى علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه لقى الخضر وعلمه هذا الدعاء، وذكر أن فيه ثوابا عظيما ومغفرة ورحمة لمن قاله فى أثر كل صلاة، وهو : يامن لا يشغله سمع عن سمع ، ويامن لا تغلطه المسائل، ويامن لا يتبرم من إلحاح الملحين، أذقنى بَرْد عفوك، وحلاوة مغفرتك . وذكر أيضا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى هذا الدعاء بعينه نحوا مما ذكر عن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فى سماعه من الخضر . وذكر أيضا اجتماع إلياس مع النبى عليه الصلاة والسلام . وإذا جاز بقاء إلياس إلى عهد النبى صلى الله عليه وسلم جاز بقاء الخضر ، وقد ذكر أنهما يجتمعان عند البيت فى كل حول ، وأنهما يقولان عند افتراقهما : ما شاء الله ما شاء الله ، لا يصرف السوء إلا الله، ما شاء الله ما شاء الله ، ما يكون من نعمة فمن الله، ما شاء الله ما شاء الله ، توكلت على الله، حسبنا الله ونعم الوكيل . وأما خبر إلياس فيأتى فى « والصافات »(٢) إن شاء الله تعالى . وذكر أبو عمر

(١) الزيادة والتصويب من « عقد الجمان » للعينى نقلا عن الثعلبي . وفى الأصل : « روى عن محمد بن المتوكل عن عبد الله بن سوار » .

(٢) فى تفسير قوله تعالى : « وإن إلياس لمن المرسلين » آية ١٢٣

آبن عبد البر فى كتاب « التمهيـد » عن على رضى الله تعالى عنه قال : لما توفى النبي صلى الله عليه وسلم وسُجِّى بثوب هتف هاتف من ناحيـة البيت يسمعون صوته ولا يرون شخصه : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، السـلام عليكم أهل البيت ، « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » — الآية — إن فى الله خلَفًا من كل هالك، وعوضا من كل تالف، وعَزاء من كل مصيبة، فبالله فثقوا ، وإياه فارجوا ، فإن المصاب من حُرِم الثواب ؛ فكانوا يرون أنه الخضر عليـه الصلاة السلام . يعنى أصحاب النبى عليه الصلاة والسلام . والألف واللام فى قوله : "على الأرض" للعهـد لا للجنس وهى أرض العرب ، بدليل تصرفهم فيها و إليها غالبا دون أرض يأجوج ومأجوج ، وأقاصى جزر الهنـد والسند مما لا يقرع السمع اسمه ، ولا يُعلَم علمه . ولا جواب عن الدجال .

قال السهيلى : وآختلف فى آسم الخضر اختلافا متباينا ؛ فعن آبن منبه أنه قال : أَبْلَيا بن مَلْكان بن فالغ بن شالخ بن أرنخشذ بن سام بن نوح . وقيـل : هو آبن عاميل بن سماحين آبن أريا بن علقما بن عيصو بن إسحق ، وأن أباه كان مَلِكا، وأن أمه كانت بنت فارس وآسمها ألمى ، وأنها ولدته فى مغارة، وأنه وجد هنالك وشاة ترضعه فى كل يوم من غنم رجل من القرية ، فأخذه الرجل فربّاه ، فلما شَبَّ وطلب الملِكُ — أبوه — كاتبا وجمع أهل المعرفة والنبالة ليكتب الصحف التى أنزلت على إبراهيم وشيث، كان ممن أقدم عليه من الكتّاب آبنه الخضر وهو لا يعرفه ، فلما استحسن خطه ومعرفته ، و بحث عن جلية أمره عرف أنه ابنه ، فضمه لنفسه وولاه أمر الناس ، ثم إن الخضر فرّ من الملك لأسباب يطول ذكرها إلى أن وجد عين الحياة فشرب منها ، فهو حىّ إلى أن يخرج الدجال ، وأنه الرجل الذى يقتله الدجال و يقطعه ثم يحييه الله تعالى . وقيل : لم يدرك زمن النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وهذا لا يصح . وقال البخارى وطائفة من أهل الحديث منهم شيخنا أبو بكر بن العربى رحمه الله تعالى : إنه مات قبل آنقضاء المـائة ، من قوله عليه الصلاة والسلام : "إلى رأس مائة عام لا يبقى على هذه الأرض ممن هو عليها أحد" يعنى من كان حيا حين قال هذه المقالة .

قلت : قد ذكرنا هذا الحديث والكلام عليه، وبيّنا حياة الخضر إلى الآن، والله أعلم .

الخامسة — قيل : إن الخضر لما ذهب يفارق موسى قال له موسى : أوصني؛ قال : كن بسّاما ولا تكن ضحّاكا، ودع اللّجاجة، ولا تمش في غير حاجة، ولا تعب على الخطّائين خطاياهم، وآبك على خطيئتك يا آبن عمران .

قوله تعالى : وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنْ ذِى الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾ قال ابن إسحق : وكان من خبر ذى القرنين أنه أوتى ما لم يؤت غيره ، فمدت له الأسباب حتى انتهى من البلاد إلى مشارق الأرض ومغاربها ، لا يطأ أرضا إلا سُلّط على أهلها ، حتى انتهى من المشرق والمغرب إلى ما ليس وراءه شيء من الخلق . قال ابن إسحق : حدّثني من يسوق الأحاديث عن الأعاجم فيما توارثوا من علم ذى القرنين أن ذا القرنين كان من أهل مصر اسمه مرزبان ابن مردبة اليوناني من ولد يونان بن يافث بن نوح . قال ابن هشام : واسمه الإسكندر،

وهو الذى بنى الإسكندرية فنسبت إليـه . قال ابن إسحق : وقـد حدّثنى ثور بن يزيد عن خالد بن مَعْدان الكَلَاعىّ — وكان خالد رجلا قد أدرك الناس — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن ذى القرنين فقال : "ملك مسح الأرض من تحتها بالأسباب". وقال خالد : وسمع عمـر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه رجلا يقول يا ذا القرنين ، فقال : اللهم غَفْرا أما رضيتم أن تُسمّوا بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة ! قال ابن إسحق : فالله أعلم أى ذلك كان؟ أقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أم لا؟ والحق ما قال .

قلت : وقد روى عن علىّ بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه مثل قول عمر ؛ سمع رجلا يدعو آخر يا ذا القرنين ، فقال علىّ : أما كفاكم أن تسميتم بأسماء الأنبياء حتى تسميتم بأسماء الملائكة ! وعنـه أنه عَبْـد ملِك (بكسر اللام) صالحٌ نصح اللهَ فأيّدَه . وقيـل : هو نبىّ مبعوث فتح الله تعالى على يديه الأرض . وذكر الدارقطنىّ فى كتاب الأخبار أن ملكا يقال له رباقيـل(١) كان ينزل على ذى القـرنين، وذلك الملك هو الذى يطوى الأرض يوم القيـامة ، وينقضها فتقع أقدام الخلائق كلهم بالساهرة(٢)؛ فيما ذكر بعض أهـل العلم . وقال السهيلىّ : وهذا مشاكل بتوكيله بذى القرنين الذى قطع الأرض مشارقها ومغاربها ؛ كما أن قصة خالد ابن سنان فى تسخير النار له مشاكلة بحال الملَك الموكل بها، وهو مالك عليه السلام وعلى جميع الملائكة أجمعين . ذكر ابن أبى خَيْثَمة فى كتاب البدء له خالد بن سِنان العبسىّ وذكر نبوّته ، وذكر أنه وكل به من الملائكة مالك خازن النار ، وكان من أعلام نبوّته أن نارا يقال لها نار الحدثان ، كانت تخرج على الناس من مغارة فتأكل الناس ولا يستطيعون ردّها ، فردّها خالد ابن سنان فلم تخرج بعد . واختلف فى اسم ذى القرنين وفى السبب الذى سمى به بذلك اختلافا كثيرا ؛ فأما اسمه فقيل : هو الإسكندر الملك اليونانى المقدونى ، وقـد تشدّد قافه فيقال : المقّدونى . وقيل : اسمه هرمس . ويقال : اسمه هرديس . وقال ابن هشام : هو الصعب

(١) كذا فى الأصل ، وفى قصص الأنبياء للثعلبى « رفائيل » وفى الدر المنثور « زرافيل » .
(٢) الساهرة : أرض يجدّدها الله يوم القيامة .

ابن ذى يزن الحميرى من ولد وائل بن حمير؛ وقد تقدّم قول ابن إسحق . وقال وهب بن منبه : هو رومى . وذكر الطبرى حديثا عن النبى عليه الصلاة والسلام أن ذا القرنين شاب من الروم . وهو حديث واهى السّند؛ قاله ابن عطية . قال السُّهيلى : والظاهر من علم الأخبار أنهما آثنان : أحدهما — كان على عهد إبراهيم عليه السلام، ويقال : إنه الذى قضى لإبراهيم عليه السلام حين تحاكموا إليه فى بئر السبع بالشام . والآخر — أنه كان قريبا من عهد عيسى عليه السلام . وقيل : إنه أفريدون الذى قتل بيوراسب بن أروندا سب الملك الطاغى على عهد إبراهيم عليه السلام، أو قبله بزمان . وأما الاختلاف فى السبب الذى سمّى به، فقيل : إنه كان ذا ضفيرتين من شعر فسمى بهما؛ ذكره الثعلبى وغيره . والضفائر قرون الرأس؛ ومنه قول الشاعر (١) :

فَلَثِمْتُ فَاهَا آخِذًا بِقُرُونِهَا * شُرْبَ النَّزِيفِ بِبَرْدِ مَاءِ الحَشْرَجِ

وقيل : إنه رأى فى أوّل ملكه كأنه قابض على قرنى الشمس، فقص ذلك، ففسر أنه سيغلب ما ذرت عليه الشمس، فسمى بذلك ذا القرنين . وقيل : إنما سمى بذلك لأنه بلغ المغرب والمشرق فكأنه حاز قرنى الدنيا . وقالت طائفة : إنه لما بلغ مطلع الشمس كشف بالرؤية قرونها فسمى بذلك ذا القرنين؛ أو قرنى الشيطان بها . وقال وهب بن منبه : كان له قرنان تحت عمامته . وسأل آبن الكوّاء عليا رضى الله تعالى عنه عن ذى القرنين أنبيا كان أم ملكا؟ فقال : لا ذا ولا ذا، كان عبدا صالحا دعا قومه إلى الله تعالى فشجّوه على قرنه، ثم دعاهم فشجّوه على قرنه الآخر، فسمى ذا القرنين . وآختلفوا أيضا فى وقت زمانه، فقال قوم : كان بعد موسى . وقال قوم : كان فى الفترة بعد عيسى . وقيل : كان فى وقت إبراهيم وإسمعيل . وكان الخضر عليه السلام صاحب لوائه الأعظم؛ وقد ذكرناه فى « البقرة (٢) » . وبالجملة فإن الله تعالى مكّنه وملّكه ودانت له الملوك، فروى أن جميع ملوك الدنيا كلها

---

(١) هو عمر بن أبى ربيعة؛ والنزيف : المحموم الذى منع من الماء، والسكران . والحشرج : النقرة فى الجبل يجتمع فيها الماء فيصفو، والكوز الصغير اللطيف أيضا .
(٢) راجع جـ ٣ ص ٢٨٩ طبعة أولى أو ثانية .

أربعة : مؤمنان وكافران ؛ فالمؤمنان سليمان بن داود و إسكندر، والكافران نمرود و بختنصر؛ وسيملكها من هـذه الأمة خامس لقوله تعالى : « ليظهره على الدين كله » وهو المهـدى . وقد قيل : إنما سمى ذا القرنين لأنه كان كريم الطرفين من أهل بيت شريف من قبل أبيه وأمه . وقيل : لأنه انقرض فى وقته قرنان من الناس وهو حى . وقيل : لأنه كان إذا قاتل قاتل بيديه وركابيه جميعا . وقيـل : لأنه أعطى علم الظاهر والباطن . وقيل : لأنه دخل الظلمة والنور . وقيل : لأنه ملك فارس والروم .

قوله تعـالى : ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ﴾ قال على رضى الله عنـه : سخر له السحاب ، ومُدَّت له الأسباب، وبُسط له فى النور ، فكان الليل والنهار عليه سواء . وفى حديث عقبة ابن عامر أن النبى صلى الله عليـه وسلم قال لرجال من أهل الكتاب سألوه عن ذى القرنين فقال : " إن أول أمره كان غلاما من الروم فأعطى ملكا فسار حتى أتى أرض مصر فابتنى بها مدينة يقال لهـا الإسكندرية فلما فرغ أتاه مَلَك فعرج به فقال له انظر ما تحتك قال أرى مدينتى وحدها لا أرى غيرها فقال له الملك تلك الأرض كلها وهذا السواد الذى تراه محيطا بها هو البحر و إنمـا أراد الله تعالى أن يريك الأرض وقد جعل لك سلطانا فيها فَسِرْ فى الأرض فعلِّم الجاهل وثبِّت العالم " الحديث .

قوله تعـالى : ﴿وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ قال ابن عبـاس : من كل شىء علمـا يتسبب به إلى ما يريد . وقال الحسن : بلاغا إلى حيث أراد . وقيل : من كل شىء يحتاج إليه الخلق . وقيل : من كل شىء يستعين به الملوك من فتح المدائن وقهر الأعداء . وأصل السبب الحبل فاستعير لكل ما يتوصل به إلى شىء . ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة والكسائى «فَأَتْبَعَ سَبَبًا» مقطوعة الألف . وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو «فَٱتَّبَعَ سَبَبًا» بوصلها؛ أى اتبع سببا من الأسباب التى أوتيها . قال الأخفش : تبعته وأتبعته بمعنى؛ مثل ردِفته وأردفته، ومنـه قوله تعالى : « إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَـهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ » ومنه الإتباع فى الكلام مثل حَسَنٌ بَسَنٌ وقَبِيح شَقِيح . قال النحاس : واختار أبو عبيد قراءة

أهل الكوفة قال : لأنها من السَّيْر، وحكى هو والأَصْمَعِيّ أنه يقال : تَبِعه وٱتَّبعه إذا سار ولم يلحقه، وأتبعه إذا لحقه؛ قال أبو عبيد : ومثله « فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ » . قال النحاس : وهذا التفريق و إن كان الأصمعي قد حكاه لا يقبل إلا بعلّة أو دليل . وقوله عز وجل : « فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ » ليس في الحديث أنهم لحقوهم، و إنما الحديث : لما خرج موسى عليه السلام وأصحابه من البحر وحصل فرعون وأصحابه ٱنطبق عليهم البحر. والحق في هذا أن تَبِع وٱتّبع وأتبع لغات بمعنى واحد، وهي بمعنى السَّيْر، فقد يجوز أن يكون معه لَحَاق وألّا يكون .

﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾ قرأ ٱبن عاصم وعامر وحمزة والكسائي « حامِيةٍ » أي حارّة . الباقون « حَمِئة » أي كثيرة الحمأة وهي الطينة السوداء، تقول : حَمَأْتُ البئرَ حَمْأً (بالتسكين) إذا نزعت حَمْأَتها . وحَمِئت البئرُ حَمَأً (بالتحريك) كثرت حَمْأَتها . ويجوز أن تكون « حامِيةٍ » من الحمأة فخففت الهمزة وقلبت ياء . وقد يجمع بين القراءتين فيقال : كانت حارة وذات حَمْأة. وقال عبد الله بن عمرو : نظر النبيّ صلى الله عليه وسلم إلى الشمس حين غربت، فقال : " نار الله الحامية لولا ما يَزَعُها من أمر الله لأحرقت ما على الأرض " . وقال ابن عباس : أقرأنيها أُبَيّ كما أقرأه رسول الله صلى الله عليه وسلم « في عين حَمِئة »؛ وقال معاوية : هي « حامية » فقال عبد الله بن عمرو بن العاص : فأنا مع أمير المؤمنين ؛ فجعلوا كعبا بينهم حَكَمًا وقالوا : يا كعب كيف تجد هذا في التوراة ؟ فقال : أجدها تغرب في عين سوداء، فوافق ابن عباس . وقال الشاعر وهو تُبَّع اليمانيّ :

قد كان ذو القرنين قبلي مُسْلِمًا * مَلِكًا تدين له الملوك وتَسْجُدُ
بَلَغَ المغاربَ والمشارقَ يبتغي * أسبابَ أمرٍ من حكيم مُرْشِدِ
فرأى مَغِيبَ الشَّمسِ عند غروبها * في عين ذي خُلُبٍ وَثَأْطٍ حَرْمَدِ (١)

الخُلُب : الطين . والثَّأْط : الحمأة . والحِرْمِد : الأسود . وقال القفّال قال بعض العلماء : ليس المراد أنه ٱنتهى إلى الشمس مغربا ومشرقا حتى وصل إلى جرمها ومسّها؛ لأنها تدور

(١) حرمد (بالفتح والكسر) كجعفر وزبرج .

مع السماء حول الأرض من غير أن تلتصق بالأرض ، وهى أعظم من أن تدخل فى عين من عيون الأرض ، بل هى أكبر من الأرض أضعافا مضاعفة ، بل المراد أنه آنتهى إلى آخر العمارة من جهة المغرب ومن جهة المشرق ، فوجدها فى رأى العين تغرب فى عين حمئة ، كما أنا نشاهدها فى الأرض الملساء كأنها تدخل فى الأرض ؛ ولهذا قال : « وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا » ولم يرد أنها تطلع عليهم بأن تماسهم وتلاصقهم ، بل أراد أنهم أول من تطلع عليهم . وقال القتبى : ويجوز أن تكون هذه العين من البحر ، ويجوز أن تكون الشمس تغيب وراءها أو معها أو عندها ، فيقام حرف الصفة مقام صاحبه ؛ والله أعلم . ﴿ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا ﴾ أى عند العين ، أو عند نهاية العين ، وهم أهل جَابَرْس ، ويقال لها بالسريانية : جرجيسا ؛ يسكنها قوم من نسل ثمود بقيتهم الذين آمنوا بصالح ؛ ذكره السُّهيلى . وقال وهب آبن منبّه : كان ذو القرنين رجلا من الروم آبن عجوز من عجائزهم ليس لها ولد غيره وكان آسمه الإسكندر ، فلما بلغ وكان عبدا صالحا قال الله تعالى : ياذا القرنين ! إنى باعثك إلى أمم الأرض وهم أمم مختلفة ألسنتهم ، وهم أمم جميع الأرض ، وهم أصناف : أمتان بينهما طول الأرض كله ، وأمتان بينهما عرض الأرض كله ، وأمم فى وسط الأرض منهم الجن والإنس ويأجوج ومأجوج ؛ فأما اللتان بينهما طول الأرض فأمة عند مغرب الشمس يقال لها ناسك ، وأما الأخرى فعند مطلعها ويقال لها منسك . وأما اللتان بينهما عرض الأرض فأمة فى قطر الأرض الأيمن يقال لها هاويل ؛ وأما الأخرى التى فى قطر الأرض الأيسر يقال لها تاويل . فقال ذو القرنين : إلهى ! قد ندبتنى لأمر عظيم لا يقدر قدره إلا أنت ؛ فأخبرنى عن هذه الأمم بأى قوة أكاثرهم ؟ وبأى صبر أقاسيهم ؟ وبأى لسان أناطقهم ؟ فكيف لى بأن أفقه لغتهم وليس عندى قوة ؟ فقال الله تعالى : سأظفرك بما حملتك ؛ أشرح لك صدرك فتسمع كل شىء ، وأثبت لك فهمك فتفقه كل شىء ، وألبسك الهيبة فلا يروعك شىء ، وأسخر لك النور والظلمة فيكونان جندا من جنودك ، يهديك النور من أمامك ، وتحفظك الظلمة من ورائك ؛ فلما قيل له ذلك سار بمن آتبعه ، فآنطلق إلى الأمة التى عند مغرب الشمس ؛ لأنها

كانت أقرب الأمم منه وهى ناسك، فوجد جموعا لا يحصيها إلا الله تعالى وقوة و بأسا لا يطيقه إلا الله، وألسنة مختلفة، وأهواء مُتشتِّتة، فكاثرهم بالظّلمة؛ فضرب حولهم ثلاث عساكر من جند الظلمة قدر ما أحاط بهم من كل مكان، حتى جمعتهم فى مكان واحد، ثم دخل عليهم بالنور فدعاهم إلى الله تعالى و إلى عبادته، فمنهم من آمن به ومنهم من كفر وصدّ عنه، فأدخل على الذين تولوا الظلمة فغشيتهم من كل مكان، فدخلت إلى أفواههم وأنوفهم وأعينهم و بيوتهم وغشيتهم من كل مكان، فتحيروا وماجوا وأشفقوا أن يهلكوا، فعجّوا إلى الله تعالى بصوت واحد : إنا آمنا؛ فكشفها عنهم، وأخذهم عنوة، ودخلوا فى دعوته، فجند من أهل المغرب أمما عظيمة فجعلهم جندا واحدا، ثم آنطلق بهم يقودهم، والظلمة تسوقهم وتحرسه من خلفه، والنور أمامهم يقوده و يدله، وهو يسير فى ناحية الأرض اليمنى يريد الأمة التى فى قطر الأرض الأيمن وهى هاويل، وسخر الله تعالى يده وقلبه وعقله ونظره فلا يخطئ إذا عمل عملا، فإذا أتوا مخاضة أو بحرا بنى سفنا من ألواح صغار مثل النعال فنظمها فى ساعة، ثم جعل فيها جميع من معه من تلك الأمم، فإذا قطع البحار والأنهار فتقها ودفع إلى كل رجل لوحا فلا يكترث بحمله، فانتهى إلى هاويل وفعل بهم كفعله بناسك فآمنوا، ففرغ منهم، وأخذ جيوشهم وآنطلق إلى ناحية الأرض الأخرى حتى آنتهى إلى منسك عند مطلع الشمس، فعمل فيها وجند منها جنودا كفعله فى الأولى، ثم كرّ مقبلا حتى أخذ ناحية الأرض اليسرى يريد تاويل، وهى الأمة التى تقابل هاويل بينهما عرض الأرض، ففعل فيها كفعله فيما قبلها، ثم عطف إلى الأمم التى فى وسط الأرض من الجن والإنس و يأجوج ومأجوج، فلما كان فى بعض الطريق مما يلى منقطع الترك من المشرق قالت له أمة صالحة من الإنس : ياذا القرنين ! إن بين هذين الجبلين خلقا من خلق الله تعالى كثيرا ليس لهم عدد، وليس فيهم مشابهة من الإنس، وهم أشباه البهائم؛ يأكلون العشب، و يفترسون الدواب والوحش كما تفترسها السباع، و يأكلون حشرات الأرض كلها من الحيات والعقارب والوزغ وكل ذى روح مما خلق الله تعالى فى الأرض، وليس لله تعالى خلق ينمو نماءهم فى العام الواحد، فإن طالت المدة

فسيملئون الأرض، ويحلون أهلها، فهل نجعل لك خَرْجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا ؟ وذكر الحديث؛ وسيأتى من صفة يأجوج ومأجوج والترك إذ هم نوع منهم ما فيه كفاية .

قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ ﴾ قال القشيرى أبو نصر : إن كان نبيا فهو وحى، وإن لم يكن نبيا فهو إلهام من الله تعالى . ﴿ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴾ قال إبراهيم بن السرى : خَيَّره بين هذين كما خَيَّر محمدا صلى الله عليه وسلم فقال : « فإن جاءوك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم » ونحوه . وقال أبو إسحق الزجاج : المعنى أن الله تعالى خيره بين هذين الحكمين؛ قال النحاس : وردّ على بن سليمان عليه قوله؛ لأنه لم يصح أن ذا القرنين نبى فيخاطب بهذا، فكيف يقول لربه عز وجل : «ثم يردّ إلى ربه» ؟ وكيف يقول : «فسوف نعذبه » فيخاطب بالنون؟ قال : التقدير؛ قلنا يا محمد قالوا ياذا القرنين . قال أبو جعفر النحاس : هذا الذى قاله أبو الحسن لا يلزم منه شىء . أما قوله : « قلنا يا ذا القرنين » فيجوز أن يكون الله عز وجل خاطبه على لسان نبى فى وقته، ويجوز أن يكون قال له هذا كما قال لنبيه : « فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً »، وأما إشكال « فسوف نعذبه ثم يردّ إلى ربه » فإن تقديره أن الله تعالى لما خَيَّره بين القتل فى قوله تعالى : « إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ» وبين الاستبقاء فى قوله جل وعز : «وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا» قال لأولئك القوم : ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ﴾أى أقام على الكفر منكم : ﴿ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ﴾ أى بالقتل : ﴿ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَى رَبِّهِ ﴾ أى يوم القيامة : ﴿ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُكْرًا ﴾ أى شديدا فى جهنم : ﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ ﴾ أى تاب من الكفر : ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ قال أحمد بن يحيى : « أن » فى موضع نصب فى « إما أن تعذب وإما أن تتخذ فيهم حسنا » قال : ولو رفعت كان صوابا بمعنى فإمّا هو، كما قال :

فسيرا فإما حاجة تقضيانها * وإما مقيلٌ صالحٌ وصديقُ

﴿ فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى ﴾ قراءة أهل المدينة وأبى عمرو وعاصم « فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى » بالرفع على الابتداء أو بالاستقرار. و « الحسنى » فى موضع خفض بالإضافة ويحذف التنوين للإضافة؛ أى له جزاء الحسنى عند الله تعالى فى الآخرة وهى الجنة ، فأضاف الجزاء إلى الجنة، كقوله :

«حقُّ اليقينِ » ، « ولدارُ الاخرةِ »؛ قاله الفراء . ويحتمل أن يريد بـ « بالحسنى » الأعمال الصالحـة . ويمكن أن يكون الجزاء من ذى القرنين ؛ أى أعطيه وأتفضل عليـه . ويجوز أن يحذف التنوين لالتقاء الساكنين ويكون « الحسنى » فى موضع رفع على البدل عنـد البصريين ، وعلى الترجمة عند الكوفيين ، وعلى هذا قراءة ابن أبى إسحق « فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى » إلا أنك لم تحذف التنوين ، وهو أجود . وقرأ سائر الكوفيين « فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَى » منصوبا منونا ؛ أى فله الحسنى جزاءً . قال الفراء : «جزاءً» منصوب على التمييز . وقيل : على المصدر ؛ وقال الزجاج : هو مصدر فى موضع الحـال ؛ أى مجزيا بها جزاء . وقرأ ابن عباس ومسروق « فَلَهُ جَزَاءَ الْحُسْنَى » منصوبا غير منون . وهى عنـد أبى حاتم على حذف التنوين لالتقـاء الساكنين مثل « فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَى » فى أحد الوجهين . النحاس : وهذا عند غيره خطأ لأنه ليس موضع حذف تنوين لالتقاء الساكنين ، ويكون تقديره : فله الثواب جزاءَ الحسنى .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَباً ﴾ تقدّم معناه أن أتبع واتّبع بمعنى ، أى سلك طريقا ومنازل . ﴿ حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ ﴾ وقرأ مجاهد وابن محيصن بفتح الميم واللام ؛ يقال : طَلَعَت الشمسُ والكواكب طُلوعا ومطلَعا . والمطلَع والمطلِع أيضا موضع طلوعها ؛ قاله الجوهرى . المعنى أنه انتهى إلى موضع قوم لم يكن بينهم و بين مطلع الشمس أحد من الناس . والشمس تطلع وراء ذلك بمسافة بعيدة ، فهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَى قَوْمٍ ﴾ . وقد اختلف فيهم ؛ فعن وهب بن منبه ما تقـدّم ، وأنها أمة يقال لهـا منسك وهى مقابلة ناسك ؛ وقاله مقاتل . وقال قتادة : يقـال لها الزنج . وقال الكلبي : هم تارس وهاو يل ومنسك ؛ حفاة عراة عماة عن الحق ، يتسافدون مثل الكلاب ، و يتهارجون تهارج الحمر . وقيل : هم أهل جَابَلْق ، وهم من نسـل مؤمنى عاد الذين آمنوا بهود ، و يقال لهم بالسريانية مرقيسا . والذين عنـد مغرب الشمس هم أهل جَابَرْس ؛ ولكل واحدة من المدينتين عشرة آلاف باب ، بين كل بابين فرسخ . و وراء جَابَلْق أمم ، وهم تافيل وتارس ، وهم يجاورون يأجوج ومأجوج . وأهل جَابَرْس وجَابَلْق آمنوا بالنبي عليه الصلاة والسلام ؛ مر بهم ليلة الإسراء فدعاهم فأجابوه ،

ودعا الأمم الآخرين فلم يجيبوه؛ ذكره السهيلي وقال : آختصرت هـذا كله من حديث طويل رواه مقاتل بن حيان عن عكرمة عن آبن عباس عن النبيّ صلى الله عليه وسلم . ورواه الطبرى مسندا إلى مقاتل يرفعه؛ والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴾ أى حجابا يستترون منها عند طلوعها . قال قتادة : لم يكن بينهم وبين الشمس ستر؛ كانوا فى مكان لا يستقر عليـه بناء، وهم يكونون فى أسراب لهم، حتى إذا زالت الشمس عنهم رجعوا إلى معايشهم وحروثهم؛ يعنى لا يستترون منها بكهف جبل ولا بيت يكنهم منها . وقال أمية : وجدت رجالا بسـمرقند يحدّثون النـاس، فقال بعضهم : خرجت حتى جاوزت الصين ، فقيل لى : إن بينك وبينهم مسيرة يوم وليلة، فاستأجرت رجلا يرينيهم حتى صبحتهم، فوجدت أحدهم يفترش أذنه ويلتحف بالأخرى ، وكان صاحبي يحسن كلامهم ، فبتنا بهم ، فقالوا : فيم جئتم ؟ قلنا : جئنا ننـظر كيف تطلع الشمس؛ فبينا نحن كذلك إذ سمعنا كهيئة الصلصلة، فغشى علىّ، ثم أفقت وهم يمسحوننى بالدهن ، فلما طلعت الشمس على المـاء إذا هى على المـاء كهيئة الزيت ، وإذا طرف السماء كهيئة الفسطاط، فلما آرتفعت أدخلونى سربا لهم، فلما آرتفع النهـار وزالت الشمس عن رءوسهم خرجوا يصطادون السـمك ، فيطرحونه فى الشمس فينضج . وقال آبن جريج : جاءهم جيش مرة، فقال لهم أهلها : لاتطلع الشمس وأنتم بها، فقالوا : مانبرح حتى تطلع الشمس . ثم قالوا : ما هذه العظام ؟ قالوا : هذه والله عظام جيش طلعت عليهم الشمس ها هنا فماتوا . قال : فولوا هاربين فى الأرض . وقال الحسن : كانت أرضهم لاجبل فيها ولا شجر، وكانت لا تحمل البناء، فإذا طلعت عليهم الشمس نزلوا فى المـاء، فإذا آرتفعت عنهم خرجوا، فيتراعون كما تتراعى البهائم .

قلت : وهذه الأقوال تدل على أن لا مدينة هناك . والله أعلم . وربما يكون منهم من يدخل فى النهر، ومنهم من يدخل فى السّرب فلا تناقض بين قول الحسن وقتادة .

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾ قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾

قوله تعالى : ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ﴾ وهما جبلان من قبل أرمينية وأَذْرَبِيجان . روى عطاء الخراسانى عن ٱبن عباس : « بين السدين » الجبلين أرمينية وأَذْرَبِيجان . ﴿وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا﴾ أى من ورائهما : ﴿قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ . وقرأ حمزة والكسائى « يُفْقِهُونَ » بضم الياء وكسر القاف من أفقه إذا أبان أى لا يفقهون غيرهم كلاما . الباقون بفتح الياء والقاف ، أى يعلمون . والقراءتان صحيحتان ، فلا هم يفقهون من غيرهم ولا يفقهون غيرهم .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا يَاذَا الْقَرْنَيْنِ﴾ أى قالت له أمة من الإنس صالحة : ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى الْأَرْضِ﴾ . قال الأخفش : من همز « يأجوج » بجعل الألفين من الأصل يقول : يأجوج يَفْعول ومأجوج مَفْعول كأنه من أجيج النار . قال : ومن لا يهمز و يجعل الألفين زائدتين يقول : « ياجوج » من يَجَجت وماجوج من مَجَجت وهما غير مصروفين ؛ قال رؤبة :

لو أن ياجوجَ وماجوجَ معَا * وعادَ عادٌ وٱستجاشوا تُبَّعا

ذكره الجوهرى . وقيل : إنما لم ينصرفا لأنهما ٱسمان أعجميان، مثل طالوت وجالوت غير مشتقين؛ علتاهما فى منع الصرف العجمة والتعريف والتأنيث . وقالت فرقة : هو معرب من أَجّ وأَجَجَ علتاه فى منع الصرف التعريف والتأنيث . وقال أبو علىّ : يجوز أن يكونا عربيين ؛ فمن همز « يأجوج » فهو على وزن يفعول مثل يربوع، من قولك أَجَّت النار أى ضويت، ومنه الأجيج، ومنه ملح أجاج، ومن لم يهمز أمكن أن يكون خفف الهمزة فقلبها ألفا مثل راس، وأما «مأجوج» فهو مفعول من أَجَّ، والكلمتان من أصل واحد فى الاشتقاق ومن لم يهمز فيجوز أن يكون خفف الهمزة، ويجوز أن يكون فاعولا من مَجَّ، وترك الصرف فيهما للتأنيث والتعريف كأنه ٱسم للقبيلة . وٱختلف فى إفسادهم؛ سعيد بن عبد العزيز : إفسادهم أكل بنى آدم . وقالت فرقة : إفسادهم إنما كان متوقعا، أى سيفسدون، فطلبوا وجه التحرز منهم . وقالت فرقة : إفسادهم هو الظلم والغَشْم والقتل وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر، والله أعلم . وقد وردت أخبار بصفتهم وخروجهم وأنهم ولد يافث . روى أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " ولد لنوح سام وحام و يافث فولد سام العرب وفارس والروم والخير فيهم وولد يافث يأجوج ومأجوج والترك والصقالبة ولا خير فيهم وولد حام القبط والبربر والسودان " . وقال كعب الأحبار : ٱحتلم آدم عليه السلام فاختلط ماؤه بالتراب فأسِف فخلقوا من ذلك الماء، فهم متصلون بنا من جهة الأب لا من جهة الأم . وهذا فيه نظر؛ لأن الأنبياء صلوات الله عليهم لا يحتلمون، و إنما هم من ولد يافث، وكذلك قال مقاتل وغيره . وروى أبو سعيد الخدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لا يموت رجل منهم حتى يولد لصلبه ألف رجل " . يعنى يأجوج ومأجوج . وقال أبو سعيد : هم خمس وعشرون قبيلة من وراء يأجوج ومأجوج لا يموت الرجل من هؤلاء ومن يأجوج ومأجوج حتى يخرج من صلبه ألف رجل ؛ ذكره القشيرى . وقال عبد الله بن مسعود : سألت النبى صلى الله عليه وسلم عن يأجوج ومأجوج، فقال عليه الصلاة والسلام : " يأجوج ومأجوج أمتان كل أمة أربعمائة ألف [أمة][1] كل أمة لا يعلم عددها إلا الله لا يموت الرجل

(١) الزيادة من الدر المنثور .

منهم حتى يولد له ألف ذكر من صلبه كلهم قد حمل السلاح" قيل : يارسول الله صفهم لنا. قال : " هم ثلاثة أصناف صنف منهم أمثال الأَرْز (١) — شجر بالشام طول الشجرة عشرون ومائة ذراع — وصنف عرضه وطوله سواء نحوا من الذراع وصنف يفترش أذنه و يلتحف بالأخرى لا يمرون بفيل ولا وحش ولا خنزير إلا أكلوه و يأكلون من مات منهم مقدمتهم بالشام وساقتهم بخراسان يشربون أنهار الشرق وبحيرة طبرية فيمنعهم الله من مكة والمدينة و بيت المقدس " . وقال على رضى الله تعالى عنه : وصنف منهم فى طول شبر، لهم مخالب وأنياب السباع، وتداعى الحمام، وتسافد البهائم، وعواء الذئاب، وشعور تقيهم الحرّ والبرد، وآذان عظام إحداها وبرة يشتون فيها، والأخرى جلدة يصيفون فيها، يحفرون السدّ حتى كادوا ينقبونه فيعيده الله كما كان، فيقولون : ننقبه غدا إن شاء الله تعالى فينقبونه ويخرجون، ويتحصن الناس بالحصون، فيرمون إلى السماء فيرد السهم عليهم ملطخا بالدم، ثم يهلكهم الله تعالى بالنَّغف (٢) فى رقابهم . ذكره الغزنوى . وقال علىّ عن النبى صلى الله عليه وسلم : " يأجوج أمة لها أربعمائة أمير وكذا مأجوج لا يموت أحدهم حتى ينظر إلى ألف فارس من ولده " .

قلت : وقد جاء مرفوعا من حديث أبى هريرة، خرجه ابن ماجه فى السنن قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن يأجوج ومأجوج يحفران كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم ارجعوا فستحفرونه غدا فيعيده الله أشدّ ما كان حتى إذا بلغت مدتهم وأراد الله تعالى أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال ارجعوا فستحفرونه غدا إن شاء الله تعالى فاستثنوا فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيحفرونه و يخرجون على الناس فيَنْشِفون (٣) الماء و يتحصن الناس منهم فى حصونهم فيرمون بسهامهم إلى السماء فيرجع عليها الدمُ — الذى أحفظ (٤) — فيقولون قهرنا أهل الأرض وعلونا أهل السماء فيبعث الله تعالى عليهم نغفا فى أقفائهم فيقتلهم بها" قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "والذى نفسى بيده إن دواب الأرض لتسمن وتَشْكَر شكرا من لحومهم" قال الجوهرى

(١) الأرز: شجر الصنوبر .　(٢) النغف (بالتحريك) : دود يكون فى أنوف الإبل والغنم واحدتها نغفة .
(٣) ينشفون الماء : أى ينزحونه .　(٤) هذا من كلام الراوى . (هامش ابن ماجه) .

شَكِرت الناقةُ تَشكَرَ شَكَرًا فهى شَكِرة ؛ وأشكر الضرع آمتلأ لبنا . وقال وهب بن منبه : رآهم ذو القرنين ، وطول الواحد منهم مثل نصف الرجل المربوع منا، لهم مخاليب فى مواضع الأظفار وأضراس وأنياب كالسباع ، وأحناك كأحناك الإبل ، وهم هُلْبٌ عليهم من الشعر ما يواريهم، ولكل واحد منهم أذنان عظيمتان، يلتحف إحداهما ويفترش الأخرى، وكل واحد منهم قد عرف أجله لا يموت حتى يخرج له من صلبه ألف رجل إن كان ذكرا، ومن رحمها ألف أنثى إن كانت أنثى . وقال السدى والضحاك : الترك شرذمة من يأجوج ومأجوج خرجت تغير، فجاء ذو القرنين فضرب السدّ فبقيت فى هذا الجانب . قال السُّدى : بُنى السدّ على إحدى وعشرين قبيلة، وبقيت منهم قبيلة واحدة دون السدّ فهم التّرك . وقاله قتادة .

قلت : وإذا كان هـذا ، فقد نعت النبي صـلى الله عليه وسـلم الترك كما نعت يأجوج ومأجوج، فقال عليـه الصلاة والسلام : "لا تقوم الساعة حتى يقاتل المسلمون التّرك قوماً وجوههم كالمجانّ المُطْرَقَة يلبَسون الشّعر ويمشون فى الشّعر" فى رواية "ينتعلون الشّعر" خرجه مسلم وأبو داود وغيرهما . ولما علم النبى صلى الله عليه وسلم عددهم وكثرتهم وحِدّة شوكتهم قال عليه الصلاة والسلام : "آتركوا الترك ما تركوكم" . وقـد خرج منهم فى هذا الوقت أمم لا يحصيهم إلا الله تعالى، ولا يردهم عن المسلمين إلا الله تعالى، حتى كأنهم يأجوج ومأجوج أو مقدمتهم . وروى أبو داود عن أبى بكرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "ينزل ناس من أمتى بغائط يسمونه البصرة عنـد نهر يقال له دجلة يكون عليـه جسر يكثر أهلها وتكون من أمصار المهاجرين — قال ابن يحيى قال أبو معمر — وتكون من أمصار المسلمين فإذا كان فى آخر الزمان جاء بنو قنطوراء عراض الوجوه صغار الأعين حتى ينزلوا على شاطئ النهـر فيتفرق أهلها ثلاث فرق فرقة يأخذون أذناب البقـر والبرية وهلكوا وفـرقة يأخذون لأنفسهم وكفروا وفرقة يجعلون ذراريهم خلف ظهـورهم ويقاتلونهم وهم الشهداء" . الغائط المطمئن من الأرض . والبصرة الحجارة الرخوة وبها سميت البصرة . وبنو قنطوراء هم الترك . يقال : إن قنطوراء آسم جارية كانت لإبراهيم صلوات الله وسلامه عليه ، ولدت له أولادا جاء من نسلهم الترك .

قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا ﴾ استفهام على جهة حسن الأدب . « خَرْجًا » أى جعلا . وقرئ « خراجا » والخرج أخص من الخراج . يقال : أَدِّ خَرْجَ رأسك وخَرَاجَ مدينتك . وقال الأزهرى : الخراج يقع على الضريبة، ويقع على مال الفىء، ويقع على الجزية، وعلى الغلة . والخراج اسم لما يخرج من الفرائض فى الأموال . والخرج : المصدر . وقوله تعالى : ﴿ عَلَى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴾ أى ردما ؛ والردم ماجعل بعضه على بعض حتى يتصل . وثوب مردم أى مرقع ، قاله الهروى . يقال : ردمت الثلمة أردِمها بالكسر ردما أى سددتها . والردم أيضا الاسم وهو السد . وقيل : الردم أبلغ من السد إذ السد كل مايسد به، والردم وضع الشىء على الشىء من حجارة أو تراب أو نحوه حتى يقوم من ذلك حجاب منيع . ومنه ردم ثوبه إذا رقعه برقاع متكائفة بعضها فوق بعض . ومنه قول عنترة :

* هل غادر الشعراء من متردَّمِ (١) *

أى من قول يُركَّب بعضه على بعض . وقرئ « سَدًّا » بالفتح فى السين؛ فقال الخليل وسيبويه : الضم هو الاسم والفتح المصدر . وقال الكسائى : الفتح والضم لغتان بمعنى واحد . وقال عكرمة وأبو عمرو بن العلاء وأبو عبيدة : ماكان من خلقة الله لم يشارك فيه أحد بعمل فهو بالضم، وما كان من صنع البشر فهو بالفتح . ويلزم أهل هذه المقالة أن يقرءوا «سَدًّا» بالفتح، وقبله « بين السُّدَّيْنِ » بالضم ، وهى قراءة حمزة والكسائى . وقال أبو حاتم عن ابن عباس وعكرمة عكس ماقال أبو عبيدة . وقال ابن أبى إسحق : مارأته عيناك فهو سُد بالضم، وما لا ترى فهو سَد بالفتح .

الثانية — فى هذه الآية دليل على اتخاذ السجون، وحبس أهل الفساد فيها، ومنعهم من التصرف لما يريدونه، ولا يتركون وما هم عليه، بل يوجعون ضربا ويحبسون أو يكفلون ويطلقون كما فعل عمر رضى الله عنه .

---

(١) تمامه : * أم هل عرفت الدار بعد توهم *

قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَامَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ مَامَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ ﴾ المعنى قال لهم ذو القرنين : مابسطه الله تعالى لى من القدرة والملك خير من خرجكم وأموالكم ولكن أعينونى بقوة الأبدان ؛ أى برجال وعمل منكم بالأبدان ، والآلة التى أبنى بها الردم وهو السد . وهذا تأييد من الله تعالى لذى القرنين فى هذه المحاورة ؛ فإن القوم لو جمعوا له خرجا لم يعنه أحد ولوكلوه إلى البنيان ، ومعونته بأنفسهم أجمل به وأسرع فى انقضاء هذا العمل ، وربما أربى ماذكروه له على الخرج . وقرأ ابن كثير وحده «مَامَكَّنَنِي» بنونين . وقرأ الباقون « مَامَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي » .

الثانية — فى هذه الآية دليل على أن الملك فرض عليه أن يقوم بحماية الخلق فى حفظ بيضتهم ، وسد فرجتهم ، وإصلاح ثغورهم ، من أموالهم التى تفىء عليهم ، وحقوقهم التى تجمعها خزانتهم تحت يده ونظره ، حتى لو أكلتها الحقوق ، وأنفدتها المؤن ، لكان عليهم جبر ذلك من أموالهم ، وعليه حسن النظر لهم ؛ وذلك بثلاثة شروط : الأول — ألا يستأثر عليهم بشىء . الثانى — أن يبدأ بأهل الحاجة فيعينهم . الثالث — أن يسوى فى العطاء بينهم على قدر منازلهم ، فإذا فنيت بعد هذا وبقيت صفرا فأطلعت الحوادث أمرا بذلوا أنفسهم قبل أموالهم ، فإن لم يغن ذلك فأموالهم تؤخذ منهم على تقدير ، وتُصَرف بتدبير ؛ فهذا ذو القرنين لما عرضوا عليه المال فى أن يكف عنهم ما يحذرونه من عادية يأجوج ومأجوج ؛ قال : لست أحتاج إليه وإنما أحتاج إليكم « فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ » أى اخدموا بأنفسكم معى ، فإن الأموال عندى والرجال عندكم ، ورأى أن الأموال لا تغنى عنهم ، فإنه إن أخذها أجرة نقص ذلك مما يحتاج إليه ، فيعود بالأجر عليهم ، فكان التطوع بخدمة الأبدان أولى . وضابط الأمر أنه لا يحل مال أحد إلا لضرورة تعرض ، فيؤخذ ذلك المال جهرا لا سرا ، وينفق بالعدل لا بالاستئثار ، وبرأى الجماعة لا بالاستبداد بالأمر . والله تعالى الموفق للصواب .

قوله تعالى : ﴿ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ ﴾ أى أعطونى زبر الحديد وناولونيها . أمرهم بنقل الآلة ، وهذا كله إنما هو استدعاء العطية التى بغير معنى الهبة ، وإنما هو استدعاء للمناولة ،

لأنه قد ارتبط من قوله : إنه لا يأخذ منهم الخرج، فلم يبق إلا استدعاء المناولة، وأعمال الأبدان . « وَزُبَرَ الْحَدِيدِ » قطع الحديد . وأصل الكلمة الاجتماع، ومنه زُبْرة الأسد لما اجتمع من الشعر على كاهله . وزبرت الكتاب أى كتبته وجمعت حروفه . وقرأ أبو بكر والمفضل « ردما آيتونى » من الإتيان الذى هو المجىء؛ أى جيئونى بزبر الحديد، فلما سقط الخافض انتصب الفعل على نحو قول الشاعر (١) :

* أَمَرْتُكَ الخيرَ ... *

حذف الجار فنصب الفعل . وقرأ الجمهور « زُبَرَ » بفتح الباء . وقرأ الحسن بضمها؛ وكل ذلك جمع زُبْرة وهى القطعة العظيمة منه .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا سَاوَى ﴾ يعنى البناء فحذف لقوة الكلام عليه . ﴿ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ ﴾ قال أبو عبيدة : هما جانبا الجبل، وسميا بذلك لتصادفهما أى لتلاقيهما . وقاله الزهرى وابن عباس؛ كأنه يعرض عن الآخر؛ من الصدوف؛ قال الشاعر :

كِلَا الصَّدَفَين ينْفذُهُ سَنَاهَا * تَوَقُّدُ مِثْلَ مِصْباحِ الظَّلَامِ

ويقال للبناء المرتفع صدف تشبيه بجانب الجبل . وفى الحديث : كان إذا مر بصدف مائل أسرع المشى . قال أبو عبيد : الصدف والهدف كل بناء عظيم مرتفع . ابن عطية : الصَّدَفان الجبلان المتناوِحان (٢) ولا يقال للواحد صَدف، وإنما يقال صَدَفان للاثنين؛ لأن أحدهما يصادف الآخر . وقرأ نافع وحمزة والكسائى « الصَّدَفَيْنِ » بفتح الصاد وشدّها وفتح الدال، وهى قراءة عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه وعمر بن عبد العزيز، وهى اختيار أبى عبيدة لأنها أشهر اللغات . وقرأ ابن كثير وابن عامر وأبو عمرو « الصُّدُفين » بضم الصاد والدال . وقرأ عاصم فى رواية أبى بكر « الصُّدْفَيْنِ » بضم الصاد وسكون الدال، نحو الجُرْف والجُرُف . فهو تخفيف . وقرأ ابن الماجشون بفتح الصاد وضم الدال . وقرأ قتادة « بين الصَّدْفَين » بفتح الصاد وسكون الدال، وكل ذلك بمعنى واحد وهما الجبلان المتناوِحان .

---

(١) هو عمرو بن معدى كرب الزبيدى . والبيت بتمامه :

أمرتك الخير فافعل ما أمرت به * فقد تركتك ذا مال وذا نشب

(٢) التناوح : التقابل .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱنفُخُوا ﴾ إلى آخر الآية أى على زبر الحديد بالأكيار، وذلك أنه كان يأمر بوضع طاقة من الزبر والحجارة، ثم يوقد عليها الحطب والفحم بالمنافخ حتى تحمى، والحديد إذا أوقد عليه صار كالنار، فذلك قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا ﴾ ثم يؤتى بالنحاس المذاب أو بالرصاص أو بالحديد بحسب الخلاف فى القطر، فيفرغه على تلك الطاقة المنضدة، فإذا التأم واشتد ولصق البعض بالبعض استأنف وضع طاقة أخرى، إلى أن آستوى العمل فصار جبلا صَلْدا . قال قتادة : هو كالبُرْد المحبَّر، طريقة سوداء، وطريقة حمراء . ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءه رجل فقال : يارسول الله ! إنى رأيت سدّ يأجوج ومأجوج، قال : "كيف رأيته" قال : رأيته كالبُرْد المحبَّر، طريقة صفراء، وطريقة حمراء، وطريقة سوداء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "قد رأيته" . ومعنى « حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا » أى كالنار . ومعنى ﴿ آتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ أى أعطونى قطرا أفرغ عليه، على التقديم والتأخير . ومن قرأ « آئتونى » فالمعنى عنده تعالوا أفرغ عليه نحاسا . والقطر عند أكثر المفسرين النحاس المذاب، وأصله من القَطْر؛ لأنه إذا أذيب قطر كما يقطر الماء . وقالت فرقة : القطر الحديد المذاب . وقالت فرقة منهم آبن الأنبارى : الرصاص المذاب . وهو مشتق من قَطَر يَقطُر قَطْرا . ومنه « وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ » .

قوله تعالى : ﴿ فَمَا ٱسْطَٰعُوٓا أَن يَظْهَرُوهُ ﴾ أى ما آستطاع يأجوج ومأجوج أن يعلوه ويصعدوا فيه؛ لأنه أملس مستوٍ مع الجبل والجبل عالٍ لا يرام . وآرتفاع السدّ مائتا ذراع وخمسون ذراعا . وروى : فى طوله ما بين طرفى الجبلين مائة فرسخ، وفى عرضه خمسون فرسخا؛ قاله وهب بن منبه . ﴿ وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا لَهُۥ نَقْبًا ﴾ لبعد عرضه وقوته . وروى فى الصحيح عن أبى هريرة عن النبىّ صلى الله عليه وسلم قال : "فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثلُ هذه" وعقد وهب بن منبه بيده تسعين — وفى رواية — وحَلّق بإصبعه الإبهام والتى تليها؛ وذكر الحديث . وذكر يحيى بن سلّام عن سعد بن أبى عَرُوبة عن قتادة عن أبى رافع عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إن يأجوج ومأجوج

يخرقون السدّ كل يوم حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم آرجعوا فستخرقونه غدا فيعيده الله كأشدّ ما كان حتى إذا بلغت مدّتهم وأراد الله أن يبعثهم على الناس حفروا حتى إذا كادوا يرون شعاع الشمس قال الذى عليهم آرجعوا فستحفرونه إن شاء الله فيعودون إليه وهو كهيئته حين تركوه فيخرقونه ويخرجون على الناس " الحديث وقد تقدّم .

قوله تعالى : « فَمَا آسْطَاعُوا » بتخفيف الطاء على قراءة الجمهور . وقيل : هى لغة بمعنى آستطاعوا . وقيل : بل آستطاعوا بعينه كثر فى كلام العرب حتى حذف بعضهم منه التاء فقالوا : آسطاعوا . وحذف بعضهم منه الطاء فقال : آستاع يستيع بمعنى آستطاع يستطيع ، وهى لغة مشهورة . وقرأ حمزة وحده « فما آسطّاعوا » بتشديد الطاء كأنه أراد آستطاعوا، ثم أدغم التاء فى الطاء فشدّدها ، وهى قراءة ضعيفة الوجه ؛ قال أبو على : هى غير جائزة[1] . وقرأ الأعمش « فَمَا آسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا آسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا » بالتاء فى الموضعين .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّى ﴾ القائل ذو القرنين، وأشار بهذا إلى الردم ، والقوّة عليه ، والآنتفاع به فى دفع ضرر يأجوج ومأجوج . وقرأ ابن أبى عَبْلة « هٰذِهِ رَحْمَةٌ مِنْ ربى » .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى ﴾ أى يوم القيامة . وقيل : وقت خروجهم . ﴿ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ أى مستويا بالأرض؛ ومنه قوله تعالى: « إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ » قال ابن عرفة: أى جعلت مستوية لا أكمة فيها، ومنه قوله تعالى: « جعله دكا » قال اليزيدى: أى مستويا؛ يقال : ناقة دكاء إذا ذهب سنامها . وقال القتبى : أى جعله مدكوكا ملصقا بالأرض . وقال الكلبي : قطعا متكسرا؛ قال :

* هل غيرُ غادٍ دَكَّ غارا فانهدم *

---

(١) وقال النحاس : لا يقدر أحد أن ينطق بها ، لأن السين ساكنة والطاء المدغمة ساكنة ، وقال سيبويه : هذا محال .

وقال الأزهرى : يقال دككته أى دققته . ومن قرأ « دَكَّآءَ » أراد جعل الجبل أرضا دكاء، وهى الرابية التى لا تبلغ أن تكون جبلا و جمعها دكاوات . قرأ حمزة وعاصم والكسائى « دكاء » بالمدّ على التشبيه بالناقة الدكاء، وهى التى لا سنام لها، وفى الكلام حذف تقديره : جعله مثل دكاء؛ ولابدّ من تقدير هذا الحذف . لأن السدّ مذكر فلا يوصف بدكاء . ومن قرأ « دَكًّا » فهو مصدر دَكَّ يدك إذا هـدم ورضّ؛ ويحتمل أن يكون « جعـل » بمعنى خلق . وينصب «دكًّا» على الحال. وكذلك النصب أيضا فى قراءة من مدّ يحتمل الوجهين.

قوله تعالى : وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ
فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا ﴿٩٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾
ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَآءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُواْ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾
أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِي مِن دُونِيٓ أَوْلِيَآءَ إِنَّآ أَعْتَدْنَا
جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا ﴿١٠٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾
ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿١٠٤﴾
أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ وَلِقَآئِهِۦ فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَلَا
نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا ﴿١٠٥﴾ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُواْ
وَٱتَّخَذُوٓاْ ءَايَٰتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٠٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ
كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا
حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ
أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ
مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ
رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا ﴿١١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ ﴾ الضمير في « تركنا » لله تعالى ؛ أي تركنا الجن والإنس يوم القيامة يموج بعضهم في بعض . وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج « يومئذ » أي وقت كمال السدّ يموج بعضهم في بعض . وآستعارة الموج لهم عبارة عن الحيرة وتردّد بعضهم في بعض ، كالمولهين من همٍّ وخوف ؛ فشبههم بموج البحر الذي يضطرب بعضه في بعض . وقيل : تركنا يأجوج ومأجوج يوم آنفتاح السدّ يموجون في الدنيا مختلطين لكثرتهم .

قلت : فهذه ثلاثة أقوال ، أظهرها أوسطها ، وأبعدها آخرها ، وحسن الأول ؛ لأنه تقدم ذكر القيامة في تأويل قوله تعالى : « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي » . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ﴾ تقدّم في « الأنعام »(١) . ﴿ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴾ يعني الجن والإنس في عرصات القيامة . ﴿ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ ﴾ أي أبرزناها لهم . ﴿ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴾ . ﴿ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ ﴾ في موضع خفض نعت « للكافرين » . ﴿ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي ﴾ أي هم بمنزلة من عينه مغطاة فلا ينظر إلى دلائل الله تعالى . ﴿ وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴾ أي لا يطيقون أن يسمعوا كلام الله تعالى ، فهم بمنزلة من صمّ .

قوله تعالى : ﴿ أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أي ظن . وقرأ عليّ وعكرمة ومجاهد وابن محيصن « أَفَحَسْبُ » بإسكان السين وضم الباء ؛ أي كفاهم . ﴿ أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي ﴾ يعني عيسى والملائكة وعزيرا . ﴿ مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ ﴾ ولا أعاقبهم ؛ ففي الكلام حذف . وقال الزجاج : المعنى ؛ أفحسبوا أن ينفعهم ذلك . ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴾ إلى قوله : ﴿ وَزْنًا ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا » — الآية — فيه دلالة على أن من الناس من يعمل العمل وهو يظن أنه محسن وقد حبط سعيه ، والذي يوجب إحباط السعي إما فساد الآعتقاد أو المراءاة ، والمراد هنا الكفر . روى البخاري عن مصعب قال :

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

سألت أبى « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا » أهم الحَرُوريّة ؟ قال : لا ، هم اليهود والنصارى . أما اليهود فكذّبوا محمدا صلى الله عليه وسلم ، وأما النصارى فكفروا بالجنة ، فقالوا : لا طعام فيها ولا شراب ؛ والحرورية الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ؛ وكان سعد يسميهم الفاسقين . والآية معناها التوبيخ ؛ أى قل لهؤلاء الكفرة الذين عبدوا غيرى : يخيب سعيهم وآمالهم غدا ؛ فهم الأخسرون أعمالا ، وهم ﴿ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ فى عبادة من سواى . قال ابن عباس : يريد كفار أهل مكة . وقال علىّ : هم الخوارج أهل حروراء . وقال مُرّة : هم الرهبان أصحاب الصوامع . وروى أن ابن الكواء سأله عن الأخسرين أعمالا فقال له : أنت وأصحابك . قال ابن عطية : ويضعف هذا كله قوله تعالى بعد ذلك : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ﴾ وليس من هذه الطوائف من يكفر بالله ولقائه والبعث والنشور ، وإنما هذه صفة مشركى مكة عبدة الأوثان ؛ وعلىّ وسعد رضى الله عنهما ذكرا أقواما أخذوا بحظهم من هذه الآية . و « أعمالا » نصب على التمييز . و « حبِطت » قراءة الجمهور بكسر الباء . وقرأ ابن عباس « حبَطت » بفتحها .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ قراءة الجمهور « نقيم » بنون العظمة . وقرأ مجاهد بياء الغائب ؛ يريد فلا يقيم الله عز وجل . وقرأ عبيد بن عمير « فلايقوم » ويلزمه أن يقرأ « وزن » وكذلك قرأ مجاهد « فَلَا يَقُومُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنٌ » . قال عبيد بن عمير : يؤتى يوم القيامة بالرجل العظيم الطويل الأكول الشروب فلا يزن عند الله جناح بعوضة .

قلت : هذا لا يقال مثله من جهة الرأى ، وقد ثبت معناه مرفوعا فى صحيحى البخارى ومسلم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : " إنه ليأتى الرجلُ العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة اقرءوا إن شئتم « فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا » " . والمعنى أنهم لا ثواب لهم ، وأعمالهم مقابلة بالعذاب ، فلا حسنة لهم توزن فى موازين القيامة ومن لا حسنة له فهو فى النار . وقال أبو سعيد الخدرى : يؤتى بأعمال

بجبال تهامة فلا تزن شيئا . وقيل : يحتمل أن يريد المجاز والاستعارة؛ كأنه قال : فلا قدر لهم عندنا يومئذ؛ والله أعلم . وفى هذا الحديث من الفقه ذمّ السِّمن لمن تكلّفه، لما فى ذلك من تكلف المطاعم والاشتغال بها عن المكارم، بل يدل على تحريم الأكل الزائد على قدر الكفاية المبتغى به التّرفه والسِّمن . وقد قال صلى الله عليه وسلم : "إن أبغض الرجال إلى الله تعالى الحبر السَّمين" . ومن حديث عِمران بن حُصَين عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "خيركم قرنى ثم الذين يلونهم — قال عِمران فلا أدرى أذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة — ثم إن من بعدكم قوماً يَشهدون ولا يُستشهدون ويخونون ولا يُؤتمنون ويَنذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السِّمن" وهذا ذمّ . وسبب ذلك أن السِّمن المكتسب إنما هو من كثرة الأكل والشَّرَه، والدعة والراحة والأمن والاسترسال مع النفس على شهواتها، فهو عبد نفسه لا عبد ربه، ومن كان هذا حاله وقع لا محالة فى الحرام، وكل لحم تولد عن سحت فالنار أولى به ؛ وقد ذمّ الله تعالى الكفار بكثرة الأكل فقال : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ » فإذا كان المؤمن يتشبه بهم، ويتنعم بتنعمهم فى كل أحواله وأزمانه، فأين حقيقة الإيمان، والقيام بوظائف الإسلام ؟! ومن كثر أكله وشربه كثر نهمه وحرصه، وزاد بالليل كسله ونومه، فكان نهارَه هائما، وليلَه نائما . وقد مضى فى « الأعراف »[(١)] هذا المعنى؛ وتقدّم فيها ذكر الميزان[(٢)]، وأن له كفتين توزن فيهما صحائف الأعمال فلا معنى للإعادة . وقال عليه الصلاة والسلام حين ضحكوا من حَمْش[(٣)] ساق ابن مسعود وهو يصعد النخلة : "تضحكون من ساق توزن بعمل أهل الأرض" فدل هذا على أن الأشخاص توزن؛ ذكره الغزنوى .

قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ ﴾ « ذلك » إشارة إلى ترك الوزن، وهو فى موضع رفع بالابتداء « جزاؤهم » خبره و﴿ جَهَنَّمُ ﴾ بدل من المبتدإ الذى هو « ذلك » و « ما » فى قوله : ﴿ بِمَا كَفَرُوا ﴾ مصدرية، والهزء الاستخفاف والسخرية؛ وقد تقدّم .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٩١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .　(٢) راجع جـ ٧ ص ١٦٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .　(٣) حمش الساق : دقيقها .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴾ قال قتادة : الفردوس ربوة الجنة وأوسطها وأعلاها وأفضلها وأرفعها . وقال أبو أمامة الباهلى : الفردوس سرة الجنة . وقال كعب : ليس فى الجنان جنة أعلى من جنة الفردوس ، فيها الآمرون بالمعروف ، والناهون عن المنكر . وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من آمن بالله وبرسوله وأقام الصلاة وصام رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة جاهد فى سبيل الله أو جلس فى أرضه التى ولد فيها " قالوا : يا رسول الله أفلا نبشر الناس ؟ قال : " إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض فإذا سألتم الله تعالى فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة — أراه قال — وفوقه عرش الرحمن ومنه تفجّر أنهار الجنة " وقال مجاهد : والفردوس البستان بالرومية . الفراء : هو عربى . والفردوس حديقة فى الجنة . وفردوس اسم روضة دون اليمامة . والجمع فراديس ، قال أمية بن أبى الصلت الثقفى :

كانت منازلهم إذ ذاك ظاهرةً * فيها الفَراديسُ والفومانُ والبصلُ

والفراديس موضع بالشام . وكَرْمٌ مُفَرْدَس أى مُعرَّش . ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى دائمين . ﴿ لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴾ أى لا يطلبون تحويلا عنها إلى غيرها . والحول بمعنى التحويل ؛ قاله أبو علىّ . وقال الزجاج : حال من مكانه حِوَلًا كما يقال : عَظُم عِظَمًا . قال : ويجوز أن يكون من الحيلة ، أى لا يحتالون منزلا غيرها . قال الجوهرى : التحول التنقل من موضع إلى موضع ، والاسم الحِوَل ، ومنه قوله تعالى : « خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا » .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴾ نفد الشىء إذا تم وفرغ ؛ وقد تقدم . ﴿ وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ أى زيادة على البحر عددا أو وزنا . وفى مصحف أبىّ « مِدَاداً » وكذلك قرأها مجاهد وابن محيصن وحميد . وانتصب « مددا » على التمييز أو الحال . وقال ابن عباس : قالت اليهود لما قال لهم النبى صلى الله عليه وسلم « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً » قالوا : وكيف وقد أوتينا التوراة ، ومن

أوتى التوراة فقد أوتى خيرا كثيرا ؟ فنزلت « قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ » الآية . وقيل : قالت اليهود إنك أوتيت الحكمة، ومن أوتى الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا، ثم زعمت أنك لا علم لك بالروح ؟ ! فقال الله تعالى قل : وإن أوتيت القرآن وأوتيتم التوراة فهى بالنسبة إلى كلمات الله تعالى قليلة . قال ابن عباس : « كَلِمَاتُ رَبِّي » أى مواعظ ربى . وقيل : عنى بالكلمات الكلام القديم الذى لا غاية له ولا منتهى، وهو وإن كان واحدا فيجوز أن يعبر عنه بلفظ الجمع لما فيه من فوائد الكلمات، ولأنه ينوب منابها، بجازت العبارة عنها بصيغة الجمع تفخيما؛ وقال الأعشى :

ووجهٌ نقىُّ اللون صافٍ يَزِينُهُ * مع الجِيدِ لَبَّاتٌ لها ومَعَاصِمُ

فعبر باللّبات عن اللبة . وفى التنزيل « نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ » و« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ » « وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ » وكذلك « إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً » لأنه ناب مناب أمة . وقيل : أى ما نفدت العبارات والدلالات التى تدل على مفهومات معانى كلامه سبحانه وتعالى . وقال السدىّ : أى إن كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد صفات الجنة التى هى دار الثواب . وقال عكرمة : لنفد البحر قبل أن ينفد ثواب من قال لا إله إلا الله . ونظير هذه الآية « وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ » . وقرأ حمزة والكسائىّ « قَبْلَ أَنْ يَنْفَدَ » بالياء لتقدّم الفعل .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ أى لا أعلم إلا ما يعلّمنى الله تعالى، وعلم الله تعالى لا يحصى، وإنما أمرت بأن أبلغكم بأنه لا إله إلا الله . ﴿ فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ ﴾ أى يرجو رؤيته وثوابه ويخشى عقابه ﴿ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً ﴾ قال ابن عباس : نزلت فى جُنْدُب بن زهير العامرىّ، قال : يا رسول الله إنى أعمل العمل لله تعالى، وأريد وجه الله تعالى، إلا أنه إذا اطُّلِع عليه سَرَّنِى؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "إن الله طيّبٌ ولا يقبل إلا الطيب ولا يقبل ما شُورِكَ فيه" فنزلت الآية . وقال طاوس قال رجل : يا رسول الله ! إنى أحب الجهاد فى سبيل الله تعالى وأحب أن يُرى مكانى فنزلت

هذه الآية . وقال مجاهد : جاء رجل للنبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله! إنى أتصدق وأصل الرَّحِم ولا أصنع ذلك إلا لله تعالى فيذكر ذلك منّى وأُحمَد عليه فيسرّنى ذلك وأُعجَب به ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يقل شيئا ، فأنزل الله تعالى « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » .

قلت : والكل مراد ، والآية تعم ذلك كله وغيره من الأعمال . وقد تقدّم فى سورة « هود »(١) حديث أبى هريرة الصحيح فى الثلاثة الذين يقضى عليهم أول الناس . وقد تقدّم فى سورة « النساء »(٢) الكلام على الرياء ، وذكرنا من الأخبار هناك ما فيه كفاية . وقال الماوردى وقال جميع أهل التأويل : معنى قوله تعالى : « وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » إنه لا يرائى بعمله أحدا . وروى الترمذى الحكيم رحمه الله تعالى فى « نوادر الأصول » قال : حدّثنا أبى رحمه الله تعالى قال : حدّثنا مكى بن إبراهيم قال : حدّثنا عبد الواحد ابن زيد عن عبادة بن نُسَىّ قال : أتيت شداد بن أوس فى مصلاه وهو يبكى ، فقلت : ما الذى أبكاك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: حديث سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما ، إذ رأيت بوجهه أمرا ساءنى فقلت : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ما الذى أرى بوجهك ؟ قال : " أمرا أتخوفه على أمتى من بعدى " قلت : ما هو يا رسول الله ؟ قال : " الشرك والشهوة الخفية " قلت : يا رسول الله ! وتشرك أمتك من بعدك؟ قال : " يا شداد أما إنهم لا يعبدون شمسا ولا قمرا ولا حجرا ولا وثنا ولكنهم يراءون بأعمالهم " قلت : والرياء شرك هو؟ قال : " نعم " . قلت : فما الشهوة الخفية ؟ قال : " يصبح أحدهم صائما فتعرض له شهوات الدنيا فيفطر" قال عبد الواحد : فلقيت الحسن ، فقلت : يا أبا سعيد ! أخبرنى عن الرياء أشرك هو؟ قال : نعم ، أما تقرأ « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » . وروى إسمعيل بن إسحق قال حدثنا محمد بن أبى بكر قال حدثنا المعتمر بن سليمان عن ليث عن شهر بن حوشب قال : كان عبادة بن الصامت وشداد

(١) راجع جـ ٩ ص ١٤ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٥ ص ١٨٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

ابن أوس جالسين، فقالا : إنا نتخوف على هذه الأمة من الشرك والشهوة الخفية، فأما الشهوة الخفية فمن قبل النساء . وقالا : سمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " من صلى صلاة يرائى بها فقد أشرك ومن صام صياما يرائى به فقد أشرك " ثم تلا « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » .

قلت : وقد جاء تفسير الشهوة الخفية بخلاف هذا، وقد ذكرناه فى « النساء »(١) . وقال سهل بن عبد الله : وسئل الحسن عن الإخلاص والرياء فقال : من الإخلاص أن تحبّ أن تُكتم حسناتك ولا تحب أن تُكتَم سيئاتك ، فإن أظهر الله عليك حسناتك تقول هذا من فضلك وإحسانك ، وليس هذا من فعلى ولا من صنيعى، وتذكر قوله تعالى : « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » . « وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا » الآية؛ يؤتون الإخلاص، وهم يخافون ألا يقبل منهم؛ وأما الرياء فطلب حظ النفس من عملها فى الدنيا؛ قيل له : كيف يكون هذا ؟ قال : من طلب بعمل بينه و بين الله تعالى سوى وجه الله تعالى والدار الآخرة فهو رياء . وقال علماؤنا رضى الله تعالى عنهم : وقد يفضى الرياء بصاحبه إلى آستهزاء الناس به؛ كما يحكى أن طاهر بن الحسين قال لأبى عبد الله المروزى : منذ كم صرت إلى العراق يا أبا عبد الله ؟ قال : دخلت العراق منذ عشرين سنة وأنا منذ ثلاثين سنة صائم؛ فقال يا أبا عبد الله سألناك عن مسئلة فأجبتنا عن مسئلتين . وحكى الأصمعى أن أعرابيا صلى فأطال و إلى جانبه قوم ، فقالوا : ما أحسن صلاتك ؟ ! فقال : وأنا مع ذلك صائم . أين هذا من قول الأشعث بن قيس وقد صلى فخفف ، فقيل له إنك خففت؛ فقال : إنه لم يخالطها رياء؛ فخلص من تنقصهم بنفى الرياء عن نفسه، والتصنع من صلاته ؛ وقد تقدّم فى « النساء »(٢) دواء الرياء من قول لقمان؛ وأنه كتمان العمل . وروى الترمذى الحكيم حدّثنا أبى رحمه الله تعالى قال : أنبأنا الحِمَّانى قال : أنبأنا جرير عن ليث عن شيخ عن مَعْقِل بن يَسَار قال قال أبو بكر وشهد به على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الشرك ، قال : " هو فيكم أخفى من دبيب النمل

(١) راجع جـ ٥ ص ١٨١ طبعة أولى أو ثانية .   (٢) راجع جـ ٥ ص ١٨١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وسأدلك على شيء إذا فعلته أذهب عنك صغار الشرك وكباره تقول اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم وأستغفرك لما لا أعلم تقولها ثلاث مرات". وقال عمر بن قيس الكندى سمعت معاوية تلا هذه الآية على المنبر « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ » فقال : إنها لآخر آية نزلت من السماء . وقال عمر قال النبي صلى الله عليه وسلم : "أوحى إلى أنه من قرأ « فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا » رفع له نور ما بين عدن إلى مكة حشوه الملائكة يصلون عليه ويستغفرون له" . وقال معاذ بن جبل قال النبي صلى الله عليه وسلم : "من قرأ أول سورة الكهف وآخرها كانت له نورا من قرنه إلى قدمه ومن قرأها كلها كانت له نورا من الأرض إلى السماء" وعن ابن عباس أنه قال له رجل : إنى أضمر أن أقوم ساعة من الليل فيغلبنى النوم ، فقال : إذا أردت أن تقوم أى ساعة شئت من الليل فاقرأ إذا أخذت مضجعك « قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي » إلى آخر السورة فإن الله تعالى يوقظك متى شئت من الليل؛ ذكر هذه الفضائل الثعلبي رضى الله تعالى عنه . وفى مسند الدارمى أبى محمد أخبرنا محمد بن كثير عن الأوزاعى عن عبدة عن زر بن حبيش قال : من قرأ آخر سورة الكهف لساعة يريد أن يقوم من الليل قامها ؛ قال عبدة فجربناه فوجدناه كذلك . قال ابن العربى : كان شيخنا الطُّرْطُوشىّ الأكبر يقول : لا تذهب بكم الأزمان فى مصاولة الأقران ، ومواصلة الإخوان ؛ وقد ختم سبحانه وتعالى البيان بقوله : « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا » .

تفسير سورة مريم عليها السلام

وهى مكية بإجماع . وهى تسعون وثمان آيات

ولما كانت وقعة بدر ، وقتل الله فيها صناديد الكفار ، قال كفار قريش : إن ثأركم بأرض الحبشة ، فأهدوا إلى النجاشى ، وابعثوا إليه رجلين من ذوى رأيكم لعله يعطيكم مَنْ عنده من قريش ، فتقتلونهم بمن قتل منكم ببدر ؛ فبعث كفار قريش عمرو بن العاص وعبد الله

ابن أبي ربيعة، فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعثهما، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرو بن أمية الضَّمْريّ، وكتب معه إلى النجاشي، فقدم على النجاشي، فقرأ كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم دعا جعفر بن أبي طالب والمهاجرين، وأرسل إلى الرهبان والقسيسين فجمعهم، ثم أمر جعفر أن يقرأ عليهم القرآن، فقرأ سورة مريم «كٓهيعٓصٓ» وقاموا تفيض أعينهم من الدّمع، فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم «وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ». وقرأ إلى قوله: «الشاهدين». ذكره أبو داود. وفي السيرة؛ فقال النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟ قال جعفر: نعم؛ فقال له النجاشي: اقرأه عليّ. قال: فقرأ «كٓهيعٓصٓ» فبكى والله النجاشي حتى أخضل لحيته، وبكت أساقفتهم حتى أخضلوا لحاهم حين سمعوا ما يتلى عليهم؛ فقال النجاشي: هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، انطلقا فوالله لا أسلمهم إليكما أبدا؛ وذكر تمام الخبر.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: كٓهيعٓصٓ (١) ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا (٢)
إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا (٣) قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ
الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا (٤) وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ
مِن وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا (٥) يَرِثُنِي
وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا (٦) يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ
بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا (٧) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي
غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا (٨) قَالَ كَذَٰلِكَ
قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩)

قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ
سَوِيًّا ﴿١٠﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا
بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١١﴾ يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾
وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا
عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ تقدم الكلام فى أوائل السور (١) . وقال ابن عباس فى « كٓهيعٓصٓ » : إن الكاف من كافٍ، والهاء من هادٍ، والياء من حكيم، والعين من عليم، والصاد من صادق؛ ذكره ابن عزيز القشيرى عن ابن عباس؛ معناه كافٍ لخلقه، هاد لعباده، يده فوق أيديهم، عالم بهم، صادق فى وعده؛ ذكره الثعلبى عن الكلبى والسدى ومجاهد والضحاك . وقال الكلبى أيضا : الكاف من كريم وكبير وكافٍ، والهاء من هادٍ، والياء من رحيم، والعين من عليم وعظيم، والصاد من صادق؛ والمعنى واحد . وعن ابن عباس أيضا : هو اسم من أسماء الله تعالى؛ وعن علىّ رضى الله عنه هو اسم الله عز وجل وكان يقول : يا كهيعص آغفر لى؛ ذكره الغزنوى . السدى : هو اسم الله الأعظم الذى إذا سئل به أعطى، وإذا دعى به أجاب . قتادة : هو اسم من أسماء القرآن؛ ذكره عبد الرزاق عن مَعْمَر عنه . وقيل : هو اسم للسورة؛ وهو آختيار القشيرى فى أوائل الحروف؛ وعلى هذا قيل : تمام الكلام عند قوله : « كهيعص » كأنه إعلام باسم السورة، كما تقول : كتاب كذا أو باب كذا ثم تشرع فى المقصود . وقرأ ابن جعفر هذه الحروف متقطعة، ووصلها الباقون، وأمال أبو عمرو الهاء وفتح الياء، وآبن عامر وحمزة بالعكس، وأمالها جميعا الكسائى وأبو بكر وخلف . وقرأهما بين اللفظين أهل المدينة نافع وغيره . وفتحهما الباقون . وعن خارجة أن الحسن كان يضم كاف، وحكى غيره أنه كان يضم ها، وحكى إسمعيل بن إسحق أنه كان يضم يا . قال أبو حاتم : ولا يجوز ضم الكاف والهاء والياء؛ قال النحاس : قراءة أهل المدينة

(١) راجع جـ ١ ص ١٥٤ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

من أحسن ما فى هذا، والإمالة جائزة فى هَا ويَا . وأما قراءة الحسن فأشكلت على جماعة حتى قالوا : لا تجوز؛ منهم أبو حاتم . والقول فيها ما بيَّنه هرون القارئ؛ قال : كان الحسن يشم الرفع؛ فمعنى هذا أنه كان يومئ؛ كما حكى سيبويه أن من العرب من يقول : الصلاة والزكاة يومئ إلى الواو، ولهذا كتبها فى المصحف بالواو . وأظهر الدال من هجاء « ص » نافع وابن كثير وعاصم ويعقوب، وهو آختيار أبى عبيد؛ وأدغمها الباقون .

قوله تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا . إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ ﴾ فى رفع « ذكر » ثلاثة أقوال؛ قال الفراء : هو مرفوع بـ«كهيعص» ؛ قال الزجاج : هذا محال؛ لأن « كهيعص » ليس هو مما أنبأنا الله عز وجل به عن زكريا ، وقد خبّر الله تعالى عنه وعن ما بشّر به ، وليس « كهيعص » من قصته . وقال الأخفش : التقدير؛ فيما يقص عليكم ذكر رحمة ربك . والقول الثالث : أن المعنى هذا الذى يتلوه عليكم ذكر رحمة ربك. وقيل : «ذكر رحمة ربك» رفع بإضمار مبتدإ؛ أى هذا ذكر رحمة ربك ؛ وقرأ الحسن « ذَكَّرَ رَحْمَةَ رَبِّكَ » أى هذا المتلو من القرآن ذَكَّر رحمة ربك . وقرئ « ذَكِّرْ » على الأمر. « ورحمة » تكتب ويوقف عليها بالهاء، وكذلك كل ما كان مثلها ، لا اختلاف فيها بين النحويين، واعتلوا فى ذلك أن هذه الهاء لتأنيث الأسماء فرقا بينها وبين الأفعال .

الثانيــة — قوله تعالى: ﴿ عَبْدَهُ ﴾ قال الأخفش : هو منصوب بـ«رحمة» . «زكريا» بدل منه؛ كما تقول : هذا ذكر ضرب زيد عمرا؛ فعمرا منصوب بالضرب، كما أن « عبده » منصوب بالرحمة . وقيل : هو على التقديم والتأخير؛ معناه : ذِكر ربك عبده زكريا برحمة ؛ فـ«عبده» منصوب بالذكر؛ ذكره الزجاج والفراء . وقرأ بعضهم « عَبْدُهُ زَكَرِيَّا » بالرفع؛ وهى قراءة أبى العالية . وقرأ يحيى بن يعمر « ذَكَرَ » بالنصب على معنى هذا القرآن ذَكَرَ رحمة عبده زكريا . وتقدمت اللغات والقراءة فى « زكريا » فى « آل عمران »[1] .

(١) راجع جـ ٤ ص ٧٠ طبعة أولى أو ثانية .

الثالثة — قوله تعالى: ﴿ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴾ مثل قوله : « ٱدْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَايُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ » وقد تقدّم (١) . والنداء الدعاء والرغبة؛ أى ناجى ربه بذلك فى محرابه . دليله قوله : « فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ » فبيّن أنه استجاب له فى صلاته، كما نادى فى الصلاة . وٱختلف فى إخفائه هذا النداء؛ فقيل : أخفاه من قومه لئلا يلام على مسئلة الولد عند كبر السن؛ ولأنه أمر دنيوى، فإن أجيب فيه نال بغيته، وإن لم يجب لم يعرف بذلك أحد . وقيل : مخلصا فيه لم يطلع عليه إلا الله تعالى . وقيل : لما كانت الأعمال الخفية أفضل وأبعد من الرياء أخفاه . وقيل : « خَفِيًّا » سِرًّا من قومه فى جوف الليل؛ والكل محتمل والأوّل أظهر؛ والله أعلم . وقد تقدّم أن المستحب من الدعاء الإخفاء فى سورة « الأعراف » (٢) وهذه الآية نص فى ذلك؛ لأنه سبحانه أثنى بذلك على زكريا . وروى إسمعيل قال حدّثنا مسدد قال حدّثنا يحيي بن سعيد عن أسامة بن زيد عن محمد بن عبد الرحمن وهو ٱبن أبى كبشة عن سعد بن أبى وقاص عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن خير الذكر الخفى وخير الرزق ما يكفى " وهذا عام . قال يونس بن عبيد : كان الحسن يرى أن يدعو الإمام فى القنوت ويؤمن من خلفه من غير رفع صوت، وتلا يونس « إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا » . قال ٱبن العربى : وقد أسر مالك القنوت وجهر به الشافعى، والجهر به أفضل؛ لأن النبى صلى الله عليه وسلم كان يدعو به جهرا .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ » قرئ « وَهَنَ » بالحركات الثلاث أى ضعف . يقال : وَهَنَ يَهِن وَهْنا إذا ضعف فهو واهنٌ . وقال أبو زيد يقال : وَهَن يَهِن ووَهِن يَوْهَن . وإنما ذكر العظم لأنه عمود البدن، وبه قوامه، وهو أصل بنائه، فإذا وهن تداعى وتساقط سائر قوته؛ ولأنه أشدّ ما فيه وأصلبه، فإذا وهن كان ما وراءه أوهن

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٢٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٢٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

منه . ووحّده لأن الواحد هو الدال على معنى الجنسية، وقصده إلى أن هذا الجنس الذى هو العمود والقوام ، وأشدّ ماتركّب منه الجسد قد أصابه الوهن، ولو جمع لكان قصد إلى معنى آخر، وهو أنه لم يهن منه بعض عظامه ولكن كلها .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ وَٱشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾ أدغم السين فى الشين أبو عمرو . وهــذا من أحسن الاستعارة فى كلام العرب . والاشتعال انتشار شعاع النار؛ شبه به انتشار الشيب فى الرأس ؛ يقول : شخت وضعفت؛ وأضاف الاشتعال إلى مكان الشعر ومَنْبِته وهو الرأس . ولم يُضف الرأس آكتفاء بعلم المخاطب أنه رأس زكريا عليه السلام . « وشيبا » فى نصبه وجهان : أحدهما — أنه مصدر لأن معنى آشتعل شاب ؛ وهذا قول الأخفش . وقال الزجاج : وهو منصوب على التميز . النحاس : قول الأخفش أولى لأنه مشتق من فعل فالمصدر أولى به . والشيب مخالطة الشعر الأبيض الأسود .

الثالثــة — قال العلماء : يستحب للمرء أن يذكر فى دعائه نِعمَ الله تعالى عليه وما يليق بالخضوع ؛ لأن قوله تعالى : « وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّى » إظهار للخضوع . وقــوله : « وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا » إظهار لعادات تفضــله فى إجابته أدعيتــه؛ أى لم أكن بدعائى إياك شــقيا ؛ أى لم تكن تخيب دعائى إذا دعوتك ؛ أى إنك عودتنى الإجابة فيما مضى . يقال : شقى بكذا أى تعب فيه ولم يحصل مقصوده . وعن بعضهم أن محتاجا سأله وقال : أنا الذى أحسنتَ إليه فى وقت كذا؛ فقال : مرحبا بمن توسل بنا إلينا؛ وقضى حاجته .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّى خِفْتُ الْمَوَالِىَ مِن وَرَائِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَدُنكَ وَلِيًّا ﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وإنى خِفْتُ الموالِىَ » قرأ عثمان بن عفان ومحمد بن على وعلى ابن الحسين رضى الله تعالى عنهما ويحيى بن يعمر « خَفَّتِ » بفتح الخاء وتشديد الفاء وكسر التاء وسكون الياء من «الموالى» لأنه فى موضع رفع «بخفت» ومعناه انقطعت بالموت . وقرأ الباقون « خِفْتُ » بكسر الخــاء وسكون الفاء وضم التــاء ونصب الياء من « الْمَــوَالِىَ » لأنه

فى موضع نصب بـ«خفت» . و « الموالى » هنا الأقارب و بنو العم والعصبة الذين يلونه فى النسب . والعرب تسمى بنى العم الموالى؛ قال الشاعر[1] :

مَهْلاً بَنِى عمِّنا مَهْلاً مَوَالِينَا * لا تَنْبُشُوا بَيْنَنَا ما كان مَدْفُونَا

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : خاف أن يرثوا ماله وأن ترثه الكلالة فأشفق أن يرثه غير الولد . وقالت طائفة : إنما كان مواليه مهملين للدين فخاف بموته أن يضيع الدين ، فطلب وليا يقوم بالدين بعده؛ حكى هذا القول الزجاج؛ وعليه فلم يسل من يرث ماله؛ لأن الأنبياء لا تُورَث . وهذا هو الصحيح من القولين فى تأويل الآية، وأنه عليه الصلاة والسلام أراد وراثة العلم والنبوة لا وراثة المال؛ لما ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إنا معشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة" وفى كتاب أبى داود : "إن العلماء ورثة الأنبياء وأن الأنبياء لم يورِّثوا دينارا ولا درهما ورَّثوا العلم" . وسيأتى فى هذا مزيد بيان عند قوله : « يرثنى » .

الثانية — هذا الحديث يدخل فى التفسير المسند؛ لقوله تعالى : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ﴾ وعبارة عن قول زكريا : « فَهَبْ لِى مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ » وتخصيص للعموم فى ذلك، وأن سليمان لم يرث من داود مالاً خلّفه داود بعده؛ و إنما ورث منه الحكمة والعلم ، وكذلك ورث يحيى من آل يعقوب ؛ هكذا قال أهل العلم بتأويل القرآن ما عدا الروافض، وإلا ما روى عن الحسن أنه قال: «يرثنى» مالاً «ويرث من آل يعقوب» النبوّة والحكمة؛ وكل قول يخالف قول النبى صلى الله عليه وسلم فهو مدفوع مهجور؛ قاله أبو عمر . قال ابن عطية : والأكثر من المفسرين على أن زكريا إنما أراد وراثة المال؛ ويحتمل قول النبى صلى الله عليه وسلم : "إنا معشر الأنبياء لا نورث" ألا يريد به العموم ، بل على أنه غالب أمرهم؛ فتأمله . والأظهر الأليق بزكريا عليه السلام أن يريد وراثة العلم والدين، فتكون الوراثة مستعارة . ألا ترى أنه لما طلب وليا ولم يخصص ولدا بلّغه الله تعالى أمله على أكمل الوجوه . وقال أبو صالح وغيره : قوله «من آل يعقوب» يريد العلم والنبوة.

(١) هو الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب؛ وهو من شعراء بنى هاشم فى عهد بنى أمية .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿مِنْ وَرَائِي﴾ قرأ ابن كثير بالمدّ والهمز وفتح الياء . وعنه أنه قرأ أيضا مقصورا مفتوح الياء مثل عصايَ . الباقون بالهمز والمدّ وسكون الياء . والقراء على قراءة «خِفت» مثل نِمت إلا ما ذكرنا عن عثمان . وهي قراءة شاذة بعيدة جدا؛ حتى زعم بعض العلماء أنها لا تجوز . قال كيف يقول : خَفَّتِ الموالي مِن بعدِي أي من بعد موتي وهو حيّ ؟ ! . النحاس : والتأويل لها ألا يعني بقوله : « من ورائي » أي من بعد موتي ، ولكن من ورائي في ذلك الوقت؛ وهذا أيضا بعيد يحتاج إلى دليل أنهم خفّوا في ذلك الوقت وقلّوا ، وقد أخبر الله تعالى بما يدل على الكثرة حين قالوا : « أيهم يكفل مريم » . ابن عطية : « من ورائي » من بعدي في الزمن ، فهو الوراء على ما تقدّم في « الكهف »[1] .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ امرأته هي إيشاع بنت فاقوذا ابن قبيل ، وهي أخت حنة بنت فاقوذا؛ قاله الطبري . وحنة هي أم مريم حسب ما تقدم في « آل عمران »[2] بيانه . وقال القتبي : امرأة زكريا هي إيشاع بنت عمران ، فعلى هذا القول يكون يحيي ابن خالة عيسى عليهما السلام على الحقيقة . وعلى القول الآخر يكون ابن خالة أمه . وفي حديث الإسراء قال عليه الصلاة والسلام : "فلقيت ابني الخالة يحيي وعيسى" شاهدا للقول الأول[3] . والله أعلم . والعاقر التي لا تلد لكبر سنها؛ وقد مضى بيانه في « آل عمران »[4] . والعاقر من النساء أيضا التي لا تلد من غير كبر . ومنه قوله تعالى : « وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا » . وكذلك العاقر من الرجال؛ ومنه قول عامر بن الطفيل :

لبئس الفتى إنْ كنتُ أعورَ عاقراً ✱ جبانا فما عُذْرِى لَدَى كُلِّ مَحْضَرِ

الخامسة — قوله تعالى : ﴿فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾ سؤال ودعاء . ولم يصرح بولد لما علم من حاله و بعده عنه بسبب المرأة . قال قتادة : جرى له هذا الأمر وهو ابن بضع وسبعين سنة . مقاتل : خمس وتسعين سنة؛ وهو أشبه؛ فقد كان غلب على ظنه أنه لا يولد له لكبره؛ ولذلك قال : « وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا » . وقالت طائفة : بل طلب الولد،

(١) راجع ص ٣٤ وما بعدها من هذا الجزء .
(٢) راجع ج ٤ ص ٦٥ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) المراد بالقول الأول هنا قول القتبي .
(٤) راجع ج ٤ ص ٧٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

ثم طلب أن تكون الإجابة فى أن يعيش حتى يرثه، تحفظا من أن تقع الإجابة فى الولد ولكن يُخْتَرم، ولا يتحصل منه الغرض .

السادســة — قال العلماء : دعاء زكريا عليه السلام فى الولد إنما كان لإظهار دينه، وإحياء نبوّته، ومضاعفة لأجره لا للدنيا، وكان ربه قد عوّده الإجابة، ولذلك قال : « وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا » ، أى بدعائى إياك . وهذه وسيلة حسنة؛ أن يَتشفّع إليـه بنعمه، يستدر فضله بفضله؛ روى أن حاتم الجود لقيه رجل فسأله؛ فقال له حاتم: من أنت؟ قال: أنا الذى أحسنتَ إليه عام أول؛ فقال : مرحبا بمن تَشفّع إلينا بنا . فإن قيل : كيف أقدم زكريا على مسئلة ما يخرق العادة دون إذن ؟ فالجــواب أن ذلك جائز فى زمان الأنبياء . وفى القرآن ما يكشف عن هذا المعنى؛ فإنه تعالى قال : « كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ» فلما رأى خارق العادة استحكم طمعه فى إجابة دعوته؛ فقال تعالى : « هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » الآية .

السابعــة — إن قال قائل : هذه الآية تدل على جواز الدعاء بالولد، والله سبحانه وتعالى قد حذرنا من آفات الأموال والأولاد، ونبه على المفاسد الناشئة من ذلك؛ فقال : « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ » . وقال : إِنَّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ » . فالجواب أن الدعاء بالولد معلوم من الكتاب والسنة حسب ماتقدّم فى « آل عمران »[(١)] بيانه . ثم إن زكريا عليه السلام تحرز فقال : « ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً » وقال : « وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا » . والولد إذا كان بهذه الصفة نفع أبويه فى الدنيا والآخرة، وخرج من حدّ العداوة والفتنة إلى حدّ المسرة والنعمة . وقد دعا النبى صلى الله عليه وسلم لأنس خادمه فقال : " اللهم أكثر ماله وولده وبارك له فيما أعطيته " فدعا له بالبركة تحرزا مما يؤدّى إليه الإكثار من الهلكة . وهكذا فليتضرع العبــد إلى مولاه فى هداية ولده، ونجاته فى أولاه وأخراه اقتداء بالأنبياء عليهم الصلاة والسلام والفضلاء؛ وقــد تقدم فى « آل عمران »[(٢)] بيانه .

(١) راجع جـ ٤ ص ٧٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٤ ص ٧٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « يَرِثُنِي » قرأ أهل الحرمين والحسن وعاصم وحمزة « يَرِثُنِي وَيَرِثُ » بالرفع فيهما . وقرأ يحيي بن يعمر وأبو عمرو ويحيي بن وثاب والأعمش والكسائي بالجزم فيهما، وليس هما جواب « هب » على مذهب سيبويه، إنما تقديره إن تهبه يرثني ويرث؛ والأول أصوب فى المعنى لأنه طلب وارثا موصوفا؛ أى هب لى من لدنك الولى الذى هذه حاله وصفته، لأن الأولياء منهم من لا يرث؛ فقال : هب لى الذى يكون وارثى؛ قاله أبو عبيد، ورد قراءة الجزم؛ قال : لأن معناه إن وهبت ورث، وكيف يخبر الله عز وجل بهذا وهو أعلم به منه؟ ! النحاس : وهذه حجة متقصاة؛ لأن جواب الأمر عند النحويين فيه معنى الشرط والمجازاة؛ تقول : أطع الله يدخلك الجنة؛ أى إن تطعه يدخلك الجنة .

الثانيـة — قال النحاس : فأما معنى « يرثنى ويرث من آل يعقوب » فللعلماء فيه ثلاثة أجوبة ؛ قيل : هى وراثة نبوّة . وقيل : هى وراثة حكمة . وقيل : هى وراثة مال . فأما قولهم وراثة نبوّة فمحال؛ لأن النبوّة لا تورث ، ولوكانت تورث لقال قائل : الناس ينتسبون إلى نوح عليه السلام وهو نبيّ مرسل . ووراثة العلم والحكمة مذهب حسن؛ وفى الحديث ” العلماء ورثة الأنبياء “ . وأما وراثة المال فلا يمتنع، وإن كان قوم قد أنكروه لقول النبي صلى الله عليه وسلم : ” لا نورث ما تركنا صدقة “ فهذا لا حجة فيه؛ لأن الواحد يخبر عن نفسه بإخبار الجمع . وقد يُؤوَّل هذا بمعنى : لا نُورث الذى تركناه صدقة ؛ لأن النبيّ صلى الله عليه وسلم لم يخلّف شيئا يورث عنه؛ وإنما كان الذى أباحه الله عز وجل إياه فى حياته بقوله تبارك اسمه : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شيء فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ » لأن معنى « لله » لسبيل الله ، ومن سبيل الله ما يكون فى مصلحة الرسول صلى الله عليه وسلم ما دام حيا؛ فإن قيل : ففى بعض الروايات ” إنا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا صدقة “ ففيه التأويلان جميعا؛ أن يكون « ما » بمعنى الذى . والآخر لا يورث من كانت هذه حاله . وقال أبو عمر : واختلف العلماء فى تأويل قوله عليه السلام : ” لا نورث ما تركنا صدقة “ على قولين : أحدهما — وهو

الأكثر وعليه الجمهور — أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يورث وما ترك صدقة . والآخر — أن نبينا عليه الصلاة والسلام لم يُورَث؛ لأن الله تعالى خصه بأن جعل ماله كله صدقة زيادة فى فضيلته، كما خُصّ فى النكاح بأشياء أباحها له وحرمها على غيره؛ وهذا القول قاله بعض أهل البصرة منهم ابن عُلَية، وسائر علماء المسلمين على القول الأول .

الثالثة — قوله تعالى : « مِنْ آلِ يَعْقُوبَ » قيل : هو يعقوب إسرائيل، وكان زكريا متزوجا بأخت مريم بنت عمران، و يرجع نسبها إلى يعقوب ؛ لأنها من ولد سليمان بن داود وهو من ولد يهوذا بن يعقوب، وزكريا من ولد هرون أخى موسى، وهرون وموسى من ولد لاوى بن يعقوب، وكانت النبوّة فى سبط يعقوب بن إسحق . وقيل : المعنىّ بيعقوب هاهنا يعقوب بن ماثان أخو عمران بن ماثان أبى مريم أخوان من نسل سليمان بن داود عليهما السلام؛ لأن يعقوب وعمران ابنا ماثان، و بنو ماثان رؤساء بنى إسرائيل؛ قاله مقاتل وغيره . وقال الكلبي : وكان آل يعقوب أخواله، وهو يعقوب بن ماثان ، وكان فيهم الملك، وكان زكريا من ولد هرون بن عمران أخى موسى . و روى قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "يرحم الله —تعالى— زكريا ما كان عليه من ورثته" . ولم ينصرف يعقوب لأنه أعجمى .

الرابعة — قوله تعالى : « وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا » أى مرضيا فى أخلاقه وأفعاله . وقيل : راضيا بقضائك وقدرك . وقيل : رجلا صالحا ترضى عنه . وقال أبو صالح : نبيا كما جعلت أباه نبيا .

قوله تعالى : ﴿ يَا زَكَرِيَّا ﴾ فى الكلام حذف؛ أى فاستجاب الله دعاءه فقال: ﴿ يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ ٱسْمُهُ يَحْيَى ﴾ فتضمنت هذه البشرى ثلاثة أشياء : أحدها — إجابة دعائه وهى كرامة . الثانى — إعطاؤه الولد وهو قوة . الثالث — أن يفرد بتسميته ؛ وقد تقدّم معنى تسميته فى « آل عمران »(١) . وقال مقاتل : سماه يحيى لأنه حيِي بين أب شيخ وأم عجوز؛ وهذا فيه نظر؛ لما تقدم من أن امرأته كانت عقيما لا تلد . والله أعلم .

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٧٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴾ أى لم نسم أحدا قبل يحيى بهذا الاسم ؛ قاله ابن عباس وقتادة وابن أسلم والسدى . ومَنَّ عليه تعالى بأن لم يَكِل تسميته إلى الأبوين . وقال مجاهد وغيره : « سَمِيًّا » معناه مِثلا ونظيرا ، وهو مثل قوله تعالى : « هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا » معناه مثلا ونظيرا كأنه من المساماة والسمو ؛ وهذا فيه بعد ؛ لأنه لا يفضّل على إبراهيم وموسى ؛ اللهم إلا أن يفضّل فى خاص كالسؤدد والحصر حسب ما تقدم بيانه « فى آل عمران » . وقال ابن عباس أيضا : معناه لم تلد العواقر مثله ولدا . وقيل : إن الله تعالى اشترط القبْل ، لأنه أراد أن يخلق بعده أفضل منه وهو محمد صلى الله عليه وسلم . وفى هذه الآية دليل وشاهد على أن الأسامى السُّنُع[1] جديرة بالأثرة ، و إياها كانت العرب تنتحى فى التسمية لكونها أنبه وأنزه عن النبز حتى قال قائل :

سُنُعُ الأسَامِي مُسْبِلِي أُزُرٍ * حُمْرٍ تَمَسُّ الأرضَ بالهُدُبِ

وقال رؤبة للنسابة البكرى وقد سأله عن نسبه : أنا ابن العجّاج ؛ فقال : قَصَّرتَ وعَرَّفتَ .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾ ليس على معنى الإنكار لما أخبر الله تعالى به ، بل على سبيل التعجب من قدرة الله تعالى أن يخرج ولدا من امرأة عاقر وشيخ كبير . وقيل : غير هذا مما تقدّم فى « آل عمران »[2] بيانه . ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴾ يعنى النهاية فى الكبر واليبس والجفاف ؛ ومثله العُسِى ؛ قال الأصمعى : عَسَا الشىءُ يَعْسُو عُسُوًّا وعَسَاء ممدود أى يَبِس وصَلُب ، وقد عسا الشيخُ يَعسو عُسِيًّا وَلّى وكَبِر مثل عَتَا ؛ يقال : عَتَا الشيخُ يَعتو عُتيا وعِتيًّا كبر وولّى ، وعتوت يا فلان تعتو عتوا وعِتيا . والأصل عتوّ لأنه من ذوات الواو ، فأبدلوا من الواو ياء ؛ لأنها أختها وهى أخفّ منها ، والآيات على الياءات ، ومن قال : « عِتِيًّا » كره الضمة مع الكسرة والياء ؛ وقال الشاعر :

إنما يُعذَرُ الوليدُ ولا يُعْـ * ـذَرُ من كان فى الزّمان عِتِيًّا

---

(١) الجميلة . (٢) راجع جـ ٤ ص ٧٩ طبعة أولى أو ثانية .

وقرأ ابن عباس «عُسِيًّا» وهو كذلك فى مصحف أبىّ . وقرأ يحيى بن وثاب وحمزة والكسائى وحفص «عِتيا» بكسر العين وكذلك «جِثيا» و «صِليا» حيث كنّ . وضم حفص «بُكِيًّا» خاصة، وكذلك الباقون فى الجميع، وهما لغتان . وقيل : «عِتيا» قَسِيًّا؛ يقال : ملك عاتٍ إذا كان قاسى القلب .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أى قال له الملَك «كذلك قال ربك» والكاف فى موضع رفع؛ أى الأمر كذلك؛ أى كما قيل لك : «هو على هين» . قال الفراء : خَلْقه علىّ هينٌ . ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل يحيى . وهذه قراءة أهل المدينة والبصرة وعاصم . وقرأ سائر الكوفيين «وَقَدْ خَلَقْنَاكَ» بنون وألف بالجمع على التعظيم . والقراءة الأولى أشبه بالسواد . ﴿ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ أى كما خلقك الله تعالى بعد العدم ولم تك شيئا موجودا، فهو القادر على خلق يحيى وإيجاده .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّي آيَةً ﴾ طلب آية على حملها بعد بشارة الملائكة إياه، وبعد قوله تعالى : «وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا» زيادة طمأنينة؛ أى تمم النعمة بأن تجعل لى آية، وتكون تلك الآية زيادة نعمة وكرامة . وقيل : طلب آية تدله على أن البشرى منه بيحيى لا من الشيطان؛ لأن إبليس أوهمه ذلك . قاله الضحاك وهو معنى قول السدى؛ وهذا فيه نظر لإخبار الله تعالى بأن الملائكة نادته حسب ماتقدّم فى «آل عمران» . ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ تقدّم فى «آل عمران»[(1)] بيانه فلا معنى للإعادة .

قوله تعالى : ﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : «فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ» أى أشرف عليهم من المصلى . والمحراب أرفع المواضع، وأشرف المجالس، وكانوا يتخذون المحاريب فيما ٱرتفع من الأرض؛ دليله محراب داود عليه السلام على ما يأتى . وٱختلف الناس فى اشتقاقه؛ فقالت فرقة :

(١) راجع جـ ٤ ص ٨٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

هو مأخوذ من الحرب كأن ملازمه يحارب الشيطان والشهوات . وقالت فرقة : هو مأخوذ من الحَرَب (بفتح الراء) كأن ملازمه يلقى منه حربا وتعبا ونصبا .

الثانيــة — هذه الآية تدل على أن ٱرتفاع إمامهم على المأمومين كان مشروعا عندهم فى صلاتهم . وقـد ٱختلف فى هذه المسئلة فقهاء الأمصار ، فأجاز ذلك الإمام أحمد وغيره متمسكا بقصـة المنبر . ومنع مالك ذلك فى الأرتفاع الكثير دون اليسير، وعَلَّل أصحابه المنع بخوف الكِبْر على الإمام .

قلت : وهذا فيه نظر؛ وأحسن ما فيه ما رواه أبو داود عن همام أن حذيفة أَمّ الناس بالمدائن على دكان، فأخذ أبو مسعود بقميصه فجبذه، فلما فرغ من صلاته قال : ألم تعلم أنهم كانوا ينهون عن هـذا — أو — يُنهَى عن ذلك ! قال : بلى ؛ قد ذكرت حين مددتنى . وروى أيضا عن عدى بن ثابت الأنصارى قال : حدّثنى رجل أنه كان مع عمـار بن ياسر بالمدائن، فأقيمت الصلاة فتقدّم عمار بن ياسر، وقام على دكان يصلى والناس أسفل منه، فتقدّم حذيفة فأخذ على يديه فاتبعه عمـار حتى أنزله حذيفة، فلما فرغ عمـار من صلاته ، قال له حذيفة : ألم تسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إذا أَمّ الرجلُ القوم فلا يقم فى مكان أرفعَ من مقامهم " أو نحو ذلك؛ فقال عمّار : لذلك اتبعتك حين أخذت على يدى .

قلت : فهؤلاء ثلاثة من الصحابة قد أخبروا بالنهى عن ذلك ، ولم يحتج أحد منهم على صاحبـه بحديث المنبر فدل على أنه منسوخ . ومما يدل على نسخه أن فيـه عملا زائدا فى الصلاة، وهو النزول والصعود، فنسخ كما نسخ الكلام والسلام . وهذا أولى مما ٱعتذر به أصحابنا من أن النبى صلى الله عليـه وسلم كان معصوما من الكِبْر؛ لأن كثيرا من الأئمة يوجد لا كِبْر عندهم . ومنهم من علله بأن ارتفاع المنبر كان يسيرا؛ والله أعلم .

قوله تعالى : « فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » قال الكلبي وقتادة وابن منبه : أوحى إليهم أشار . القتبى : أومأ . مجاهد : كتب على الأرض . عكرمة : كتب فى كتاب . والوحى فى كلام العرب الكتابة؛ ومنه قول ذي الرُّمة :

سوى الأربع الدُّهْم اللواتى كأنَّها * بَقِيَّـةُ وَحْيٍ فى بُطونِ الصَّحَائِفِ

وقال عَنْـترة :

كوحىِ صحائِفٍ من عهد كسرى * فأهـداها لأعجـم طِمْطِمِىِّ (١)

و « بكرة وعشيا » ظرفان . وزعم الفراء أن العشى يؤنث ويجوز تذكيره إذا أبهمتَ ؛ قال : وقد يكون العشىّ جمع عشية .

الرابعـة — قد تقدم الحكم فى الإشارة فى « آل عمران (٢) » . واختلف علماؤنا فيمن حلف ألا يكلم إنسانا فكتب إليه كتابا ، أو أرسل إليه رسولا ؛ فقال مالك : إنه يحنث إلا أن ينوى مشافهته ، ثم رجع فقال : لا ينوى فى الكتاب ويحنث إلا أن يرتجع الكتاب قبل وصوله . قال ٱبن القاسم : إذا قرأ كتابه حنث ، وكذلك لو قرأ الحالف كتاب المحلوف عليـه . وقال أشهب : لا يحنث إذا قرأه الحالف ؛ وهذا بيّن ؛ لأنه لم يكلمه ولا ٱبتدأه بكلام ، إلا أن يريد ألا يعلم معنى كلامه فإنه يحنث وعليـه يخرج قول ابن القـاسم . فإن حلف ليكلمنه لم يبرّ إلا بمشافهته ؛ وقال ابن الماجشون : وإن حلف لئن علم كذا ليُعلِمنّـه أو ليُخبِرنّه فكتب إليه أو أرسل إليه رسولا برّ ، ولو علماه جميعا لم يبر ، حتى يُعلمه لأن علمهما مختلف .

الخامسـة — وٱتفق مالك والشافعى والكوفيون أن الأخرس إذا كتب الطلاق بيده لزمه ؛ قال الكوفيون : إلا أن يكون رجل أُصمِت أياما فكتب لم يجز من ذلك شىء . قال الطحاوى : الخرس مخالف للصمت العارض ، كما أن العجز عن الجماع العارض لمرض ونحوه يوما أو نحوه مخالف للعجز المأيوس منه الجماع ، نحو الجنون فى باب خيار المرأة فى الفرقة .

قوله تعالى : ﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ﴾ فى الكلام حذف ؛ المعنى فولد له ولد وقال الله تعالى للمولود : « يا يحيى خذ الكتاب بقوة » . وهذا اختصار يدل الكلام عليه . و « الكتاب » التوراة بلا خلاف . « بقوة » أى بجد وٱجتهاد ؛ قاله مجاهد . وقيل : العلم به ، والحفظ له والعمل به ، وهو الالتزام لأوامره ، والكفّ عن نواهيـه ؛ قاله زيد بن أسـلم ؛ وقد تقدم

---

(١) الطمطمى : الأعجم الذى لا يفصح . (٢) راجع جـ ٤ ص ٨١ طبعة أولى أو ثانيـة .

فى « البقرة »[1] . ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ قيل : الأحكام والمعرفة بها . وروى مَعْمَر أن الصبيان قالوا ليحيي : اذهب بنا نلعب ؛ فقال : ما للعب خلقت . فأنزل الله تعالى « وآتيناه الحكم صبيا » . وقال قتادة : كان ابن سنتين أو ثلاث سنين . وقال مقاتل : كان ابن ثلاث سنين . و « صبيا » نصب على الحال . وقال ابن عباس : من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فهو ممن أوتى الحكم صبيا . وروى فى تفسير هذه الآية من طريق عبد الله بن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "كل بنى آدم يأتى يوم القيامة وله ذَنْب إلا ما كان من يحيي بن زكريا" . وقال قتادة : إن يحيي عليه السلام لم يعص الله قط بصغيرة ولا كبيرة ولا هَمَّ بامرأة . وقال مجاهد : وكان طعام يحيي عليه السلام العشب ، وكان للدمع فى خدّيه مجار ثابتة . وقد مضى الكلام فى معنى قوله : « وَسَيِّدًا وَحَصُورًا » فى « آل عمران »[2] .

قوله تعالى : « وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا » « حنانا » عطف على « الحكم » . وروى عن ابن عباس أنه قال : والله ما أدرى ما « الحنان » ؟ . وقال جمهور المفسرين : الحنان الشفقة والرحمة والمحبة ؛ وهو فعل من أفعال النفس . النحاس : وفى معنى الحنان عن ابن عباس قولان : أحدهما — قال : تعطّف الله عز وجل عليه بالرحمة . والقول الآخر ما أعطيه من رحمة الناس حتى يخلصهم من الكفر والشرك . وأصله من حنين الناقة على ولدها . ويقال : حنانك وحنانيك ؛ قيل : هما لغتان بمعنى واحد . وقيل : حنانيك تثنية الحنان . وقال أبو عبيدة : والعرب تقول : حنانك يا رب وحنانيك يارب بمعنى واحد ؛ تريد رحمتك . وقال امرؤ القيس :

ويَمْنَحُها بنو شَمَجَى بن جَرْمٍ * مَعِيزَهُمُ حَنَانَكَ ذا الحَنَانِ[3]

وقال طرفة :

أبا مُنْذِرٍ أفنيتَ فاستبقِ بَعضَنَا * حَنَانَيْكَ بعضُ الشَّرِّ أهونُ مِنْ بَعْضِ

وقال الزمخشرى : « حنانا » رحمة لأبويه وغيرهما وتعطفا وشفقة ؛ وأنشد سيبويه :

فقالتْ حَنَانٌ ما أَتَى بكَ هَاهُنَا * أَذُو نَسَبٍ أَمْ أنت بالحىِّ عارفُ

(١) راجع جـ ١ ص ٤٣٧ طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ٤ ص ٨٦ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) (حنانك ذا الحنان) معناه : رحمتك يا رحمن .

قال ابن الأعرابى : الحنّان من صفة الله تعالى مشددا الرحيم . والحنَان مخفف : العطف والرحمة . والحنان : الرزق والبركة . ابن عطية : والحنان فى كلام العرب أيضا ما عظم من الأمور فى ذات الله تعالى؛ ومنه قول زيد بن عمرو بن نُفَيل فى حديث بلال : والله لئن قتلتم هذا العبد لأتخذن قبره حَنَانا ؛ وذكر هذا الخبر الهروى؛ فقال : وفى حديث بلال ومر عليه ورقة بن نوفل وهو يعذّب فقال : والله لئن قتلتموه لأتخذنه حَنَانا؛ أى لأتمسحنّ به . وقال الأزهرى : معناه لأتعطفن عليه ولأترحمن عليه لأنه من أهل الجنة .

قلت : فالحنان العطف، وكذا قال مجاهد . و « حنانا » أى تعطفا منا عليه أو منه على الخلق؛ قال الحطيئة :

تحنَّنْ علىَّ هَـدَاكَ المليكْ * فإنّ لكلِّ مقـامٍ مَقَالَا

عكرمة : محبة . وحَنَّة الرجل امرأته لتوادهما؛ قال الشاعر :

فقالتْ حنـانٌ ما أَتَى بكَ هاهنا * أذو نسبٍ أم أنتَ بالحىّ عارفُ

قوله تعالى : ﴿ وَزَكَاةً ﴾ « الزكاة » التطهير والبركة والتنمية فى وجوه الخير والبر؛ أى جعلناه مباركا للناس يهديهم . وقيل : المعنى زكيناه بحسن الثناء عليه كما تزكى الشهود إنسانا . وقيل: « زكاة » صدقة به على أبويه ؛ قاله ابن قتيبة . ﴿ وَكَانَ تَقِيًّا ﴾ أى مطيعا لله تعـالى، ولهذا لم يعمل خطيئة ولم يُلِمّ بها .

قوله تعالى: ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ ﴾ البر بمعنى البار وهو الكثير البرّ . و ﴿ جَبَّارًا ﴾ متكبرا . وهذا وصف ليحيى عليه السلام بلين الجانب وخفض الجناح .

قوله تعـالى : ﴿ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ﴾ قال الطبرى وغيره : معناه أمان . ابن عطية : والأظهر عندى أنها التحية المتعارفة فهى أشرف وأنبه من الأمان؛ لأن الأمان متحصل له بنفى العصيان عنه وهى أقل درجاته ، وإنمـا الشرف فى أن سلم الله عليه، وحياه فى المواطن التى الإنسان فيها فى غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقر إلى الله تعالى عظيم الحول .

قلت : وهذا قول حسن ، وقد ذكرنا معناه عن سفيان بن عيينة فى سورة « سبحان »(١)
عند قتل يحيى . وذكر الطبرى عن الحسن أن عيسى ويحيى التقيا — وهما آبنا الخالة — فقال
يحيى لعيسى : آدع الله لى فأنت خير منى ؛ فقال له عيسى : بل أنت ادع الله لى فأنت خير منى ؛
سلم الله عليك وأنا سلمت على نفسى ؛ فانتزع بعض العلماء من هذه الآية فى التسلم فضل عيسى ؛
بأن قال : إدلاله فى التسليم على نفسه ومكانته من الله تعالى التى آقتضت ذلك حين قرر وحكى
فى محكم التنزيل أعظم فى المنزلة من أن يسلم عليه . قال آبن عطية : ولكل وجه .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا
شَرْقِيًّا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا
بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾
قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ
لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ
هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾
فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ
ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَىٰهَا
مِن تَحْتِهَآ أَلَّا تَحْزَنِى قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ
بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى
عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِىٓ إِنِّى نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا فَلَنْ
أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا ﴿٢٦﴾

(١) راجع ج ١٠ ص ٢٢٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ مَرْيَمَ ﴾ القصة إلى آخرها . هذا ٱبتداء قصة ليست من الأولى . والخطاب لمحمد صلى الله عليه وسلم؛ أى عرِّفهم قصتها ليعرفوا كمال قدرتنا . ﴿ إِذِ ٱنتَبَذَتْ ﴾ أى تنحت وتباعدت . والنبذ الطرح والرمى؛ قال الله تعالى : « فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ » . ﴿ مِنْ أَهْلِهَا ﴾ أى ممن كان معها . و « إذ » بدل من « مريم » بدل اشتمال؛ لأن الأحيان مشتملة على ما فيها . والانتباذ الاعتزال والانفراد . وٱختلف الناس لم ٱنتبذت؛ فقال السدى : انتبذت لتطهر من حيض أو نفاس . وقال غيره : لتعبد الله؛ وهذا حسن . وذلك أن مريم عليها السلام كانت وقفا على سدانة المعبد وخدمته والعبادة فيه ، فتنحت من النـاس لذلك، ودخلت فى المسجد إلى جانب المحراب فى شرقيه لتخلو للعبادة ، فدخل عليها جبريل عليه السلام . فقوله : ﴿ مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ أى مكانا من جانب الشرق . والشَّرْق بسكون الراء المكان الذى تشرق فيـه الشمس . والشَّرَق بفتح الراء الشمس . و إنمـا خص المكان بالشرق لأنهم كانوا يعظمون جهة المشرق ومن حيث تطلع الأنوار، وكانت الجهات الشرقية من كل شىء أفضل من سواها؛ حكاه الطبرى . وحكى عن ٱبن عباس أنه قال : إنى لأعلم النـاس لم ٱتخذ النصارى المشرق قبلة؛ لقول الله عز وجل : « إذ ٱنتبـذت من أهلها مكانا شرقيا » فٱتخـذوا ميلاد عيسى عليـه السلام قبلة؛ وقالوا : لو كان شىء من الأرض خيرا من المشرق لوضعت مريم عيسى عليه السـلام فيه . وٱختلف الناس فى نبوّة مريم؛ فقيل : كانت نبية بهذا الإرسال والمحاورة للملك . وقيل : لم تكن نبية و إنما كلمها مثال بشر، ورؤيتها للملك كما رؤى جبريل فى صفة دِحْية حين سؤاله عن الإيمان والإسلام . والأول أظهر . وقد مضى الكلام فى هذا المعنى مستوفى فى « آل عمران »(١) والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا ﴾ قيل : هو روح عيسى عليه السلام؛ لأن الله تعالى خلق الأرواح قبل الأجساد، فركب الروح فى جسد عيسى عليه السلام الذى خلقه فى بطنها . وقيل : هو جبريل وأضيف الروح إلى الله تعالى تخصيصا وكرامة . والظاهر أنه جبريل عليه

(١) راجع جـ ٤ ص ٨٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

السلام؛ لقوله : ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا ﴾ أى تمثل الملك لها . ﴿ بَشَرًا ﴾ تفسير أو حال . ﴿ سَوِيًّا ﴾ أى مستوى الخلقة؛ لأنها لم تكن لتطيق أو تنظر جبريل فى صورته . ولما رأت رجلا حسن الصورة فى صورة البشر قد خرق عليها الحجاب ظنت أنه يريدها بسوء فـ﴿قَالَتْ إِنِّى أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴾ أى ممن يتقى الله . البِكَالى : فنكص جبريل عليه السلام فزعا من ذكر الرحمن تبارك وتعالى . الثعلبي : كان رجلا صالحا فتعوذت به تعجبا . وقيل : تقى فعيل بمعنى مفعول أى كنت ممن يُتَّقى منه . فى البخارى قال أبو وائل : علمت مريم أن التقى ذو نُهْيةٍ حين قالت : « إن كنت تقيا » . وقيل : تقى اسم فاجر معروف فى ذلك الوقت ؛ قاله وهب بن منبه ؛ حكاه مكى وغيره . ٱبن عطية : وهو ضعيف ذاهب مع التخرص . فقال لها جبريل عليه السلام : ﴿ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴾ جعل الهبة من قبله لما كان الإعلام بها من قبله . وقرأ ورش عن نافع « لِيَهَبَ لَكِ » على معنى أرسلنى الله ليهب لك . وقيل : معنى « لأهب » بالهمز محمول على المعنى ؛ أى قال : أرسلته لأهب لك . ويحتمل « ليهب » بلا همز أن يكون بمعنى المهموز ثم خففت الهمزة . فلما سمعت مريم ذلك من قوله ٱستفهمت عن طريقه فـ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ﴾ أى بنكاح . ﴿ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴾ أى زانية . وذكرت هذا تأكيدا؛ لأن قولها لم يمسسنى بشر يشمل الحلال والحرام . وقيل : ما ٱستبعدت من قدرة الله تعالى شيئا ولكن أرادت كيف يكون هذا الولد ؟ من قبل الزوج فى المستقبل أم يخلقه الله ٱبتداء ؟ وروى أن جبريل عليه السلام حين قال لها هذه المقالة نفخ فى جيب درعها وكمها ؛ قاله ٱبن جريج . ابن عباس : أخذ جبريل عليه السلام رُدْن قميصها بإصبعه فنفخ فيه فحملت من ساعتها بعيسى . قال الطبرى : وزعمت النصارى أن مريم حملت بعيسى ولها ثلاث عشرة سنة، وأن عيسى عاش إلى أن رفع ٱثنتين وثلاثين سنة وأياما، وأن مريم بقيت بعد رفعه ست سنين، فكان جميع عمرها نيفا وخمسين سنة . وقوله : ﴿ وَلِنَجْعَلَهُ ﴾ متعلق بمحذوف؛ أى ونخلقه لنجعله : ﴿ آيَةً ﴾ دلالة على قدرتنا عجيبة ﴿وَرَحْمَةً﴾ لمن آمن به . ﴿وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾ مقدرا فى اللوح مسطورا .

قوله تعالى : ﴿فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ أى تنحت بالحمل إلى مكان بعيد؛ قال ابن عباس : إلى أقصى الوادى، وهو وادى بيت لحم بينه و بين إيلياء أربعة أميال؛ و إنما بعدت فرارا من تعيير قومها إياها بالولادة من غير زوج . قال ابن عباس : ما هو إلا أن حملت فوضعت فى الحال وهذا هو الظاهر؛ لأن الله تعالى ذكر الانتباذ عقب الحمل . وقيل : غير ذلك على ما يأتى :

قوله تعالى : ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ﴾ «أجاءها» اضطرها؛ وهو تعدية جاء بالهمز . يقال : جاء به وأجاءه إلى موضع كذا، كما يقال : ذهب به وأذهبه . وقرأ شبيل وروبت عن عاصم « فاجأها » من المفاجأة . وفى مصحف أبىّ « فلما أجاءها المخاض » . وقال زهير :

وَجَارٍ سَارَ معتمدًا إلينا * أَجَاءَتْهُ المخافَةُ والرَّجاءُ

وقرأ الجمهور « المَخَاضُ » بفتح الميم . وابن كثير فيما روى عنه بكسرها وهو الطلق وشدّة الولادة وأوجاعها . مَخِضت المرأة تَمخَض مَخَاضا ومِخَاضا . وناقة ماخض أى دنا ولادها . « إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ » كأنها طلبت شيئا تستند إليه وتتعلق به، كما تتعلق الحامل لشدّة وجع الطلق . والجذع ساق النخلة اليابسة فى الصحراء الذى لا سعف عليه ولا غصن؛ ولهذا لم يقل إلى النخلة . ﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا﴾ تمنت مريم عليها السلام الموت من جهة الدين لوجهين : أحدهما — أنها خافت أن يظن بها الشر فى دينها وتعير فيفتنها ذلك . الثانى — لئلا يقع قوم بسببها فى البهتان والنسبة إلى الزنى وذلك مهلك . وعلى هذا الحدّ يكون تمنى الموت جائزا، وقد مضى هذا المعنى مبينا فى سورة « يوسف »(1) عليه السلام . والحمد لله .

قلت : وقد سمعتُ أن مريم عليها السلام سمعت نداء من يقول : اخرج يا من يُعبَد من دون الله فحزنت لذلك، و﴿قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نِسْيًا مَنْسِيًّا﴾ . النِّسى فى كلام العرب الشيء الحقير الذى شأنه أن ينسى ولا يتألم لفقده كالوتد والحبل للمسافر ونحوه .

---

(1) راجع جـ ٩ ص ٢٦٩ طبعة أولى أو ثانية .

وحكى عن العرب أنهم إذا أرادوا الرحيل عن منزل قالوا : ٱحفظوا أنساءكم؛ الأنساء جمع نِسى وهو الشىء الحقير يغفل فينسى . ومنه قول الكميت رضى الله تعالى عنه :

أتجعلنا جِسْرًا لكلبٍ قُضَاعةُ * ولستُ بِنِسْيٍ فى مَعَدٍّ ولا دَخل

وقال الفراء : النّسى ما تلقيه المرأة من خِرَق ٱعتلالها؛ فقول مريم : «نسيا منسيا» أى حيضة ملقاة . وقرئ « نَسْيًا » بفتح النون وهما لغتان مثل الحِجْر والحَجْر والوِتْر والوَتْر . وقرأ محمد بن كعب القرظى بالهمز « نِسْئًا » بكسر النون . وقرأ نوف البِكَالىّ « نَسْئًا » بفتح النون من نسأ الله تعالى فى أجله أى أخره . وحكاها أبو الفتح والدّانى عن محمد بن كعب . وقرأ بكر بن حبيب « نَسًّا » بتشديد السين وفتح النون دون همز . وقد حكى الطبرى فى قصصها أنها لما حملت بعيسى عليه السلام حملت أيضا أختها بيحيى ، فجاءتها أختها زائرة فقالت : يا مريم أشعرت أنت أنى حملت ؟ فقالت لها : و إنى أجد ما فى بطنى يسجد لما فى بطنك ؛ فذلك أنه روى أنها أحست بجنينها يخر برأسه إلى ناحية بطن مريم ؛ قال السدى فذلك قوله : « مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ » . وذكر أيضا من قصصها أنها خرجت فارّة مع رجل من بنى إسرائيل يقال له يوسف النجار ، كان يخدم معها فى المسجد وطوّل فى ذلك . قال الكلبي : قيل ليوسف — وكانت سميت له أنها حملت من الزنى — فالآن يقتلها الملك ، فهرب بها ، فهمّ فى الطريق بقتلها ، فأتاه جبريل عليه السلام وقال له : إنه من روح القدس ؛ قال ابن عطية : وهذا كله ضعيف . وهذه القصة تقتضى أنها حملت ، وٱستمرت حاملا على عرف النساء ، وتظاهرت الروايات بأنها ولدته لثمانية أشهر . قاله عكرمة ؛ ولذلك قيل : لا يعيش ٱبن ثمانية أشهر حفظا لخاصة عيسى . وقيل : ولدته لتسعة . وقيل : لستة . وما ذكرناه عن ٱبن عباس أصح وأظهر . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا ﴾ قرئ بفتح الميم وكسرها . قال ابن عباس : المراد بـ « من » جبريل ، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها ؛ وقاله علقمة والضحاك وقتادة ؛ ففى هذا لها آية وأمارة أن هذا من الأمور الخارقة للعادة التى لله فيها مراد عظيم . وقوله :

﴿أَلَّا تَحْزَنِى﴾ تفسير النداء ، « وأَنْ » مفسّرة بمعنى أى ؛ المعنى : فلا تحزنى بولادتك . ﴿قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا﴾ يعنى عيسى . والسرىّ من الرجال العظيم الخصال السيّد . قال الحسن : كان والله سريّا من الرجال . ويقال : سَرِى فلان على فلان أى تكرم . وفلان سرىٌّ من قوم سَرَاة . وقال الجمهور : أشار لها إلى الجدول الذى كان قريب جذع النخلة . قال ابن عباس : كان ذلك نهرا قد انقطع ماؤه فأجراه الله تعالى لمريم . والنهر يسمى سَرِيًّا لأن الماء يسرى فيه ؛ قال الشاعر :

سَلْمٌ(١) تَرَى الدَّالِىَّ منه أَزْوَرَا * إذا يَعُبُّ فى السَّرِىِّ هَرْهَرَا

وقال لبيد :

فَتَوَسَّطَا عُرْضَ السَّرِىِّ وصَدَّعَا(٢) * مَسْجُورَةً مُتَجَاوِرًا قُلَّامُهَا

وقيل : ناداها عيسى ، وكان ذلك معجزة وآية وتسكينا لقلبها ؛ والأول أظهر . وقرأ ابن عباس « فناداها ملك مِن تحتِها » قالوا : وكان جبريل عليه السلام فى بقعة من الأرض أخفض من البقعة التى كانت هى عليها .

قوله تعالى : ﴿وَهُزِّى إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا . فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَهُزِّى » أمرها بهزّ الجذع اليابس لترى آية أخرى فى إحياء موات الجذع . والباء فى قوله : « بجذع » زائدة مؤكدة كما يقال : خذ بالزمام ، وأعط بيدك ؛ قال الله تعالى : « فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ » أى فليمدد سببا . وقيل : المعنى ؛ وهزى إليك رطبا على جذع النخلة . « وتَسَّاقَطْ » أى تتساقط فأدغم التاء فى السين . وقرأ حمزة « تَسَاقَطْ » مخففا فحذف التى أدغمها غيره . وقرأ عاصم فى رواية حفص « تُسَاقِطْ » بضم التاء مخففا وكسر القاف . وقرئ « تَتَسَاقَطْ » بإظهار التاءين و « يَسَّاقَطْ » بالياء وإدغام التاء « وتُسْقِطْ »

(١) السلم : الدلو التى لها عرقوة واحدة كدلو السقائين . والدالى : المستقى بالدلو . والهرهرة : صوت الماء إذا جرى . (٢) أى شق العير والأتان النبت الذى على الماء . ومسجورة : عين مملوءة . والمتجاور المتقارب والقلام : نبت ؛ وقيل : هو القصب . والبيت من معلقته .

و « يُسْقِط » و « تَسقط » و « يَسقط » بالتاء للنخلة و بالياء للجذع؛ فهذه تسع قراءات ذكرها الزمخشري رحمة الله تعالى عليه. « رطبا » نصب بالهز؛ أى إذا هززت الجذع هززت بهزه « رطبا جنيا » . وعلى الجملة فـ « رطبا » يختلف نصبه بحسب معانى القراءات؛ فمرة يستند الفعل إلى الجذع، ومرة إلى الهزّ، ومرة إلى النخلة . « وجنيا » معناه قد طابت وصلحت للاجتناء، وهى من جنيت الثمرة . ويروى عن ابن مسعود — ولا يصح — أنه قرأ « تساقط عليك رطبا جنيا بَرْنِيًّا (١) » . وقال مجاهد : « رطبا جنيا » قال : كانت عجوة . وقال عباس بن الفضل : سألت أبا عمرو بن العلاء عن قوله : « رطبا جنيا » فقال : لم يذو . قال وتفسيره : لم يجف ولم ييبس ولم يبعد عن يدى مجتنيه؛ وهذا هو الصحيح . قال الفراء : الجنىّ والمجنىّ واحد؛ يذهب إلى أنهما بمنزلة القتيل والمقتول والجريح والمجروح . وقال غير الفراء : الجنىّ المقطوع من نخلة واحدة، والمأخوذ من مكان نشأته؛ وأنشدوا :

وطيب ثمار فى رياضٍ أرِيضةٍ * وأغصان أشجارٍ جَنَاها على قُرْبِ

يريد بالجَنَى ما يجنى منها أى يقطع و يؤخذ . قال ابن عباس : كان جذعا نخرا فلما هزت نظرت إلى أعلى الجذع فإذا السعف قد طلع، ثم نظرت إلى الطلع قد خرج من بين السعف، ثم اخضر فصار بلحا ثم أحمر فصار زَهْوا، ثم رطبا؛ كل ذلك فى طرفة عين، فجعل الرطب يقع بين يديها لا ينشدخ منه شىء .

الثانية — استدل بعض الناس من هذه الآية على أن الرزق وإن كان محتوما؛ فإن الله تعالى قد وكّل ابن آدم إلى سعى مّا فيه؛ لأنه أمر مريم بهز النخلة لترى آية، وكانت الآية تكون بألا تهز .

الثالثة — الأمر بتكليف الكسب فى الرزق سنة الله تعالى فى عباده، وأن ذلك لا يقدح فى التوكل، خلافا لما تقوله جهال المتزهدة ؛ وقد تقدم هذا المعنى والخلاف فيه . وقد كانت قبل ذلك يأتيها رزقها من غير تكسب كما قال : « كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ

(١) البرنى : ضرب من التمر أصفر مدور، وهو أجود التمر؛ واحدته برنية .

وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقاً » الآية . فلما ولدت أمرت بهز الجذع . قال علماؤنا : لما كان قلبها فارغا فرغ الله جارحتها عن النصب ، فلما ولدت عيسى وتعلق قلبها بحبه ، واشتغل سرها بحديثه وأمره ، وكلها إلى كسبها ، وردها إلى العادة بالتعلق بالأسباب فى عباده . وحكى الطبرى عن ابن زيد أن عيسى عليه السلام قال لها : لا تحزنى ؛ فقالت له وكيف لا أحزن وأنت معى ؟ ! لا ذات زوج ولا مملوكة ! أى شئ عذرى عند الناس ؟ ! « يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نِسْياً مَنْسِياً » فقال لها عيسى : أنا أكفيك الكلام .

الرابعة — قال الربيع بن خيثم : ما للنفساء عندى خير من الرطب لهذه الآية ، ولو علم الله شيئا هو أفضل من الرطب للنفساء لأطعمه مريم ؛ ولذلك قالوا : التمر عادة للنفساء من ذلك الوقت ، وكذلك التحنيك . وقيل : إذا عسر ولادها لم يكن لها خير من الرطب ، ولا للمريض خير من العسل ؛ ذكره الزمخشرى . قال ابن وهب قال مالك قال الله تعالى : « رطبا جنيا » الجنى من التمر ما طاب من غير نقش ولا إفساد . والنقش أن ينقش من أسفل البسرة حتى ترطب ؛ فهذا مكروه ؛ يعنى مالك أن هذا تعجيل للشىء قبل وقته ، فلا ينبغى لأحد أن يفعله ، وإن فعله فاعل ما كان ذلك مجوّزا لبيعه ؛ ولا حكما بطيبه . وقد مضى هذا القول فى الأنعام (١) . والحمد لله . عن طلحة بن سليمان « جِنِيًّا » بكسر الجيم للإتباع ؛ أى جعلنا لك فى السرى والرطب فائدتين : إحداهما الأكل والشرب ، الثانية سلوة الصدر ؛ لكونهما معجزتين ؛ وهو [معنى] (٢) قوله تعالى : ﴿ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً ﴾ أى فكلى من الجنى ، واشربى من السرى ، وقرى عينا برؤية الولد النبى . وقرئ بفتح القاف وهى قراءة الجمهور . وحكى الطبرى قراءة « وَقِرِّى » بكسر القاف وهى لغة نجد . يقال : قَرَّ عينا يَقُر ويَقِر بضم القاف وكسرها ؛ وأقر الله عينه فقرت . وهو مأخوذ من القُر والقِرّة وهما البَرْد . ودمعة السرور باردة ، ودمعة الحزن حارة . وضعّف فرقة هذا وقالت : الدمع كله حار ، فمعنى أقر الله عينه أى سكن الله عينه بالنظر إلى من يحبه حتى تقر وتسكن ؛ وفلان قُرة عينى ؛ أى

(١) راجع جـ ٧ ص ٥٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) الزيادة من الكشاف للزمخشرى .

نفسى تسكن بقربه . وقال الشيبانى : « وقرّى عينا » معناه نامى ؛ حضها على الأكل والشرب والنوم . قال أبو عمرو : أقرّ الله عينه أى أنام عينه ، وأذهب سهره . و « عينا » نصب على التمييز ؛ كقولك : طب نفسا . والفعل فى الحقيقة إنما هو للعين فنقل ذلك إلى ذى العين ؛ وينصب الذى كان فاعلا فى الحقيقة على التفسير . ومثله طبت نفسا ، وتفقأت شحما ، وتصببت عرقا ، ومثله كثير .

قوله تعالى : ﴿ فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا ﴾ فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « فَإِمَّا تَرَيِنَّ » الأصل فى ترين تَرْأَيِينَ[1] فحذفت الهمزة كما حذفت من ترى ونقلت فتحتها إلى الراء فصار « تريين » ، ثم قلبت الياء الأولى ألفا لتحركها وانفتاح ما قبلها ، فاجتمع ساكنان الألف المنقلبة عن الياء وياء التأنيث ، فحذفت الألف لالتقاء الساكنين ، فصار تَرَيْنَ ، ثم حذفت النون علامة للجزم لأن إن حرف شرط وما صلة فبقى تَرَىْ ، ثم دخله نون التوكيد وهى مثقلة ، فكسر ياء التأنيث لالتقاء الساكنين ؛ لأن النون المثقلة بمنزلة نونين الأولى ساكنة فصار تَرَيِنَّ وعلى هذا النحو قول ابن دريد :

* إما تَرَىْ رأسى حَاكَى لونُهُ[2] *

وقول الأفوه : * إما تَرَىْ رأسى أَزْرَى به[3] *

وإنما دخلت النون هنا بتوطئة « ما » كما يوطِّئ لدخولها أيضا لام القسم . وقرأ طلحة وأبو جعفر وشيبة « تَرَيْنَ » بسكون الياء وفتح النون خفيفة ؛ قال أبو الفتح : وهى شاذة .

الثانية — قوله تعالى : « فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ » هذا جواب الشرط وفيه إضمار ؛ أى فسألكِ عن ولدكِ « فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا » أى صَمْتا ؛ قاله ابن عباس وأنس ابن مالك . وفى قراءة أُبىّ بن كعب « إِنِّي نَذَرْتُ لِلرحمنِ صَوْماً صَمْتاً » . وروى عن أنس .

(١) أى قبل التوكيد ودخول الجازم ، وهى بوزن تمنعين .
(٢) تمامه : * طرة صبح تحت أذيال الدجى *
(٣) تمامه : * مأس زمان ذى انتكاس مئوس *

وعنه أيضا « وصمتا » بواو، واختلاف اللفظين يدل على أن الحرف ذكر تفسيرا لا قرآنا؛ فإذا أتت معه واو فممكن أن يكون غير الصوم . والذى تتابعت به الأخبار عن أهل الحديث ورواة اللغة أن الصوم هو الصمت؛ لأن الصوم إمساك والصمت إمساك عن الكلام . وقيل : هو الصوم المعروف، وكان يلزمهم الصمت يوم الصوم إلا بالإشارة . وعلى هذا تخرج قراءة أنس « وصمتا » بواو، وأن الصمت كان عندهم فى الصوم ملتزما بالنذر، كما أن من نذر منا المشى إلى البيت اقتضى ذلك الإحرام بالحج أو العمرة . ومعنى هذه الآية أن الله تعالى أمرها على لسان جبريل عليه السلام — أو ابنها على الخلاف المتقدم — بأن تمسك عن مخاطبة البشر، وتحيل على ابنها فى ذلك ليرتفع عنها خجلها، وتتبين الآيةُ فيقوم عذرها . وظاهر الآية أنها أبيح لها أن تقول هذه الألفاظ التى فى الآية، وهو قول الجمهور . وقالت فرقة : معنى « قولى » بالإشارة لا بالكلام . الزمخشرى : وفيه أن السكوت عن السفيه واجب، ومن أذل الناس سفيه لم يجد مسافها .

الثالثة — من التزم بالنذر ألا يكلم أحدا من الآدميين فيحتمل أن يقال إنه قُربة فيلزم بالنذر، ويحتمل أن يقال: ذلك لا يجوز فى شرعنا لما فيه من التضييق وتعذيب النفس، كنذر القيام فى الشمس ونحوه . وعلى هذا كان نذر الصمت فى تلك الشريعة لا فى شريعتنا؛ وقد تقدّم . وقد أمر ابن مسعود من فعل ذلك بالنطق بالكلام . وهذا هو الصحيح لحديث أبى إسرائيل، خرجه البخارى عن ابن عباس (١) . وقال ابن زيد والسدى : كانت سنة الصيام عندهم الإمساك عن الأكل والكلام .

قلت : ومن سنتنا نحن فى الصيام الإمساك عن الكلام القبيح؛ قال عليه الصلاة والسلام: "إذا كان أحدكم صائما فلا يَرفُث ولا يجهل فإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل إنى صائم". وقال عليه الصلاة والسلام: "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه".

---

(١) الحديث كما فى البخارى عن ابن عباس قال : بينا النبى صلى الله عليه وسلم يخطب إذا هو برجل قائم، فسأل عنه فقالوا : أبو إسرائيل نذر أن يقوم ولا يقعد، ولا يستظل ولا يتكلم ويصوم؛ فقال النبى صلى الله عليه وسلم : "مره فليتكلم وليستظل وليقعد وليتم صومه" .

قوله تعالى : فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُوا يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾ روى أن مريم لما اطمأنت بما رأت من الآيات، وعلمت أن الله تعالى سيبين عذرها ، أتت به تحمله من المكان القصى الذى كانت انتبذت فيه . قال ابن عباس : خرجت من عندهم حين أشرقت الشمس، فجاءتهم عند الظهر ومعها صبى تحمله ، فكان الحمل والولادة فى ثلاث ساعات من النهار . وقال الكلبى : ولدت حيث لم يشعر بها قومها، ومكثت أربعين يوما للنفاس ، ثم أتت قومها تحمله ، فلما رأوها ومعها الصبى حزنوا وكانوا أهل بيت صالحين؛ فقالوا منكرين : ﴿ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴾ أى جئت بأمر عظيم كالآتى بالشىء يفتريه . قال مجاهد : « فريا » عظيما . وقال سعيد بن مسعدة : أى مختلقا مفتعلا ؛ يقال : فريت وأفريت بمعنى واحد . والولد من الزنى كالشىء المفترَى . قال الله تعالى : « وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ » أى بولد بقصد إلحاقه بالزوج وليس منه . يقال : فلان يفرِى الفرِىّ أى يعمل العمل البالغ ، وقال أبو عبيدة : الفرىّ العجيب النادر، وقاله الأخفش . قال : فريا عجيبا . والفَرْى القطع كأنه مما يخرق العادة، أو يقطع القول بكونه عجيبا نادرا . وقال قطرب : الفرى الجديد من الأسقية؛ أى جئت بأمر جديد بديع لم تسبق إليه . وقرأ أبو حيوة : «شيئًا فَرْيًا» بسكون الراء . وقال السدى ووهب بن منبه : لما أتت به قومها تحمله تسامع بذلك بنو إسرائيل، فاجتمع رجالهم ونساؤهم، فمدت امرأة يدها إليها لتضربها فأجف الله شطرها فحُملت كذلك . وقال آخر : ما أراها إلا زنت فأخرسه الله تعالى؛ فتحامى الناس من أن يضربوها، أو يقولوا لها كلمة تؤذيها ، وجعلوا يخفضون إليها القول و يلينون؛ فقالوا : «يا مريم لقد جئت شيئا فريا» أى عظيما؛ قال الراجز:[1]

(١) هو زرارة بن صعب بن دهر يخاطب العامرية ، وكان قد خرج معها فى سفر يمتارون من اليمامة فلما امتاروا وصدروا جعل زرارة بن صعب يأخذه بطنه ، فكان يتخلف خلف القوم فقالت العامرية :

لقد رأيت رجلا دهريا * يمشى وراء القوم سيتهيا
* كأنه مضطغن صبيا *

تريد أنه امتلأ بطنه ؛ فأجابها زرارة بالأبيات . و « دهريا » منسوب إلى دهر اليمامة وهو قصبتها .

قد أَطعَمَتْنِي دَقَلًا حَوْلِيًّا * مُسوِّسًا مُدَوِّدًا مُجْرِيًا

* قد كنتِ تَفْرين بِهِ الفريَّا *

أى [تعظمينه[١]] .

قوله تعالى : ﴿ يَا أُخْتَ هَٰرُونَ ﴾ آختلف الناس فى معنى هذه الأخوة، ومن هرون؟ فقيل : هو هرون أخو موسى؛ والمراد من كنا نظنها مثل هرون فى العبادة تأتى بمثل هذا . وقيل : على هذا كانت مريم من ولد هرون أخى موسى فنسبت إليه بالأخوة لأنها من ولده؛ كما يقال للتميمى : يا أخا تميم، وللعربى يا أخا العرب . وقيل : كان لها أخ من أبيها آسمه هرون؛ لأن هذا الاسم كان كثيرا فى بنى إسرائيل تبركا باسم هرون أخى موسى، وكان أمثل رجل فى بنى إسرائيل؛ قاله الكلبى . وقيل : هرون هذا رجل صالح فى ذلك الزمان تبع جنازته يوم مات أربعون ألفا كلهم اسمه هرون . وقال قتادة : كان فى ذلك الزمان فى بنى إسرائيل عابد منقطع إلى الله عز وجل يسمى هرون فنسبوها إلى أخوته من حيث كانت على طريقته قبلُ؛ إذ كانت موقوفة على خدمة البيع؛ أى ياهذه المرأة الصالحة ما كنت أهلا لذلك . وقال كعب الأحبار بحضرة عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها : إن مريم ليست بأخت هرون أخى موسى؛ فقالت له عائشة : كذبت . فقال لها : يا أم المؤمنين إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله فهو أصدق وأخبر، و إلا فإنى أجد بينهما من المدّة ستمائة سنة . قال : فسكتت . وفى صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة قال : لما قدمتُ نجران سألونى فقال إنكم تقرءون « يا أخت هرون » وموسى قبل عيسى بكذا وكذا، فلما قدمت على رسول الله صلى الله عليه وسلم سألته عن ذلك، فقال : " إنهم كانوا يسمّون بأنبيائهم والصالحين قبلهم " . وقد جاء فى بعض طرقه فى غير الصحيح أن النصارى قالوا له : إن صاحبك يزعم أن مريم هى أخت هرون و بينهما فى المدّة ستمائة سنة؟! قال المغيرة : فلم أدر ما أقول؛ وذكر الحديث . والمعنى أنه اسم وافق اسما . ويستفاد من هذا جواز التسمية بأسماء الأنبياء؛ والله أعلم .

(١) فى الأصل : « تطعمينه » وهو تحريف .

قلت : فقد دل الحديث الصحيح أنه كان بين موسى وعيسى وهرون زمان مديد . الزمخشري : كان بينهما و بينه ألف سنة أو أكثر فلا يتخيل أن مريم كانت أخت موسى وهرون؛ و إن صح فكما قال السدى لأنها كانت من نسله ؛ وهذا كما تقول للرجل من قبيلة : يا أخا فلان . ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : "إن أخا صُداء(١) قد أذّن فمن أذّنَ فهو يُقيم" وهذا هو القول الأول . ابن عطية : وقالت فرقة بل كان فى ذلك الزمان رجل فاجر آسمه هرون فنسبوها إليه على جهة التعيير والتوبيخ؛ ذكره الطبرى ولم يسمّ قائله .

قلت : ذكره الغزنوى عن سعيد بن جبير أنه كان فاسقا مَثَلا فى الفجور فنسبت إليه . والمعنى: ما كان أبوك ولا أمك أهلا لهذه الفعلة فكيف جئت أنت بها؟ !وهذا من التعريض الذى يقوم مقام التصريح . وذلك يوجب عندنا الحدّ وسيأتى فى سورة « النور » القول فيه إن شاء الله تعالى . وهذا القول الأخير يردّه الحديث الصحيح ، وهو نص صريح فلا كلام لأحد معه ، ولا غبار عليه . والحمد لله . وقرأ عمر بن لجأ التّيْميّ «مَا كَانَ أَبَاكِ آمْرُؤُ(٢) سَوْءٍ» .

قوله تعالى : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ۝٢٩ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ۝٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ۝٣١ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ۝٣٢ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ۝٣٣ ﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي المَهْدِ صَبِيًّا ﴾ التزمت مريم عليها السلام ما أمرت به من ترك الكلام ، ولم يرد فى هذه الآية أنها نطقت

(١) هو زياد بن الحرث الصدائى ، كان قد أمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يؤذن لصلاة الفجر فأذن فأراد بلال أن يقيم فقال صلى الله عليه وسلم : "إن أخا صداء قد أذن..." الحديث .
(٢) قال فى « البحر » : يجعل الخبر المعرفة والاسم النكرة ، وحسن ذلك قليلا كونها فيها مسوغ جواز الابتداء بالنكرة وهو الإضافة .

بـ « إنى نذرت للرحمن صوما » وإنما ورد بأنها أشارت ، فيقوى بهذا قول من قال : إن أمرها بـ « قولى » إنما أريد به الإشارة . ويروى أنهم لما أشارت إلى الطفل قالوا : آستخفافها بنا أشدّ علينا من زناها ، ثم قالوا لها على جهة التقرير : « كيف نكلم من كان فِى المهدِ صبِيا » و«كان» هنا ليس يراد بها الماضى ؛ لأن كل واحد قد كان فى المهد صبيا ، وإنما هى فى معنى هو [الآن](1) . وقال أبو عبيدة : « كان » هنا لغو ؛ كما قال(2) :

* وجيرانٍ لنا كانوا كرامِ *

وقيل : هى بمعنى الوجود والحدوث كقوله : « وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ » وقد تقدّم . وقال ابن الأنبارى : لايجوز أن يقال زائدة وقد نصبت « صبيا » ، ولا أن يقال « كان » بمعنى حدث ، لأنه لو كانت بمعنى الحدوث والوقوع لاستغنى فيه عن الخبر، تقول : كان الحَرّ وتكتفى به . والصحيح أن « من » فى معنى الجزاء و « كان » بمعنى يكن؛ التقدير : من يكن فى المهد صبيا فكيف نكلمه؟ ! كما تقول : كيف أعطى من كان لايقبل عطية ؛ أى من يكن لايقبل . والماضى قد يذكر بمعنى المستقبل فى الجزاء؛ كقوله تعالى: « تَبَارَكَ الَّذِى إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ » أى إن يشأ يجعل . وتقول : من كان إلىّ منه إحسان كان إليه منى مثله ، أى من يكن منه إلى إحسان يكن إليه منى مثله . « والمهد » قيل : كان سريرا كالمهد . وقيل : « المهد » هاهنا حجر الأم . وقيل: المعنى كيف نكلم من كان سبيله أن ينوّم فى المهد لصغره، فلما سمع عيسى عليه السلام كلامهم قال لهم من مرقده ﴿ إِنِّى عَبْدُ اللهِ ﴾ وهى :

الثانيــة — فقيل : كان عيسى عليه السلام يرضع فلما سمع كلامهم ترك الرضاعة وأقبل عليهم بوجهه، وآتكأ على يساره، وأشار إليهم بسبابته اليمنى، و «قَالَ إِنِّى عَبْدُ اللهِ» فكان أول ما نطق به الاعتراف بعبوديته لله تعالى وربوبيته ، ردا على من غلا من بعده فى شأنه . والكتاب الإنجيل؛ قيل : آتاه فى تلك الحالة الكتاب، وفهمه وعلمه، وآتاه النبوّة كما علم آدم

(١) الزيادة من كتب التفسير . (٢) هو الفرزدق؛ وصدر البيت :

* فكيف إذا رأيت ديار قوم *

الأسماء كلها، وكان يصوم ويصلى . وهذا فى غاية الضعف على مانبينه فى المسئلة بعد هذا .
وقيل : أى حكم لى بإيتاء الكتاب والنبوة فى الأزل، وإن لم يكن الكتاب منزلا فى الحال؛
وهذا أصح . ﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا ﴾ أى ذا بركات ومنافع فى الدين والدعاء إليه ومعلّما له .
التُّسْتَرِى : وجعلنى آمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأرشد الضال، وأنصر المظلوم،
وأغيث الملهوف. ﴿ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ ﴾ أى لأؤديهما إذا أدركنى التكليف،وأمكننى
أداؤهما، على القول الأخير الصحيح. ﴿ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ فى موضع نصب على الظرف أى دوام
حياتى . ﴿ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي ﴾ قال ابن عباس : لما قال « وَبَرًّا بِوَالِدَتِي » ولم يقل بوالدىّ
علم أنه شىء من جهة الله تعالى . ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا ﴾ أى متعظما متكبرا يقتل ويضرب على
الغضب . وقيل : الجبار الذى لايرى لأحد عليه حقا قطّ . ﴿ شَقِيًّا ﴾ أى خائبا من الخير.
ابن عباس : عاقا . وقيل : عاصيا لربه . وقيل : لم يجعلنى تاركا لأمره فأشقى كما شقى إبليس
لما ترك أمره .

الثالثة — قال مالك بن أنس رحمه الله تعالى فى هذه الآية : ما أشدها على أهل القدر!
أخبر عيسى عليه السلام بما قضى من أمره، وبما هو كائن إلى أن يموت . وقد روى
فى قصص هذه الآية عن ابن زيد وغيره أنهم لما سمعوا كلام عيسى أذعنوا وقالوا : إن هذا
لأمر عظيم . وروى أن عيسى عليه السلام إنما تكلم فى طفولته بهذه الآية، ثم عاد إلى حالة
الأطفال، حتى مشى على عادة البشر إلى أن بلغ مبلغ الصبيان، فكان نطقه إظهار براءة أمه
لا أنه كان ممن يعقل فى تلك الحالة، وهو كما ينطق الله تعالى الجوارح يوم القيامة . ولم يُنقَل
أنه دام نطقه، ولا أنه كان يصلى وهو ابن يوم أو شهر، ولو كان يدوم نطقه وتسبيحه
ووعظه وصلاته فى صغره من وقت الولادة لكان مثله مما لاينكتم، وهذا كله مما يدل على
فساد القول الأول، ويصرح بجهالة قائله . ويدل أيضا على أنه تكلم فى المهد خلافا لليهود
والنصارى . والدليل على ذلك إجماع الفرق على أنها لم تُحَدّ . وإنما صحّ براءتها من الزنى
بكلامه فى المهد . ودلت هذه الآية على أن الصلاة والزكاة وبر الوالدين كان واجبا على الأمم

السالفة، والقرون الخالية الماضية، فهو مما يثبت حكمه، ولم ينسخ فى شريعة أمره. وكان عيسى عليه السلام فى غاية التواضع؛ يأكل الشجر، ويلبس الشعر، ويجلس على التراب، ويأوى حيث جنّه الليل، لا مسكن له، صلى الله عليه وسلم.

الرابعة — الإشارة بمنزلة الكلام، وتُفهِم ما يُفهِم القول. كيف لا وقد أخبر الله تعالى عن مريم فقال: «فأشارت إليه» وفهم منها القوم مقصودها وغرضها فقالوا: «كيف نكلم» وقد مضى هذا فى «آل عمران»[1] مستوفى.

الخامسة — قال الكوفيون: لا يصح قذف الأخرس ولا لعانه. وروى مثله عن الشعبى، وبه قال الأوزاعىّ وأحمد وإسحق، وإنما يصح القذف عندهم بصريح الزنى دون معناه، وهذا لا يصح من الأخرس ضرورة، فلم يكن قاذفا؛ ولا يتميز بالإشارة بالزنى من الوطء الحلال والشبهة. قالوا: واللعان عندنا شهادات، وشهادة الأخرس لا تقبل بالإجماع. قال ابن القصار: قولهم إن القذف لا يصح إلا بالتصريح فهو باطل بسائر الألسنة ماعدا العربية، فكذلك إشارة الأخرس. وما ذكروه من الإجماع فى شهادة الأخرس فغلط. وقد نص مالك أن شهادته مقبولة إذا فهمت إشارته، وأنها تقوم مقام اللفظ بالشهادة، وأما مع القدرة باللفظ فلا تقع منه إلا باللفظ. قال ابن المنذر: والمخالفون يلزمون الأخرس الطلاق والبيوع وسائر الأحكام، فينبغى أن يكون القذف مثل ذلك. قال المهلب: وقد تكون الإشارة فى كثير من أبواب الفقه أقوى من الكلام؛ مثل قوله عليه الصلاة والسلام: "بعثت أنا والساعة كهاتين" نعرف قرب ما بينهما بمقدار زيادة الوسطى على السبابة. وفى إجماع العقول على أن العيان أقوى من الخبر دليل على أن الإشارة قد تكون فى بعض المواضع أقوى من الكلام. ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ﴾ أى السلامة علىّ من الله تعالى. قال الزجاج: ذكر السلام قبل هذا بغير ألف ولام فحسن فى الثانية ذكر الألف واللام. وقوله: ﴿يَوْمَ وُلِدتُّ﴾ يعنى فى الدنيا. وقيل: من همز الشيطان كما تقدم فى «آل عمران»[2]. ﴿وَيَوْمَ أَمُوتُ﴾ يعنى

---

(١) راجع جـ ٤ ص ٨١ طبعة أولى أو ثانية. (٢) راجع جـ ٤ ص ٦٨ طبعة أولى أو ثانية.

في القبر. «وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا» يعني في الآخرة؛ لأن له أحوالا ثلاثة: في الدنيا حيا، وفي القبر ميتا، وفي الآخرة مبعوثا؛ فسلم في أحواله كلها؛ وهو معنى قول الكلبي. ثم انقطع كلامه في المهد حتى بلغ مبلغ الغلمان. وقال قتادة: ذكر لنا أن عيسى عليه السلام رأته امرأة يحيي الموتى، ويُبرئ الأكمه والأبرص في سائر آياته فقالت: طوبى للبطن الذي حملك، والثدي الذي أرضعك؛ فقال لها عيسى عليه السلام: طوبى لمن تلا كتاب الله تعالى واتبع ما فيه وعمل به.

قوله تعالى: ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَـٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَـٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَـٰكِنِ ٱلظَّـٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾

قوله تعالى: «ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ» أي ذلك الذي ذكرناه عيسى بن مريم فكذلك اعتقدوه، لا كما تقول اليهود إنه لغير رشدة، وأنه ابن يوسف النجار، ولا كما قالت النصارى: إنه الإله أو ابن الإله. «قَوْلَ الْحَقِّ» قال الكسائي: «قَوْلُ الْحَقِّ» نعت لعيسى؛ أي ذلك عيسى ابن مريم [قول الحق](١). وسمي قول الحق كما سمي كلمة الله؛ والحق هو الله عز وجل. وقال أبو حاتم: المعنى هو قول الحق. وقيل: التقدير هذا الكلام قول الحق. قال ابن عباس: يريد هذا كلام عيسى صلى الله عليه وسلم قول الحق ليس بباطل؛ وأضيف القول إلى الحق كما قال: «وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ» أي الوعد الصدق. وقال:

(١) زيادة يقتضيها المقام.

« وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ » أى ولا الدار الآخرة . وقرأ عاصم وعبد الله بن عامر « قَوْلَ الْحَقِّ » بالنصب على الحال ؛ أى أقول قولا حقا . والعامل معنى الإشارة فى « ذلك » . الزجاج : هو مصدر أى أقول قول الحق ؛ لأن ما قبله يدل عليه . وقيل : مدح . وقيل : إغراء . وقرأ عبد الله «قَالُ الحقِّ» . وقرأ الحسن «قُولُ الحقِّ» بضم القاف ، وكذلك فى «الأنعام» « قَوْلُهُ الْحَقُّ » . والقَوْلُ والقَالُ والقُولُ بمعنى واحد ، كالرَّهْب والرَّهَب والرُّهْب . ﴿ الَّذِى ﴾ من نعت عيسى . ﴿ فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ أى يشكون ؛ أى ذلك عيسى بن مريم الذى فيه يمترون القول الحق . وقيل : « يمترون » يختلفون . ذكر عبد الرزاق قال أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله تعالى : « ذلك عيسى بن مريم قول الحق الذى فيه يمترون » قال : آجتمع بنو إسرائيل فأخرجوا منهم أربعة نفر ، أخرج كل قوم عالمهم فامتروا فى عيسى حين رفع ؛ فقال أحدهم : هو الله هبط إلى الأرض فأحيا من أحيا وأمات من أمات ، ثم صعد إلى السماء وهم اليعقوبية . فقالت الثلاثة : كذبت . ثم قال اثنان منهم للثالث : قل فيه ، قال : هو آبن الله وهم النّسطورية ، فقال الاثنان كذبت ، ثم قال أحد الاثنين للآخر قل فيه ، فقال : هو ثالث ثلاثة ، الله إله وهو إله ، وأمه إله ، وهم الإسرائيلية ملوك النصارى . قال الرابع : كذبت بل هو عبد الله و رسوله و روحه وكلمته وهم المسلمون ، فكان لكل رجل منهم أتباع — على ما قال — فاقتتلوا فظُهِر على المسلمين ، فذلك قول الله تعالى : «وَيَقْتُلُونَ الذين يَأْمُرُونَ بِالقسطِ مِن النّاسِ» . وقال قتادة : وهم الذين قال الله تعالى فيهم : « فآختلف الأحزابُ مِنْ بينِهِم » اختلفوا فيه فصاروا أحزابا فهذا معنى قوله : « الذى فيه تمترون » بالتاء المعجمة من فوق وهى قراءة أبى عبد الرحمن السُّلَمى وغيره . قال ابن عباس : فمر بمريم ابن عمها ومعها ابنها إلى مصر فكانوا فيها آثنتى عشرة سنة حتى مات الملك الذى كانوا يخافونه ؛ ذكره الماوردى .

قلت : ووقع فى تاريخ مصر فيما رأيت وجاء فى الإنجيل ؛ الظاهر أن السيد المسيح لما ولد فى بيت لحم كان هيرودس فى ذلك الوقت ملكا ، وأن الله تعالى أوحى إلى يوسف النجار

فى الحلم وقال له : قم فخذ الصبى وأمه واذهب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك ، فإن هيرودس مزمع أن يطلب عيسى ليهلكه ، فقام من نومه : وامتثل أمر ربه ، وأخذ السيد المسيح ومريم أمه وجاء إلى مصر ، وفى حال مجيئه إلى مصر نزل ببئر البلسان التى بظاهر القاهرة ، وغسلت ثيابه على ذلك البئر ، فالبلسان لا يطلع ولا ينبت إلا فى تلك الأرض ، ومنه يخرج الدهن الذى يخالط الزيت الذى تعمّد به النصارى ، ولذلك كانت قارورة واحدة فى أيام المصريين لها مقدار عظيم ، وتقع فى نفوس ملوك النصارى مثل ملك القسطنطينية وملك صقلية وملك الحبشة وملك النوبة وملك الفرنجة وغيرهم من الملوك عندما يهاديهم به ملوك مصر موقعا جليلا جدا ، وتكون أحبّ إليهم من كل هدية لها قدر . وفى تلك السّفْرة وصل السيد المسيح إلى مدينة الأشمونين (١) وقسقام (٢) المعروفة الآن بالمحرقة (٣) ، فلذلك يعظمها النصارى إلى الآن ، ويحضرون إليها فى عيد الفصح من كل مكان ؛ لأنها نهاية ما وصل إليها من أرض مصر ، ومنها عاد إلى الشام . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِلَّهِ ﴾ أى ما ينبغى له ولا يجوز ﴿ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ﴾ «من» صلة للكلام ؛ أى أن يتخذ ولدا . و « أن » فى موضع رفع اسم « كان » أى ما كان لله أن يتخذ ولدا ؛ أى ما كان من صفته اتخاذ الولد ، ثم نزه نفسه تعالى عن مقالتهم فقال : ﴿ سُبْحَانَهُ ﴾ أن يكون له ولد . ﴿ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ تقدم فى «البقرة» (٤) مستوفى . ﴿ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾ قرأ أهل المدينة وابن كثير وأبو عمرو بفتح « أن » وأهل الكوفة « وإن » بكسر الهمزة على أنه مستأنف . تدل عليه قراءة أبىّ « كُنْ فَيَكُون . إنَّ اللَّهَ » بغير واو على العطف على « قَالَ إِنِّى عبدُ اللَّهِ » . وفى الفتح أقوال : فمذهب الخليل وسيبويه أن المعنى ؛ ولأن الله ربى وربكم ، وكذا « وأنَّ المَسَاجِدَ لِلَّهِ » فـ « أن » فى موضع نصب عندهما . وأجاز الفراء أن يكون فى موضع خفض على حذف اللام ، وأجاز أن يكون أيضا فى موضع

---

(١) الأشمونين : إحدى قرى مركز ملوى . (٢) قسقام : هى القوصية الآن إحدى قرى مركز منفلوط .
(٣) المحرقة : وتعرف اليوم بالدير المحرق بمركز منفلوط . (٤) راجع جـ ٢ ص ٨٧ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

خفض بمعنى؛ وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا و بأن الله ر بى وربكم . وأجاز الكسائى أن يكون فى موضع رفع بمعنى؛ والأمر أن الله ر بى وربكم . وفيها قول خامس : حكى أبوعبيد أن أبا عمرو بن العلاء قاله ، وهو أن يكون المعنى : وقضى أن الله ر بى و ربكم؛ فهى معطوفة على قوله : « أمرا » من قوله : « إِذَا قَضَى أَمْرًا » والمعنى إذا قضى أمرا وقضى أن الله . ولا يبتدأ بـ « ـأن » على هذا التقدير، ولا على التقدير الثالث . و يجوز الابتداء بها على الأوجه الباقية . ﴿ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴾ أى دين قويم لا اعوجاج فيه .

قوله تعالى : ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ « من » زائدة؛ أى اختلف الأحزاب بينهم . وقال قتادة : أى ما بينهم . فاختلفت الفرق من أهل الكتاب فى أمر عيسى عليه السلام فاليهود بالقدح والسحر . والنصارى قالت النسطورية منهم : هو ابن الله . والملكانية ثالث ثلاثة . وقالت اليعقوبية : هو الله؛ فأفرطت النصارى وغلت ، وفرطت اليهود وقصرت . وقد تقدّم هذا فى « النساء »[(١)] . وقال ابن عباس : المراد من الأحزاب الذين تحزبوا على النبى صلى الله عليه وسلم وكذبوه من المشركين . ﴿ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أى من شهود يوم القيامة ، والمشهد بمعنى المصدر، والشهود الحضور . ويجوز أن يكون الحضور لهم ، و يضاف إلى الظرف لوقوعه فيه ، كما يقال : و يل لفلان من قتال يوم كذا ؛ أى من حضوره ذلك اليوم . وقيل : المشهد بمعنى الموضع الذى يشهده الخلائق ، كالمحشر للموضع الذى يحشر إليه الخلق . وقيل : فو يل للذين كفروا من حضورهم المشهد العظيم الذى اجتمعوا فيه للتشاور، فأجمعوا على الكفر بالله، وقولهم : إن الله ثالث ثلاثة .

قوله تعالى : ﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا ﴾ قال أبو العباس : العرب تقول هذا فى موضع التعجب؛ فتقول : أسمع بزيد وأبصر بزيد أى ما أسمعه وأبصره . قال : فمعناه أنه عَجَّب نبيه منهم . قال الكلبى : لا أحد أسمع منهم يوم القيامة ولا أبصر، حين يقول الله تبارك وتعالى لعيسى : « أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ ٱللَّهِ » . وقيل : « أسمع »

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٢١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

بمعنى الطاعة ؛ أى ما أطوعهم لله فى ذلك اليوم . ﴿ لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ ﴾ يعنى فى الدنيا. ﴿ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ وأى ضلال أبين من أن يعتقد المرء فى شخص مثله حملته الأرحام ، وأكل وشرب ، وأحدث واحتاج أنه إله ؟ ! ومن هذا وصفه فهو أصم أعمى ولكنه سيبصر ويسمع فى الآخرة إذا رأى العذاب ، ولكنه لا ينفعه ذلك ؛ قال معناه قتادة وغيره .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ ﴾ روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : ما من أحد يدخل النار إلا وله بيت فى الجنة فيتحسر عليه . وقيل : تقع الحسرة إذا أعطى كتابه بشماله . « إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ » أى فُرِغ من الحساب ، وأدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار . وفى صحيح مسلم من حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح[(١)] فيوقف بين الجنة والنار فيقال يأهل الجنة هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت – قال – ثم يقال يأهل النار هل تعرفون هذا فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت – قال – فيؤمر به فيذبح ثم يقال يأهل الجنة خلود فلا موت ويأهل النار خلود فلا موت – ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم – « وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم فى غفلة وهم لا يؤمنون » " خرجه البخارى بمعناه عن ابن عمر ، وابن ماجه من حديث أبى هريرة ، والترمذى عن أبى سعيد يرفعه وقال فيه حديث حسن صحيح . وقد ذكرنا ذلك فى كتاب « التذكرة » وبينا هناك أن الكفار مخلّدون بهذه الأحاديث والآى ردا على من قال : إن صفة الغضب تنقطع ، وإن إبليس ومن تبعه من الكفرة كفرعون وهامان وقارون وأشباههم يدخلون الجنة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾ أى نميت سكانها فنرثها . ﴿ وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴾ يوم القيامة فنجازى كلًّا بعمله ، وقد تقدّم هذا فى « الحجر »[(٢)] وغيرها .

---

(١) الأملح : الذى بياضه أكثر من سواده ؛ وقيل النقى البياض .

(٢) راجع جـ ١٠ ص ١٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾
إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ
شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ
صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَـٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَـٰنَ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَـٰنِ
عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَـٰنِ فَتَكُونَ
لِلشَّيْطَـٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ
لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّىٓ
إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّى
عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ
مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٤٩﴾ وَوَهَبْنَا
لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ إِبْرَٰهِيمَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا﴾ المعنى : واذكر فى الكتاب الذى أنزل عليك وهو القرآن قصة إبراهيم وخبره . وقد تقدّم معنى الصدّيق فى « النساء »(1) واشتقاق الصدق فى « البقرة »(2) فلا معنى للإعادة . ومعنى الآية : آقرأ عليهم يا محمد فى القرآن أمر إبراهيم فقد عرفوا أنهم من ولده، فإنه كان حنيفا مسلما وما كان يتخذ الأنداد، فهؤلاء لم يتخذون الأنداد؟ ! وهو كما قال : « وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ » .

قوله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ﴾ وهو آزر وقد تقدّم(3) . ﴿يَا أَبَتِ﴾ قد تقدّم القول فيه فى « يوسف »(4) ﴿لِمَ تَعْبُدُ﴾ أى لأى شىء تعبد : ﴿مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنْكَ

(1) راجع جـ ٥ ص ٢٧٢ طبعة أولى أو ثانية . (2) راجع جـ ١ ص ٢٣٣ طبعة ثانية .
(3) راجع جـ ٧ ص ٢٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (4) راجع جـ ٩ ص ١٢١ طبعة أولى أو ثانية .

شَيْئًا ﴾ يريد الأصنام . ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ أى من اليقين والمعرفة بالله وما يكون بعد الموت ، وأن من عبد غير الله عذب ﴿ فَاتَّبِعْنِي ﴾ إلى ما أدعوك إليه . ﴿ أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴾ أى أرشدك إلى دين مستقيم فيه النجاة . ﴿ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾ أى لا تطعه فيما يأمرك به من الكفر، ومن أطاع شيئا فى معصية فقد عبده . ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴾ « كان » صلة زائدة . وقيل : بمعنى صار . وقيل : بمعنى الحال؛ أى هو للرحمن . وعصيا وعاصٍ بمعنى واحد؛ قاله الكسائى . ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ﴾ أى إن متَّ على ما أنت عليه . ويكون « أخاف » بمعنى أعلم . ويجوز أن يكون « أخاف » على بابها فيكون المعنى : إنى أخاف أن تموت على كفرك فيمسك العذاب . ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴾ أى قرينا فى النار . ﴿ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ ﴾ أى أترغب عنها إلى غيرها . ﴿ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ قال الحسن : يعنى بالحجارة . الضحاك : بالقول؛ أى لأشتمنك . ابن عباس : لأضربنك . وقيل : لأظهرن أمرك . ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ . قال ابن عباس : أى اعتزلنى سالم العرض لا يصيبك منى معرة؛ واختاره الطبرى، فقوله : « مليا » على هذا حال من إبراهيم . وقال الحسن ومجاهد : « مليا » دهرا طويلا؛ ومنه قول المهلهل :

فَتَصَدَّعَتْ صُمُّ الجبالِ لموته　*　وبَكَتْ عليه المُرْمِلاتُ مليًّا

قال الكسائى : يقال هجرته مليًّا ومَلْوة ومُلْوة ومَلَاوة ومُلَاوة، فهو على هذا القول ظرف، وهو بمعنى الملاوة من الزمان، وهو الطويل منه .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ ﴾ لم يعارضه إبراهيم عليه السلام بسوء الرد ؛ لأنه لم يؤمر بقتاله على كفره . والجمهور على أن المراد بسلامه المسالمة التى هى المتاركة لا التحية ؛ قال الطبرى : معناه أمنة منى لك . وعلى هذا لا يبدأ الكافر بالسلام . وقال النقاش : حليم خاطب سفيها ؛ كما قال : « وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا » . وقال بعضهم فى معنى تسليمه : هو تحية مفارق ؛ وجوز تحية الكافر وأن يبدأ بها . قيل لابن عيينة : هل يجوز السلام على الكافر ؟ قال : نعم؛ قال الله تعالى : « لا ينهاكم اللهُ عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين

ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين » ، وقال : « قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم » الآية ؛ وقال إبراهيم لأبيه : « سلام عليك » .

قلت : الأظهر من الآية ما قاله سفيان بن عيينة ؛ وفى الباب حديثان صحيحان : روى أبو هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا تبدءوا اليهود والنصارى بالسلام فإذا لقيتم أحدهم فى الطريق فاضطروه إلى أضيقه" خرجه البخارى ومسلم . وفى الصحيحين عن أسامة ابن زيد أن النبي صلى الله عليه وسلم ركب حمارا عليه إكاف تحته قطيفة فَدَكيّة ، وأردف وراءه أسامة بن زيد ؛ وهو يعود سعد بن عبادة فى بنى الحرث بن الخزرج ، وذلك قبل وقعة بدر ، حتى مر فى مجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود ، وفيهم عبد الله بن أبيّ بن سلول ، وفى المجلس عبد الله بن رَوَاحة ، فلما غشيت المجلسَ عجاجةُ الدابة ، خمر عبد الله بن أبيّ أنفه بردائه ، ثم قال : لا تُغبِّروا علينا ، فسلّم عليهم النبي صلى الله عليه وسلم ؛ الحديث . فالأول يفيد ترك السلام عليهم ابتداء ، لأن ذلك إكرام ، والكافر ليس أهله . والحديث الثانى يجوز ذلك . قال الطبرى : ولا يعارَض ما رواه أسامة بحديث أبى هريرة ، فإنه ليس فى أحدهما خلاف للآخر ؛ وذلك أن حديث أبى هريرة مخرجه العموم ، وخبر اسامة يبين أن معناه الخصوص . وقال النَّخَعى : إذا كانت لك حاجة عند يهودى أو نصرانى فابدأه بالسلام ؛ فبان بهذا أن حديث أبى هريرة "لا تبدءوهم بالسلام" إذا كان لغير سبب يدعوكم إلى أن تبدءوهم بالسلام ، من قضاء ذمام أو حاجة تعرض لكم قِبلهم ، أو حقّ صحبة أو جوار أو سفر . قال الطبرى : وقد روى عن السلف أنهم كانوا يسلمون على أهل الكتاب . وفعله ابن مسعود بدهقان صحبه فى طريقه ؛ قال علقمة : فقلت له يا أبا عبد الرحمن أليس يكره أن يبدءوا بالسلام ؟ ! قال : نعم ؛ ولكن حقّ الصحبة . وكان أبو أسامة إذا انصرف إلى بيته لا يمر بمسلم ولا نصرانى ولا صغير ولا كبير إلا سلم عليه ؛ فقيل له فى ذلك فقال : أمرنا أن نفشى السلام . وسئل الأوزاعى عن مسلم مر بكافر فسلم عليه ، فقال : إن سلمت فقد سلم الصالحون قبلك ، وإن تركت فقد ترك الصالحون قبلك . وروى عن الحسن البصرى أنه قال : إذا مررت بمجلس فيه مسلمون وكفار فسلم عليهم .

قلت : وقد احتج أهل المقالة الأولى بأن السلام الذى معناه التحية إنما خص به هذه الأمة؛ لحديث أنس بن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى أعطى أمتى ثلاثا لم تعط أحدا قبلهم السلام وهى تحية أهل الجنة" الحديث؛ ذكره الترمذى الحكيم؛ وقد مضى فى الفاتحة بسنده[(١)] . وقد مضى الكلام فى معنى قوله : « سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّى » . وارتفع السلام بالابتداء، وجاز ذلك مع نكرته لأنه نكرة مخصصة فقربت من المعرفة .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴾ : الحفى المبالغ فى البرّ والإلطاف؛ يقال : حَفِى به وتحفَّى إذا برّه . وقال الكسائى يقال : حَفِى بى حَفاوة وحِفْوة . وقال الفراء : « إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا » أى عالما لطيفا يجيبنى إذا دعوته .

قوله تعالى : ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ ﴾ : العزلة المفارقة وقد تقدّم فى « الكهف »[(٢)] بيانها . وقوله : ﴿ عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّى شَقِيًّا ﴾ قيل : أراد بهذا الدعاء أن يهب الله تعالى له أهلا وولدا يتقوى بهم حتى لا يستوحش بالاعتزال عن قومه . ولهذا قال : ﴿ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ أى آنسنا وحشته بولد؛ عن ابن عباس وغيره . وقيل : « عسى » يدل على أن العبد لا يقطع بأنه يبقى على المعرفة أم لا فى المستقبل . وقيل : دعا لأبيه بالهداية . و « عسى » شك لأنه كان لا يدرى هل يستجاب له فيه أم لا ؟ والأول أظهر . وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴾ أى أثنينا عليهم ثناء حسنا؛ لأن جميع الملل تحسن الثناء عليهم . واللسان يذكر ويؤنث؛ وقد تقدّم[(٣)] .

قوله تعالى : وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥١﴾ وَنَٰدَيْنَٰهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَٰهُ نَجِيًّا ﴿٥٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥ مِن رَّحْمَتِنَآ أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴿٥٣﴾

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٣٠ طبعة ثانية أو ثالثة .	(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٦٧ طبعة أولى أو ثانية .
(٣) راجع جـ ٤ ص ١٢١ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ مُوسَىٰ ﴾ أى وآقرأ عليهم من القرآن قصة موسى . ﴿ إِنَّهُ كَانَ مُخْلِصًا ﴾[1] فى عبادته غير مرائى . وقرأ أهل الكوفة بفتح اللام؛ أى أخلصناه فجعلناه مختارا . ﴿ وَنَادَيْنَاهُ ﴾ أى كلمناه ليلة الجمعة . ﴿ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنِ ﴾ أى يمين موسى، وكانت الشجرة فى جانب الجبل عن يمين موسى حين أقبل من مدين إلى مصر؛ قاله الطبرى وغيره؛ فإن الجبال لا يمين لها ولا شمال . ﴿ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴾ نصب على الحال ؛ أى كلمناه من غير وحى . وقيل : أدنيناه لتقريب المنزلة حتى كلمناه . وذكر وكيع وقبيصة عن سفيان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن آبن عباس فى قول الله عز وجل : « وقربناه نجيا » أى أدنى حتى سمع صرير الأقلام . ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَٰرُونَ نَبِيًّا ﴾ وذلك حين سأل فقال : « وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي هَٰرُونَ أَخِي » .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾

فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ إِسْمَٰعِيلَ ﴾ اختلف فيه؛ فقيل : هو إسمعيل ابن حزقيل، بعثه الله إلى قومه فسلخوا جلدة رأسه، فخيره الله تعالى فيما شاء من عذابهم، فاستعفاه ورضى بثوابه، وفوض أمرهم إليه فى عفوه وعقوبته . والجمهور أنه إسمعيل الذبيح أبو العرب بن إبراهيم . وقد قيل : إن الذبيح إسحق ؛ والأول أظهر على ما تقدم ويأتى فى «والصافات»[2] إن شاء الله تعالى . وخصه الله تعالى بصدق الوعد وإن كان موجودا فى غيره من الأنبياء تشريفا له وإكراما ، كالتلقيب بنحو الحليم والأواه والصديق ؛ ولأنه المشهور المتواصف من خصاله .

---

(١) بكسر اللام قراءة «نافع» . (٢) فى تفسير قوله تعالى : « فلما بلغ معه السعى ... الخ » . آية ١٠٢

الثانيــة — صدق الوعد محمود وهو من خلق النبيين والمرسلين ، وضدّه وهو الخلف مذموم، وذلك من أخلاق الفاسقين والمنافقين على ما تقدم بيانه فى « براءة »(١) . وقد أثنى الله تعالى على نبيه إسمعيل فوصفه بصدق الوعد . وآختلف فى ذلك ؛ فقيل : إنه وعد من نفسه بالصبر على الذبح فصبر حتى فدى . هذا فى قول من يرى أنه الذبيح . وقيل : وعد رجلا أن يلقاه فى موضع فجاء إسمعيل وانتظر الرجل يومه وليلته ، فلما كان فى اليوم الآخر جاء ؛ فقال له : مازلت هاهنا فى انتظارك منذ أمس . وقيل : انتظره ثلاثة أيام . وقد فعل مثله نبينا صلى الله عليه وسلم قبل بعثه ؛ ذكره النقاش وخرجه الترمذى وغيره عن عبد الله بن أبى الحَمْساء قال : بايعت النبي صلى الله عليه وسلم ببيع قبل أن يبعث وبقيت له بقية فوعدته أن آتيه بها فى مكانه فنسيت ، ثم ذكرت بعد ثلاثة أيام، فجئت فإذا هو فى مكانه؛ فقال : "يافتى لقد شققت علىّ أنا هاهنا منذ ثلاث أنتظرك" لفظ أبى داود . وقال يزيد الرقاشى : انتظره إسمعيل اثنين وعشرين يوما ؛ ذكره الماوردىّ . وفى كتاب ابن سلام أنه انتظره سنة . وذكره الزمخشرى عن ابن عباس أنه وعد صاحبا له أن ينتظره فى مكان فانتظره سنة . وذكره القشيرى قال : فلم يبرح من مكانه سنة حتى أتاه جبريل عليه السلام ؛ فقال : إن التاجر الذى سألك أن تقعد له حتى يعود هو إبليس فلا تقعد ولا كرامة له . وهذا بعيد ولا يصح . وقد قيل : إن إسمعيل لم يَعِد شيئا إلا وَفَّى به، وهذا قول صحيح، وهو الذى يقتضيه ظاهر الآية؛ والله أعلم .

الثالثــة — من هذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : "العِدة دَيْن" . وفى الأثر "وأى(٢) المؤمن واجب" أى فى أخلاق المؤمنين . وإنما قلنا إن ذلك ليس بواجب فرضا لإجماع العلماء على ما حكاه أبو عمر أن من وعد بمال ما كان ليَضْرِب به مع الغرماء ؛ فلذلك قلنا إيجاب الوفاء به حسن مع المروءة ، ولا يقضى به . والعرب تمتدح بالوفاء، وتذم بالخلف والغدر، وكذلك سائر الأمم، ولقد أحسن القائل :

متى ما يقُلْ حُرٌّ لصاحبِ حاجةٍ * نَعَمْ يقضِها والحرُّ لِلوأيِ ضامن

(١) راجع ج ٨ ص ٢١٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) الوأى : الوعد .

ولا خلاف أن الوفاء يستحق صاحبه الحمد والشكر، وعلى الخلف الذم . وقد أثنى الله تبارك وتعالى على من صدق وعده، ووفى بنذره؛ وكفى بهذا مدحا وثناء، وبما خالفه ذما .

الرابعة — قال مالك : إذا سأل الرجل الرجل أن يهب له الهبة فيقول له نعم، ثم يبدو له ألا يفعل فما أرى يلزمه . قال مالك : ولو كان ذلك فى قضاء دين فسأله أن يقضيه عنه فقال نعم، وثَمَّ رجال يشهدون عليه فما أحراه أن يلزمه إذا شهد عليه اثنان . وقال أبو حنيفة وأصحابه والأوزاعىّ والشافعى وسائر الفقهاء : إن العِدة لا يلزم منها شىء لأنها منافع لم يقبضها فى العارية لأنها طارئة ، وفى غير العارية هى أشخاص وأعيان موهوبة لم تقبض فلصاحبها الرجوع فيها . وفى البخارى « وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ »؛ وقضى ابن أَشْوَع بالوعد وذكر ذلك عن سَمُرة بن جُنْدب. قال البخارى (١) : ورأيت إسحق بن إبراهيم يحتج بحديث ابن أَشْوَع .

الخامسة — ﴿ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴾ قيل : أرسل إسمعيل إلى جُرهم . وكل الأنبياء كانوا إذا وعدوا صدقوا، وخص إسمعيل بالذكر تشريفا له . والله أعلم .

السادسة — ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ ﴾ قال الحسن : يعنى أمته . وفى حرف ابن مسعود « وكان يأمر أهله جُرْهم وولده بالصلاة والزكاة » . ﴿ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴾ أى رضيا زاكيا صالحا . قال الكسائى والفراء : من قال مرضىّ بناه على رضيت ؛ قالا . وأهل الحجاز يقولون : مرضوّ . وقال الكسائى والفراء : من العرب من يقول رِضَوان ورِضَيان (٢) فرضوان على مرضوّ، ورِضيان على مرضىّ ولا يجيز البصريون أن يقولوا إلا رِضَوان وربوان . قال أبو جعفر النحاس : سمعت أبا إسحق الزجاج يقول : يخطئون فى الخط فيكتبون ربا بالياء ثم يخطئون فيما هو أشدّ من هذا فيقولون رِبيان ولا يجوز إلا رِبَوان ورِضَوان؛ قال الله تعالى: « وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ » .

---

(١) قاله فى « التاريخ الأوسط » كما فى « تهذيب التهذيب » . (٢) أى فى تثنية الرضا .

قوله تعالى : وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴾ إدريس عليه السلام أوّل من خط بالقلم، وأوّل من خاط الثياب ولبس المخيط، وأوّل من نظر فى علم النجوم والحساب وسيرها . وسمى إدريس لكثرة درسه لكتاب الله تعالى . وأنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة كما فى حديث أبى ذر . الزمخشرى : وقيل سمى إدريسُ إدريسَ لكثرة درسه كتاب الله تعالى ؛ وكان اسمه أخنوخ وهو غير صحيح ؛ لأنه لو كان إفعيلا من الدرس لم يكن فيه إلا سبب واحد وهو العلمية وكان منصرفا، فامتناعه من الصرف دليل على العجمة ؛ وكذلك إبليس أعجمى وليس من الإبلاس كما يزعمون ؛ ولا يعقوب من العقب، ولا إسرائيل بإسرال كما زعم ابن السكيت ؛ ومن لم يحقق ولم يتدرّب بالصناعة كثرت منه أمثال هذه الهنات ؛ يجوز أن يكون معنى إدريس عليه السلام فى تلك اللغة قريبا من ذلك فحسبه الراوى مشتقا من الدرس . قال الثعلبى والغزنوى وغيرهما : وهو جدّ نوح وهو خطأ؛ وقد تقدّم فى «الأعراف»[(١)] بيانه . وكذا وقع فى السيرة أن نوحا عليه السلام بن لامك بن متوشلخ بن أخنوخ وهو إدريس النبى فيما يزعمون ؛ والله تعالى أعلم . وكان أوّل من أعطى النبوّة من بنى آدم، وخط بالقلم . ابن يرد بن مهلائيل بن قينان بن يانش بن شيث بن آدم صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ قال أنس بن مالك وأبو سعيد الخدرى وغيرهما : يعنى السماء الرابعة . وروى ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم ؛ وقاله كعب الأحبار . وقال ابن عباس والضحاك : يعنى السماء السادسة ؛ ذكره المهدوى .

قلت : ووقع فى البخارى عن شريك بن عبد الله بن أبى نَمِر قال سمعت أنس بن مالك يقول : ليلة أسرى برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة ، الحديث، وفيه : كل سماء فيها أنبياء — قد سماهم — منهم إدريس فى الثانية . وهو وَهَمٌ، والصحيح أنه فى السماء

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٣٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

الرابعة؛ كذلك رواه ثابت البُنَانِيّ عن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ ذكره مسلم فى الصحيح. وروى مالك بن صعصعة قال قال النبي صلى الله عليه وسلم: "لما عرج بى إلى السماء أتيت على إدريس فى السماء الرابعة". خرجه مسلم أيضا. وكان سبب رفعه على ما قال ابن عباس وكعب وغيرهما: أنه سار ذات يوم فى حاجة فأصابه وهج الشمس، فقال: يارب أنا مشيت يوما فكيف بمن يحملها خمسمائة عام فى يوم واحد! اللهم خَفِّف عنه من ثقلها. يعنى الملك الموكل بفلك الشمس؛ يقول إدريس: اللهم خَفِّف عنه من ثقلها وآحمل عنه من حرها. فلما أصبح الملك وجد من خفة الشمس والظل ما لا يعرف، فقال: يارب خلقتنى لحمل الشمس فما الذى قضيت فيه؟ فقال الله تعالى: «أما إن عبدى إدريس سألنى أن أخفف عنك حملها وحرها فأجبته» فقال: يارب آجمع بينى و بينه، واجعل بينى و بينه خلة. فأذن الله له حتى أتى إدريس، وكان إدريس عليه السلام يسأله. فقال: أخبرت أنك أكرم الملائكة وأمكنهم عند ملك الموت، فاشفع لى إليه ليؤخر أجلى، فأزداد شكرا وعبادة. فقال الملك: لا يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها؛ فقال للملك: قد علمت ذلك ولكنه أطيب لنفسى. قال نعم. ثم حمله على جناحه فرفعه إلى السماء ووضعه عند مطلع الشمس، ثم قال لملك الموت: لى صديق من بنى آدم تشفّع بى إليك لتؤخر أجله. فقال: ليس ذلك إلىّ ولكن إن أحببت عِلمه أعلمته متى يموت. قال: «نعم» ثم نظر فى ديوانه، فقال: إنك تسألنى عن إنسان ما أراه يموت أبدا. قال «وكيف»؟ قال: لا أجده يموت إلا عند مطلع الشمس. قال: فإنى أتيتك وتركته هناك؛ قال: آنطلق فما أراك تجده إلا وقد مات فوالله ما بقى من أجل إدريس شىء. فرجع الملك فوجده ميتا. وقال السدّى: إنه نام ذات يوم، وآشتدّ عليه حرّ الشمس، فقام وهو منها فى كرب؛ فقال: اللهم خفف عن ملك الشمس حرها، وأعنه على ثقلها، فإنه يمارس نارا حامية. فأصبح ملك الشمس وقد نصب له كرسى من نور، عنده سبعون ألف ملك عن يمينه، ومثلها عن يساره يخدمونه، و يتولون أمره وعمله من تحت حكمه؛ فقال ملك الشمس: يارب من أين لى هذا؟. قال: «دعا لك رجل من بنى آدم يقال له إدريس» ثم ذكر نحو حديث كعب. قال فقال له ملك الشمس: أتريد حاجة؟ قال: نعم وددت أنى لو رأيت الجنة.

قال : فرفعه على جناحه ، ثم طار به ، فبينما هو فى السماء الرابعة التقى بملك الموت ينظر فى السماء ، ينظر يمينا وشمالا ، فسلم عليه ملك الشمس ، وقال : يا إدريس هذا ملك الموت فسلم عليه ؛ فقال ملك الموت : سبحان الله ! ولأى معنى رفعته هنا ؟ قال : رفعته لأريه الجنة . قال : فإن الله تعالى أمرنى أن أقبض روح إدريس فى السماء الرابعة . قلت : يا رب وأين إدريس من السماء الرابعة ، فنزلت فإذا هو معك ؛ فقبض روحه فرفعها إلى الجنة ، ودفنت الملائكة جثته فى السماء الرابعة ، فذلك قوله تعالى : « ورفعناه مكانا عليا » . قال وهب بن منبه : كان يرفع لإدريس كل يوم من العبادة مثل ما يرفع لأهل الأرض فى زمانه ، فعجب منه الملائكة واشتاق إليه ملك الموت ، فاستأذن ربه فى زيارته فأذن له ، فأتاه فى صورة آدمى ، وكان إدريس عليه السلام يصوم النهار ؛ فلما كان وقت إفطاره دعاه إلى طعامه فأبى أن يأكل . ففعل به ذلك ثلاث ليال فأنكره إدريس ؛ وقال له : من أنت ! قال : أنا ملك الموت ؛ استأذنت ربى أن أصحبك فأذن لى ؛ فقال : إن لى إليك حاجة . قال : وما هى ؟ قال : أن تقبض روحى . فأوحى الله تعالى إليه أن اقبض روحه ؛ فقبضه ورده إليه بعد ساعة ، وقال له ملك الموت : ما الفائدة فى قبض روحك؟ قال : لأذوق كرب الموت فأكون له أشد استعدادا . ثم قال له إدريس بعد ساعة : إن لى إليك حاجة أخرى . قال : وما هى؟ قال : أن ترفعنى إلى السماء فأنظر إلى الجنة والنار ؛ فأذن الله تعالى له فى رفعه إلى السموات ، فرأى النار فصعق ، فلما أفاق قال أرنى الجنة ؛ فأدخله الجنة ، ثم قال له ملك الموت : اخرج لتعود إلى مقرك . فتعلق بشجرة وقال : لا أخرج منها . فبعث الله تعالى بينهما ملكا حكما ، فقال : مالك لا تخرج ؟ قال : لأن الله تعالى قال : « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ » وأنا ذقته ، وقال : « وَإِنْ مِنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » وقد وردتها ، وقال : « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ » فكيف أخرج؟ قال الله تبارك وتعالى لملك الموت : « بإذنى دخل الجنة وبأمرى يخرج » . فهو حى هنالك فذلك قوله تعالى : « ورفعناه مكانا عليا » قال النحاس : قول إدريس « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ » يجوز أن يكون الله أعلم هذا إدريس ، ثم نزل القرآن به . قال وهب ابن منبه : فإدريس تارة يرتع فى الجنة ، وتارة يعبد الله تعالى مع الملائكة فى السماء .

قوله تعالى : أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ ﴾ يريد إدريس وحده . ﴿ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ﴾ يريد إبراهيم وحده . ﴿ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ يريد إسمعيل و إسحق و يعقوب . ﴿ و ﴾ من ذرية ﴿ إسرائيل ﴾ موسى وهرون وزكريا ويحيى وعيسى . فكان لإدريس ونوح شرف القرب من آدم ، ولإبراهيم شرف القرب من نوح ولإسمعيل وإسحق ويعقوب شرف القرب من إبراهيم . ﴿ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا ﴾ أى إلى الاسلام : ﴿ وَاجْتَبَيْنَا ﴾ بالإيمان . ﴿ إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ ﴾ . وقرأ شبل بن عباد المكى «يتلى» بالتذكير لأن التأنيث غير حقيقى مع وجود الفاصل . ﴿ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ وصفهم بالخشوع لله والبكاء . وقد مضى فى « سبحان »(1) . يقال بكى يبكى بكاء وبُكِىّ وبُكِيًّا ، إلا أن الخليل قال : إذا قصرت البكاء فهو مثل الحزن ؛ أى ليس معه صوت كما قال الشاعر(2) :

بكت عينِي وحُقَّ لها بكاها * وما يغنِي البكاءُ ولا العَوِيلُ

«وسجدا» نصب على الحال «و بكيا» عطف عليه .

الثانيــة — فى هــذه الآية دلالة على أن لآيات الرحمن تأثيرا فى القلوب . قال الحسن « إذا تتلى عليهم آيات الرحمنِ خروا سجـدا و بكيا » فى الصلاة . وقال الأصم : المراد بآيات الرحمن الكتب المتضمنة لتوحيده وحججه ، وأنهم كانوا يسجدون عند تلاوتها ، و يبكون عند ذكرها . والمروى عن ابن عباس أن المراد به القرآن خاصة ، وأنهم كانوا يسجدون و يبكون

---

(1) راجع جـ ١٠ ص ٣٤١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(2) هو عبد الله بن رواحة يبكى حمزة بن عبد المطلب ، رحمه الله وأنشده أبو زيد لكعب بن مالك فى أبيات .

عند تلاوته ؛ قال الكيا : وفى هـذا دلالة من قوله على أن القرآن هو الذى كان يتلى على جميع الأنبياء ، ولو كان كذلك لما كان الرسول عليه الصلاة والسلام مختصا بإنزاله إليه .

الثالثـة — احتج أبو بكر الرازى بهـذه الآية على وجوب سجـود القرآن على المستمع والقارئ . قال الكيا : وهـذا بعيد ، فإن هذا الوصف شامل لكل آيات الله تعالى . وضم السجود إلى البكاء ، وأبان به عن طريقة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فى تعظيمهم لله تعالى وآياته ، وليس فيه دلالة على وجوب ذلك عند آية مخصوصة .

الرابعـة — قال العلماء : ينبغى لمن قرأ سجدة أن يدعو فيها بما يليق بآياتها ، فإن قرأ سورة السجدة « الم تنزيل » قال : اللهم اجعلنى من الساجدين لوجهك ، المسبحين بحمدك ، وأعوذ بك أن أكون من المستكبرين عن أمرك . وإن قرأ سجدة « سبحان » قال : اللهم اجعلنى من الباكين إليك ، الخاشعين لك . وإن قرأ هذه قال : اللهم اجعلنى من عبادك المنعم عليهم ، المهديين الساجدين لك ، الباكين عند تلاوة آياتك .

قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾ جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦٢﴾ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾

فيـه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ ﴾ أى أولاد سوء . قال أبو عبيدة : حدّثنا حجاج عن ابن جريج عن مجاهد قال : ذلك عند قيام الساعة ، وذهاب صالحي هذه الأمّة

أمّة محمد صلى الله عليه وسلم ينزو بعضهم على بعض فى الأزِقة زنًى . وقد تقدّم القول فى «خَلْفٌ» فى « الأعراف »[١] فلا معنى للإعادة .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾ وقرأ عبد الله والحسن «أَضَاعُوا الصَّلَوَاتِ» على الجمع . وهو ذمّ ونص فى أن إضاعة الصلاة من الكبائر التى يو بق بها صاحبها ولا خلاف فى ذلك . وقد قال عمر : ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع . واختلفوا فيمن المراد بهذه الآية ؛ فقال مجاهد : النصارى خلفوا بعد اليهود . وقال محمد بن كعب القرظى ومجاهد أيضا وعطاء : هم قوم من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فى آخر الزمان ؛ أى يكون فى هذه الأمة من هذه صفته لا أنهم المراد بهذه الآية . واختلفوا أيضا فى معنى إضاعتها ؛ فقال القرظى : هى إضاعة كفر وجحد بها . وقال القاسم بن مخيمرة ، وعبد الله بن مسعود : هى إضاعة أوقاتها ، وعدم القيام بحقوقها وهو الصحيح ، وأنها إذا صليت مخلًّى بها لا تصح ولا تجزئ ؛ لقوله صلى الله عليه وسلم للرجل الذى صلى وجاء فسلم عليه " ارجع فصل فإنك لم تصل " ثلاث مرات خرجه مسلم ، وقال حذيفة لرجل يصلى فطفّف[٢] : منذ كم تصلى هذه الصلاة ؟ قال منذ أربعين عاما . قال : ما صليت ، ولو مت وأنت تصلى هذه الصلاة لمت على غير فطرة محمد صلى الله عليه وسلم . ثم قال : إن الرجل ليخفف الصلاة و يتم ويحسن . خرجه البخارى واللفظ للنسائى ، وفى الترمذى عن أبى مسعود الأنصارى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تجزئ صلاة لا يقيم فيها الرجل " يعنى صلبه فى الركوع والسجود ؛ قال : حديث حسن صحيح ؛ والعمل على هذا عند أهل العلم من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ومن بعدهم ؛ يرون أن يقيم الرجل صلبه فى الركوع والسجود ؛ قال الشافعى وأحمد و إسحق : من لم يقم صلبه فى الركوع والسجود فصلاته فاسدة ؛ قال صلى الله عليه وسلم " تلك الصلاة صلاة المنافق يجلس يرقب الشمس حتى إذا كانت بين قرنى الشيطان قام فنقرها أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا " . وهذا ذم لمن يفعل ذلك . وقال فروة بن خالد بن سنان : استبطأ

---

(١) راجع ج ٧ ص ٣١٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) أى نقص ، والتطفيف يكون بمعنى الزيادة والنقص .

أصحاب الضحاك مرة أميرا فى صلاة العصر حتى كادت الشمس تغرب ؛ فقرأ الضحاك هذه الآية، ثم قال : والله لأن أدعها أحبّ إلى من أن أضيّعها . وجملة القول فى هذا الباب أن من لم يحافظ على كمال وضوئها وركوعها وسجودها فليس بمحافظ عليها ، ومن لم يحافظ عليها فقد ضيعها ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع، كما أن من حافظ عليها حفظ الله عليه دينه، ولا دين لمن لاصلاة له . وقال الحسن : عطلوا المساجد، واشتغلوا بالصنائع والأسباب . « وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ » أى اللذات والمعاصى .

الثالثة — روى الترمذى وأبو داود عن أنس بن حكيم الضبى أنه أتى المدينة فلقى أبا هريرة فقال له : يافتى ألا أحدّثك حديثا لعل الله تعالى أن ينفعك به ؛ قلت : بلى . قال : " إن أوّل مايحاسَب به الناس يوم القيامة من أعمالهم الصلاة فيقول الله تبارك وتعالى لملائكته وهو أعلم انظروا فى صلاة عبدى أتمها أم نقصها فإن كانت تامة كتبت له تامة وإن كان انتقص منها شيئا قال انظروا هل لعبدى من تطوع فإن كان له تطوع قال أكملوا لعبدى فريضته من تطوّعه ثم تؤخذ الأعمال على ذلك " . قال يونس : وأحسبه عن النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لفظ أبى داود . وقال : حدّثنا موسى بن إسمعيل حدّثنا حماد حدّثنا داود بن أبى هند عن زرارة بن أوفى عن تميم الدارى عن النبي صلى الله عليه وسلم بهذا المعنى . قال : " ثم الزكاة مثل ذلك" " ثم تؤخذ الأعمال على حسب ذلك" . وأخرجه النسائى عن همام عن الحسن عن حُرَيث بن قَبِيصة عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : " إن أوّل ما يحاسب به العبد يوم القيامة بصلاته فإن صلحت فقد أفلح وأنجح وإن فسدت فقد خاب وخسر — قال همام : لاأدرى هذا من كلام قتادة أو من الرواية — فإن انتقص من فريضته شىء قال آنظروا هل لعبدى من تطوّع فيكمل به ما نقص من الفريضة ثم يكون سائر عمله على نحو ذلك " . خالفه أبو العوام فرواه عن قتادة عن الحسن عن أبى رافع عن أبى هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " إن أوّل مايحاسب به العبد يوم القيامة صلاته فإن وجدت تامة كتبت تامة وإن كان انتقص منها شىء قال انظروا هل تجدون له من

تطوّع يكمل ماضيع من فريضته من تطوعه ثم سائر الأعمال تجرى على حسب ذلك " . قال النسائى : أخبرنا إسحق بن إبراهيم قال حدّثنا النضر بن شميل قال أنبأنا حماد بن سلمة عن الأزرق بن قيس عن يحيى بن يعمر عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " أوّل ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته فإن كان أكملها و إلا قال الله عز وجل آنظروا لعبدى من تطوّع فإن وجد له تطوّع قال أكملوا به الفريضة " . قال أبو عمر بن عبد البر فى كتاب « التمهيد » : أما إكمال الفريضة من التطوع فإنما يكون — والله أعلم — فيمن سها عن فريضة فلم يأت بها، أو لم يحسن ركوعها وسجودها ولم يدر قدر ذلك؛ وأما من تركها، أو نسى ثم ذكرها، فلم يأت بها عامدا ، وآشتغل بالتطوّع عن أداء فرضها وهو ذاكر له ، فلا تكمل له فريضة من تطوّعه ، والله أعلم . وقد روى من حديث الشاميين فى هذا الباب حديث منكر يرويه محمد بن حمير عن عمرو بن قيس السَّكُونى عن عبد الله بن قُرْط عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " من صلى صلاة لم يكمل فيها ركوعه وسجوده زيد فيها من تسبيحاته حتى تتم " . قال أبو عمر : وهذا لا يحفظ عن النبى صلى الله عليه وسلم إلا من هذا الوجه، وليس بالقوىّ؛ وإن كان صح كان معناه أنه خرج من صلاة كان قد أتمها عند نفسه وليست فى الحكم بتامة .

قلت : فينبغى للإنسان أن يحسن فرضه ونفله حتى يكون له نفل يجده زائدا على فرضه يقرّبه من ربه، كما قال سبحانه وتعالى : « وما يزال عبدى يتقرّب إلىّ بالنوافل حتى أحبه » الحديث . فأما إذا كان نفل يكمل به الفرض فحكمه فى المعنى حكم الفرض . ومن لا يحسن أن يصلى الفرض فأحرى وأولى ألا يحسن التنفل؛ لا جرم تنفل الناس فى أشدّ ما يكون من النقصان والخلل لخفته عندهم ، وتهاونهم به ، حتى كأنه غير معتد به . ولعمر الله لقد يشاهد فى الوجود من يشار إليه ، ويظن به العلم تنفله كذلك؛ بل فرضه إذ ينقره نقر الديك لعدم معرفته بالحديث؛ فكيف بالجهال الذين لا يعلمون . وقد قال العلماء : ولا يجزئ ركوع ولا سجود، ولا وقوف بعد الركوع ، ولا جلوس بين السجدتين، حتى يعتدل راكعا و واقفا

وساجدا وجالسا . وهذا هو الصحيح فى الأثر، وعليـه جمهور العلماء وأهل النظر . وهـذه رواية ابن وهب وأبى مصعب عن مالك . وقد مضى هذا المعنى فى « البقرة »(١) . وإذا كان هذا فكيف يكمل بذلك التنفل ما نقص من هذا الفرض على سبيل الجهل والسهو ؟! بل كل ذلك غير صحيح ولا مقبول؛ لأنه وقع على غير المطلوب . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿وَٱتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ﴾ وعن على رضى الله تعالى عنه فى قوله تعالى: « وٱتبعوا الشهواتِ » هو من بنى [المشيد](٢) وركب المنظور، ولبس المشهور .

قلت : الشهوات عبارة عما يوافق الإنسان ويشتهيه ويلائمه ولا يتقيه . وفى الصحيح : " حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفَّت النـار بالشهوات " . وما ذكر عن على رضى الله عنـه جزء من هـذا .

قوله تعالى : ﴿ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ قال ابن زيد : شرا أو ضلالا أو خيبة، قال(٣) :

فمن يلق خيرا يحمـد الناس أمره * ومن يَغْوَ لا يعدمْ على الغَىِّ لائما

وقال عبـد الله بن مسعود : هو وادٍ فى جهنم . والتقدير عند أهل اللغة فسوف يلقون هـذا الغىّ؛ كما قال جل ذكره : « وَمَنْ يَفْعَـلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا » . والأظهر أن الغىّ اسم للوادى سمى به لأن الغاوين يصيرون إليـه . قال كعب : يظهر فى آخر الزمان قوم بأيديهم سياط كأذناب البقر، ثم قرأ « فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا » أى هلاكا وضلالا فى جهنم . وعنه : غىٌّ واد فى جهنم أبعدها قعرا، وأشدها حرا، فيه بئر يسمى البهيم، كلما خبث جهنم فتح الله تعالى تلك البئر فتسعر بهـا جهنم . وقال ابن عباس : غىٌّ وادٍ فى جهنم، وأن أودية جهنم لتستعيذ من حره، أعدّ الله تعالى ذلك الوادى للزانى المصر على الزنى، ولشارب الخمر المدمن عليه، ولآكل الربا الذى لا ينزع عنـه، ولأهل العقوق، ولشاهـد الزور، ولامرأة أدخلت على زوجها ولدا ليس منه .

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٧٠ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) فى الأصل : «من بنى الشديد» .
(٣) البيت للمرقش كما فى اللسان .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَنْ تَابَ ﴾ أى من تضييع الصلاة واتباع الشهوات، فرجع إلى طاعة ربه . ﴿ وَآمَنَ ﴾ به ﴿ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ﴾ . قرأ أبو جعفر وشيبة وابن كثير وابن محيصن وأبو عمرو و يعقوب وأبو بكر « يُدْخَلُونَ » بفتح الخاء . وفتح الياء الباقون . ﴿ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴾ أى لا ينقص من أعمالهم الصالحة شيء، إلا أنهم يكتب لهم بكل حسنة عشر إلى سبعمائة . ﴿ جَنَّاتِ عَدْنٍ ﴾ بدلا من الجنة فانتصبت . قال أبو إسحق الزجاج : ويجوز « جَنَّاتُ عَدْنٍ » على الابتداء . قال أبو حاتم : ولولا الخط لكان « جَنَّةَ عدنٍ » لأن قبله « يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ » . ﴿ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ ﴾ أى من عبده وحفظ عهده بالغيب . وقيل : آمنوا بالجنة ولم يروها . ﴿ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴾ « مأتيا » مفعول من الإتيان . وكل ما وصل إليك فقد وصلت إليه؛ تقول: أتت علىّ ستون سنة وأتيت على ستين سنة . ووصل إلىّ من فلان خير ووصلت منه إلى خير . وقال القتبى : « مأتيا » بمعنى آتٍ فهو مفعول بمعنى فاعل. و « مأتيا » مهموز لأنه من أتى يأتى. ومن خفف الهمزة جعلها ألفا . وقال الطبرى : الوعد هاهنا الموعود وهو الجنة؛ أى يأتيها أولياؤه . ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا ﴾ أى فى الجنة . واللغو معناه الباطل من الكلام والفحش منه والفضول وما لا ينتفع به . ومنه الحديث : " إذا قلت لصاحبك يوم الجمعة أنصت والإمام يخطب فقد لغوت " و يروى " لغيت " وهى لغة أبى هريرة؛ كما قال الشاعر[(١)] :

وَرَبِّ أَسْرَابِ حَجِيجٍ كُظَّمِ * عن اللَّغَا ورَفَثِ التَّكَلُّمِ

قال ابن عباس : اللغو كل ما لم يكن فيه ذكر الله تعالى؛ أى كلامهم فى الجنة حمد الله وتسبيحه . ﴿ إِلَّا سَلَامًا ﴾ أى لكن يسمعون سلاما فهو من الاستثناء المنقطع ، يعنى سلام بعضهم على بعض، وسلام الملك عليهم، قاله مقاتل وغيره . والسلام اسم جامع للخير؛ والمعنى أنهم لا يسمعون فيها إلا ما يحبون . قوله تعالى : ﴿ وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴾ أى لهم ما يشتهون من المطاعم والمشارب بكرة وعشيا؛ أى فى قدر هذين الوقتين؛ إذ لا بكرة ثمّ ولا عشيا؛

---

(١) هو رؤبة ونسبه ابن برى للعجاج . « اللسان » .

كقوله تعالى : « غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ » أى قدر شهر؛ قال معناه ابن عباس وابن جريج وغيرهما . وقيل : عن فهم اعتدال أحوال أهل الجنة؛ وكان أهنأ النعمة عند العرب التمكين من المطعم والمشرب بكرة وعشيا . قال يحيى بن أبى كثير وقتادة : كانت العرب فى زمانها من وجد غداء وعشاء معا فذلك هو الناعم؛ فنزلت . وقيل : أى رزقهم فيها غير منقطع، كما قال : « لا مقطوعة ولا ممنوعة » وهو كما تقول : أنا أصبح وأمسى فى ذكرك. أى ذكرى لك دائم . ويحتمل أن تكون البكرة قبل تشاغلهم بلذاتهم ، والعشى بعد فراغهم من لذاتهم ؛ لأنه يتخللها فترات انتقال من حال إلى حال . وهذا يرجع إلى القول الأول . وروى الزبير ابن بكار عن اسمعيل بن أبى أويس قال قال مالك بن أنس : طعام المؤمنين فى اليوم مرتان، وتلا قول الله عز وجل : « وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » ثم قال : وعوّض الله عز وجل المؤمنين فى الصيام السحور بدلا من الغداء ليقووا به على عبادة ربهم . وقيل : إنما ذكر ذلك لأن صفة الغداء وهيئته [تختلف][1] عن صفة العشاء وهيئته؛ وهذا لا يعرفه إلا الملوك . وكذلك يكون فى الجنة رزق الغداء غير رزق العشاء تتلون عليهم النعم ليزدادوا تنعما وغبطة . وخرج الترمذى الحكيم فى « نوادر الأصول » من حديث أبان عن الحسن وأبى قِلابة قالا قال رجل : يا رسول الله هل فى الجنة من ليل؟ قال : "وما هيّجك على هذا" قال سمعت الله تعالى يذكر فى الكتاب « وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » فقلت : الليل بين البكرة والعشى . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "ليس هناك ليل إنما هو ضوء ونور يَرُدُّ الغدوّ على الرواح والرواح على الغدوّ وتأتيهم طُرَف الهدايا من الله تعالى لمواقيت الصلاة التى كانوا يصلون فيها فى الدنيا وتسلم عليهم الملائكة" وهذا فى غاية البيان لمعنى الآية، وقد ذكرناه فى كتاب « التذكرة » . وقال العلماء : ليس فى الجنة ليل ولا نهار، وإنما هم فى نور أبدا ؛ إنما يعرفون مقدار الليل من النهار بإرخاء الحجب، وإغلاق الأبواب، ويعرفون مقدار النهار برفع الحجب وفتح الأبواب. ذكره أبو الفرج الجوزى والمهدوى وغيرهما .

(١) زيادة يقتضيها السياق .

قوله تعالى : ﴿ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي ﴾ أى هذه الجنة التى وصفنا أحوال أهلها ﴿ نُورِثُ ﴾ بالتخفيف . وقرأ يعقوب « نُوَرِّثُ » بفتح الواو وتشديد الراء . والاختيار التخفيف؛ لقوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب » . ﴿ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴾ قال ابن عباس : أى من آتقانى وعمل بطاعتى . وقيل : هو على التقديم والتأخير، تقديره : نورث من كان تقيا من عبادنا .

قوله تعالى : وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٤﴾ رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا ﴿٦٥﴾

روى الترمذى عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل : " ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا " قال : فنزلت هذه الآية «وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» إلى آخر الآية . قال هـذا حديث حسن غريب . ورواه البخارى : حدّثنا خلاد بن يحيى حدّثنا عمر بن ذر قال سمعت أبى يحـدّث عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبيّ صلى الله عليـه وسلم قال لجبريل : " ما يمنعـك أن تزورنا أكثر ممـا تزورنا فنزلت « وما نتنزل إلا بأمر ربك » " الآية ؛ قال : كان هـذا الجواب لمحمد صلى الله عليه وسلم . وقال مجاهد : أبطأ الملك على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أتاه، فقال : " ما الذى أبطأك " قال : كيف نأتيكم وأنتم لاتقصون أظفاركم، ولاتأخذون من شواربكم ، ولا تُنَقُّون رَوَاجِبكم[(1)]، ولا تستا كون ؛ قال مجاهد : فنزلت الآية فى هذا . وقال مجاهد أيضا وقتادة وعكرمة والضحاك ومقاتل والكلبي: آحتبس جبريل عن النبيّ صلى الله عليه وسلم حين سأله قومه عن قصة أصحاب الـكهف وذى القرنين والروح ولم يدر ما يجيبهـم، ورجا أن يأتيـه جبريل بجواب ما سألوا عنه ؛ قال عكرمة : فأبطأ عليه أربعين يوما . وقال مجاهد : آثنتى عشرة ليلة . وقيل : خمسة عشر يوما ؛ وقيل : ثلاثة عشر. وقيل: ثلاثة أيام . فقال النبى صلى الله عليه وسلم : " أبطأت علىّ حتى

(١) الرواجب : ما بين عقد الأصابع من داخل ؛ واحدها راجبة .

ساء ظني واشتقت إليك" فقال جبريل عليه السلام : إني كنت أشوق، ولكني عبد مأمور إذا بعثت نزلت، و إذا حُبست احتبست، فنزلت الآية : « وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» وأنزل « وَالضُّحَى وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى » . ذكره الثعلبي والواحدي والقشيري وغيرهم . وقيل : هو إخبار من أهل الجنة أنهم يقولون عند دخولها : وما نتنزل هذه الجنان إلا بأمر ربك. وعلى هذا تكون الآية متصلة بما قبل. وعلى ما ذكرنا من الأقوال قيل: تكون غير متصلة بما قبلها، والقرآن سور، ثم السور تشتمل على جمل، وقد تنفصل جملة عن جملة . «وَمَا نَتَنَزَّلُ» أي قال الله تعالى : قل يا جبريل «وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ» . وهذا يحتمل وجهين : أحدهما — إنا إذا أمرنا نزلنا عليك . الثاني — إذا أمرك ربك نزّلنا عليك ، فيكون الأمر على الأول متوجها إلى النزول، وعلى الوجه الثاني متوجها إلى التنزيل .

وقوله تعالى : ﴿ لَهُ ﴾ أي لله . ﴿ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا ﴾ أي علم ما بين أيدينا ﴿ وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ ﴾ قال ابن عباس وابن جريج : ما مضى أمامنا من أمر الدنيا، وما يكون بعدنا من أمرها وأمر الآخرة « وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ » من البرزخ . وقال قتادة ومقاتل : « له ما بين أيدينا » من امر الآخرة « وما خلفنا » ما مضى من الدنيا « وما بين ذلك » ما بين النفختين و بينهما أربعون سنة . الأخفش : « ما بين أيدينا » ما كان قبل أن نخلق « وما خلفنا » ما يكون بعد أن نموت « وما بين ذلك » ما يكون منذ خلقنا إلى أن نموت . وقيل : « ما بين أيدينا » من الثواب والعقاب وأمور الآخرة . « وما خلفنا » ما مضى من أعمالنا في الدنيا « وما بين ذلك » أي ما يكون من هذا الوقت إلى يوم القيامة . و يحتمل خامسا : « ما بين أيدينا » السماء « وما خلفنا » الأرض « وما بين ذلك » أي ما بين السماء والأرض . وقال ابن عباس في رواية : « له ما بين أيدينا » يريد الدنيا إلى الأرض « وما خلفنا » يريد السموات — وهذا على عكس ماقبله — «وما بين ذلك» يريد الهواء؛ ذكر الأول الماوردي والثاني القشيري . الزمخشري : وقيل ما مضى من أعمارنا وما غبر منها، والحال التي نحن فيها . ولم يقل : ما بين ذينك لأن المراد ما بين ماذكرنا؛ كما قال : « لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ»

أى بين ما ذكرنا . ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ أى ناسيا إذا شاء أن يرسل إليك أرسل . وقيل : المعنى لم ينسك وإن تأخر عنك الوحى . وقيل : المعنى أنه عالم بجميع الأشياء متقدمها ومتأخرها، ولا ينسى شيئا منها .

قوله تعالى : ﴿ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ﴾ أى ربهما وخالقهما وخالق ما بينهما ومالكهما ومالك ما بينهما؛ فكما إليه تدبير الأزمان كذلك إليه تدبير الأعيان . ﴿ فَاعْبُدْهُ ﴾ أى وحّده لذلك . وفى هذا دلالة على أن اكتسابات الخلق مفعولة لله تعالى؛ كما يقوله أهل الحق، وهو القول الحق؛ لأن الرب فى هذا الموضع لا يمكن حمله على معنى من معانيه إلا على المالك ، وإذا ثبت أنه مالك ما بين السماء والأرض ، دخل فى ذلك اكتساب الخلق ، ووجبت عبادته؛ لما ثبت أنه المالك على الإطلاق ،وحقيقة العبادة الطاعة بغاية الخضوع ، ولا يستحقها أحد سوى المالك المعبود . ﴿ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ ﴾ أى لطاعته ولا تحزن لتأخير الوحى عنك، بل اشتغل بما أمرت به . وأصل اصطبر اصتبر، فثقل الجمع بين التاء والصاد لاختلافهما ، فأبدل من التاء طاء؛ كما تقول من الصوم : اصطام . ﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴾ قال ابن عباس : يريد هل تعلم له ولدا أى نظيرا؛ أو مثلا؛ أو شبيها يستحق مثل اسمه الذى هو الرحمن . وقاله مجاهد . مأخوذ من المساماة . وروى إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال : هل تعلم له أحدا سمى الرحمن . قال النحاس : وهذا أجلّ إسناد علمته روى فى هذا الحرف، وهو قول صحيح؛ لا يقال الرحمن إلا لله .

قلت : وقد مضى هذا مبينا فى البسملة[(١)] . والحمد لله . روى ابن أبى نجيح عن مجاهد « هل تعلم له سميا » قال : مثلا . ابن المسيب : عدلا . قتادة والكلبى : هل تعلم أحدا يسمى الله تعالى غير الله، أو يقال له الله إلا الله . وهل بمعنى لا ؛ أى لا تعلم . والله تعالى أعلم .

---

(١) راجع جـ ١ ص ١٠٣ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَئِذَا مَامِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴾ الإنسان هنا أبيّ ابن خلف ، وجد عظاما بالية ففتتها بيده ، وقال : زعم محمد أنا نبعث بعد الموت ؛ قاله الكلبي ؛ ذكره الواحدى والثعلبي والقشيرى . وقال المهدوى : نزلت فى الوليد بن المغيرة وأصحابه ، وهو قول ابن عباس . واللام فى « لسوف أخرج حيا » للتأكيد . كأنه قيل له : إذا مامت لسوف تبعث حيا فقال : « أئذا مامت لسوف أخرج حيا » ! قال ذلك منكرا فجاءت اللام فى الجواب كما كانت فى القول الأول ، ولو كان مبتدئا لم تدخل اللام ؛ لأنها للتأكيد والإيجاب وهو منكر للبعث . وقرأ ابن ذكوان « إذا مامت » على الخبر . والباقون بالاستفهام على أصولهم بالهمز . وقرأ الحسن وأبو حيوة « لَسَوْفَ أَخْرُجُ حَيًّا » ؛ قاله استهزاء لأنهم لا يصدقون بالبعث . والإنسان هاهنا الكافر .

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ ﴾ أى أو لا يذكر هذا القائل ﴿ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل سؤاله وقوله هذا القول ﴿ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴾ فالإعادة مثل الابتداء فلم يناقض . وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما ، وأهل مكة وأبو عمرو وأبو جعفر « أَوَلَا يَذَّكَّرُ » . وقرأ شيبة ونافع وعاصم « أَوَلَا يَذْكُرُ » بالتخفيف . والاختيار التشديد وأصله يتذكر ؛ لقوله تعالى : « إنما يتذكر أولو الألباب » وأخواتها . وفى حرف أبيّ « أَوَلَا يَتَذَكَّرُ » وهذه القراءة على التفسير لأنها مخالفة لخط المصحف . ومعنى « يَتَذَكَّرُ » يتفكر ، ومعنى « يَذْكُرُ » يتنبه و يعلم ؛ قاله النحاس .

قوله تعالى : ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ ﴾ أقسم بنفسه بعد إقامة الحجة بأنه يحشرهم من قبورهم إلى المعاد كما يحشر المؤمنين . ﴿ وَالشَّيَاطِينَ ﴾ أى ولنحشرن الشياطين قرناء لهم . قيل : يحشر كل كافر مع شيطان فى سلسلة؛ كما قال : « ٱحْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ » . الزمخشرى : والواو فى « والشَّيَاطِين » يجوز أن تكون للعطف و بمعنى مع ، وهى بمعنى مع أوقع . والمعنى أنهم يحشرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغووهم؛ يقرنون كل كافر مع شيطان فى سلسلة . فإن قلت هذا إذا أريد بالإنسان الكفرة خاصة ، فإن أريد الأناسى على العموم فكيف يستقيم حشرهم مع الشياطين؟ قلت : إذا حشر جميع الناس حشرا واحدا وفيهم الكفرة مقرونين بالشياطين ، فقد حشروا مع الشياطين كما حشروا مع الكفرة . فإن قلت : هلا عزل السعداء عن الأشقياء فى الحشر كما عزلوا عنهم فى الجزاء ؟ قلت : لم يفرق بينهم فى المحشر، وأحضروا حيث تجاثوا حول جهنم ، وأوردوا معهم النار ليشاهد السعداء الأحوال التى نجاهم الله منها وخلصهم ، فيزدادوا لذلك غبطة ، وسرورا إلى سرور، و يشمتوا بأعداء الله تعالى وأعدائهم ؛ فتزداد مساءتهم وحسرتهم ، وما يغيظهم من سعادة أولياء الله وشماتتهم بهم . فإن قلت : ما معنى إحضارهم جثيا؟ قلت : أما إذا فسر الإنسان بالخصوص فالمعنى أنهم يعتلون من المحشر إلى شاطئ جهنم عَتْلا(١) على حالهم التى كانوا عليها فى الموقف، جثاة على ركبهم غير مشاة على أقدامهم . وذلك أن أهل الموقف وصفوا بالجثو؛ قال الله تعالى : « وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً » على الحالة المعهودة فى مواقف المقاولات والمناقلات ، من تجاثى أهلها على الركب . لما فى ذلك من الاستيفاز(٢) والقلق ، و إطلاق الحُبَا خلاف الطمأنينة ؛ أو لما يدهمهم من شدة الأمر التى لا يطيقون معها القيام على أرجلهم فيجثون على ركبهم جثوا . و إن فسر بالعموم فالمعنى أنهم يتجاثون عند موافاة شاطئ جهنم . على أن «جثيا» حال مقدرة كما كانوا فى الموقف متجاثين؛ لأنه من توابع التواقف للحساب ، قبل التواصل إلى الثواب والعقاب . و يقال : إن معنى ﴿ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴾

(١) العتل : الدفع والإرهاق بالسوق العنيف . (٢) الاستيفاز : عدم الاطمئنان ؛ قال الجوهرى : قعد مستوفزا أى غير مطمئن .

أى جثيا على ركبهم؛ عن مجاهد وقتادة؛ أى أنهم لشدّة ماهم فيه لا يقدرون على القيام. « وحول جهنم » يجوز أن يكون داخلها؛ كما تقول : جلس القوم حول البيت أى داخله مطيفين به؛ فقوله : « حول جهنم » على هذا يجوز أن يكون بعد الدخول. ويجوز أن يكون قبل الدخول. و « جثيا » جمع جاثٍ. يقال : جثا على ركبتيه يَجْثو ويَجْثِي جُثُوًّا وجُثِيا على فعول فيهما. وأجثاه غيره. وقوم جُثِيٌّ أيضا؛ مثل جلس جلوسا وقوم جلوس، وجِثِى أيضا بكسر الجيم لما بعدها من الكسر. وقال ابن عباس : « جثيا » جماعات. وقال مقاتل : جمعا جمعا؛ وهو على هذا التأويل جمع جُثْوة وجَثْوة وجِثْوة ثلاث لغات، وهى الحجارة المجموعة والتراب المجموع؛ فأهل الخمر على حدة، وأهل الزنى على حدة، وهكذا؛ قال طرفة :

تَرَى جُثْوتين من تُرابٍ عليهما * صفائحُ صُمٌّ من صفيحٍ مُنَضَّدِ

وقال الحسن والضحاك : جاثية على الركب. وهو على هذا التأويل جمع جاثٍ على ما تقدّم. وذلك لضيق المكان؛ أى لا يمكنهم أن يجلسوا جلوسا تاما. وقيل : جثيا على ركبهم للتخاصم؛ كقوله تعالى : « ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ». وقال الكميت :

هم تركوا سَرَاتَهُمُ جثيًّا * وهم دون السَّراةِ مقرَّنينا

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ ﴾ أى لنستخرجن من كل أمة وأهل دين ﴿ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴾ النحاس : وهذه آية مشكلة فى الإعراب؛ لأن القراء كلهم يقرءون « أيهم » بالرفع إلا هرون القارئ الأعور فإن سيبويه حكى عنه : « ثم لننزِعن مِن كل شِيعةٍ أَيَّهُمْ » بالنصب أوقع على أيهم لننزعن. قال أبو إسحق فى رفع « أيهم » ثلاثة أقوال؛ قال الخليل بن أحمد حكاه عنه سيبويه : إنه مرفوع على الحكاية؛ والمعنى : ثم لننزعن من كل شيعة الذى يقال من أجل عتوه أيهم أشدّ على الرحمن عتيا؛ وأنشد الخليل، فقال :

ولقد أبيت من الفتاة بمنزلٍ * فأبيتُ لا حرِجٌ ولا محـروم

أى فأبيت بمنزلة الذى يقال له لا هو حَرِج ولا محروم. وقال أبو جعفر النحاس : ورأيت أبا إسحق يختار هذا القول ويستحسنه؛ قال : لأنه معنى قول أهل التفسير. وزعم أن معنى

« ثم لننزعن من كل شـيعة » ثم لننزعن من كل فرقة الأعتى فالأعتى . كأنه يبتدأ بالتعذيب بأشدّهم عتيا ثم الذى يليه؛ وهذا نص كلام أبى إسحق فى معنى الاية. وقال يونس: « لننزعن » بمنزلة الأفعال التى تلغى ورفع « أيهم » على الابتداء . المهدوى : والفعل الذى هو «لننزعن» عند يونس معلق؛ قال أبو على : معنى ذلك أنه يعمل فى موضع « أيهم أشدّ » لا أنه ملغى . ولا يعلق عند الخليل وسيبويه مثل «لننزعن» ، إنما يعلق بأفعال الشك وشبهها ما لم يتحقق وقوعه . وقال سيبويه : « أيهم » مبنى على الضم لأنها خالفت أخواتها فى الحذف ؛ لأنك لو قلت : رأيت الذى أفضل ومن أفضل كان قبيحا، حتى تقول من هو أفضل ، والحذف فى « أيهم » جائز . قال أبو جعفر : وما علمت أحدا من النحويين إلا وقـد خطأ سيبويه فى هذا ، وسمعت أبا إسحق يقول : ما يبين لى أن سيبويه غلط فى كتابه إلا فى موضعين هذا أحدهما؛ قال: وقد علمنا أن سيبويه أعرب أيا وهى مفردة لأنها تضاف، فكيف يبنيها وهى مضافة ؟ ! ولم يذكر أبو إسحق فيما علمت إلا هـذه الثلاثة الأقوال . أبو علىّ : إنما وجب البناء على مذهب سيبويه؛ لأنه حذف منه ما يتعرف به وهو الضمير مع افتقار إليه، كما حذف فى « من قبل ومن بعد » ما يتعرفان به مع افتقار المضاف إلى المضاف إليه؛ لأن الصلة تبين الموصول وتوضحه كما أن المضاف إليه يبين المضاف ويخصصه . قال أبو جعفر : وفيه أربعة أقوال سوى هذه الثلاثة التى ذكرها أبو إسحق؛ قال الكسائى : « لننزعن » واقعة على المعنى، كما تقول : لبست من الثياب، وأكلت من الطعام، ولم يقع « لننزعن » على « أيهم » فينصبها . زاد المهدوى : وإنما الفعل عنده واقع على موضع « من كل شـيعة » وقوله : « أيهم أشد » جملة مستأنفة مرتفعة بالابتداء؛ ولا يرى سيبويه زيادة « من » فى الواجب. وقال الفراء : المعنى ثم لننزعن بالنداء ، ومعنى « لننزعن » لننادين . المهدوى : ونادى فعل يعلق إذا كان بعـده جملة، كظننت فتعمل فى المعنى ولا تعمل فى اللفظ . قال أبو جعفر : وحكى أبو بكر بن شقير أن بعض الكوفيين يقول فى « أيهم » معنى الشرط والمجازاة ، فلذلك لم يعمل فيها ما قبلها؛ والمعنى : ثم لننزعن من كل فرقة إن تشايعوا أو لم يتشايعوا، كما تقول: ضربت القوم أيهم غضب ، والمعنى إن غضبوا أو لم يغضبوا . قال أبو جعفر : فهـذه ستة

أقوال، وسمعت على بن سليمان يحكى عن محمد بن يزيد قال : « أيهم » متعلق « بشيعة » فهو مرفوع بالابتداء؛ والمعنى : ثم لننتزعن من الذين تشايعوا أيهم؛ أى من الذين تعاونوا فنظروا أيهم أشدّ على الرحمن عتيا؛ وهذا قول حسن . وقد حكى الكسائى أن التشايع التعاون . و « عتيا » نصب على البيان . ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صُلِيًّا﴾ (١) أى أحق بدخول النار . يقال : صَلَى يَصْلَى صُليا، نحو مضى الشيء يمضى مُضيا إذا ذهب، وهوى يهوى هُويا . وقال الجوهرى : ويقال صليت الرجل نارا إذا أدخلته النار وجعلته يَصلاها ؛ فإن ألقيته فيها إلقاء كأنك تريد الإحراق قلت : أصليته بالألف وصَلَّيته تصلية . وقرئ « ويُصَلَّى سَعيراً » . ومن خفف فهو من قولهم : صَلِي فلان بالنار (بالكسر) يصلى صُليا احترق ؛ قال الله تعالى : « هُمْ أَوْلَى بِها صُلِيًّا » . قال العجاج (٢) :

* واللهِ لولا النارُ أن نصلاها *

ويقال أيضا : صلِي بالأمر إذا قاسى حره وشدّته . قال الطُّهَوِى :

وَلَا تَبْلَى بَسَالَتُهُمْ وإنْ هُمْ * صَلُوا بالحرب حِيناً بعد حينِ

واصطليت بالنار وتصلّيت بها . قال أبو زبيد :

وقد تَصلَّيتُ حَرَّ حَرْبِهِم * كما تَصلَّى المقْرورُ من قَرَسِ

وفلانٌ لا يُصطَلَى بناره إذا كان شجاعا لا يُطاق .

قوله تعالى : ﴿وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ » هذا قسم، والواو يتضمنه . ويفسره حديث النبي صلى الله عليه وسلم " لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تَحِلَّة

(١) « صليا » بضم الصاد قراءة « نافع » وعليها التفسير .

(٢) ونسبه فى اللسان مادة « قيه » إلى الزفيان، وأورده فى أبيات هى :

ما بال عين شوقها استبكاها * فى رسم دار لبست بلاها
تالله لولا النار أن نصلاها * أو يدعو الناس علينا الله
* لما سمعنا لأمير قاها *

القاه : الطاعة .

القسم[1] " قال الزهرى : كأنه يريد هـذه الاية : « وإن منكم إلا واردها » ذكره أبو داود الطيالسى؛ فقوله : « إلا تحلة القسم » يخرج فى التفسير المسند؛ لأن القسم المذكور فى هذا الحديث معناه عند أهل العلم قوله تعالى : « وإن منكم إلا واردها » . وقد قيل : إن المراد بالقسم قوله تعالى : « والذاريات ذروا » إلى قوله : « إنما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع » والأول أشهر؛ والمعنى متقارب .

الثانيــة — وٱختلف الناس فى الورود؛ فقيـل : الورود الدخول؛ روى عن جابر ابن عبد الله قال سمعت رسول الله صلى الله عليـه وسلم يقول : " الورود الدخول لا يبقى برّ ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمنين بردا وسلاما كما كانت على إبراهيم « ثم ننجى الذين ٱتقوا ونذر الظالمين فيهـا جثيا » " أسنده أبو عمر فى كتاب « التمهيـد » . وهو قول ابن عباس وخالد بن معدان وابن جريج وغيرهم . وروى عن يونس أنه كان يقرأ « وإن منكم إلا واردها» الورود الدخول ؛ على التفسير للورود، فغلط فيه بعض الرواة فألحقـه بالقرآن . وفى مسند الدرامى عن عبد الله بن مسعود قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يرد النـاس النار ثم يصدرون منها بأعمالهم فمنهم كلمح البصر ثم كالريح ثم كحضر[2] الفرس ثم كالراكب المجد فى رحله ثم كشدّ الرجل فى مشيته " . وروى عن ابن عباس أنه قال فى هذه المسئلة لنافع بن الأزرق الخارجى : أما أنا وأنت فلا بد أن نردها، أما أنا فينجينى الله منها،وأما أنت فما أظنه ينجيك لتكذيبك . وقد أشفق كثير من العلمـاء من تحقق الورود والجهل بالصدر؛ وقـد بيناه فى « التذكرة » . وقالت فرقة : الورود الممر على الصراط . وروى عن ابن عباس وابن مسعود وكعب الأحبار والسدى، ورواه السدى عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقاله الحسن أيضا؛ قال : ليس الورود الدخول، إنمـا تقول : وردت البصرة ولم أدخلها . قال : فالورود أن يمرّوا على الصراط . قال أبو بكر الأنبارى : وقد بنى على مذهب الحسن قوم من أهل اللغـة، وٱحتجوا بقول الله تعـالى : « إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنهـا

(١) " إلا تحـلة القسم " : أى لا يدخل النار ليعاقب بهـا ، ولكنه يجوز عليها فلا يكون ذلك إلا بقـدر ما يبر الله به قسمه .

(٢) الحضر (بالضم) : العدو؛ وشدّ الرجل : عدوه أيضا .

مُبْعَدُونَ » قالوا : فلا يدخل النار من ضمن الله أن يبعده منها . وكان هؤلاء يقرءون « ثَمَّ » بفتح الثاء « نُنَجِّى الَّذِينَ ٱتَّقَوْا » . واحتج عليهم الآخرون أهل المقالة الأولى بأن معنى قوله : « أولئك عنها مبعدون » عن العذاب فيها، والإحراق بها . قالوا : فمن دخلها وهو لا يشعر بها ، ولا يحس منها وجعا ولا ألما ، فهو مبعد عنها فى الحقيقة . ويستدلون بقوله تعالى : « ثم ننجى الذين آتقوا » بضم الثاء ؛ فـ « ثم » تدل على نجاء بعد الدخول .

قلت : وفى صحيح مسلم "ثم يُضرَبُ الجسر على جهنم وتَحِلُّ الشفاعة فيقولون اللّهُـمّ سَلِّم سَلِّمْ" قيل : يا رسول الله وما الجِسرُ ؟ قال : "دَحْضٌ مَزِلَّةٌ[1] فيه خَطَاطيفُ وكَلاليبُ وحَسَكٌ تكون بنجد فيها شُوَيْكَة يقال لها السَّعْدان فيمرُّ المؤمنون كطرْف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب فناجٍ مُسلَّمٌ ومخدوشٌ مُرْسَل ومَكْدُوس فى نار جهنم" الحديث . وبه آحتج من قال : إن الجواز على الصراط هو الورود الذى تضمنته هذه الآية لا الدخول فيها . وقالت فرقة : بل هو ورود إشراف وآطلاع وقرب . وذلك أنهم يحضرون موضع الحساب وهو بقرب جهنم، فيرونها وينظرون إليها فى حالة الحساب ، ثم ينجى الله الذين آتقوا مما نظروا إليه، ويصار بهم إلى الجنة . ﴿وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ﴾ أى يؤمر بهم إلى النار قال الله تعالى : « وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ » أى أشرف عليه لا أنه دخله . وقال زهير :

فَلمَّا وَرَدْنَ المـاءَ زُرْقًا[2] جِمَامُهُ * وَضَعْنَ عِصِىَّ الحاضِرِ المُتَخَيِّمِ

وروت حفصة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : "لا يدخل النار أحدٌ من أهل بدر والحديبية" قالت فقلت : يا رسول الله وأين قول الله تعالى : « وَإِنْ مِنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "فَمَهْ « ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ ٱتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا »". أخرجه مسلم من حديث أم مُبَشِّر، قالت : سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول عند حفصة . الحديث . ورجح الزجاج هذا القول بقوله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » . وقال مجاهد :

---

(١) دحض مزلة : هما بمعنى، وهو الموضع الذى تزل فيه الأقدام ولا تستقر. (٢) يقال : ماء أزرق إذا كان صافيا . وجمام جمع جم وجمة ، وهو الماء المجتمع . والحاضر : النازل على الماء . والمتخيم : المقيم ، وأصله من تخيم إذا نصب الخيمة . يصف زهير الظعائن بأنهن فى أمن ومنعة ، فإذا نزلن نزلن آمنات كنزول من هو فى أهله ووطنه . والبيت من معلقته .

ورود المؤمنين النار هو الحمى التى تصيب المؤمن فى دار الدنيا، وهى حظ المؤمن من النار فلا يردها . روى أبو هريرة أن رســول الله صلى الله عليــه وسلم عاد مريضا من وعك به، فقال له النبى صلى الله عليــه وسلم : " أبشر فإن الله تبارك وتعالى يقول « هى نارى أسلطها على عبدى المؤمن لتكون حظّه من النار » " أسنده أبو عمر قال : حدّثنا عبد الوارث بن سفيان قال حدّثنا قاسم بن أصبغ قال حدّثنا محمد بن إسمعيل الصائغ قال حدّثنا أبو أسامة قال حدّثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن إسمعيل بن عبيد الله [عن أبى صالح][1] الأشعرى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم عاد مريضا فذكره . وفى الحديث " الحُمَّى حَظُّ المؤمن من النار ". وقالت فرقة : الورود النظر إليها فى القبر، فينجّى منها الفائز، و يصلاها من قدر عليه دخولها، ثم يخرج منها بالشفاعة أو بغيرها من رحمة الله تعالى . واحتجوا بحديث ابن عمــر : " إذا مات أحدكم عرض عليــه مقعده بالغداة والعشى " الحــديث . وروى وكيع عن شعبة عن عبد الله بن السائب عن رجل عن ابن عباس أنه قال فى قول الله تعــالى : « وإِن مِنكم إلا وارِدها » قال : هذا خطاب للكفار . وروى عنه أنه كان يقرأ « و إن مِنهم » ردا على الآيات التى قبلها فى الكفار : قوله « فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا . ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا . ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَى بِهَا صِلِيًّا . وَإِنْ مِنْهُمْ » وكذلك قرأ عكرمة و جماعة؛ وعليها فلا شعب فى هــذه القراءة . وقالت فرقة : المراد بـ « منكم » الكفرة؛ والمعنى : قل لهم يا محمد . وهذا التأويل أيضا سهل التناول؛ والكاف فى « منكم » راجعة إلى الهاء فى « لنحشرنهم والشياطين . ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا » فلا ينكر رجوع الكاف إلى الهــاء؛ فقد عرف ذلك فى قوله عز وجل : « وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا » معناه كان لهم، فرجعت الكاف إلى الهــاء . وقال الأكثر : المخاطب العالم كله، ولا بد من ورود الجميع، وعليه نشأ الخلاف فى الورود . وقد بينا أقوال العلماء فيه . وظاهر الورود الدخول؛ لقوله عليه الصلاة

(١) الزيادة من « تهذيب التهذيب » وتفسير الطبرى .

والسلام : " فتمسّه النار " لأن المسيس حقيقته فى اللغة المماسة ، إلا أنها تكون بردًا وسلاما على المؤمنين ، وينجون منها سالمين . قال خالد بن معدان : إذا دخل أهل الجنة الجنة قالوا ألم يقل ربنا : إنا نرد النار ؟ فيقال : لقد وردتموها فألفيتموها رمادا .

قلت : وهذا القول يجمع شتات الأقوال ؛ فإن من وردها ولم تؤذه بلهبها وحرها فقد أبعد عنها ونُجِّى منها . نجانا الله تعالى منها بفضله وكرمه ، وجعلنا ممن وردها فدخلها سالما ، وخرج منها غانما . فإن قيل : فهل يدخل الأنبياء النار ؟ قلنا : لا نطلق هذا ، ولكن نقول : إن الخلق جميعا يردونها كما دل عليه حديث جابر أوّل الباب ؛ فالعصاة يدخلونها بجرائمهم ، والأولياء والسعداء لشفاعتهم فبين الدخولين بَوْنٌ . وقال ٱبن الأنبارى محتجا لمصحف عثمان وقراءة العامة : جائز فى اللغة أن يرجع من خطاب الغيبة إلى لفظ المواجهة بالخطاب ؛ كما قال : «وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا . إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا» فأبدل الكاف من الهاء . وقد تقدم هذا المعنى فى « يونس »[1] .

الثالثة — الاستثناء فى قوله عليه السلام : " إلا تَحِلَّةَ القَسَم " يحتمل أن يكون ٱستثناء منقطعا : لكن تحلة القسم ؛ وهذا معروف فى كلام العرب ؛ والمعنى ألا تمسه النار أصلا ؛ وتم الكلام هنا ثم ابتدأ " إلا تحلة القسم " أى لكن تحلة القسم لا بد منها فى قوله تعالى : « وإن مِنكم إلا وارِدها » وهو الجواز على الصراط أو الرؤية أو الدخول دخول سلامة ، فلا يكون فى ذلك شىء من مسيس ؛ لقوله عليه الصلاة والسلام : " لا يموت لأحدكم ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جُنَّة من النار " والجُنّة الوقاية والستر ، ومن وُقِى النار وسُتر عنها فلن تمسّه أصلا ، ولو مسّته لما كان موقى .

الرابعة — هذا الحديث يفسر الأوّل لأن فيه ذكر الحِسْبة ؛ ولذلك جعله مالك بأثره مفسرا له . ويقيد هذا الحديث الثانى أيضا مارواه البخارى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم " من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحِنْث كان[2] له حجابا من النار — أو —

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٢٤ ومابعدها طبعة أولى أو ثانية .	(٢) "كان" : بالإفراد وٱسمها ضمير يعود على الموت المفهوم مما سبق ؛ أى كان موتهم له حجابا . ولأبى ذرعن الكشميهنى كانوا له حجابا " . « قسطلانى » .

دخل الجنة " فقوله عليه السلام : " لم يبلغوا الحِنْث " — ومعناه عند أهل العلم لم يبلغوا الحُلُم ولم يبلغوا أن يلزمهم حِنْث — دليل على أن أطفال المسلمين فى الجنة — والله أعلم — لأن الرحمة إذا نزلت بآبائهم آستحال أن يُرحَموا من أجل [من](1) ليس بمرحوم . وهذا إجماع من العلماء فى أن أطفال المسلمين فى الجنة ، ولم يخالف فى ذلك إلا فرقة شذت من الجبرية فجعلتهم فى المشيئة ؛ وهو قول مهجور مردود بإجماع الحجة الذين لا تجوز مخالفتهم ، ولا يجوز على مثلهم الغلط ، إلى ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم من أخبار الآحاد الثقات العدول ؛ وأن قوله عليه الصلاة والسلام : " الشقىّ من شقى فى بطن أمه والسعيد من سعد فى بطن أمه وأن الملك ينزل فيكتب أجله وعمله ورزقه " الحديث مخصوص ، وأن من مات من أطفال المسلمين قبل الاكتساب فهو ممن سعد فى بطن أمه ولم يشقَ بدليل الأحاديث والإجماع . وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم لعائشة رضى الله تعالى عنها : " يا عائشة إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا وهم فى أصلاب آبائهم وخلق النار وخلق لها أهلا وهم فى أصلاب آبائهم " ساقط ضعيف مردود بالإجماع والآثار ، وطلحة بن يحيى الذى يرويه ضعيف لا يحتج به . وهذا الحديث مما انفرد به فلا يعرّج عليه . وقد روى شعبة عن معاوية بن قرة ابن إياس المزنى عن أبيه عن النبى صلى الله عليه وسلم أن رجلا من الأنصار مات له آبن صغير فوَجَد عليه ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " أما يَسرك ألا تأتى بابا من أبواب الجنة إلا وجدته يَستفتح لك " فقالوا : يا رسول الله أله خاصة أم للسلمين عامة ؟ قال : " بل للسلمين عامة" قال أبو عمر : هذا حديث ثابت صحيح ؛ يعنى ما ذكرناه مع إجماع الجمهور ؛ وهو يعارض حديث يحيى ويدفعه . قال أبو عمر : والوجه عندى فى هذا الحديث وما أشبهه من الآثار أنها لمن حافظ على أداء فرائضه ، وآجتنب الكبائر ، وصبر وآحتسب فى مصيبته ؛ فإن الخطاب لم يتوجه فى ذلك العصر إلا إلى قوم الأغلب من أمرهم ما وصفنا ، وهم الصحابة رضى الله تعالى عنهم أجمعين . وذكر النقاش عن بعضهم أنه قال : نسخ قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » قوله : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا

(1) زيادة يقتضيها السياق .

مُبْعَدُونَ » وهذا ضعيف، وهذا ليس موضع نسخ . وقد بينا أنه إذا لم تمسه النار فقد أبعد عنها . وفى الخبر : " تقول النار للؤمن يوم القيامة جُزْ يا مؤمن فقد أطفأ نورك لهبى " .

الخامسة — قوله تعالى : « كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا » الحتم إيجاب القضاء ؛ أى كان ذلك حتما . « مقضيا » أى قضاه الله تعالى عليكم . وقال ابن مسعود : أى قسما واجبا .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ أى نخلصهم ﴿ وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ وهذا مما يدل على أن الورود الدخول ؛ لأنه لم يقل : وندخل الظالمين . وقد مضى هذا المعنى مستوفى . والمذهب أن صاحب الكبيرة وإن دخلها فإنه يعاقب بقدر ذنبه ثم ينجو . وقالت المرجئة : لا يدخل . وقالت الوعيدية : يخلد . وقد مضى بيان هذا فى غير موضع . وقرأ عاصم الجحدرى ومعاوية بن قرة « ثُمَّ نُنْجِى » مخففة من أنجى . وهى قراءة حميد ويعقوب والكسائى . وثقّل الباقون . وقرأ ابن أبى ليلى « ثَمَّهْ » بفتح الثاء أى هناك . و « ثَمَّ » ظرف إلا أنه مبنى لأنه غير محصّل فبنى كما بنى ذا ؛ والهاء يجوز أن تكون لبيان الحركة فتحذف فى الوصل، ويجوز أن تكون لتأنيث البقعة فتثبت فى الوصل تاء .

قوله تعالى : وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَن كَانَ فِى ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّا حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْا۟ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ﴾ أى على الكفار الذين سبق ذكرهم فى قوله تعالى : « أَئِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا » . وقال فيهم : « ونذر الظالمين فيها جثيا » أى هؤلاء إذا قرئ عليهم القرآن تعززوا بالدنيا، وقالوا : فما بالنا — إن كنا على باطل — أكثر أموالا وأعز نفرا . وغرضهم إدخال الشبهة على المستضعفين وإيهامهم أن من كثر ماله دل ذلك على أنه

المحقّ فى دينه، وكأنهم لم يروا فى الكفار فقيرا ولا فى المسلمين غنيا، ولم يعلموا أن الله تعالى نَحَّى أولياءه عن الاغترار بالدنيا، وفرط الميل إليها . و « بيناتٍ » معناه مرتَّلات الألفاظ، ملخصة المعانى، مبينات المقاصد؛ إما محكمات، أو متشابهات قد تبعها البيان بالمحكمات، أو تبيين الرسول صلى الله عليه وسلم قولا أو فعلا . أو ظاهرات الإعجاز تُحُدّى بها فلم يقدر على معارضتها . أو حججا و براهين . والوجه أن تكون حالا مؤكدة؛ كقوله تعالى : « وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا » لأن آيات الله تعالى لا تكون إلا واضحة وحججا . ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يريد مشركى قريش النضر بن الحرث وأصحابه . ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعنى فقراء أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم، وكانت فيهم قشافة، وفى عيشهم خشونة، وفى ثيابهم رثاثة؛ وكان المشركون يرجلون شعورهم، و يدهنون رءوسهم، و يلبسون خير ثيابهم، فقالوا للؤمنين : ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾ . قرأ ابن كثير وابن محيصن وحميد وشبل بن عباد « مُقَامًا » بضم الميم وهو موضع الإقامة . ويجوز أن يكون مصدرا بمعنى الإقامة . الباقون « مَقَامًا » بالفتح؛ أى منزلا ومسكنا . وقيل : المقام الموضع الذى يقام فيه بالأمور الجليلة؛ أى أىّ الفريقين أكثر جاها وأنصارا . « وَأَحْسَنُ نَدِيًّا » أى مجلسا؛ عن ابن عباس . وعنه أيضا المنظر وهو المجلس فى اللغة وهو النادى . ومنه دار الندوة لأن المشركين كانوا يتشاورون فيها فى أمورهم . وناداه جالسه فى النادى . قال : * أنادى به آل الوليد وجعفرا *

والندىّ على فعيل مجلس القوم ومتحدَّثهم، وكذلك الندوة والنادى [والمُنْتَدَى][(١)] والمُتَنَدَّى، فإن تفرق القوم فليس بندىّ؛ قاله الجوهرى .

قوله تعالى : ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ﴾ أى من أمة وجماعة . ﴿هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا﴾ أى متاعا كثيرا؛ قال[(٢)] :

وفَرْعٍ يزينُ المَتْنَ أسودَ فاحِمٍ * أثيثٍ كقِنْوِ النَّخلةِ المُتَعَثْكِلِ

---

(١) الزيادة من « الصحاح » للجوهرى . (٢) هو امرؤ القيس . والفرع : الشعر التام . والمتن ما عن يمين الصلب وشماله من العصب واللحم . والفاحم الشديد السواد . وأثيث : كثير أصل النبات . والقنو : العذق وهو الشمراخ . والمتعثكل الذى قد دخل بعضه فى بعض لكثرته . وقيل : المتدلى .

والأثاث متاع البيت . وقيل : هو ما جدّ من الفَرْش والخُرْثِيّ ما لُبس منها، وأنشد الحسن ابن علىّ الطوسى فقال :

تقادم العهد من أم الوليد بنا * دهرا وصار أثاث البيت خُرْثِيّا

وقال ابن عباس : هيئة . مقاتل : ثيابا . « وَرِئْيًا » أى منظَرا حسنا . وفيه خمس قراءات : قرأ أهل المدينة « ورِيًّا » بغير همز . وقرأ أهل الكوفة « ورِئيا » بالهمز . وحكى يعقوب أن طلحة قرأ « وَرِيًا » بياء واحدة مخففة . وروى سفيان عن الأعمش عن أبى ظبيان عن ابن عباس : « هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وزِيًّا » بالزاى ؛ فهذه أربع قراءات . قال أبو إسحق : ويجوز « هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا ورِيْئًا » بياء بعدها همزة . النحاس : وقراءة أهل المدينة فى هذا حسنة وفيها تقريران : أحدهما — أن تكون من رأيت ثم خففت الهمزة فأبدل منها ياء، وأدغمت الياء فى الياء . وكان هذا حسنا لتتفق رءوس الآيات لأنها غير مهموزات . وعلى هذا قال ابن عباس : الرئى المنظر؛ فالمعنى : هم أحسن أثاثا ولباسا . والوجه الثانى — أن جلودهم مرتوية من النعمة؛ فلا يجوز الهمز على هذا . وفى رواية ورش عن نافع وٱبن ذكوان عن ٱبن عامر « ورئيا » بالهمز تكون على الوجه الأول . وهى قراءة أهل الكوفة وأبى عمرو من رأيت على الأصل . وقراءة طلحة بن مُصَرِّف « ورِيًا » بياء واحدة مخففة أحسبها غلطا . وقد زعم بعض النحويين أنه كان أصلها الهمز فقلبت الهمزة ياء، ثم حذفت إحدى اليائين . المهدوى : ويجوز أن يكون « رِيْئًا » فقلبت ياء فصارت رييا ثم نقلت حركة الهمزة على الياء وحذفت . وقد قرأ بعضهم « ورِيًا » على القلب وهى القراءة الخامسة . وحكى سيبويه رَاءَ بمعنى رأى . الجوهرى : من همزه جعله من المنظر من رأيت، وهو ما رأته العين من حال حسنة وكسوة ظاهرة . وأنشد أبو عبيدة لمحمد بن نمير الثقفى فقال :

أشاقتك الظعائن يوم بانوا * بذى الرِّئى الجميلِ من الأثاث

ومن لم يهمز إما أن يكون على تخفيف الهمزة أو يكون من رَوِيت ألوانهم وجلودهم رِيًّا؛ أى ٱمتلأت وحسنت . وأما قراءة ابن عباس وأبىّ ٱبن كعب وسعيد بن جبير والأعسم المكى

ويزيد البربرى « وزِيا » بالزاى فهو الهيئة والحسن . ويجوز أن يكون من زَوَيتُ أى جمعت، فيكون أصلها زِويا فقلبت الواو ياء . ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم : "زُويت لى الأرض" أى جمعت ؛ أى فلم يغن ذلك عنهم شيئا من عذاب الله تعالى ؛ فليعش هؤلاء ما شاءوا فمصيرهم إلى الموت والعذاب وإن عُمِّروا، أو العذاب العاجل يأخذهم الله تعالى به.

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ ﴾ أى فى الكفر ﴿ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا ﴾ أى فليدعه فى طغيان جهله وكفره، فلفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر، أى من كان فى الضلالة مدّه الرحمن مدا حتى يطول آغتراره فيكون ذلك أشدّ لعقابه . نظيره : « إنما نملى لهم ليزدادوا إثما » وقوله : « ونذرهم فى طغيانهم يعمهون » ومثله كثير، أى فليعش ما شاء، وليوسع لنفسه فى العمر، فمصيره إلى الموت والعقاب . وهذا غاية فى التهديد والوعيد . وقيل : هذا دعاء أمر به النبي صلى الله عليه وسلم ؛ تقول : من سرق مالى فليقطع الله تعالى يده ؛ فهو دعاء على السارق . وهو جواب الشرط . وعلى هذا فليس قوله : « فليمدد » خبرا .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّى إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ ﴾ قال « رأوا » لأن لفظ « من » يصلح للواحد والجمع . و «إذا» مع الماضى بمعنى المستقبل، أى حتى يروا ما يوعدون . والعذاب هنا إما أن يكون بنصر المؤمنين عليهم فيعذبونهم بالسيف والأسر، وإما أن تقوم الساعة فيصيرون إلى النار . ﴿ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴾ أى تنكشف حينئذ الحقائق . وهذا رد لقولهم : « أى الفريقين خير مقاما وأحسن نديا » .

قوله تعالى : وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى ﴾ أى ويثبت الله المؤمنين على الهدى، ويزيدهم فى النّصرة، وينزل من الآيات ما يكون سبب زيادة اليقين مجازاة لهم . وقيل : يزيدهم هدى بتصديقهم بالناسخ والمنسوخ الذى كفر به غيرهم ؛ قال معناه الكلبي ومقاتل .

ويحتمل ثالثا — أى « ويزيد الله الذين آهتدوا » إلى الطاعة « هدى » إلى الجنة؛ والمعنى متقارب . وقد تقدّم القول فى معنى زيادة الأعمال وزيادة الإيمان والهدى فى « آل عمران »(١) وغيرها . ﴿ وَالبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ ﴾ تقدّم فى « الكهف »(٢) القول فيها . ﴿ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً ﴾ أى جزاء : ﴿ وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴾ أى فى الآخرة مما افتخر به الكفار فى الدنيا . و « المَرَدّ » مصدر كالرد؛ أى وخير ردا على عاملها بالثواب؛ يقال : هـذا أَرَدُّ عليك ، أى أنفع لك . وقيل : « خير مردا » أى مرجعا فكل أحد يردّ إلى عمله الذى عمله .

قوله تعالى : أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا ﴾ روى الأئمة — واللفظ لمسلم — عن خباب قال كان لى على العاص بن وائل دين فأتيته أتقاضاه فقال لى : لن أقضيك حتى تكفر بمحمد . قال : فقلت له لن أكفر به حتى تموت ثم تبعث . قال : وإنى لمبعوث من بعد الموت ؟! فسوف أقضيك إذا رجعت إلى مال وولد . قال وكيع : كذا قال الأعمش؛ فنزلت هـذه الآية « أفرأيت الذى كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا » إلى قوله : « ويأتينا فردا » . فى رواية قال : كنت قينا(٣) فى الجاهلية فعملت للعاص بن وائل عملا ، فأتيته أتقاضاه . خرجه البخارى أيضا . وقال الكلبي ومقاتل : كان خباب قينا فصاغ للعاص حليا ثم تقاضاه أجرته؛ فقال العاص : ما عنـدى اليوم ما أقضيك . فقال خباب : لست بمفارقك حتى تقضينى ؛ فقال العاص ياخباب مالك ؟ ! ما كنت هكذا ، وأن كنت لحسن الطلب . فقال خباب : إنى كنت على دينـك فأما اليوم فأنا على دين الإسـلام مفارق لدينك . قال : أو لستم تزعمون أن فى الجنة ذهبا وفضة وحريرا ؟ قال خبـاب : بلى . قال : فأخرني حتى أقضيك

(١) راجع جـ ٤ ص ٢٨٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١٠ ص ٤١٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٣) القين : الحداد والصائغ .

فى الجنة — استهزاء — فوالله لئن كان ما تقول حقا إنى لأقضيك فيها، فوالله لا تكون أنت ياخباب وأصحابك أولى بهـا منى، فأنزل الله تعالى « أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا » يعنى العاص ابن وائل؛ الآيات. ﴿ أَطَّلَعَ الْغَيْبَ ﴾ قال ابن عباس : أنظرَ فى اللوح المحفوظ ؟ ! . وقال مجاهد : أعلم الغيب حتى يعلم أفى الجنـة هو أم لا ؟ ! ﴿ أَمِ اتَّخَذَ عِنْـدَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ قال قتادة والثورىّ : أى عملا صالحـا . وقيل : هو التوحيد . وقيل : هو من الوعد . وقال الكلبى: عاهد الله تعـالى أن يدخله الجنة . ﴿ كَلَّا ﴾ ردٌّ عليـه ؛ أى لم يكن ذلك؛ لم يطلع الغيب، ولم يتخـذ عند الرحمن عهدا، وتم الكلام عند قوله : « كَلَّا » . وقال الحسن : إن الآيات نزلت فى الوليد بن المغيرة . والأول أصح لأنه مدوّن فى الصحاح . وقرأ حمزة والكسائى « وَوُلْدًا » بضم الواو، والباقون بفتحها . وآختلف فى الضم والفتح على وجهين : أحدهما — أنهما لغتان معناهما واحد، يقال وَلَد ووُلْد كما يقال عَدَم وعُدْم . وقال الحرث بن حِلِّزة :

ولقـــد رأيتُ معاشـــرًا * قد ثَمَّـــرُوا مالًا ووُلْدَا

وقال آخـــر :

فليتَ فلانا كان فى بطن أُمِّه * وليت فلانا كانـ وُلْدَ حِمارِ

والثـانى — أن قيسا تجعل الوُلد بالضم جمعا والولد بالفتح واحدا . قال الماوردى : وفى قوله تعالى : « لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا » وجهان : أحدهما — أنه أراد فى الجنة استهزاء بما وعد الله تعالى على طاعته وعبادته؛ قاله الكلبى . الثانى — أنه أراد فى الدنيا، وهو قول الجمهور؛ وفيه وجهـان محتملان : أحدهما — إن أقمت على دين آبائى وعبادة آلهتى لأوتين مالا وولدا . الثـانى — ولو كنت على باطل لمـا أوتيت مالا وولدا .

قلت : قول الكلبى أشبه بظاهر الأحاديث ، بل نصها يدل على ذلك ؛ قال مسروق : سمعت خبّاب بن الأرتّ يقول : جئت العاصى بن وائل السَّهْمىّ أتقاضاه حقا لى عنـده . فقال : لا أعطيك حتى تكفر بمحمد . فقلت : لا حتى تموت ثم تبعث . قال : وإنى لميت ثم مبعوث ؟ ! . فقلت : نعم . فقـال : إن لى هناك مالا وولدا فأقضيك ؛ فنزلت هـذه الآية؛ قال الترمذىّ : هذا حديث حسن صحيح .

قوله تعالى : « أَطَّلَعَ الْغَيْبَ » ألفه ألف آستفهام لمجىء « أم » بعدها، ومعناه التوبيخ، وأصله أاطلع فحذفت الألف الثانية لأنها ألف وصل . فإن قيل : فهلا أتوا بمدّة بعد الألف فقالوا : آطلع كما قالوا : « آلله خير » « آلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ » قيل له : كان الأصل فى هذا « أالله » « أالذكرين » فأبدلوا من الألف الثانية مدة ليفرقوا بين الآستفهام والخبر، وذلك أنهم لو قالوا : الله خير بلا مدّ لالتبس الاستفهام بالخبر، ولم يحتاجوا إلى هذه المدّة فى قوله : « أطلع » لأن ألف الآستفهام مفتوحة وألف الخبر مكسورة، وذلك أنك تقول فى الاستفهام : أطلع ؟ أفترى ؟ أصطفى ؟ أستغفرت ؟ بفتح الألف، وتقول فى الخبر : اِطلع، اِفترى، اِصطفى، اِستغفرت لهم بالكسر، فجعلوا الفرق بالفتح والكسر ولم يحتاجوا إلى فرق آخر .

قوله تعالى : « كَلَّا » ليس فى النصف الأول ذكر « كلّا » (١) وإنما جاء ذكره فى النصف الثانى . وهو يكون بمعنيين : أحدهما بمعنى حقّا . والثانى بمعنى لا . فإذا كانت بمعنى حقا جاز الوقف على ما قبله، ثم تبتدئ « كلا » أى حقّا . وإذا كانت بمعنى لا، كان الوقف على « كلا » جائزا، كما فى هذه الآية ؛ لأن المعنى : لا ليس الأمر كذا . ويجوز أن تقف على قوله : « عَهْدًا » وتبتدئ « كلا » أى حقا « سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ » . وكذا قوله تعالى : « لَعَلِّى أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا » يجوز الوقف على « كلا » وعلى « تركت » . وقوله : « وَلَهُمْ عَلَىَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ . قَالَ كَلَّا » الوقف على « كلا » لأن المعنى؛ لا — وليس الأمر كما تظن « فاذهبا » . فليس للحق فى هذا المعنى موضع . وقال الفراء : « كلا » بمنزلة سوف لأنها صلة، وهى حرف ردّ فكأنها « نعم » و « لا » فى الآكتفاء . قال : وإن جعلتها صلة لما بعدها لم تقف عليها؛ كقولك : كلّا وربّ الكعبة؛ لاتقف على كلّا؛ لأنه بمنزلة إى ورب الكعبة . قال الله تعالى : « كَلَّا وَالْقَمَرِ » فالوقف على « كلّا » قبيح لأنه صلة لليمين . وكان أبو جعفر محمد بن سعدان يقول فى « كلا » مثل قول الفراء . وقال الأخفش : معنى

(١) أى من القرآن؛ قال الألوسى : « وهذا أول موضع وقع فيه من القرآن، وقد تكرر فى النصف الأخير فوقع فى ثلاثة وثلاثين موضعا » .

كلا الردع والزجر . وقال أبو بكر بن الأنبارى : وسمعت أبا العباس يقول : لا يوقف على « كلا » فى جميع القرآن ؛ لأنها جواب والفائدة تقع فيما بعدها . والقول الأول هو قول أهل التفسير .

قوله تعالى : ﴿ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ ﴾ أى سنحفظ عليه قوله فنجازيه به فى الآخرة . ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴾ أى سنزيده عذابا فوق عذاب . ﴿ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ ﴾ أى نسلبه ما أعطيناه فى الدنيا من مال وولد . وقال ابن عباس وغيره : أى نرثه المال والولد بعد إهلاكنا إياه . وقيل : نحرمه ما تمناه فى الآخرة من مال وولد ، ونجعله لغيره من المسلمين . ﴿ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴾ أى منفردا لا مال له ولا ولد ولا عشيرة تنصره .

قوله تعالى : وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴾ يعنى مشركى قريش . و « عِزًّا » معناه أعوانا ومنعة ؛ يعنى أولادا . والعِزّ المطر الجُود[1] أيضا؛ قاله الهروى . وظاهر الكلام أن « عزا » راجع إلى الآلهة التى عبدوها من دون الله . ووحد لأنه بمعنى المصدر؛ أى لينالوا بها العز ويمتنعون بها من عذاب الله؛ فقال الله تعالى : ﴿ كَلَّا ﴾ أى ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا بل يكفرون بعبادتهم؛ أى ينكرون أنهم عبدوا الأصنام، أوتجحد الآلهة عبادة المشركين لها؛ كما قال : « تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ » . وذلك أن الأصنام جمادات لا تعلم العبادة . ﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾ أى أعوانا فى خصومتهم وتكذيبهم . عن مجاهد والضحاك : يكونون لهم أعداء . ابن زيد : يكونون عليهم بلاء فتحشر آلهتهم ، وتركب لهم عقول فتنطق، وتقول : يارب عَذِّبْ هؤلاء الذين عبدونا من دونك . و « كلا » هنا يحتمل أن تكون بمعنى لا ، ويحتمل أن تكون بمعنى حقًّا؛ أى حقا « سيكفرون بِعبادتِهم » . وقرأ

---

(١) المطر الجود : الغزير .

أبو نهيك : « كَلًّا سيكفرون » بالتنوين . وروى عنه مع ذلك ضم الكاف وفتحها . قال المهدوى : « كلا » ردع وزجر وتنبيه ورد لكلام متقدم، وقد تقع لتحقيق ما بعدها والتنبيه عليه كقوله : « كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى » فلا يوقف عليها على هذا، و يوقف عليها فى المعنى الأول؛ فإن صلح فيها المعنيان جميعا جاز الوقف عليها والابتداء بها . فمن نون « كلا » من قوله : « كَلًّا سيكفرون بِعبادتِهم » مع فتح الكاف فهو مصدر كَلَّ؛ ونصبه بفعل مضمر؛ والمعنى كَلَّ هذا الرأى والاعتقاد كَلًّا ، يعنى اتخاذهم الآلهة « لِيكونوا لهم عِزا » فيوقف على هذا على « عِزا » وعلى « كَلًّا » . وكذلك فى قراءة الجماعة ، لأنها تصلح للرد لما قبلها ، والتحقيق لما بعدها. ومن روى ضم الكاف مع التنوين، فهو منصوب أيضا بفعل مضمر، كأنه قال : سيكفرون « كُلًّا سيكفرون بِعبادتِهم » يعنى الآلهة .

قلت : فتحصل فى « كلا » أربعة معان : التحقيق وهو أن تكون بمعنى حقا، والنفى، والتنبيه، وصلة للقسم، ولا يوقف منها إلا على الأول . وقال الكسائى : «لا» تنفى فحسب، و «كلا» تنفى شيئا وتثبت شيئا، فإذا قيل: أكلت تمرا، قلت: كلا إنى أكلت عسلا لا تمرا، ففى هذه الكلمة نفى ما قبلها، وتحقق ما بعدها . والضد يكون واحدا و يكون جمعا ، كالعدو والرسول . وقيل : وقع الضد موقع المصدر؛ أى ويكونون عليهم عونا؛ فلهذا لم يجمع، وهذا فى مقابلة قوله : « لِيكونوا لهم عِزا » والعز مصدر، فكذلك ماوقع فى مقابلته . ثم قيل : الآية فى عبدة الأصنام، فأجرى الأصنام مجرى من يعقل؛ جريا على توهم الكفرة . وقيل : فيمن عبد المسيح أو الملائكة أو الجن أو الشياطين؛ فالله تعالى أعلم .

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا ﴿٨٦﴾ لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ أى سلطناهم عليهم بالإغواء ، وذلك حين قال لإبليس : « وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ » . وقيل : « أرسلنا » أى خلينا؛ يقال: أرسلت البعير أى خليته،أى خلينا الشياطين و إياهم ولم نعصمهم من القبول منهم . الزجاج : قيضنا . ﴿ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا ﴾ قال ابن عباس : تزعجهم إزعاجا من الطاعة إلى المعصية . وعنه : تغريهم إغراء بالشر : آمض آمض فى هذا الأمر،حتى توقعهم فى النار . حكى الأول الثعلبي، والثانى الماوردى، والمعنى واحد . الضحاك : تغويهم إغواء . مجاهد : تشليهم إشلاء، وأصله الحركة والغليان، ومنه الخبر المروى عن النبى صلى الله عليه وسلم "قام إلى الصلاة ولجوفه أزيز كأزيز المرجل من البكاء" . وائتزت القدر ائتزازا اشتد غليانها . والأز التهييج والإغراء،قال الله تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا » أى تغريهم على المعاصى . والأز الاختلاط . وقد أززت الشيء أؤزه أزا أى ضممت بعضه إلى بعض . قاله الجوهرى .

قوله تعالى : ﴿ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ ﴾ أى تطلب العذاب لهم . ﴿ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴾ قال الكلبي : آجالهم؛ يعنى الأيام والليالى والشهور والسنين إلى آنتهاء أجل العذاب . وقال الضحاك : الأنفاس . ابن عباس : أى نعد أنفاسهم فى الدنيا كما نعد سنيهم . وقيل : الخطوات . وقيل : اللذات . وقيل : اللحظات . وقيل : الساعات . وقال قطرب : نعد أعمالهم عدًّا . وقيل : لا تعجل عليهم فإنما نؤخرهم ليزدادوا إثما . روى : أن المأمون قرأ هذه السورة ، فمر بهذه الآية وعنده جماعة من الفقهاء ، فأشار برأسه إلى ابن السماك أن يعظه ، فقال : إذا كانت الأنفاس بالعدد، ولم يكن لها مدد، فما أسرع ما تنفد . وقيل فى هذا المعنى :

حياتُك أنفاسٌ تُعدُّ فكلّما * مضى نَفَسٌ منك آنتقصت به جُزْءا
يميتك ما يحييك فى كل ليلة * ويحدوك حادٍ ما يُريد به الهُزءا

ويقال : إن أنفاس ابن آدم بين اليوم والليلة أربعة وعشرون ألف نفس : آثنا عشر ألف نفس فى اليوم، وآثنا عشر ألفا فى الليلة — والله أعلم — فهى تعد وتحصى إحصاء، ولها عدد معلوم، وليس لها مدد، فما أسرع ما تنفد .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴾ فى الكلام حذف ، أى إلى جنة الرحمن ، ودار كرامته . كقوله : « إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ » وكما فى الخبر " من كانت هجرته إلى الله و رسوله فهجرته إلى الله ورسوله " . والوفد اسم للوافدين ، كما يقال : صَوْم وفَطْر وزَوْر؛ فهو جمع الوافد، مثل رَكْب وراكب وصَحْب وصاحب، وهو من وفد يفد وَفْدا ووفودا ووِفادة، إذا خرج إلى ملك فى فتح أو أمر خطير . الجوهرى : يقال وفد فلان على الأمير، أى ورد رسولا فهو وافد، والجمع وفد مثل صاحب وصَحْب، و جمع الوفد وِفاد ووفود، والاسم الوِفادة وأوفدته أنا إلى الأمير، أى أرسلته . وفى التفسير : « وفدا » أى ركبانا على نجائب طاعتهم . وهذا لأن الوافد فى الغالب يكون راكبا، والوفد الركبان ووحد؛ لأنه مصدر. ابن جريج : وفدا على النجائب . وقال عمرو بن قيس المُلاَئى: إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله عمله فى أحسن صورة وأطيب ريح، فيقول : هل تعرفنى؟ فيقول : لا – إلا إن الله قد طيب ريحك وحسن صورتك . فيقول : كذلك كنتُ فى الدنيا أنا عملك الصالح ، طالما ركبتك فى الدنيا اركبنى اليوم، وتلا «يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا» و إن الكافر يستقبله عمله فى أقبح صورة وأنتن ريح ، فيقول : هل تعرفنى ؟ فيقول : لا — إلا إن الله قد قبح صورتك وأنتن ريحك . فيقول : كذلك كنتُ فى الدنيا أنا عملك السّيئ طالما ركبتنى فى الدنيا وأنا اليوم أركبك . وتلا « وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ » . ولا يصح من قِبل إسناده . قاله ابن العربى فى « سراج المريدين » . وذكر هذا الخبر فى تفسيره أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الكريم القشيرى، عن ابن عباس بلفظه ومعناه . وقال أيضا عن ابن عباس : من كان يحب الخيل وفد إلى الله تعالى على خيل لا تَرُوث ولا تبول ، لجمها من الياقوت الأحمر، ومن الزبرجد الأخضر، ومن الدر الأبيض، وسروجها من السندس والإستبرق ، ومن كان يحب ركوب الإبل فعلى نجائب لا تَبْعَر ولا تبول ، أزمتها من الياقوت والزبرجد ، ومن كان يحب ركوب السفن فعلى سفن من ياقوت، قد أمنوا الغرق ، وأمنوا الأهوال . وقال أيضا عن على رضى الله عنه : ولما نزلت الآية قال على رضى الله عنه : يارسول الله !

إنى قد رأيت الملوك ووفودهم، فلم أر وفدا إلا ركبانا فما وفد الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما إنهم لايحشرون على أقدامهم ولايساقون سوقا ولكنهم يؤتون بنوق من نوق الجنة لم ينظر الخلائق إلى مثلها رحالها الذهب وزمامها الزبرجد فيركبونها حتى يقرعوا باب الجنة". ولفظ الثعلبي فى هذا الخبر عن على أبين. وقال على: لما نزلت هذه الآية قلت: يارسول الله! إنى رأيت الملوك ووفودهم فلم أر وفدا إلا ركبانا. قال: "ياعلى إذا كان المنصرَف من بين يدى الله تعالى تلقت الملائكة المؤمنين بنوق بيض رحالها وأزمتها الذهب على كل مركب حلة لا تساويها الدنيا فيلبس كل مؤمن حلة ثم تسير بهم مراكبهم فتهوى بهم النوق حتى تنتهى بهم إلى الجنة فتتلقاهم الملائكة «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ»".

قلت: وهذا الخبر ينص على أنهم لا يركبون ولا يلبسون إلا من الموقف، وأما إذا خرجوا من القبور فمشاة حُفاةً عُراة غُرْلًا (١) إلى الموقف؛ بدليل حديث ابن عباس قال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة فقال: "يأيها الناس إنكم تحشرون إلى الله — تعالى — حُفَاةً عُراة غُرْلًا" الحديث خرجه البخارى ومسلم، وسيأتى بكماله فى سورة «المؤمنين» إن شاء الله تعالى. وتقدم فى «آل عمران» (٢) من حديث عبد الله بن أنيس بمعناه والحمد لله تعالى. ولا يبعد أن تحصل الحالتان للسعداء، فيكون حديث ابن عباس مخصوصا؛ والله أعلم. وقال أبو هريرة: «وفدا» على الإبل. ابن عباس: ركبانا يؤتون بنوق من الجنة؛ عليها رحائل من الذهب وسروجها وأزمتها من الزبرجد فيحشرون عليها. وقال على: مايحشرون والله على أرجلهم، ولكن على نوق رحالها من ذهب، ونجب سروجها يواقيت، إن همّوا بها سارت وإن حركوها طارت. وقيل: يفدون على مايحبون من إبل أو خيل أو سفن، على ما تقدّم عن ابن عباس. والله أعلم. وقيل: إنما قال «وفدا» لأن من شأن الوفود عند العرب أن يقدموا بالبشارات، وينتظرون الجوائز، فالمتقون ينتظرون العطاء والثواب. ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ السوق الحثّ على السير. و «وِردا» عِطاشا؛ قاله ابن عباس

(١) الغرل (جمع الأغرل): وهو الأقلف. (٢) راجع جـ ٤ ص ٢٧٣ طبعة أولى أو ثانية.

وأبو هريرة رضى الله عنهما والحسن . والأخفش والفراء وابن الأعرابى : حفاة مشاة . وقيل : أفواجا . وقال الأزهرى : أى مشاة عِطاشا ، كالإبل ترد الماء ؛ فيقال : جاء وِرد بنى فلان . القشيرى : وقوله « وِردا » يدل على العطش ؛ لأن الماء إنما يورد فى الغالب للعطش . وفى « التفسير » : مشاة عِطاشا تتقطع أعناقهم من العطش ، وإذا كان سوق المجرمين إلى النار فحشر المتقين إلى الجنة . وقيل : « وِردا » أى الورود ؛ كقولك : جئتك إكراما لك أى لإكرامك ، أى نسوقهم لورود النار .

قلت : ولا تناقض بين هذه الأقوال ، فيساقون عِطاشا حفاة مشاة أفواجا . قال ابن عرفة : الوِرد القوم يردون الماء ، فسمى العطاش وردا لطلبهم ورود الماء ؛ كما تقول : قوم صَوْم أى صيام ، وقوم زَوْر أى زوّار ، فهو اسم على لفظ المصدر ، واحدهم وارد . والوِرد أيضا الجماعة التى ترد الماء من طير و إبل . والورد الماء الذى يوردُ . وهذا من باب الإيماء بالشىء إلى الشىء . والورد الجزء [من القرآن] (١) يقال : قرأت وِردى . والورد يوم الحمى إذا أخذت صاحبها لوقت . فظاهره لفظ مشترك . وقال الشاعر يصف قَلِيبا (٢) .

* يَطْمو إذا الوِرْدُ عليه الْتَكّا (٣) *

أى الورّاد الذين يريدون الماء .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ ﴾ أى هؤلاء الكفار لا يملكون الشفاعة لأحد ﴿ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴾ وهم المسلمون فيملكون الشفاعة ، فهو استثناء الشىء من غير جنسه ؛ أى لكن « منِ اتخذ عِند الرحمنِ عهدا » يشفع ؛ فـ « من » فى موضع نصب على هذا . وقيل : هو فى موضع رفع على البدل من الواو فى « يملكون » ؛ أى لا يملك أحد عند الله الشفاعة « إلا منِ اتخذ عِند الرحمنِ عهدا » فإنه يملك ؛ وعلى هذا يكون الاستثناء

---

(١) الزيادة من « اللسان » .　　(٢) القليب : البئر .　　(٣) صدره :

* صبحن من وشحى قليبا سكا *

وشحى : اسم بئر . والسك : الضيقة . والتك الورد : ازدحم وضرب بعضه بعضا . وطمت البئر تطمو طموا وتطمى طميا : امتلأت .

متصلا . و «المجرمين» فى قوله : «وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا» يعم الكفرة والعصاة ، ثم أخبر أنهم لا يملكون الشفاعة إلا العصاة المؤمنون ، فإنهم يملكونها بأن يشفع فيهم . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لا أزال أشفع حتى أقول يا رب شفعنى فيمن قال لا إله إلا الله محمد رسول الله فيقول يا محمد إنها ليست لك ولكنها لى" خرجه مسلم بمعناه ، وقد تقدم . وتظاهرت الأخبار بأن أهل الفضل والعلم والصلاح يشفعون فيشفَّعون ؛ وعلى القول الأول يكون الكلام متصلا بقوله : «وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا» فلا تقبل غدا شفاعة عبدة الأصنام لأحد ، ولا شفاعة الأصنام لأحد ، ولا يملكون شفاعة أحد لهم ؛ أى لا تنفعهم شفاعة ؛ كما قال : «فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ» . وقيل : أى نحشر المتقين والمجرمين ولا يملك أحد شفاعة «إلا منِ ٱتخذ عِند الرحمنِ عهدا» أى إذا أذن له الله فى الشفاعة . كما قال : «من ذا الذى يشفع عِنده إلا بِإذنِهِ» . وهذا العهد هو الذى قال «أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا» وهو لفظ جامع للإيمان وجميع الصالحات التى يصل بها صاحبها إلى حيز من يشفع . وقال ابن عباس : العهد لا إله إلا الله . وقال مقاتل وابن عباس أيضا : لا يشفع إلا من شهد أن لا إله إلا الله ، وتبرأ من الحول والقوة [إلا](1) لله ، ولا يرجو إلا الله تعالى . وقال ابن مسعود : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأصحابه : "أيعجز أحدكم أن يتخذ كل صباح ومساء عند الله عهدا" قيل : يا رسول الله وما ذاك ؟ قال : "يقول عند كل صباح ومساء اللهم فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة إنى أعهد إليك فى هذه الحياة بأنى أشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك وأن محمدا عبدك ورسولك [فلا تكلنى إلى نفسى](2) فإنك إن تكلنى إلى نفسى تباعدنى من الخير وتقربنى من الشر وإنى لا أثق إلا برحمتك فاجعل لى عندك عهدا توفينيه يوم القيامة إنك لا تخلف الميعاد فإذا قال ذلك طبع الله عليها طابعا ووضعها تحت العرش فإذا كان يوم القيامة نادى مناد أين الذين لهم عند الله عهد فيقوم فيدخل الجنة" .

---

(1) زيادة يقتضيها المقام . (2) الزيادة من رواية الترمذى .

قوله تعالى : وَقَالُوا ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾
تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾
أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾
إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾
لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا ٱتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾ يعنى اليهود والنصارى ، ومن زعم أن الملائكة بنات الله . وقرأ يحيى والأعمش وحمزة والكسائى وعاصم وخلف : « وُلْدًا » بضم الواو و إسكان اللام، فى أربعة مواضع : من هذه السورة قوله تعالى : «لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوُلْدًا» وقد تقدّم، وقوله : « أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وُلْدًا . وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وُلْدًا » . وفى سورة نوح : « مَالُهُ وَوُلْدُهُ » . ووافقهم فى « نوح » خاصة ابن كثير ومجاهد وحميد وأبو عمرو ويعقوب . والباقون فى الكل بالفتح فى الواو واللام، وهما لغتان مثل العَرَب والعُرْب والعَجَم والعُجْم . قال :

ولقد رأيت معاشرا * قد ثَمَّرُوا مالاً ووُلْدا

وقال آخر :

وليتَ فلانا كان فى بطنِ أُمِّهِ * وليت فلانا كان وُلْدَ حمارِ

وقال فى معنى ذلك النابغة :

مَهْلاً فداءً لكَ الأقوامُ كلُّهم * وما أُثَمِّرُ من مالٍ ومن وَلَدِ

ففتح . وقيس يجعلون الوُلْد بالضم جمعا والوَلَد بالفتح واحدا . قال الجوهرى : الوَلَد قد يكون واحدا وجمعا، وكذلك الوُلْد بالضم . ومن أمثال بنى أسد : وُلْدُكِ من دَمَّى عَقِبَيْكِ (١) . وقد يكون الوُلْد جمع الوَلَد مثل أُسْد وأسد: والوِلد بالكسر لغة فى الوُلْد . النحاس : وفرق

(١) أى من نفست به فأدمى النفاس عقبيك فهو ابنك .

أبو عبيـدة بينهما ؛ فزعم أن الوَلَد يكون للأهل والوَلَد جميعا . قال أبو جعفر : وهـذا قول مردود لا يعرفه أحد من أهل اللغة؛ ولا يكون الوَلَد والوُلد إلا ولد الرجل، ووَلَد وَلَده، إلا أن وَلَدا أكثر فى كلام العرب؛ كما قال :

مَهْـلاً فِـداءً لَكَ الأقوامُ كلُّهم * وما أُثَمِّرُ مِنْ مالٍ ومن وَلَدِ

قال أبو جعفر وسمعت محمد بن الوليد يقول : يجـوز أن يكون وُلْد جمع وَلَد، كما يقال وَثَن ووُثْن وأَسَـد وأُسْد، ويجـوز أن يكون وَلَد ووُلْد بمعنى واحد؛ كما يقال عَجَم وعُجْم وعَرَب وعُرْب كما تقدّم .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴾ أى منكرا عظيما؛ عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . قال الجوهرى : الإدّ والإدّة الداهية والأمر الفظيع؛ ومنه قوله تعالى : « لَقَـدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا » وكذلك الآدّ مثل فاعل . وجمع الإدة إِدَدٌ . وأَدَّت فلانا داهِيةٌ تؤدّه أَدًّا (بالفتح) . والإدُّ أيضا الشدّة . [والأَدُّ الغلبة والقوة](1) قال الراجز :

نَضَــوْنَ عَنّى شِـدَّةً وأَدًّا * من بَعْدِ ما كُنْتُ صُمُلًّا جَلْدًا(2)

انتهى كلامه . وقرأ أبو عبدالله، وأبو عبد الرحمن السلمى « أَدًّا » بفتح الهمزة . النحاس : يقال أد يؤد أدًّا فهو آد والاسم الإدّ؛ إذا جاء بشىء عظيم منكر . وقال الراجز :

قد لَقِىَ الأقرانُ مِنِّى نُكْرَا * داهِيــةً دهياءَ إِدًّا إِمْرَا

عن غير النحاس؛ الثعلبى : وفيه ثلاث لغات « إدًّا » بالكسر وهى قراءة العامة ، « وأَدًّا » بالفتـح وهى قـراءة السُّلَمى، و « آدٌّ » مثـل مادّ، وهى لغـة لبعض العرب؛ رويت عن ابن عباس وأبى العالية؛ وكأنها مأخوذة من الثقل [يقال] : آدَه الحمل يَئُـوده أَوْدًا أثقله .

قوله تعالى : ﴿ تَكَادُ السَّمَوَاتُ ﴾ قراءة العامة هنا وفى « الشورى » بالتاء . وقـراءة نافع ويحيى والكسائى « يكاد » بالياء لتقـدم الفعل . ﴿ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ﴾ أى يتشققن . وقرأ نافع وابن كثير وحفص وغيرهم بتاء بعد الياء وشد الطاء من التفطر هنا وفى « الشورى » .

(1) فى الأصل : الأد القوة والشدّة؛ وصوابه كما فى اللسان : الإد بالكسر الشدة والأد بالفتح الغلبة والقوة .
(2) الصمل الشديد الصلب . وورد فى كتب اللغة : « صملا نهدا » والنهد : القوى الشديد .

ووافقهم حمزة وابن عامر فى « الشورى » . وقرأ هنا « ينفطرن » من الانفطار : وكذلك قرأها أبو عمرو وأبو بكر والمفضل فى السورتين . وهى اختيار أبى عبيد؛ لقوله تعالى : « إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ » وقوله : « السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ » . وقوله : ﴿ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ ﴾ أى تتصدع . ﴿ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴾ قال ابن عباس : هدما أى تسقط بصوت شديد . وفى الحديث "اللهم إنى أعوذ بك من الهدّ والهَدّة" قال شمر قال أحمد بن غياث المروزى : الهدّ الهدم والهدة الخسوف . وقال الليث : هو الهدم الشديد؛ كحائط يهدّ بمرة؛ يقال : هدّنى الأمر وهدّ ركنى أى كسرنى و بلغ منى؛ قاله الهروى . الجوهرى : وهدّ البناء يهدّه هدّا كسره وضعضعه، وهدّته المصيبة أى أوهنت ركنه، وانهدّ الجبل انكسر . الأصمعى : والهدّ الرجل الضعيف؛ يقول الرجل للرجل إذا أوعده : إنى لَغير هدٍّ أىْ غير ضعيف . وقال ابن الأعرابى : الهدّ من الرجال الجواد الكريم، وأما الجبان الضعيف فهو الهِدّ بالكسر؛ وأنشد[1] :

لَيسُوا بِهِدِّين فى الحُرُوب إذا * تُعقَدُ فوقَ الحَرَاقِفِ النُّطُقُ

والهَدّة صوت وقع الحائط ونحوه، تقول منه : هَدَّ يهِدُّ (بالكسر) هَدِيدًا . والهادُّ صوت يسمعه أهل الساحل، يأتيهم من قبل البحر له دوىٌّ فى الأرض، وربما كانت منه الزلزلة، ودويّه هديده . النحاس : « هَدًّا » مصدر؛ لأن معنى « تَخِرُّ » تُهَدّ . وقال غيره : حال أى مهدودة : ﴿ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴾ « أن » فى موضع نصب عند الفراء بمعنى لأن دعوا ومن أن دعوا، فموضع « أن » نصب بسقوط الخافض . وزعم الفراء أن الكسائى قال : هى فى موضع خفض بتقدير الخافض . وذكر ابن المبارك : حدثنا مِسْعر، عن واصل، عن عون بن عبدالله قال قال عبد الله بن مسعود : إن الجبل ليقول للجبل يافلان هل مر بك اليوم ذا كر لله؟ فإن قال نعم سُرَّ به[2] . ثم قرأ عبد الله « وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا » الآية؛ قال : أفتراهن يسمعن الزور ولايسمعن الخير؟ ! . قال : وحدّثنى عوف عن غالب بن عجرد[3] قال :

(١) البيت للعباس بن عبد المطلب رضى الله عنه . والحراقف (جمع حرقفة) : مجتمع رأس الفخذ . والنطق (جمع نطاق) : ما تشد به الأوساط . (٢) أى قال عون كما فى « الدر المنثور » وغيره .

(٣) كذا فى الأصل؛ ولعله « غالب بن حجرة » وما هنا تحريف .

حدّثنى رجل من أهـل الشام فى مسجد منى ، قال : إن الله تعالى لمـا خلق الأرض وخلق مافيها من الشجر، لم تك فى الأرض شجرة يأتيها بنو آدم إلا أصابوا منهـا منفعة، وكان لهم منها منفعة، فـلم تزل الأرض والشجر كذلك حتى تكلم فجرة بنى آدم تلك الكلمة العظيمة ، قولهم : آتخذ الرحمن ولدا، فلما قالوها آقشعرت الأرض وشاك الشجر . وقال ابن عباس : اقشعرت الجبال وما فيها من الأشجار، والبحار وما فيها من الحيتان ، فصار من ذلك الشوك فى الحيتان، وفى الأشجار الشوك . وقال ابن عباس أيضا وكعب : فزعت السموات والأرض والجبال ، وجميـع المخلوقات إلا الثقلين، وكادت أن تزول ، وغضبت الملائكة فاستعرت جهنم ، وشاك الشـجر، وآكفهرت الأرض وجدبت حين قالوا : آتخـذ الله ولدا . وقال محمد بن كعب : لقد كاد أعداء الله أن يقيموا علينا الساعة، لقوله تعالى : « تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَـدًّا . أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا » قال ابن العربى : وصدق فإنه قول عظيم سبق به القضاء والقدر، ولولا أن البارى تبارك وتعالى لا يضعه كفر الكافر، ولا يرفعه إيمـان المؤمن، ولا يزيد هـذا فى ملكه، كما لا ينقص ذلك من ملكه، لمـا جرى شىء من هـذا على الألسنة ، ولكنه القـدوس الحكيم الحليم، فلم يبال بعد ذلك بمـا يقول المبطلون .

قوله تعـالى : ﴿ وَمَا يَنْبَغِى لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَنْبَغِى لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴾ نفى عن نفسه سبحانه وتعالى الولد، لأن الولد يقتضى الجنسـية والحدوث على ما بيناه فى « البقرة[١] » أى لا يليق به ذلك ولا يوصف به ولا يجوز فى حقه، لأنه لا يكون ولد إلا من والد يكون له والد وأصل والله سبحانه يتعالى عن ذلك ويتقدس . قال[٢] :

فى رأس خَلْقَاء من عَنْقَاء مُشْرِفَة * ما ينبغى دونها سَهْلٌ ولا جَبَـلُ

---

(١) راجع جـ ٢ ص ٨٥ طبعة ثانية أو ثالثة . (٢) هو ابن أحمر الباهلى يصف جبلا . والخلقاء : الصخرة ليس فيها وصم ولا كسر أى الملساء . والعنقاء : أكمة جبل مشرف .

﴿ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾ « إن » نافية بمعنى ما؛ أى ما كل من فى السموات والأرض إلا وهو يأتى يوم القيامة مقرّا له بالعبودية، خاضعا ذليلا كما قال : « وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ » أى صاغرين أذلاء؛ أى الخلق كلهم عبيده، فكيف يكون واحد منهم ولدا له عز وجل؛ تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون علوّا كبيرا . و « آتى » بالياء فى الخط، والأصل التنوين فحذف استخفافا وأضيف .

الثانيـــة — فى هـذه الآية دليل على أنه لا يجوز أن يكون الولد مملوكا للوالد، خلافا لمن قال : إنه يشتريه فيملكه ولا يعتق عليه إلا إذا أعتقه . وقد أبان الله تعالى المنافاة بين الأولاد والملك، فإذا ملك الوالد ولده بنوع من التصرفات عتق عليه . ووجه الدليل عليه من هذه الآية أن الله تعالى جعل الولدية والعبدية فى طرفى تقابل؛ فنفى أحدهما وأثبت الآخر، ولو اجتمعا لما كان لهذا القول فائدة يقع الاحتجاج بها . وفى الحديث الصحيح "لا يجزى ولد والدا إلا أن يجده مملوكا فيشتريه فيعتقه" خرجه مسلم . فإذا لم يملك الأب ابنه مع مرتبته عليه، فالابن بعدم ملك الأب أولى لقصوره عنه .

الثالثـــة — ذهب إسحق بن راهويه فى تأويل قوله عليه الصلاة والسلام : "من أعتق شركا له فى عبد" أن المراد به ذكور العبيد دون إناثهم فلا يكمل على من أعتق شركا فى أنثى، وهو على خلاف ما ذهب إليه الجمهور من السلف ومن بعدهم، فإنهم لم يفرقوا بين الذكر والأنثى؛ لأن لفظ العبد يراد به الجنس، كما قال تعالى : « إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا » فإنه قد يتناول الذكر والأنثى من العبد قطعا . وتمسك إسحق بأنه حكى عبدة فى المؤنث .

الرابعـــة — روى البخارى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " يقول الله تبارك وتعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك فأما تكذيبه إياى فقوله ليس يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق بأهون علىّ من إعادته وأما شتمه إياى فقوله اتخذ الله ولدا وأنا الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن لى كفوا أحد " وقد تقدّم فى « البقرة »[(١)] وغيرها وإعادته فى مثل هذا الموضع حسن جدا .

(١) تقدّم الحديث فى جـ ٢ ص ٨٥ بلفظ آخر .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ ﴾ أى علم عددهم ﴿ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴾ تأكيد؛ أى فلا يخفى عليه أحد منهم .

قلت : ووقع لنا فى أسمائه سبحانه المحصى ؛ أعنى فى السنة من حديث أبى هريرة ؛ خرجه الترمذى ، واشتقاق هذا الفعل يدل عليه . وقال الأستاذ أبو إسحق الإسفراينى : ومنها المحصى ويختص بأنه لاتشغله الكثرة عن العلم ؛ مثل ضوء النور ، واشتداد الريح ، وتساقط الأوراق ، فيعلم عند ذلك أجزاء الحركات فى كل ورقة ، وكيف لا يعلم وهو الذى يخلق ، وقد قال : « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » . ووقع فى تفسير ابن عباس أن معنى « لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا » يريد أقروا له بالعبودية ، وشهدوا له بالربوبية .

قوله تعالى : ﴿ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴾ أى واحدا لا ناصر له ولا مال معه ينفعه ؛ كما قال تعالى : « يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ » فلا ينفعه إلا ماقدم من عمل ، وقال : « وَكُلُّهُمْ آتِيهِ » على لفظ كل وعلى المعنى آتوه . وقال القشيرى : وفيه إشارة إلى أنكم لا ترضون لأنفسكم باستعباد أولادكم والكل عبيده ، فكيف رضيتم له مالا ترضون لأنفسكم . وقد رد عليهم فى مثل هذا ، فى أنهم لا يرضون لأنفسهم بالبنات ، ويقولون : الملائكة بنات الله ، تعالى الله عن ذلك ، وقولهم : الأصنام بنات الله . وقال : « فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ » .

قوله تعالى : إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى صدقوا . ﴿ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴾ أى حبا فى قلوب عباده . كما رواه الترمذى من حديث سعد وأبى هريرة : أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " إذا أحب الله عبدا نادى جبريل إنى قد أحببت فلانا فأحبه — قال — فينادى فى السماء ثم تنزل له المحبة فى أهل الأرض فذلك قوله تعالى « سَيَجْعَلُ لَهُم

الرَّحْمَنُ وُدًّا » و إذا أبغض الله عبدا نادى جبريلَ إنى أبغضت فلانا فينادِى فى السماء ثم تنزل له البغضاء فى الأرض » " قال هذا حديث حسن صحيح . وخرجه البخارى ومسلم بمعناه ، ومالك فى الموطأ، وفى نوادر الأصول . وحدّثنا أبو بكر بن سابق الأموى قال حدّثنا أبو مالك الجَنْبى عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إنّ الله أعطى المؤمن الألفة والملاحة والمحبة فى صدور الصالحين والملائكة المقربين — ثم تلا — « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا » ". واختلف فيمن نزلت؛ فقيل فى على رضى الله تعالى عنه؛ روى البراء بن عازب قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى بن أبى طالب : " قل يا على اللهم اجعل لى عندك عهدا واجعل لى فى قلوب المؤمنين مودة " فنزلت الآية؛ ذكره الثعلبى . وقال ابن عباس : نزلت فى عبد الرحمن بن عوف؛ جعل الله تعالى له فى قلوب العباد مودة ، لا يلقاه مؤمن إلا وقّره ، ولا مشرك ولا منافق إلا عظّمه . وكان هرم بن حيّان يقول : ما أقبل أحد بقلبه على الله تعالى إلا أقبل الله تعالى بقلوب أهل الإيمان إليه ، حتى يرزقه مودّتهم ورحمتهم . وقيل : يجعل الله تعالى لهم مودّة فى قلوب المؤمنين والملائكة يوم القيامة .

قلت : إذا كان محبوبا فى الدنيا فهو كذلك فى الآخرة؛ فإن الله تعالى لا يحب إلا مؤمنا تقيا، ولا يرضى إلا خالصا نقيا؛ جعلنا الله تعالى منهم بمنه وكرمه . روى مسلم عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تعالى إذا أحب عبدا دعا جبريلَ عليه السلام فقال إنى أحب فلانا فأحِبّه فيحبه جبريل ثم ينادِى فى السماء فيقول إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء — قال — ثم يوضع له القبول فى الأرض و إذا أبغض عبدا دعا جبريل عليه السلام وقال إنى أبغض فلانا فأبغضه فيبغضه جبريل ثم ينادِى فى أهل السماء إن الله يبغض فلانا فأبغضوه — قال — فيبغضونه ثم توضع له البغضاء فى الأرض " .

قوله تعالى : فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ أى القرآن ؛ يعنى بيناه بلسانك العربى وجعلناه سهلا على من تدبره وتأمله . وقيل : أنزلناه عليك بلسان العرب ليسهل عليهم فهمه . ﴿ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴾ اللد جمع الألد وهو الشديد الخصومة ، ومنه قوله تعالى : « أَلَدُّ الْخِصَامِ » وقال الشاعر :

أبيتُ نجِـيًّا للهمومِ كأنّنى * أخاصم أقواما ذَوِى جَـدلٍ لُدّا

وقال أبو عبيدة : الألد الذى لا يقبل الحق و يدعى الباطل . الحسن : اللد الصُّمّ عن الحق . قال الربيع : صم آذان القلوب . مجاهد : فجارا . الضحاك : مجادلين فى الباطل . ابن عباس : شدادا فى الخصومة . وقيل : الظالم الذى لا يستقيم ؛ والمعنى واحد . وخصوا بالإنذار ؛ لأن الذى لا عناد عنده يسهل انقياده .

قوله تعالى : وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ ﴾ أى من أمة و جماعة من الناس ؛ يخوف أهل مكة . ﴿ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴾ فى موضع نصب ؛ أى هل ترى منهم أحدا وتجد . « أو تسمع لهم ركزا » أى صوتا ؛ عن ابن عباس وغيره ؛ أى قد ماتوا وحصلوا أعمالهم . وقيل : حِسًّا ؛ قاله ابن زيد . وقيل : الركز مالا يفهم من صوت أو حركة ؛ قاله اليزيدى وأبو عبيدة ؛ كركز الكتيبة ؛ وأنشد أبو عبيدة بيت لبيد :

وتوجّستْ رِكْزَ الأَنِيس فراعَها * عن ظَهْر غيبٍ والأَنِيس سَقَامُها(١)

وقيل : الصوت الخفى . ومنه رَكَزَ الرُّمحَ إذا غيّب طرفه فى الأرض . وقال طرفة :

وَصادِقَتَا سَمْعِ التَّوَجُّسِ للسُّرى * لِرِكْزٍ خَفِىٍّ أو لصَوتٍ مُنَدَّدِ(٢)

---

(١) توجست : تسمعت البقرة صوت الناس فأفزعها ولم تر الناس . والأنيس سقامها معناه : والأنيس هلاكها : أى يصيدها . (٢) يصف طرفة فى هذا البيت أذنى ناقته ؛ يعنى أذنيها لا تكذبها النبأة . والمندد صفة للصوت ؛ والصوت المندد المبالغ فى النداء . ويروى : « لصوت مندد » بالإضافة وكسر الدال ، والأولى هى الرواية الجيدة .

وقال ذو الرُّمة يصف ثورا تسمع إلى صوت صائد وكلاب :

إذا توجسَ رِكْزًا مقفِرٌ نَدُسٌ * بِنبأةِ الصوتِ ما فى سمعه كذب

أى ما فى ٱستماعه كذب ؛ أى هو صادق الاستماع . والنَّدِس الحاذق ؛ يقال : نَدِسٌ ونَدُس ، كما يقال : حَذر وحَذُر ، ويَقِظٌ ويَقُظ . والنبأة الصوت الخفىّ ، وكذلك الرِّكز ، والركاز المال المدفون . والله تعالى أعلم بالصواب .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تفسير سورة طـه عليه السلام

سورة طـه عليه السلام مكية فى قول الجميع . نزلت قبل إسلام عمر رضى الله عنه . روى الدارقطنى فى سننه عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : خرج عمر متقلدا بسيف ؛ فقيل له : إن خَتَنك قد صبوا[(١)] فأتاهما عمر وعندهما رجل من المهاجرين يقال له خَبّاب ، وكانوا يقرءون «طـه» . فقال : أعطونى الكتاب الذى عندكم فأقرؤه — وكان عمر رضى الله عنه يقرأ الكتب — فقالت له أخته : إنك رِجْس ولا يمسه إلا المطهرون ، فقم فاغتسل أو توضأ فقام عمر رضى الله عنه وتوضأ وأخذ الكتاب فقرأ « طـه » . وذكره ابن إسحق مطولا : فإن عمر خرج متوشحا سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقَتْله ، فلقيه نعيم ابن عبد الله ؛ فقال : أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد محمدا هذا الصابئ ، الذى فرّق أمر قريش ، وسفّه أحلامها ، وعاب دينها ، وسبّ آلهتها فأقتله . فقال له نعيم : والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر ، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدا ؟ ! أفلا ترجع إلى أهلك فتقيم أمرهم ؟ ! . فقال : وأى أهل بيتى ؟ . قال : خَتَنك وابن عمك سعيد بن زيد ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما وتابعا محمدا على دينه فعليك بهما . قال : فرجع عمر عامدا إلى أخته وخَتَنه ، وعندهما خبّاب بن الأرَتّ معه صحيفة فيها

(١) صبأ الرجل : خرج من دين إلى دين آخر .

« طه » يقرئهما إياها، فلما سمعوا حس عمر تغيب خبّاب فى مخدع لهم أو فى بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خبّاب عليهما؛ فلما دخل قال : ما هذه الهينمة (١) التى سمعت ؟ قالا له : ما سمعت شيئا . قال : بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدا على دينه . وبطش بختنه سعيد بن زيد، فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفّه عن زوجها فضربها فشجها . فلما فعل ذلك قالت له أخته وختَنه : نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك . ولما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فآرعوى، وقال لأخته : أعطنى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءونها آنفا أنظر ما هذا الذى جاء به محمد . وكان عمر كاتبا، فلما قال ذلك قالت له أخته : إنا نخشاك عليها. قال لها : لا تخافى وحلَف لها بآلهته ليردنّها إذا قرأها، فلما قال ذلك طمعت فى إسلامه، فقالت له : يا أخى إنك نجس على شركك ، وأنه لا يمسها إلا الطاهر . فقام عمر وآغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها « طـه » فلما قرأ منها صدرا قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه ! فلما سمع ذلك خبّاب خرج إليه ، فقال له : يا عمر والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصّك بدعوة نبيه ، فإنى سمعته أمس وهو يقول : " اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب " فاللهَ اللهَ يا عمر . فقال له عند ذلك : فدلنى يا خبّاب على محمد حتى آتيه فأسلم؛ وذكر الحديث .

مسئلة — أسند الدارمىّ أبو محمد فى مسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " إن الله تبارك وتعالى قرأ « طه » و «يس» قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام فلما سمعت الملائكة القرآن قالت طوبى لأمة ينزل هذا عليها وطوبى لأجواف تحمل هذا وطوبى لألسنة تتكلم بهذا " قال ابن فورك معنى قوله : " إن الله تبارك وتعالى قرأ «طه» و «يس» " أى أظهر وأسمع وأفهم كلامه من أراد من خلقه من الملائكة فى ذلك الوقت؛ والعرب تقول : قرأت الشىء إذا تتبعته، وتقول : ما قرأت هذه

(١) الهينمة : الكلام الخفى لا يفهم .

الناقة فى رحمها سَلًا قط؛ أى ما ظهر فيها ولد؛ فعلى هذا يكون الكلام سائغا، وقرأته أسماعه وأفهامه بعبارات يخلقها وكتابة يحدثها . وهى معنى قولنا : قرأنا كلام الله، ومعنى قوله : «فَٱقْرَءُوا ما تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ»، «فَٱقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ» . ومن أصحابنا من قال معنى قوله : "قرأ" أى تكلم به، وذلك مجاز كقولهم : ذقت هذا القول ذواقا بمعنى آختبرته . ومنه قوله : «فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ» أى آبتلاهم الله تعالى به، فسمى ذلك ذوقا، والخوف لا يذاق على الحقيقة؛ لأن الذوق فى الحقيقة بالفم دون غيره من الجوارح . قال ابن فورك : وما قلناه أولا أصح فى تأويل هذا الخبر؛ لأن كلام الله تعالى أزلى قديم سابق لجملة الحوادث، وإنما أسمعَ وأفهمَ من أراد من خلقه على ما أراد فى الأوقات والأزمنة؛ لا أن عين كلامه يتعلق وجوده بمدة وزمان .

قوله تعالى : طـه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾

قوله تعالى : ﴿ طه ﴾ آختلف العلماء فى معناه؛ فقال الصدّيق رضى الله تعالى عنه : هو من الأسرار؛ ذكره الغزنوى . ابن عباس : معناه يا رجل؛ ذكره البيهقى . وقيل : إنها لغة معروفة فى عُكْلٍ . وقيل : فى عَكّ؛ قال الكلبى : لو قلت فى عَكّ لرجل يا رجل لم يجب حتى تقول طه . وأنشد الطبرىّ فى ذلك فقال(١) :

دعوت بطه فى القتال فلم يُجِبْ ✻ فخفتُ عليه أن يكون مُوَائِلا

---

(١) هو متمم بن نويرة؛ ووائل : طلب النجاة .

ويروى : مُزايلا . وقال عبد الله بن عمرو : يا حبيبي بلغة عَكّ ؛ ذكره الغزنوى . وقال قطرب : هو بلغة طىّء ؛ وأنشد ليزيد بن المهلهل :

إنّ السّفاهةَ طَهَ من شمائلكم * لا بارك الله فى القوم الملاعين

وكذلك قال الحسن : معنى « طه » يا رجل . وقاله عكرمة ، وقال : هو بالسريانية كذلك ؛ ذكره المهدوىّ ، وحكاه الماوردى عن ابن عباس أيضا ومجاهد . وحكى الطبرىّ : أنه بالنَّبَطِيّة يا رجل . وهذا قول السدى وسعيد بن جبير وابن عباس أيضا ؛ قال :

إن السفاهة طه من خلائقكم * لا قدس الله أرواح الملاعين

وقال عكرمة أيضا : هو كقولك يا رجل بلسان الحبشة ؛ ذكره الثعلبى . والصحيح أنها وإن وجدت فى لغة أخرى فإنها من لغة العرب كما ذكرنا ، وأنها لغة يمنية فى عَكّ وطىّء وعُكل أيضا . وقيل : هو اسم من أسماء الله تعالى ، وقَسَمٌ أقسم به . وهذا أيضا مروى عن ابن عباس رضى الله عنهما ، وقيل : هو اسم للنبي صلى الله عليه وسلم سماه الله تعالى به كما سماه محمدا . وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " لى عند ربى عشرة أسماء " فذكر أن فيها طه ويس ، وقيل : هو اسم للسورة ، ومفتاح لها . وقيل : إنه اختصار من كلام الله خص الله تعالى رسوله بعلمه . وقيل : إنها حروف مُقطَّعة ، يدل كل حرف منها على معنى ؛ واختلف فى ذلك ؛ فقيل : الطاء شجرة طوبى ، والهاء النار الهاوية ، والعرب تعبر عن الشىء كله ببعضه ؛ كأنه أقسم بالجنة والنار . وقال سعيد بن جبير : الطاء آفتتاح اسمه طاهر وطيب ، والهاء افتتاح اسمه هادى . وقيل : «طاء» ياطامع الشفاعة للامة ، «هاء» يا هادى الخلق إلى الله . وقيل : الطاء من الطهارة ، والهاء من الهداية ؛ كأنه يقول لنبيه عليه الصلاة والسلام : ياطاهرا من الذنوب ، ياهادى الخلق إلى علام الغيوب . وقيل : الطاء طُبول الغُزاة ، والهاء هيبتهم فى قلوب الكافرين . بيانه قوله تعالى : « سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ » وقوله : «وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ» . وقيل : الطاء طرب أهل الجنة فى الجنة ، والهاء هوان أهل النار فى النار . وقول سادس : إن معنى «طه» طوبى لمن آهتدى ؛ قاله مجاهد ومحمد بن الحنفية .

وقول سابع : إن معنى « طه » طَإِ الأرض؛ وذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يتحمل مشقة الصلاة حتى كادت قدماه تتورم، ويحتاج إلى الترويح بين قدميه، فقيل له : طإ الأرض؛ أى لا تتعب حتى تحتاج إلى الترويح؛ حكاه ابن الأنبارى . وذكر القاضى عياض فى « الشفاء » أن الربيع بن أنس قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا صلى قام على رجل ورفع الأخرى، فأنزل الله تعالى « طه » يعنى طَإِ الأرض يا محمد « مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى » . الزمخشرى : وعن الحسن « طَهْ » وفُسّر بأنه أمر بالوطء، وأن النبي عليه الصلاة والسلام كان يقوم فى تهجده على إحدى رجليه، فأمر أن يطأ الأرض بقدميه معا، وأن الأصل طَأْ فقلبت همزته هاء كما قلبت [ألفا][1] فى « يطا » فيمن قال :

* ... ... لا هَنَاكِ المرتع[2] *

ثم بنى عليه هذا الأمر، والهاء للسكت . وقال مجاهد : كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يربطون الحبال فى صدورهم فى الصلاة بالليل من طول القيام، ثم نسخ ذلك بالفرض، فنزلت هذه الآية . وقال الكلبى : لما نزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحى بمكة اجتهد فى العبادة، واشتدّت عبادته، فجعل يصلى الليل كله زمانا حتى نزلت هذه الآية، فأمره الله تعالى أن يُخفِّف عن نفسه فيصلى وينام، فنسخت هذه الآيةُ قيامَ الليل؛ فكان بعد هذه الآية يصلى وينام . وقال مقاتل والضحاك : فلما نزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم قام هو وأصحابه فصلوا، فقال كفار قريش : ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى؛ فأنزل الله تعالى «طه» يقول: يا رجل «ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى» أى لتتعب؛ على ما يأتى . وعلى هذا القول: إن «طه» [طاها أى][3] طإِ الأرض؛ فتكون الهاء والألف ضمير الأرض، أى طَإِ الأرض برجليك فى صلواتك، وخُفِّفت الهمزة فصارت ألفا ساكنة . وقرأت طائفة «طَهْ» وأصله طَأْ بمعنى

(١) الزيادة من تفسير الزمخشرى .　　(٢) الشعر للفرزدق وتمام البيت :

راحت بمسلمة البغال عشية * فارعى فزارة لا هناك المرتع

قال هذا حين عزل مسلمة بن عبد الملك عن العراق، ووليها عمر بن هبيرة الفزارى، فهجاهم الفرزدق، ودعا لقومه ألا يهنئوا النعمة بولايته . وأراد ببغال البريد التى قدمت بمسلمة عند عزله . « شواهد سيبويه » .

(٣) الزيادة من كتب التفسير .

طَإِ الأرض فحذفت الهمزة وأدخلت هاء السكت . وقال زر بن حبيش : قرأ رجل على عبد الله بن مسعود «طَهَ . مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتشقى» فقال له عبد الله : «طِهِ» فقال : يا أبا عبد الرحمن أليس قد أمر أن يطأ الأرض برجله أو بقدميه . فقال : «طِهِ» كذلك أقرأنيها رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأمال أبو عمرو وأبو إسحق الهاء وفتحا الطاء . وأمالهما جميعا أبو بكر وحمزة والكسائى والأعمش . وقرأهما أبو جعفر وشيبة ونافع بين اللفظين، واختاره أبو عبيد . الباقون بالتفخيم . قال الثعلبي : وهى كلها لغات صحيحة فصيحة . النحاس : لا وجه للإمالة عند أكثر أهل العربية لعلتين : إحداهما أنه ليس ها هنا ياء ولا كسرة فتكون الإمالة؛ والعلة الأخرى أن الطاء من الحروف الموانع للإمالة، فهاتان علتان بينتان .

قوله تعالى : ﴿مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ وقرئ « مَا نُزِّلَ عَلَيْكَ الْقُرْآنُ لِتَشْقَىٰ» . قال النحاس : بعض النحويين يقول هذه لام النفى ، وبعضهم يقول لام الجحود . وقال أبو جعفر : وسمعت أبا الحسن بن كيسان يقول : إنها لام الخفض ، والمعنى ما أنزلنا عليك القرآن للشقاء . والشقاء يمدّ ويقصر . وهو من ذوات الواو . وأصل الشقاء فى اللغة العناء والتعب، أى ما أنزلنا عليك القرآن لتتعب . قال الشاعر :

ذو العقل يشقى فى النعيم بعقله * وأخو الجهالة فى الشقاوة ينعم

فمعنى لتشقى «لتتعب» بفرط تأسفك عليهم وعلى كفرهم ، وتحسرك على أن يؤمنوا؛ كقوله تعالى : «فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ» أى ما عليك إلا أن تبلغ وتُذكِّر، ولم يُكتب عليك أن يؤمنوا لا محالة بعد أن لم تفرط فى أداء الرسالة والموعظة الحسنة . وروى أن أبا جهل — لعنه الله تعالى — والنضر بن الحرث قالا للنبي صلى الله عليه وسلم : إنك شقىّ لأنك تركت دين آبائك؛ فأريد ردّ ذلك بأن دين الإسلام وهذا القرآن هو السلم إلى نيل كل فوز، والسبب فى درك كل سعادة ، وما فيه الكفرة هو الشقاوة بعينها . وعلى الأقوال المتقدمة أنه عليه الصلاة والسلام صلى بالليل حتى تورّمت قدماه؛ فقال له جبريل : أبق على نفسك فإن لها عليك حقا؛ أى ما أنزلنا عليك القرآن لتنهك نفسك فى العبادة، وتذيقها المشقة الفادحة، وما بعثت إلا بالحنيفية السمحة .

قوله تعالى : ﴿ إِلَّا تَذْكِرَةً لِمَن يَخْشَى ﴾ قال أبو إسحق الزجاج : هو بدل من «تشقى» أى ما أنزلناه إلا تذكرة . النحاس : وهـذا وجه بعيد؛ وأنكره أبو علىّ من أجل أن التذكرة ليست بشقاء، وإنما هو منصوب على المصدر، أى أنزلناه لتذكّر به تذكرة، أو على المفعول من أجله، أى ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى به، ما أنزلناه إلا للتذكرة. وقال الحسين بن الفضل : فيه تقديم وتأخير، مجازه : ما أنزلنا عليك القرآن إلا تذكرة لمن يخشى، ولئلا تشقى . ﴿ تَنْزِيلًا ﴾ مصدر؛ أى نزّلناه تنزيلا . وقيـل : بدل من قوله : « تذكرة » . وقرأ أبو حيوة الشامى «تنزيل» بالرفع على معنى هذا تنزيل. ﴿ مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَا ﴾ أى العالية الرفيعة، وهى جمع العُلْيَا ؛ كقوله : كُبْرى وكُبَر وصُغْرى وصُغَر ؛ أخبر عن عظمته وجبروته وجلاله ثم قال : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴾ ويجوز النصب على المدح . قال أبو إسحق : الخفض على البدل . وقال سعيد بن مسعدة : الرفع بمعنى هو الرحمن . النحاس : يجوز الرفع بالابتداء، والخبر « لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ » فلا يوقف على «استوى» وعلى البدل من المضمر فى « خلق » فيجوز الوقف على « اسْتَوَى » . وكذلك إذا كان خبر ابتـداء محذوف ؛ ولا يوقف على « العُلَا » . وقد تقدم القول فى معنى الاستواء « فى الأعراف »[1] . والذى ذهب إليـه الشيخ أبو الحسن وغيره أنه مستوٍ على عرشـه بغير حَدٍّ ولا كَيْف، كما يكون اسـتواء المخلوقين . وقال ابن عباس : يريد خلق ما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة وبعد القيامة . ﴿ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى ﴾ يريد ما تحت الصخرة التى لا يعلم ما تحتها إلا الله تعالى . وقال محمد بن كعب : يعنى الأرض السابعة . ابن عباس[2] : الأرض على نون، والنون على البحر، وأن طرفى النون رأسه وذنبـه يلتقيان تحت العرش ؛ والبحر على صخرة خضراء خضرة السماء منها، وهى التى قال الله تعـالى فيها « فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ » ؛ والصخرة على قرن ثور، والثور على الثرى، وما يعلم ما تحت الثرى إلا الله تعالى . وقال وهب بن منبه : على وجه الأرض سبعة أبحر، والأرضون سبع،

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢١٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) هذه الرواية وما شاكلها رواها عن ابن عباس رواة غير ثقات وقد تكلم العلماء فى هذه الرواية وأمثالها .

بين كل أرضين بحر، فالبحر الأسفل مطبق على شفير جهنم، ولولا عظمه وكثرة مائه وبرده لأحرقت جهنم كل من عليها . قال : وجهنم على متن الريح، ومتن الريح على حجاب من الظلمة لايعلم عظمه إلا الله تعالى، وذلك الحجاب على الثرى، وإلى الثرى انتهى علم الخلائق .

قوله تعالى : ﴿ وإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وأَخْفَى ﴾ قال ابن عباس : السر ماحدّث به الإنسان غيره فى خفاء، وأخفى منه ما أضمر فى نفسه مما لم يحدّث به غيره . وعنه أيضا : السر حديث نفسك، وأخفى من السر ما ستحدث به نفسك مما لم يكن وهو كائن ؛ أنت تعلم ما تسر به نفسك اليوم، ولا تعلم ما تُسِرّ به غدا، والله يعلم ما أسررت اليوم وما تسرّه غدا؛ والمعنى : الله يعلم السّر وأخفى من السّر . وقال ابن عباس أيضا : « السر » ما أسر ابن آدم فى نفسه، «وَأَخْفَى» ماخفى على ابن آدم مما هو فاعله وهو لايعلمه، فالله تعالى يعلم ذلك كله، وعلمه فيما مضى من ذلك وما يستقبل علم واحد، وجميع الخلائق فى علمه كنفس واحدة . وقال قتادة وغيره : «السر» ما أضمره الإنسان فى نفسه، «وأخفى» منه ما لم يكن ولا أضمره أحد . وقال ابن زيد : « السر » من الخلائق، « وأخفى » منه سره عز وجل؛ وأنكر ذلك الطبرى، وقال : إن الذى « أخفى » ما ليس فى سر الإنسان وسيكون فى نفسه كما قال ابن عباس . ﴿ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ « الله » رفع بالابتداء، أو على إضمار مبتدإ، أو على البدل من الضمير فى « يعلم » . وَحَّدَ نفسه سبحانه؛ وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا المشركين إلى عبادة الله تعالى وحده لا شريك له، فكبر ذلك عليهم، فلما سمعه أبو جهل يذكر الرحمن قال للوليد بن المغيرة : محمد ينهانا أن ندعو مع الله إلها آخر وهو يدعو الله والرحمن ؛ فأنزل الله تعالى « قُلِ ٱدْعُوا اللهَ أَوِ ٱدْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى » وهو واحد وأسماؤه كثيرة؛ ثم قال : « اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى » وقد تقدم التنبيه عليها فى سورة « الأعراف »[(١)] .

---

(١) جـ ٧ ص ٣٢٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿٩﴾ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ
ٱمْكُثُوٓا إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ
هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ يَٰمُوسَىٰٓ ﴿١١﴾ إِنِّىٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ
إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾
إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾
إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾
فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى ﴾ قال أهل المعانى : هو استفهام وإثبات وإيجاب معناه؛ أليس قد أتاك؟ وقيل : معناه وقد أتاك؛ قاله ابن عباس . وقال الكلبي : لم يكن أتاه حديثه بعد ثم أخبره . ﴿ إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴾ قال ابن عباس وغيره : هـذا حين قضى الأجل وسار بأهله وهو مقبل من مدين يريد مصر، وكان قد أخطأ الطريق ، وكان موسى عليه السلام رجلا غيورا ، يصحب الناس بالليل ويفارقهم بالنهار غيرة منه ، لئلا يروا آمرأته؛ فأخطأ الرفقة — لما سبق فى علم الله تعالى — وكانت ليلة مظلمة . وقال مقاتل : وكانت ليلة الجمعة فى الشتاء . وهب بن منبه : استأذن موسى شعيبا فى الرجوع إلى والدته فأذن له فخرج بأهله بغنمه، وولد له فى الطريق غلام فى ليلة شاتية باردةٍ مثلجةٍ، وقد حاد عن الطريق وتفرقت ماشيته، فقدح موسى النار فلم تورِ المِقْدَحة شيئا، إذ بصر بنار من بعيد على يسار الطريق ﴿ فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوا ﴾ أى أقيموا بمكانكم ﴿ إِنِّى آنَسْتُ نَارًا ﴾ أى أبصرت . قال ابن عباس : فلما توجه نحو النار فإذا النار فى شجرة عنابٍ، فوقف متعجبا من حسن ذلك الضوء، وشدة خضرة تلك الشجرة، فلا شدة حر النار تغير حسن خضرة الشجرة، ولا كثرة

ماء الشجرة ولا نعمة الخضرة تغيران حسن ضوء النار . وذكر المهدوى : فرأى النار – فيما روى – وهى فى شجرة من العُلَّيق، فقصدها فتأخرت عنه، فرجع وأوجس فى نفسه خيفة، ثم دنت منه وكلمه الله عز وجل من الشجرة . الماوردى : كانت عند موسى نارا، وكانت عند الله تعالى نورا . وقرأ حمزة « لِأَهْلِهُ ٱمْكُثُوا » بضم الهاء، وكذا فى « القصص » . قال النحاس وهذا على لغة من قال : مررت بِهُ يارجل؛ فجاء به على الأصل ، وهو جائز إلا أن حمزة خالف أصله فى هذين الموضعين خاصة . وقال : «ٱمكثوا» ولم يقل أقيموا، لأن الإقامة تقتضى الدوام ، والمكث ليس كذلك . « وآنست » أبصرت، قاله ابن الأعرابى . ومنه قوله : « فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا » أى علمتم . وآنست الصوت سمعته، والقبس شعلة من نار، وكذلك المِقباس . يقال : قبَستُ منه نارا أقبِس قبَسا فأقبسنى أى أعطانى منه قبسا، وكذلك اقتبست منه نارا، واقتبست منه علما أيضا أى ٱستفدته، قال اليزيدى : أَقبستُ الرجل علما وقَبَستُه نارا؛ فإن كنت طلبتها له قلت أقبسته . وقال الكسائى : أقبسته نارا أو علما سواء . وقال : وقبسته أيضا فيهما . « هُدًى » أى هاديا .

قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا ﴾ يعنى النار ﴿ نُودِيَ ﴾ أى من الشجرة كما فى سورة «القصص» أى من جهتها وناحيتها على ما يأتى ﴿ يَامُوسَى إِنِّي أَنَا رَبُّكَ ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِي الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ فيه خمس مسائل :

الأولى – قوله تعالى : ﴿ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ روى الترمذى عن عبدالله بن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : " كان على موسى يوم كلمه ربه كساء صوف وجُبّة صوف وكُمَّة صوف وسراويلُ صوف وكانت نعلاه من جلد حمار ميت " قال : هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من حديث حميد الأعرج [حميد – هو ابن على الكوفى[١] –] منكر الحديث، وحميد ابن قيس الأعرج المكى صاحب مجاهد ثقة؛ والكمة القلنسوة الصغيرة . وقرأ العامة « إنى » بالكسر؛ أى نودى فقيل له ياموسى إنى، واختاره أبو عبيد . وقرأ أبو عمرو وابن كثير

---

(١) الزيادة من الترمذى .

وابن محيصن وحميد « أَنِّى » بفتح الألف بإعمال النداء . واختلف العلماء فى السبب الذى من أجله أمر بخلع النعلين . والخلع النزع . والنعل ما جعلته وقاية لقدميك من الأرض . فقيل : أمر بطرح النعلين ؛ لأنهما نجسة إذ هى من جلد غير مُذَكًّى ؛ قاله كعب وعِكرمة وقتادة . وقيل : أمر بذلك لينال بركة الوادى المقدس ، وتمس قدماه تربة الوادى ؛ قاله علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه والحسن وابن جريج . وقيل : أمر بخلع النعلين للخشوع والتواضع عند مناجاة الله تعالى . وكذلك فعل السلف حين طافوا بالبيت . وقيل : إعظاما لذلك الموضع كما أن الحرَم لا يُدخَل بنعلين إعظاما له . قال سعيد بن جبير : قيل له طَإِ الأرض حافيا كما تدخل الكعبة حافيا . والعرف عند الملوك أن تخلع النعال و يبلغ الإنسان إلى غاية التواضع ، فكأن موسى عليه السلام أمر بذلك على هذا الوجه ؛ ولا تبالى كانت نعلاه من ميتة أو غيرها . وقد كان مالك لا يرى لنفسه ركوب دابة بالمدينة برا بتربتها المحتوية على الأعظم الشريفة ، والجثة الكريمة . ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام لبشير بن الخَصَاصِيّة وهو يمشى بين القبور بنعليه : "إذا كنت فى مثل هذا المكان فاخلع نعليك" قال : فخلعتهما . وقول خامس : إن ذلك عبارة عن تفريغ قلبه من أمر الأهل والولد . وقد يعبر عن الأهل بالنعل . وكذلك هو فى التعبير : من رأى أنه لابس نعلين فإنه يتزوج . وقيل : لأن الله تعالى بسط له بساط النور والهدى ، ولا ينبغى أن يطأ بساط رب العالمين بنعله . وقد يحتمل أن يكون موسى أُمِر بخلع نعليه ، وكان ذلك أوّل فرض عليه ؛ كما كان أوّل ما قيل لمحمد صلى الله عليه وسلم : « قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ » والله أعلم بالمراد من ذلك .

الثانيــة — فى الخبر أنّ موسى عليه السلام خلع نعليه وألقاهما من وراء الوادى . وقال أبو الأحوص : زار عبد الله أبا موسى فى داره ، فأقيمت الصلاة فأقام أبو موسى ؛ فقال أبو موسى لعبد الله : تقدّم . فقال عبد الله : تقدّم ؛ أنت فى دارك . فتقدّم وخلع نعليه ؛ فقال عبد الله : أبالوادى المقدس أنت ؟ ! وفى صحيح مسلم عن سعيد بن يزيد قال : قلت

لأنس أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى فى نعلين؟ قال: نعم. ورواه النّسائى عن عبدالله ابن السائب: أن النبيّ صلى الله عليه وسلم صلى يوم الفتح فوضع نعليه عن يساره. وروى أبو داود من حديث أبى سعيد الخدرىّ رضى الله عنه قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلى بأصحابه، إذ خلع نعليه، فوضعهما عن يساره، فلما رأى ذلك القوم ألقوا نعالهم، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة قال: "ما حملكم على إلقائكم نعالكم" قالوا: رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنّ جبريل أتانى فأخبرنى أن فيهما قَذَرا" وقال: "إذا جاء أحدكم المسجد فلينظر فإن رأى فى نعليه قذرا أو أذًى فليمسحه وليصلِّ فيهما". صححه أبو محمد عبد الحق. وهو يجمع بين الحديثين قبله، ويرفع بينهما التعارض. ولم يختلف العلماء فى جواز الصلاة فى النعل إذا كانت طاهرة من ذكىّ، حتى لقد قال بعض العلماء: إن الصلاة فيهما أفضل، وهو معنى قوله تعالى: «خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ» على ما تقدّم. وقال إبراهيم النخعى فى الذين يخلعون نعالهم: لوددت أن محتاجا جاء فأخذها.

الثالثة — فإن خلعتهما فاخلعهما بين رجليك؛ فإن أبا هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا صلى أحدكم فليخلع نعليه بين رجليه". وقال أبو هريرة للمقبرى: اخلعهما بين رجليك ولا تُؤذِ بهما مسلما. وما رواه عبد الله بن السائب رضى الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام خلعهما عن يساره فإنه كان إماما، فإن كنت إماما أو وحدك فافعل ذلك إن أحببت، وإن كنت مأموما فى الصف فلا تُؤذِ بهما من على يسارك، ولا تضعهما بين قدميك فتشغلاك، ولكن قدام قدميك. وروى عن جُبير بن مطعم أنه قال: وضع الرجل نعليه بين قدميه بدعة.

الرابعة — فإن تحقق فيهما نجاسة مُجمَع على تنجيسها كالدم والعذرة من بول بنى آدم لم يطهّرها إلا الغسل بالماء، عند مالك والشافعى وأكثر العلماء، وإن كانت النجاسة مختلفا فيها كبول الدواب وأرواثها الرطبة فهل يطهّرها المسح بالتراب من النعل والخفّ أولا؟ قولان عندنا. وأَطلَق الإجزاء بمسح ذلك بالتراب من غير تفصيل الأوزاعىّ وأبو ثور. وقال

أبو حنيفة : يزيله إذا يبس الحكُّ والفركُ ، ولا يزيل رطبه إلا الغسل ماعدا البول ، فلا يجزئ فيه عنده إلا الغسل . وقال الشافعي : لا يطهّر شيئا من ذلك كله إلا الماء . والصحيح قول من قال : إن المسح يطهّره من الخفّ والنعل ؛ لحديث أبي سعيد . فأما لو كانت النعل والخفّ من جلد ميتة فإن كان غير مدبوغ فهو نجس باتفاق ، ما عدا ما ذهب إليه الزّهريّ والليث ، على ما تقدّم بيانه في سورة « النحل »[1] . ومضى في سورة « براءة »[2] القول في إزالة النجاسة والحمد لله .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴾ المقدّس : المطهّر . والقُدْس : الطهارة ، والأرض المقدّسة أي المطهرة ؛ سميت بذلك لأن الله تعالى أخرج منها الكافرين وعمرها بالمؤمنين . وقد جعل الله تعالى لبعض الأماكن زيادة فضل على بعض ؛ كما قد جعل لبعض الأزمان زيادة فضل على بعض ، ولبعض الحيوان كذلك . ولله أن يفضل ما شاء . وعلى هذا فلا اعتبار بكونه مقدسا بإخراج الكافرين و إسكان المؤمنين ؛ فقد شاركه في ذلك غيره . و « طُوًى » اسم الوادي عن ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وقال الضحاك : هو واد عميق مستدير مثل الطَّوِيّ . وقرأ عِكْرِمة « طِوًى » . الباقون « طُوًى » . قال الجوهري : « طـوى » اسم موضع بالشام ، تكسر طاؤه وتضم ، و يصرف ولا يصرف ، فمن صرفه جعله اسم واد ومكان وجعله نكرة ، ومن لم يصرفه جعله بلدة و بقعة وجعله معرفة . وقال بعضهم : « طُوًى » مثل « طِوًى » وهو الشيء المَثْنِيّ ، وقالوا في قوله « الْمُقَدَّسِ طُوًى » : طُوِيَ مرتين أي قُدِّس . وقال الحسن : ثُنِّيَتْ فيه البركة والتقديس مرّتين . وذكر المهدوي عن ابن عباس رضي الله عنهما : أنه قيل له « طوى » لأن موسى طواه بالليل إذ مرّ به فارتفع إلى أعلى الوادي ؛ فهو مصدر عمل فيه ما ليس من لفظه ، فكأنه قال : « إنك بِالوادِ المقدسِ » الذي طويته طوى ؛ أي تجاوزته فطويته بسيرك . الحسن : معناه أنه قدّس مرتين ؛ فهو مصدر من طويته طوى أيضا .

(١) راجع جـ ١٠ ص ١٥٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع جـ ٨ ص ٢٦٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ ﴾ أى ٱصطفيتك للرسالة . وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو وعاصم والكسائى « وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ » . وقرأ حمزة « وَأَنَّا ٱخْتَرْنَاكَ » . والمعنى واحد؛ إلا أنّ « وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ » هاهنا أولى من جهتين : إحداهما أنها أشبه بالخط، والثانية أنها أولى بنسق الكلام؛ لقوله عز وجل : « يَا مُوسَى إِنِّى أَنَا رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ » وعلى هذا النَّسق جرت المخاطبة؛ قاله النحاس .

قوله تعالى : ﴿ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴾ فيه مسئلة واحدة — قال ابن عطية : وحدثنى أبى — رحمه الله — قال سمعت أبا الفضل الجوهرى رحمه الله تعالى يقول : لما قيل لموسى صلوات الله وسلامه عليه : « ٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى » وقف على حجر، واستند إلى حجر، ووضع يمينه على شماله، وألقى ذقنه على صدره، ووقف يستمع، وكان كل لباسه صوفا .

قلت : حسن الاستماع كما يجب قد مدح الله عليه فقال : « ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَاهُمُ ٱللَّهُ » وذم على خلاف هذا الوصف فقال : « نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ » الآية . فمدح المنصت لاستماع كلامه مع حضور العقل، وأمر عباده بذلك أدباً لهم، فقال : « وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْآنُ فَٱسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » وقال هاهنا : « فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى » لأن بذلك ينال الفهم عن الله تعالى . روى عن وهب بن منبّه أنه قال : من أدب الاستماع سكون الجوارح وغَضّ البصر، والإصغاء بالسمع ، وحضور العقل، والعزم على العمل، وذلك هو الاستماع كما يحب الله تعالى؛ وهو أن يكفّ العبد جوارحه، ولا يشغلها . فيشتغل قلبه عما يسمع، و يغضّ طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى، و يحصر عقله فلا يُحدِّث نفسه بشىء سوى ما يستمع إليه، و يعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم . وقال سفيان بن عُيَيْنَة : أول العلم الاستماع، ثم الفهم، ثم الحفظ، ثم العمل، ثم النشر؛ فإذا ٱستمع العبد إلى كتاب الله تعالى وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام بنية صادقة على ما يحب الله أفهمه كما يحب، وجعل له فى قلبه نورا .

قوله تعالى : ﴿إِنَّنِى أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِى وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى﴾ فيه سبع مسائل :

الأولى — اختلف فى تأويل قوله : « لِذِكْرِى » فقيل : يحتمل أن يريد لتذكرنى فيها، أو يريد لأذكرك بالمدح فى عليين بها ، فالمصدر على هذا يحتمل الإضافة إلى الفاعل و إلى المفعول . وقيل : المعنى ؛ أى حافظ بعد التوحيد على الصلاة . وهذا تنبيه على عظم قدر الصلاة إذ هى تضرع إلى الله تعالى، وقيام بين يديه ؛ وعلى هذا فالصلاة هى الذكر . وقد سمى الله تعالى الصلاة ذكرا فى قوله : « فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ » . وقيل : المراد إذا نسيت فتذكرت فصلّ كما فى الخبر " فليصلّها إذا ذكرها " . أى لا تسقط الصلاة بالنسيان .

الثانيــة — روى مالك وغيره أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من نام عن صلاة أو نسيها فليصلّها إذا ذكرها فإن الله عز وجل يقول « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِى » " . وروى أبو محمد عبد الغنى بن سعيد من حديث حجاج بن حجاج — وهو حجاج الأول الذى روى عنه يزيد بن زُرَيع — قال حدثنا قتادة عن أنس بن مالك قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يرقد عن الصلاة و يغفل عنها قال : "كفارتها أن يصليها إذا ذكرها" تابعه إبراهيم بن طَهْمان عن حجاج ، وكذا يروى همام بن يحيى عن قتادة . وروى الدارقطنى عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " من نسى صلاة فوقتها إذا ذكرها " فقوله : " فليصلّها إذا ذكرها " دليل على وجوب القضاء على النائم والغافل، كثرت الصلاة أو قلّت، وهو مذهب عامة العلماء . وقد حكى خلاف شاذ لا يعتد به ، لأنه مخالف لنص الحديث عن بعض الناس فيما زاد على خمس صلوات أنه لا يلزمه قضاء .

قلت : أمر الله تعالى بإقامة الصلاة، ونص على أوقات معينة، فقال : « أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ » الآية وغيرها من الآى . ومن أقام بالليل ما أمر بإقامته بالنهار، أو بالعكس لم يكن فعله مطابقا لما أمر به، ولا ثواب له على فعله وهو عاصٍ ؛ وعلى هذا الحد كان لا يجب عليه قضاء ما فات وقته . ولولا قوله عليه الصلاة والسلام : " من نام عن صلاة أو نسيها فليصلّها إذا ذكرها " لم ينتفع أحد بصلاة وقعت فى غير وقتها ، وبهذا الاعتبار كان قضاء لا أداء؛ لأن القضاء بأمر متجدّد وليس بالأمر الأول .

الثالثــة — فأما من ترك الصلاة متعمدا، فالجمهور أيضا على وجوب القضاء عليه، وإن كان عاصيا إلا داود. ووافقه أبو عبد الرحمن الأشعرى الشافعى، حكاه عنه ابن القصّار. والفرق بين المتعمد والناسى والنائم، حط المأْثَم؛ فالمتعمد مأثوم وجميعهم قاضون. والحجة للجمهور قوله تعالى: «أَقِيمُوا الصَّلَاةَ» ولم يفرق بين أن يكون فى وقتها أو بعدها. وهو أمر يقتضى الوجوب. وأيضا فقد ثبت الأمر بقضاء النائم والناسى، مع أنهما غير مأثومين، فالعامد أولى. وأيضا قوله: "من نام عن صلاة أو نسيها" والنسيان الترك؛ قال الله تعالى: «نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ» و «نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ» سواء كان مع ذهول أو لم يكن؛ لأن الله تعالى لا يَنْسَى وإنما معناه تركهم و «مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَنْسَاهَا» أى نتركها. وكذلك الذكر يكون بعد نسيان وبعد غيره. قال الله تعالى: «من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى» وهو تعالى لاينسى وإنما معناه عَلِمت. فكذلك يكون معنى قوله: "إذا ذكرها" أى علمها. وأيضا فإن الديون التى للآدميين إذا كانت متعلقة بوقت، ثم جاء الوقت لم يسقط قضاؤها بعد وجوبها، وهى مما يسقطها الإبراء كان فى ديون الله تعالى ألايصح فيها الإبراء أولى ألا يسقط قضاؤها إلا بإذن منه. وأيضا فقد اتفقنا أنه لو ترك يوما من رمضان متعمدا بغير عذر لوجب قضاؤه فكذلك الصلاة. فإن قيل فقد روى عن مالك: من ترك الصلاة متعمدا لا يقضى أبدا. فالإشارة إلى أن مامضى لا يعود، أو يكون كلاما خرج على التغليظ؛ كما روى عن ابن مسعود وعلىّ: أن من أفطر فى رمضان عامدا لم يكفِّره صيام الدهر وإن صامه. ومع هذا فلا بد من توفية التكليف حقه بإقامة القضاء مقام الأداء، أو إتباعه بالتوبة، ويفعل الله بعد ذلك مايشاء. وقد روى أبو المُطَوِّس عن أبيه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من أفطر يوما من رمضان متعمدا لم يجزه صيام الدهر وإن صامه" وهذا يحتمل أن لو صح كان معناه التغليظ؛ وهو حديث ضعيف خرجه أبو داود. وقد جاءت الكفارة بأحاديث صحاح، وفى بعضها قضاء اليوم؛ والحمد لله تعالى.

الرابعــة — قوله عليه الصلاة والسلام: "من نام عن صلاة أو نسيها" الحديث؛ يخصص عموم قوله عليه الصلاة والسلام: "رفع القلم عن ثلاثة عن النائم حتى يستيقظ" والمراد بالرفع

هنا رفع المأثم لا رفع الفرض عنه ، وليس هـذا من باب قوله : ” وعن الصبي حتى يحتلم “ وإن كان ذلك جاء فى أثر واحد؛ فقف على هذا الأصل .

الخامسـة — اختلف العلماء فى هذا المعنى فيمن ذكر صلاة فائتة وهو فى آخر وقت صلاة ، أو ذكر صلاة وهو فى صلاة ، فجملة مذهب مالك : أن من ذكر صلاة وقد حضر وقت صلاة أخرى ، بدأ بالتى نسى إذا كان خمس صلوات فأدنى ، وإن فات وقت هذه . وإن كان أكثر من ذلك بدأ بالتى حضر وقتها ، وعلى نحو هـذا مذهب أبى حنيفة والثورى والليث ؛ إلا أن أبا حنيفة وأصحابه قالوا : الترتيب عندنا واجب فى اليوم والليلة إذا كان فى الوقت سعة للفائتة ولصلاة الوقت . فإن خشى فوات الوقت بدأ بها ، فإن زاد على صلاة يوم وليلة لم يجب الترتيب عنـدهم . وقد روى عن الثورى وجوب الترتيب ، ولم يفرق بين القليل والكثير . وهو تحصيل مذهب الشافعى . قال الشافعى : الاختيار أن يبـدأ بالفائتة ما لم يخف فوات هذه ، فإن لم يفعل وبدأ بصلاة الوقت أجزأه . وذكر الأثرم أن الترتيب عند أحمد واجب فى صلاة ستين سنة فأكثر . وقال : لا ينبغى لأحد أن يصلى صلاة وهو ذاكر لمـا قبلها لأنها تفسد عليـه . وروى الدَّارَقُطْنى عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال قال عليه الصلاة والسلام : ” إذا ذكر أحدكم صلاة فى صلاة مكتوبة فليبدأ بالتى هو فيها فإذا فرغ منها صلى التى نسى “ وعمر بن أبى عمر مجهول[1] .

قلت : وهذا لو صح كانت حجة للشافعى فى البداءة بصلاة الوقت . والصحيح مارواه أهل الصحيح عن جابر بن عبد الله : أن عمر يوم الخندق جعل يسب كفار قريش ، وقال : يا رسول الله والله ما كدت أن أصـلى العصر حتى كادت الشمس تغرب ؛ فقال رسـول الله صلى الله عليه وسلم : ” فوالله إِنْ[2] صَلَّيتُها “ فنزلنا البطحان[3] فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوضأنا فصلى رسول الله صلى الله عليه وسـلم العصر بعد ما غربت الشمس ، ثم صلى بعدها

(١) عمر بن أبى عمر : هو أحد رواة هـذا الحديث عن مكحول عن ابن عباس . ولفظ الحديث فى الدارقطنى هكذا : ” إذا نسى أحدكم الصلاة فذكرها وهو فى صلاة مكتوبة فليبدأ بالتى هو فيها فإذا فرغ منها صـلى التى نسى “ .

(٢) إن نافية ؛ أى ما صليتها .   (٣) بطحان (بالضم أو الصواب الفتح وكسر الطاء) : موضع بالمدينة .

المغرب . وهذا نصٌّ فى البداءة بالفائتة قبل الحاضرة ، ولا سيما والمغرب وقتها واحد مضيَّق غير ممتد فى الأشهر عندنا ، وعند الشافعى كما تقدم . وروى الترمذى عن أبى عبيدة بن عبد الله آبن مسعود عن أبيه : أن المشركين شغلوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أربع صلوات يوم الخندق ، حتى ذهب من الليل ماشاء الله تعالى ، فأمر بالأذان بلالا فقام فأذن ، ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ، ثم أقام فصلى المغرب ، ثم أقام فصلى العشاء . وبهـذا آستدل العلماء على أن من فاتته صلاة ، قضاها مرتبة كما فاتته إذا ذكرها فى وقت واحد . وآختلفوا إذا ذكر فائتــة فى مضيَّق وقت حاضرة على ثلاثة أقوال : يبـدأ بالفائتة وإن خرج وقت الحاضرة ، وبه قال مالك والليث والزهرى وغيرهم كما قدّمناه . الثانى — يبدأ بالحاضرة وبه قال الحسن والشافعى وفقهاء أصحاب الحديث والمحاسبي وابن وهب من أصحابنا . الثالث — يتخير فيقدم أيتهما شاء ، وبه قال أشهب .

وجه الأول : كثرة الصلوات ولا خلاف أنه يبدأ بالحاضرة مع الكثرة ؛ قاله القـاضى عياض . وآختلفوا فى مقدار اليسير ؛ فعن مالك : الخمس فدون ، وقد قيـل : الأربع فدون لحديث جابر ؛ ولم يختلف المذهب أن الست كثير .

السادســـة — وأما من ذكر صلاة وهو فى صلاة ؛ فإن كان وراء الإمام فكل من قال بوجوب الترتيب ومن لم يقل به ، يتمادى مع الإمام حتى يكمل صـلاته . والأصل فى هـذا ما رواه مالك والدارقطنى عن ابن عمر قال : " إذا نسى أحدكم صـلاة فلم يذكرها إلا وهو مع الإمام فليصل مع الإمام فإذا فرغ من صلاته فليصلّ الصلاة التى نسى ثم ليعد صلاته التى صلّى مع الإمام " لفظ الدارقطنى ؛ وقال موسى بن هرون : وحدثناه أبو إبراهيم التَّرْجُمانىّ ، قال : حدثنا سعيد [به][1] ورفعه إلى النبى صلى الله عليه وسلم ووهم فى رفعه ، فإن كان قد رجع عن رفعــه فقد وفق للصواب . ثم اختلفوا ؛ فقال أبو حنيفة وأحمد بن حنبل : يصـلى التى ذكر ، ثم يصلى التى صلى مع الإمام إلا أن يكون بينهما أكثر من خمس صلوات ؛ على ما قدمنا ذكره عن الكوفيين . وهـو مذهب جماعة من أصحاب مالك المدنيين . وذكر الخِـرَقِى[2] عن

(١) الزيادة من الدارقطنى . (٢) هذه النسبة إلى بيع الخرق والثياب .

أحمد بن حنبل أنه قال : من ذكر صلاة وهو فى أخرى فإنه يتمها ويقضى المذكورة، وأعاد التى كان فيها إذا كان الوقت واسعا ، فإن خشى خروج الوقت وهو فيها أعتقد ألّا يعيـدها ، وقد أجزأته ويقضى التى عليه . وقال مالك : من ذكر صلاة وهـو فى صلاة قد صـلى منها ركعتين سَـلَّم من ركعتيه، فإن كان إماما آنهدمت عليه وعلى من خلفه وبطلت . هـذا هو الظاهر من مذهب مالك، وليس عند أهل النظـر من أصحابه كذلك؛ لأن قوله فيمن ذكر صلاة فى صلاة قد صلى منها ركعة أنه يضيف إليها أخرى ويسـلّم . ولو ذكرها فى صلاة قد صلى منها ثلاث ركعات أضاف إليها رابعة وسلّم، وصارت نافلة غير فاسدة ولو آنهدمت عليه كما ذكر وبطلت لم يؤمر أن يضيف إليها أخرى، كما لو أحدث بعد ركعة لم يضف إليها أخرى .

السابعـــة — روى مسلم عن أبى قَتادة قال : خطبنا رسول الله صـلى الله عليه وسـلم فذكر حديث الميضأة بطوله ، وقال فيه ثم قال : "أَمَا لكم فىّ أُسـوة" ثم قال : "أَمَا إنه ليس فى النوم تفريط إنمـا التفريط على من لم يصلّ الصلاة حتى يجىء وقت الصلاة الأخرى فمن فعل ذلك فليصلها حين ينتبه لهـا فإذا كان الغد فليصلها عند وقتها" وأخرجه الدارقطنى هـكذا بلفظ مسلم سـواء، فظاهره يقتضى إعادة المقضية مرتين عند ذكرها وحضور مثلها من الوقت الآتى ؛ ويعضد هـذا الظاهر ما خرجه أبو داود من حديث عِمران بن حُصَين، وذكر القصة وقال فى آخرها : "فمن أدرك منكم صلاة الغَداة من غدٍ صالحا فليقضِ معها مثلها".

قلت : وهذا ليس على ظاهره، ولا تعاد غير مرة واحدة؛ لما رواه الدارقطنى عن عِمران ابن حصين قال : سرينا مع رسول الله صلى الله عليه وسـلم فى غَزاة — أو قال فى سرِيّة — فلما كان وقت السحر عَرَّسْنا، فما استيقظنا حتى أيقظَنا حرُّ الشمس ، فجعل الرجل منا يَثِب فَزِعا دَهِشا، فلما استيقظ رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرنا فارتحلنا، ثم سرنا حتى ارتفعت الشمس، فقضى القـوم حوائجهم، ثم أمر بلالا فأذن فصلينا ركعتين، ثم أمره فأقام فصلينا الغداة؛ فقلنا : يا نبى الله ألا نقضيها لوقتها من الغد ؟ فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم "أينهاكم الله عن الربا ويقبله منكم". وقال الخطّابى : لا أعلم أحدا قال بهذا وجوبا، ويشبه

أن يكون الأمر به استحبابا ليحرز فضيلة الوقت فى القضاء. والصحيح ترك العمل لقوله عليه السلام : " أينهاكم الله عن الربا و يقبله منكم " ولأن الطّرق الصحاح من حديث عِمران بن حُصَين ليس فيها من تلك الزيادة شىء، إلا ما ذكر من حديث أبى قتادة وهو محتمل كما بيناه .

قلت : ذكر الكيا الطبرى فى « أحكام القرآن » له أن من السلف من خالف قوله عليه الصلاة والسلام : " من نسى صلاة فليصلها إذا ذكرها لا كفارة لها إلا ذلك " فقال : يصبر إلى مثل وقته فليصل ؛ فإذا فات الصبح فليصل من الغد . وهذا قول بعيد شاذ .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴾ آية مشكلة ؛ فروى عن سعيد بن جبير أنه قرأ « أَكَادُ أَخْفِيهَا » بفتح الهمزة ؛ قال : أظهرها . « لِتُجْزَى » أى الإظهار للجزاء؛ رواه أبو عبيد عن الكسائى عن محمد بن سهل عن وِقَاء بن إياس عن سعيد ابن جبير . وقال النحاس : وليس لهذه الرواية طريق غير هذا .

قلت : وكذا رواه أبو بكر الأنبارى فى كتاب الرد ؛ حدثنى أبى حدثنا محمد بن الجهم حدثنا الفراء حدثنا الكسائى؛ ح — وحدثنا عبد الله بن ناجية، حدثنا يوسف حدثنا يحيى الحِمانىّ حدثنا محمد بن سهل . قال النحاس ؛ وأجود من هذا الإسناد ما رواه يحيى القطان عن الثورى عن عطاء بن السائب عن سعيد عن جبير : أنه قرأ « أَكَادُ أُخْفِيها » بضم الهمزة .

قلت : وأما قراءة ابن جبير « أَخْفِيهَا » بفتح الهمزة بالإسناد المذكور فقال أبو بكر الأنبارى قال الفراء : معناه أظهرها من خفيت الشىء أخفيه إذا أظهرته . وأنشد الفراء لأمرئ القيس :

فإنْ تَدفِنُوا الدَّاءَ لانَخْفِهِ * وإنْ تَبعثُوا الحربَ لا نَقعُدِ

أراد لا نظهره؛ وقد قال بعض اللغويين : يجوز أن يكون « أُخْفِيهَا » بضم الهمزة معناه أظهرها لأنه يقال : خَفيتُ الشىء وأَخفيته إذا أظهرتَه؛ فأخفيته من حروف الأضداد يقع على الستر والإظهار . وقال أبو عبيدة : خَفيت وأَخفيت بمعنى واحد . النحاس : وهذا حسن؛ وقد

حكاه عن أبى الخطّاب[1] وهو رئيس من رؤساء اللغة لا يشـك فى صـدقه ؛ وقد روى عنه سيبويه وأنشد :

وإنْ تَكتُموا الداءَ لا نُخفِـهِ * وإنْ تبعثوا الحربَ لا نَقعُدِ

كذا رواه أبو عبيدة عن أبى الخطاب بضم النون . وقال آمرؤ القيس أيضا :

خَفَاهنَّ من أنفاقِهنَّ كأنما * خفاهنَّ وَدْقٌ من عَشِىٍّ مُجَلِّبِ[2]

أى أظهرهن . وروى : « من سحاب مركَّب » بدل « من عَشِىٍّ مجلِّب » . وقال أبو بكر الأنبارى : وتفسير للآية آخر : « إن الساعة آتية أكاد » انقطع الكلام على « أكاد » وبعده مضمر أكاد آتى بها ، والابتداء « أُخفيها لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ » . قال ضابئ البُرْجمى[3] :

هَمَمْتُ ولم أَفعلْ وكِدتُ وليتَنِى * تَرَكتُ على عثمانَ تَبـكِى حَلائِلُهْ

أراد وكدت أفعل ، فأضمر مع كدت فعلا كالفعل المضمر معه فى القرآن .

قلت : هذا الذى اختاره النحاس ؛ وزيف القول الذى قبله فقال يقال : خَفَى الشىءَ يخفيـه إذا أظهره ، وقد حكى أنه يقال : أخفاه أيضا إذا أظهره ، وليس بالمعروف ؛ قال : وقد رأيت على بن سليمان لما أشكل عليه معنى « أُخْفِيها » عدل إلى هـذا القول ، وقال : معناه كمعنى « أَخْفيها » . قال النحاس : ليس المعنى على أظهرها ولا سيما و « أَخْفيها » قراءة شاذة ، فكيف ترد القـراءة الصحيحة الشائعة إلى الشاذة ، ومعـنى المضمر أولى ؛ ويكون التقدير : إن الساعة آتية أكاد آتى بها ؛ ودل « آتية » على آتى بها ؛ ثم قال : «أُخْفيها» على الابتداء . وهذا معنى صحيح ؛ لأن الله عز وجل قد أخفى الساعة التى هى القيامة ، والساعة التى يموت فيها الإنسان ليكون الإنسان يعمل ، والأمر عنده مبهم ، فلا يؤخر التوبة .

---

(١) هو الأخفش الأكبر عبد الحميد بن عبد المجيد . (٢) خفاهن : أظهرهن . والأنفاق (جمع نفق) : وهو الجحر . والودق : المطر . والمجلب : الذى له جلبة . وقبله :

ترى الفار فى مستيفع القاع لاحبا * على جدد الصحراء من شدّ ملهب

يقول : وقع حوافر الفرس على الأرض أخرج الفار من جحرتها لأنه ظنه مطرا .

(٣) قاله وهو محبوس ؛ حبسه سـيدنا عثمان بن عفان رضى الله عنه لهجائه بعض بنى جرول بن نهشـل ؛ ولم يزل فى حبسه إلى أن مات .

قلت : وعلى هذا القول تكون اللام فى « لِتجزى » متعلقة بـ«ـأُخفِيها » . وقال أبو على : هذا من باب السلب وليس من باب الأضداد، ومعنى « أُخفِيها » أزيل عنها خفاءها، وهو سترها كخفاء الأخفية [وهى الأكسية] والواحد خفاء بكسر الخاء [ما تلف به][1] القربة، وإذا زال عنها سترها ظهرت . ومن هذا قولهم : أشكيته، أى أزلت شكواه، وأعديته أى قبلت آستعداءه ولم أحوجه إلى إعادته . وحكى أبو حاتم عن الأخفش : أن«كاد» زائدة مؤكدة . قال : ومثله « إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا » لأن الظلمات التى ذكرها الله تعالى بعضها يحول بين الناظر والمنظور إليه . وروى معناه عن ابن جبير، والتقدير : إن الساعة آتيـة أخفيها لتجزى كل نفس بمـا تسعى . وقال الشاعر[2] :

سريعٌ إلى الهيجاءِ شاكٍ سِلاحُهُ ✻ فما إنْ يَكادُ قِـرْنُهُ يَتنفَّسُ

أراد فمـا يتنفّس . وقال آخر :

وألّا ألوم النفسَ فيما أصابنى ✻ وألّا أكاد بالذى نِلتُ أَنجحُ

معناه : وألا أنجح بالذى نلت ؛ فأكاد توكيد للكلام . وقيل : المعنى « أَكَادُ أُخْفِيهَا » أى أقارب ذلك ؛ لأنك إذا قلت : كاد زيد يقـوم ، جاز أن يكون قام ، وأن يكون لم يقم . ودل على أنه قد أخفاها بدلالة غير هذه على هذا الجواب . قال اللغويون : كدت أفعل معناه عند العرب: قاربت الفعل ولم أفعل ،وما كدت أفعل معناه: فعلت بعد إبطاء . وشاهده قول الله عزت عظمته «فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ» معناه : وفعلوا بعد إبطاء لتعذر وجدان البقرة عليهم . وقد يكون ما كدت أفعل بمعنى ما فعلت ولا قاربت إذا أكد الكلام بأكاد . وقيل: معنى « أَكَادُ أُخْفِيهَا » أريد أخفيها . قال الأنبارى : وشاهد هذا قول الفصيح من الشعر :

كادتْ وكِدتُ وتِلكَ خيرُ إرادةٍ ✻ لو عَادَ من لَهْـوِ الصَّبابةِ ما مَضَى

معناه : أرادت وأردت . وقال ابن عبـاس وأكثر المفسرين فيما ذكر الثعلبي : إن المعـنى أكاد أخفيها من نفسى ؛ وكذلك هو فى مصحف أبىّ . وفى مصحف ابن مسعود : أكاد

---

(١) الزيادة من كتب اللغة . (٢) هو زيد الخيل .

أخفيها من نفسى فكيف يعلمها مخلوق . وفى بعض القراءات : فكيف أظهـرها لكم . وهو محمول على أنه جاء على ما جرت به عادة العـرب فى كلامها، من أن أحدهم إذا بالغ فى كتمان الشيء قال : كدت أخفيـه من نفسى . والله تعالى لا يخفى عليـه شيء ؛ قال معناه قطرب وغيره . وقال الشاعر :

أيامَ تَصحبـنى هنـد وأخـبرُهَا * ما أَكتم النفسَ من حَاجِى وأَسْرَارِى

فكيف يخبرها بما تكتم نفسه . ومن هذا قوله صلى الله عليه وسلم : "ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعـلم شماله ما تنفق يمينه" الزمخشرى وقيل معناه : أكاد أخفيها من نفسى، ولا دليل فى الكلام على هـذا المحذوف؛ ومحذوف لا دليل عليـه مُطَّرح، والذى غرهم منه أن فى مصحف أبىّ : أكاد أخفيهـا من نفسى ؛ وفى بعض المصاحف : أكاد أخفيها من نفسى فكيف أظهركم عليها .

قلت : وقيل إن معنى قول من قال أكاد أخفيها من نفسى ؛ أى إن إخفاءها كان من قِبلى ومن عندى لا من قِبل غيرى . وروى عن ابن عباس أيضا : أكاد أخفيها من نفسى؛ ورواه طلحة بن عمرو عن عطاء . وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : لا أظهر عليها أحدا . وروى عن سـعيد بن جبير قال : قد أخفاها . وهذا على أن كاد زائدة . أى إن الساعة آتية أخفيها، والفائدة فى إخفائها التخويف والتهويل . وقيل : تعلق «لتجزى» بقوله تعـالى : « وَأَقِمِ الصَّلَاةَ » فيكون فى الكلام تقديم وتأخير؛ أى أقم الصلاة لتذكرنى « لِتجزى كل نفسٍ بِمـا تسعى » أى بِسعيها « إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا » . والله أعلم . وقيل : هى متعلقة بقوله : « آتية » أى إن الساعة آتية لتجزى . ﴿ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا ﴾ أى لا يصرفنك عن الإيمان بها والتصديق لهـا ﴿ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ . ﴿ فَتَرْدَى ﴾ أى فتهلك . وهوفى موضع نصب بجواب النهى .

قوله تعـالى : وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾

فيه خمس مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ ﴾ قيل : كان هذا الخطاب من الله تعالى لموسى وحيا؛ لأنه قال : « فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى » ولابد للنبي فى نفسه من معجزة يعلم بها صحة نبوّة نفسه، فأراه فى العصا وفى نفسه ما أراه لذلك . ويجوز أن يكون ما أراه فى الشجرة آية كافية له فى نفسه، ثم تكون اليد والعصا زيادة توكيد، وبرهانا يلقى به قومه . وٱختلف فى «ما» فى قوله : « وَمَا تِلْكَ » فقال الزجاج والفراء : هى ٱسم ناقص وصلت بـ « يمينك » أى ما التى بيمينك؟ وقال أيضا : «تلك» بمعنى هذه؛ ولو قال : ما ذلك لجاز؛ أى ما ذلك الشىء : ومقصود السؤال تقرير الأمر حتى يقول موسى : هى عصاى؛ ليثبت الحجة عليه بعد ما اعترف، وإلا فقد علم الله ما هى فى الأزل . وقال ابن الجوهرى : وفى بعض الآثار أن الله تعالى عتب على موسى إضافة العصا إلى نفسه فى ذلك الموطن؛ فقيل له : ألقها لترى منها العجب فتعلم أنه لا ملك لك عليها ولا تنضاف إليك . وقرأ ابن أبى إسحق «عَصَىَّ» على لغة هُذيل؛ ومثله «يابُشْرَىَّ» و «مَحْيَىَّ» وقد تقدّم . وقرأ الحسن «عَصَاىِ» بكسر الياء لالتقاء الساكنين . ومثل هذا قراءة حمزة «وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيِّ» . وعن ابن أبى إسحق سكون الياء .

الثانيــة — فى هذه الآية دليل على جواب السؤال بأكثر مما سئل؛ لأنه لما قال : « وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى » ذكر معانى أربعة : وهى : إضافة العصا إليه، وكان حقه أن يقول عصا؛ والتوكؤ، والهش، والمآرب المطلقة . فذكر موسى من منافع عصاه عُظْمها وجمهورها وأجمل سائر ذلك . وفى الحديث سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ماء البحر فقال: ”هو الطَّهورُ ماؤه الحِلُّ ميتته“ . وسألته ٱمرأة عن الصغير حين رفعته إليه فقالت : ألهذا حج ؟ قال ”نعم ولك أجر“ . ومثله فى الحديث كثير .

الثالثــة — قوله تعالى : ﴿ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا ﴾ أى أتحامل عليها فى المشى والوقوف؛ ومنه الٱتكاء . ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا ﴾ «وَأَهِشُّ» أيضا؛ ذكره النحاس . وهى قراءة النَّخَعى[1]، أى أخبط بها

(١) وروي عن النخعي أيضا أنه قرأ « وأهشي » بضم الهمزة والشين من «أهش» رباعيا .

الورق، أى أضرب أغصان الشـجر ليسقط ورقها، فيسهل على غنمى تناوله فتأكله .

قال الراجـز :

أَهُشُّ بالعَصَا على أَغْنامِي ＊ من ناعِمِ الأَرَاكِ والبَشامِ

يقال : هَشَّ على غنمه يَهُشُّ بضم الهاء فى المستقبل . وهشَّ إلى الرجل يَهَش بالفتح . وكذلك هشّ للمعروف يَهَشّ وهشِشت أنا : وفى حديث عمر : هشِشْت يوما فقبّلت وأنا صائم . قال شِمْر : أى فرحتِ وآشتهيت . قال : ويجوز هَاشَ بمعنى هَشَّ . قال الراعى :

فكبَّرَ للرؤْيَا وهَاشَ فـؤادهُ ＊ وبَشَّرَ نفساً كان قبل يَلُومُهَا

أى طَرِب . والأصل فى الكلمة الرخاوة . يقال : رجل هَشٌّ وزوج هَشٌّ . وقرأ عكرمة «وأَهُسُّ» بالسين غير معجمة؛ قيل : هما لغتان بمعنى واحد . وقيل : معناهما مختلف؛ فالهشّ بالإعجام خبط الشجر، والهس بغير إعجام زَجْر الغنم؛ ذكره الماوردى؛ وكذلك ذكر الزمخشرى . وعن عكرمة : « وأَهُسُّ » بالسين أى أنحى عليها زاجرا لها والهَسّ زَجْر الغنم .

الرابعـة — قوله تعالى : ﴿وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾ أى حوائج . واحدها مَأْرُبة ومَأْرَبة ومَأْرِبة . وقال : «أخرى» على صيغة الواحد؛ لأن مآرب فى معنى الجماعة، لكن المَهْيَع (١) فى توابع جمع ما لا يعقل الإفراد والكناية عنه بذلك؛ فإن ذلك يجرى مجرى الواحدة المؤنثة؛ كقوله تعالى : « وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا » وكقوله : « يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ » وقد تقدّم هذا فى « الأعراف » (٢) .

الخامسـة — تعرض قوم لتعديد منافع العصا منهم ابن عباس، قال : إذا انتهيت إلى رأس بئر فقَصُر الرِّشا وصلته بالعَصَا، وإذا أصابنى حر الشمس غرزتها فى الأرض وألقيت عليها ما يظلنى، وإذا خفت شيئا من هوام الأرض قتلته بها، وإذا مشيت ألقيتها على عاتق وعلقت عليها القوس والكنانة والمخلاة، وأقاتل بها السباع عن الغنم .

---

(١) المهيع : الطريق الواضح الواسع البين .　　(٢) جـ ٧ ص ٣٢٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

وروى عنه ميمون بن مِهْران قال: إمساك العصا سنة للانبياء، وعلامة للؤمن. وقال الحسن البصرى: فيها ست خصال؛ سنة للانبياء، وزينة الصلحاء، وسلاح على الأعداء، وعون للضعفاء، وغمّ المنافقين، وزيادة فى الطاعات. ويقال: إذا كان مع المؤمن العصا يهرب منه الشيطان، ويخشع منه المنافق والفاجر، وتكون قبلته إذا صلى، وقوة إذا أعيا. ولقى الحَجّاجُ أعرابيا فقال: من أين أقبلت يا أَعرابى؟ قال: من البادية. قال: وما فى يدك؟ قال: عصاىَ أَرْكزها لصَلاتى، وأعدّها لِعداتى، وأسوق بها دابتى، وأقوى بها على سفرى، وأعتمد بها فى مشيتى لتتسع خطوتى، وأثب بها النهر، وتؤمننى من العَثْر، وألقى عليها كسائى فيقينى الحرّ، ويُدفئنى من القرّ، وتدنى إلىّ ما بعد منى، وهى تَحْمِل سُفْرتى، وعلاقة إداوتى؛ أعصِى بها عند الضِّراب، وأقرع بها الأبواب، وأتّقى بها عَقور الكلاب؛ وتنوب عن الرمح فى الطّعان، وعن السيف عند منازلة الأقران؛ ورثتها عن أبى، وأورِّثها بعدى ابنى؛ وأهشّ بها على غنمى، ولى فيها مآرب أخرى، كثيرة لا تحصى.

قلت: منافع العصا كثيرة، ولها مدخل فى مواضع من الشريعة: منها أنها تتخذ قبلة فى الصحراء؛ وقد كان للنبى عليه الصلاة والسلام عَنَزة(١) تُركز له فيصلّى إليها، وكان إذا خرج يوم العيد أمر بالحَرْبة فتوضع بين يديه فيصلّى إليها؛ وذلك ثابت فى الصحيح. والحَرْبة والعَنَزة والنَّيْزك والآلة اسم لمسمى واحد. وكان له مِحْجَن وهو عصا معوجّة الطّرَف يشير به إلى الحَجَر إذا لم يستطع أن يقبّله؛ ثابت فى الصحيح أيضا. وفى الموطأ عن السائب بن يزيد أنه قال: أمر عمر بن الخطاب رضى الله عنه أبىّ بن كعب وتميما الدارىّ أن يقوما للناس بإحدى عشرة ركعة، وكان القارئ يقرأ بالمئين حتى كنا نعتمد على العصىّ من طول القيام، وما كنا ننصرف إلا فى بزوغ الفجر. وفى الصحيحين: أنه عليه الصلاة والسلام كان له مِخْصَرة(٢). والإجماع منعقد على أن الخطيب يخطب متوكّئا على سيف أو عصا، فالعصا مأخوذة من أصل كريم، ومعدن شريف، ولا ينكرها إلا جاهل. وقد جمع الله لموسى

(١) العنزة: مثل نصف الرمح أو أكبر شيئا، وفيها سنان مثل سنان الرمح.

(٢) المخصرة بالخاء المعجمة والصاد المهملة: ما يختصره الإنسان بيده فيمسكه من عصا أو عكازة أو مقرعة أو قضيب وقد يتكئ عليه. النهاية.

فى عصاه من البراهين العظام، والآيات الجسام، ما آمن به السحرة المعاندون . واتخذها سليمان لخطبته وموعظته وطول صلاته . وكان ابن مسعود صاحب عصا النبي صلى الله عليه وسلم وعَنَزته ؛ وكان يخطب بالقضيب — وكفى بذلك فضلا على شرف حال العصا — وعلى ذلك الخلفاء وكبراء الخطباء، وعادة العرب العرباء، الفصحاء اللسن البلغاء أخذ المخصرة والعصا والاعتماد عليها عند الكلام، وفى المحافل والخطب . وأنكرت الشُّعوبية على خطباء العرب أخذ المخصرة والإشارة بها إلى المعانى . والشُّعوبية تبغض العرب وتفضل العجم . قال مالك : كان عطاء بن السائب يمسك المِخصرة يستعين بها . قال مالك : والرجل إذا كبر لم يكن مثل الشباب يقوى بها عند قيامه .

قلت : وفى مشيته كما قال بعضهم :

قد كنتُ أمشى على رجلين معتمدًا * فصرتُ أمشى على أخرى من الخشَبِ

قال مالك رحمه الله ورضى عنه : وقد كان الناس إذا جاءهم المطر خرجوا بالعصى يتوكئون عليها، حتى لقد كان الشباب يحبسون عصيّهم، وربما أخذ ربيعة العصا من بعض من يجلس إليه حتى يقوم . ومن منافع العصا ضرب الرجل نساءه بها فيما يصلحهم، ويصلح حاله وحالهم معه. ومنه قوله عليه السلام : " وأما أبو جَهْم فلا يضع عصاه عن عاتقه "(١) فى إحدى الروايات . وقد روى عنه عليه السلام أنه قال لرجل أوصاه : " لا ترفع عصاك عن أهلك أخفهم فى الله " رواه عبادة بن الصامت؛ خرجه النسائى . ومن هذا المعنى قوله صلى الله عليه وسلم : " علِّق سوطك حيث يراه أهلك " وقد تقدم هذا فى «النساء»(٢) . ومن فوائدها التنبيه على الانتقال من هذه الدار؛ كما قيل لبعض الزهاد : مالك تمشى على عصا ولست بكبير ولا مريض ؟ قال : إنى أعلم أنى مسافر، وأنها دار قُلعة، وأن العصا من آلة السفر؛ فأخذه بعض الشعراء فقال :

حملتُ العصا لا الضَّعفُ أوجبَ حملَها * علىّ ولا أنى تحنَّيتُ من كِبَرْ

ولكننى ألزمتُ نفسىَ حَمْلَها * لِأُعلمها أنّ المقيمَ على سَفَرِ

---

(١) هذا من حديث فاطمة بنت قيس، حيث جاءت إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرت له أن أبا جهم بن حذيفة ومعاوية بن أبى سفيان خطباها فقال : " أما أبو جهم فرجل لا يرفع عصاه عن النساء وأما معاوية فصعلوك لا مال له " الترمذى .

(٢) راجع جـ ٥ ص ١٧٤ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ ﴿٢١﴾ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى ﴿٢٣﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى ﴾ : لما أراد الله تعالى أن يُدرِّبه فى تلقى النبوة وتكاليفها أمره بإلقاء العصا ﴿ فَأَلْقَاهَا ﴾ موسى فقلب الله أوصافها وأعراضها . وكانت عصا ذات شُعبتين فصارت الشُّعبتان لها فمًا ، وصارت حية تسعى أى تنتقل ، وتمشى وتلتقم الحجارة ؛ فلما رآها موسى عليه السلام رأى عبرة فـ « ولَّى مُدْبِراً وَلَمْ يُعَقِّبْ » فقال الله له : « خُذْهَا وَلَا تَخَفْ » وذلك أنه « أَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً » أى لحقه ما يلحق البشر . وروى أن موسى تناولها بكمى جُبَّته فنُهى عن ذلك ، فأخذها بيده فصارت عصا كما كانت أول مرة وهى سيرتها الأولى ، وإنما أظهر له هذه الآية لئلا يفزع منها إذا ألقاها عند فرعون . ويقال : إن العصا بعد ذلك كانت تماشيه وتحادثه و يعلق عليها أحماله ، وتضىء له الشُّعبتان بالليل كالشّمع ؛ وإذا أراد الاستقاء انقلبت الشّعبتان كالدلو ، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فى الأرض فأثمرت تلك الثمرة . وقيل : إنها كانت من آس الجنة . وقيل : أتاه جبريل بها . وقيل : مَلَك . وقيل قال له شعيب : خذ عصا من ذلك البيت فوقعت بيده تلك العصا ، وكانت عصا آدم عليه السلام هبط بها من الجنة . والله أعلم .

قوله تعالى : ﴿فَإِذَا هِىَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ النحاس : ويجوز «حَيَّةً» ؛ يقال : خرجت فإذا زيد جالس وجالسا . والوقف « حَيَّهْ » بالهاء . والسعى المشى بسرعة وخفة . وعن ابن عباس : انقلبت ثعبانا ذكرا يبتلع الصخر والشجر، فلما رآه يبتلع كل شىء خافه ونفر منه . وعن بعضهم : إنما خاف منه لأنه عرف ما لقى آدم منها . وقيل لما قال له ربه : « لَا تَخَفْ » بلغ من ذهاب خوفه وطمأنينة نفسه أن أدخل يده فى فمها وأخذ بلحييها . ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ سمعت على بن سليمان يقول : التقدير إلى سيرتها ، مثل « وَٱخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ » قال : ويجوز أن يكون مصدرا لأن معنى سنعيدها سنسيّرها .

قوله تعالى : ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ ﴾ يجوز فى غير القرآن ضُمّ بفتح الميم وكسرها لالتقاء الساكنين ، والفتح أجود لخفته ، والكسر على الأصل . ويجوز الضم على الإتباع . وبَدٌ أصلها يَدْىٌ على فَعْـل ؛ يدل على ذلك أيدٍ . وتصغيرها يُدَيّة . والجناح العضد ؛ قاله مجاهد. وقال: «إلى» بمعنى تحت . قطرب : «إِلَىٰ جَنَاحِكَ» إلى جيبك ؛ ومنه قول الراجز :

* أَضُمُّه للصدر والجَنَاحِ *

وقيل : إلى جنبك فعبر عن الجنب بالجناح لأنه مائل فى محل الجناح . وقيل : إلى عندك . وقال مقاتل : « إلى » بمعنى مع أى مع جناحك . و﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ﴾ من غير برص نورا ساطعا، يضيء بالليل والنهار كضوء الشمس والقمر وأشد ضوءا . عن ابن عباس وغيره : فخرجت نورا مخالفة للونه . و « بَيْضَاءَ » نصب على الحال ، ولا ينصرف لأن فيها ألفي التأنيث لا يزايلانها فكأن لزومهما علّة ثانية ،فلم ينصرف فى النكرة، وخالفتا الهاء لأن الهاء تفارق الاسم . و « مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ » «من» صلة «بيضاء» كما تقول : ابيضت من غير سوء . ﴿ آيَةً أُخْرَىٰ ﴾ سوى العصا . فأخرج يده من مِدْرَعة له مصرية لها شعاع مثل شعاع الشمس يعشى البصر . و « آيَةً » منصوبة على البـدل من بيضاء ؛ قاله الأخفش . النحاس : وهو قول حسن . وقال الزجاج : المعنى آتيناك آية أخرى أو نؤتيـك ؛ لأنه لما قال : « تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُـوٓءٍ » دل على أنه قد آتاه آية أخرى . ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَىٰ ﴾ يريد العظمى . وكان حقه أن يقول الكبيرة، و إنما قال «الكبرى» لوفاق رءوس الآى . وقيل : فيه إضمار؛ معناه لنريك من آياتنا الآية الكبرى؛ دليله قول ابن عباس يد موسى أكبر آياته .

قوله تعالى : ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى ﴿٣٢﴾ كَىْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴾ لما آنسه بالعصا واليد، وأراه ما يدل على أنه رسول، أمره بالذهاب إلى فرعون، وأن يدعوه . و « طغى » معناه عصى وتكبر وكفر وتجبر وجاوز الحد . ﴿ قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي . وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي . وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي . وَٱجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي . هَٰرُونَ أَخِي ﴾ طلب الإعانة لتبليغ الرسالة . ويقال : إن الله أعلمه بأنه ربط على قلب فرعون وأنه لا يؤمن ؛ فقال موسى : يا رب فكيف تأمرنى أن آتيه وقد ربطت على قلبه؛ فأتاه ملك من خزان الريح فقال : يا موسى انطلق إلى ما أمرك الله به . فقال موسى عند ذلك : « رَبِّ ٱشْرَحْ لِي صَدْرِي » أى وسّعه ونوره بالإيمان والنبوة . « وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي » أى سهّل علىّ ما أمرتنى به من تبليغ الرسالة إلى فرعون . « وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي » يعنى العجمة التى كانت فيه من جمرة النار التى أطفأها فى فِيه وهو طفل . قال ابن عباس : كانت فى لسانه رُتَّة . وذلك أنه كان فى حجر فرعون ذات يوم وهو طفل فلطمه لطمة، وأخذ بلحيته فنتفها فقال فرعون لآسية : هذا عدوّى فهات الذبّاحين . فقالت آسية : على رِسْلك فإنه صبىّ لا يفرق بين الأشياء . ثم أتت بطَسْتين فجعلت فى أحدهما جمرا وفى الآخر جوهرا، فأخذ جبريل بيد موسى فوضعها على النار حتى رفع جمرة ووضعها فى فيه على لسانه، فكانت تلك الرتّة . وروى أن يده احترقت وأن فرعون اجتهد فى علاجها فلم تبرأ . ولما دعاه قال : إلى أىّ ربّ تدعونى؟ قال : إلى الذى أبرأ يدى وقد عجزتَ عنها . وعن بعضهم : إنما لم تبرأ يده لئلا يدخلها مع فرعون فى قَصْعة واحدة فتنعقد بينهما حرمة المؤاكلة . ثم اختلف هل زالت تلك الرتّة؛ فقيل : زالت بدليل قوله : « قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى » . وقيل : لم تزل كلها؛ بدليل قوله حكاية عن فرعون : « وَلَا يَكَادُ يُبِينُ » . ولأنه لم يقل : آحلل كل لسانى ، فدل على أنه بقى فى لسانه شىء من الاستمساك . وقيل : زالت بالكلية بدليل قوله : « أُوتِيتَ سُؤْلَكَ » وإنما قال فرعون : « وَلَا يَكَادُ يُبِينُ » لأنه عرف منه تلك العقدة فى التربية، وما ثبت عنده أن الآفة زالت .

قلت : وهذا فيه نظر؛ لأنه لو كان ذلك لما قال فرعون : « وَلَا يَكَادُ يُبِينُ » حين كلمه موسى بلسان ذَلِق فصيح . والله أعلم . وقيل : إن تلك العقدة حدثت بلسانه عند مناجاة ربه ، حتى لا يكلم غيره إلا بإذنه . ﴿ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ أى يعلموا ما أقوله لهم ويفهموه . والفقه فى كلام العرب الفهم . قال أعرابى لعيسى بن عمر : شهدت عليك بالفقه . تقول منه : فَقِه الرجل بالكسر . وفلان لا يَفْقَه ولا يَنْقَه(١) . وأفقهتك الشيء . ثم خُصّ به علم الشريعة، والعالم به فقيه . وقد فَقُه بالضم فَقَاهة وفَقَّهه الله وتَفَقَّه إذا تعاطى ذلك . وفاقهته إذا باحثته فى العلم؛ قاله الجوهرى . والوزير المؤازر كالأكيل للمؤاكل ؛ لأنه يحمل عن السلطان وزره أى ثقله . فى كتاب النسائى عن القاسم بن محمد : سمعت عمتى تقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من ولى منكم عملا فأراد الله به خيرا جعل له وزيرا صالحا إن نسى ذَكَّره وإن ذَكَر أعانه " . ومن هذا المعنى قوله عليه الصلاة والسلام: " ما بعث الله من نبيّ ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانتان بطانة تأمره بالمعروف وتحضّه عليه وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه فالمعصوم من عصمه الله " رواه البخارى. فسأل موسى الله تعالى أن يجعل له وزيرا، إلا أنه لم يرد أن يكون مقصورا على الوزارة حتى لا يكون شريكا له فى النبوّة، ولولا ذلك لجاز أن يستوزره من غير مسئلة . وعيّن فقال : «هَٰرُونَ» . وآنتصب على البدل من قوله : « وَزِيرًا » . ويكون منصوبا بـ « آجعل » على التقديم والتأخير، والتقدير: واجعل لى هرون أخى وزيرا . وكان هرون أكبر من موسى بسنة ، وقيل : بثلاث . ﴿ آشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴾ أى ظهرى . والأزر الظهر من موضع الحَقْوين، ومعناه تقوى به نفسى؛ والأزر القوة ، وآزره قوّاه . ومنه قوله تعالى : « فَآزَرَهُ فَآسْتَغْلَظَ » . وقال أبو طالب :

أليس أبونا هاشمٌ شَدَّ أَزْرَه * وأَوْصى بنيه بالطِّعانِ وبالضَّرْبِ(٢)

وقيل : الأزر العون . أى يكون عونا يستقيم به أمرى . قال الشاعر :

شَددتُ به أَزْرِى وأَيقنتُ أنّهُ * أخو الفقر من ضاقت عليه مذاهبُه

(١) معناه لا يعلم ولا يفهم . ونقهت الحديث أنقهه إذا فهمته .
(٢) هذا البيت فى قصيدة له قالها فى أمر الشعب والصحيفة .

وكان هرون أكثر لحما من موسى، وأتم طولا ، وأبيض جسما، وأفصح لسانا . ومات قبل موسى بثلاث سنين . وكان فى جبهة هرون شامة ، وعلى أرنبة أنف موسى شامة، وعلى طرف لسانه شامة ، ولم تكن على أحد قبله ولا تكون على أحد بعده، وقيل : إنها كانت سبب العقدة التى فى لسانه . والله أعلم . ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ أى فى النبوة وتبليغ الرسالة . قال المفسرون : كان هرون يومئذ بمصر، فأمر الله موسى أن يأتى هو هرون، وأوحى إلى هرون وهو بمصر أن يتلقى موسى، فتلقاه إلى مرحلة وأخبره بما أوحى إليه؛ فقال له موسى : إن الله أمرنى أن آتى فرعون فسألت ربى أن يجعلك معى رسولا . وقرأ العامة « أَخِي ٱشْدُدْ » بوصل الألف « وَأَشْرِكْهُ » بفتح الهمزة على الدعاء، أى آشدد يارب أزرى ، وأشركه معى فى أمرى . وقرأ ابن عامر ويحيى بن الحرث وأبو حَيْوة والحسن وعبد الله بن أبى إسحق « أَشْدُدْ » بقطع الألف « وَأُشْرِكْه » أى أنا يارب « فى أمرى » . قال النحاس : جعلوا الفعلين فى موضع جزم جوابا لقوله : « ٱجْعَلْ لِي وَزِيراً » وهذه القراءة شاذة بعيدة؛ لأن جواب مثل هذا إنما يتخرج بمعنى الشرط والمجازاة ؛ فيكون المعنى : إن تجعل لى وزيرا من أهلى أشدد به أزرى ، وأشركه فى أمرى . وأمره النبوة والرسالة، وليس هذا إليه صلى الله عليه وسلم فيخبر به ، إنما سأل الله عز وجل أن يشركه معه فى النبوة . وفتح الياء من « أَخِي » ابن كثير وأبو عمرو . ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً ﴾ قيل : معنى « نسبحك » نصلى لك . ويحتمل أن يكون التسبيح باللسان . أى ننزهك عما لا يليق بجلالك . « وَكَثِيراً » نعت لمصدر محذوف . ويجوز أن يكون نعتا لوقت . والإدغام حسن؛ وكذا ﴿ وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴾ . ﴿ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيراً ﴾ قال الخطابى : البصير المبصر ، والبصير العالم بخفيات الأمور ، فالمعنى؛ أى عالما بنا ، ومدركا لنا فى صغرنا فأحسنت إلينا، فأحسن إلينا كذلك يارب .

قوله تعالى : قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰٓ ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ ﴿٣٨﴾ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقْذِفِيهِ فِي ٱلْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ ٱلْيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي

وَعَدُوٌّ لَّهُۥ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِيٓ ﴿٣٩﴾ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٠﴾ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴿٤١﴾ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي ﴿٤٢﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَى ﴾ لما سأله شرح الصدر، وتيسير الأمر إلى ما ذكر، أجاب سؤله، وأتاه طِلْبته ومرغوبه . والسؤل الطِّلْبة؛ فُعْل بمعنى مفعول، كقولك خُبز بمعنى مخبوز وأُكل بمعنى مأكول . وقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴾ أى قبل هذه، وهى حفظه سبحانه له من شر الأعداء فى الابتداء؛ وذلك حين الذبح . والله أعلم . والمنّ الإحسان والإفضال . وقوله : ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ﴾ قيل : « أوحينا » ألهمنا . وقيل : أوحى إليها فى النوم . وقال ابن عباس : أوحى إليها كما أوحى إلى النبيين . ﴿ أَنِ ٱقْذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ ﴾ قال مقاتل : مؤمن آل فرعون هو الذى صنع التابوت ونَجَره وكان اسمه حِزْقيل . وكان التابوت من جُمَّيز . ﴿ فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ ﴾ أى ٱطرحيه فى البحر : نهر النيل . ﴿ فَلْيُلْقِهِ ﴾ قال الفراء : « فَٱقْذِفِيهِ فِى ٱلْيَمِّ » أمر وفيه معنى المجازاة . أى ٱقذفيه يلقه اليمّ . وكذا قوله : « ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ » . ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ﴾ يعنى فرعون ؛ فاتخذت تابوتا، وجعلت فيه نطعا، ووضعت فيه موسى، وقَيَّرت رأسه وخِصَاصه — يعنى شقوقه — ثم ألقته فى النيل، وكان يَشْرَع منه نهر كبير فى دار فرعون، فساقه الله فى ذلك النهر إلى دار فرعون . وروى أنها جعلت فى التابوت قطنا محلوجا، فوضعته فيه وقَيَّرته وجَصَّصته ، ثم ألقته فى اليم . وكان يَشْرَع منه إلى بستان فرعون نهر كبير، فبينا هو جالس على رأس بِركة مع آسية، إذا بالتابوت، فأمر به فأخرج، ففتح فإذا صبىّ أصبح

الناس، فأحبه عدوّ الله حبًّا شديدا لا يتمالك أن يصبر عنه . وظاهر القرآن يدل على أن البحر ألقاه بساحله وهو شاطئه، فرأى فرعون التابوت بالساحل فأمر بأخذه . ويحتمل أن يكون إلقاء اليمّ بموضع من الساحل، فيه فُوَّهة نهر فرعون، ثم أدّاه النهر إلى حيث البِركة . والله أعلم . وقيل : وجدته ابنة فرعون وكان بها برص، فلما فتحت التابوت شفيت . وروى أنهم حين التقطوا التابوت عالجوا فتحه فلم يقدروا عليه، وعالجوا كسره فأعياهم، فدنت آسِية فرأت فى جوف التابوت نورا فعالجته ففتحته، فإذا صبىّ نوره بين عينيه، وهو يمصّ إبهامه لبنا فأحبّوه . وكانت لفرعون بنت برصاء، وقال له الأطباء : لا تبرأ إلا من قبل البحر، يوجد فيه شبه إنسان دواؤها رِيقه؛ فلطخت البرصاء برصها بريقه فبرئت . وقيل : لما نظرت إلى وجهه برئت . والله أعلم . وقيل : وجدته جوارٍ لامرأة فرعون، فلما نظر إليه فرعون فرأى صبيا من أصبح الناس وجها، فأحبه فرعون؛ فذلك قوله تعالى : ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴾ قال ابن عباس : أحبه الله وحَبّبه إلى خلقه . وقال ابن عطية : جعل عليه مَسْحة من جمال لا يكاد يصبر عنه من رآه . وقال قتَادة : كانت فى عينى موسى ملاحة ما رآه أحد إلا أحبّه وعشقه . وقال عِكْرمة : المعنى جعلت فيك حسنا وملاحة فلا يراك أحد إلا أحبّك . وقال الطبَرى : المعنى وألقيت عليك رحمتى . وقال ابن زيد : جعلت من رآك أحبّك حتى أحبّك فرعون فسلمت من شرّه، وأحبّتك آسية بنت مُزاحم فتبنّتك . ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴾ قال ابن عباس : يريد إن ذلك بعينى حيث جُعلت فى التابوت، وحيث ألقى التابوت فى البحر، وحيث التقطك جوارى آمرأة فرعون؛ فأردن أن يفتحن التابوت لينظرن ما فيه، فقالت منهن واحدة : لا تفتحْنه حتى تأتين به سيدتكنّ فهو أحظى لكنّ عندها، وأجدر بألا تتهمكنّ بأنكنّ وجدتن فيه شيئا فأخذتموه لأنفسكنّ . وكانت آمرأة فرعون لا تشرب من الماء إلا ما آستقينه أولئك الجوارى . فذهبن بالتابوت إليها مغلَقا، فلما فتحته رأت صبيا لم يُرَ مثله قطّ، وألقى عليها محبته فأخذته فدخلت به على فرعون، فقالت له : «قُرَّةُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ» قال لها فرعون : أمّا لك فنعَم، وأما لى فلا . فبلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال " لو أن فرعون قال

نعم هو قرة عين لى ولك لآمن وصدّق " فقالت : هَبْه لى ولا تقتله ؛ فوهبه لهـا . وقيل : « وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي » أى تُربَّى وتُغذَّى على مرأى منى ؛ قاله قتادة . قال النحاس : وذلك معروف فى اللغة؛ يقال : صنعت الفرس وأصنعته إذا أحسنتَ القيام عليه. والمعنى « ولِتصنع على عيني » فعلت ذلك . وقيل : اللام متعلقة بما بعدها من قوله : « إذ تمشى أختك » على التقديم والتأخير . « بإذ » ظرف « لتصنع » . وقيل : الواو فى « ولِتصنع » زائدة . وقرأ ابن القَعْقَاع « وَلْتُصْنَعْ » بإسكان اللام على الأمر، وظاهره للخاطب والمأمور غائب . وقرأ أبو نُهَيك « ولِتَصْنَعَ » بفتح التاء . والمعنى ولتكون حركتك وتصرفك بمشيئتى وعلى عين منى . ذكره المهدوى . ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ ﴾ العامل فى « إذ تمشى » « أَلْقَيْتُ » أو « تصنع » . ويجـوز أن يكون بدلا من « إِذْ أَوْحَيْنَا » وأخته اسمها مريم . ﴿ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ ﴾ وذلك أنهـا خرجت متعرفة خبره، وكان موسى لمـا وهبه فرعون من امرأته طلبت له المراضع ، وكان لا يأخذ من أحد حتى أقبلت أختـه ، فأخذته ووضعته فى حجرها وناولته ثديها فمصه وفرح به . فقالوا لهـا : تقيمين عندنا؛ فقـالت : إنه لا لبن لى ولكن أدلكم على من يكفله وهم له ناصحون. قالوا : ومن هى؟ . قالت : أمى . فقالوا : لها لبنٌ؟ قالت : لبن أخى هرون . وكان هرون أكبر من موسى بسنة . وقيل : بثلاث . وقيل : بأربع ؛ وذلك أن فرعون رحم بنى إسرائيل فرفع عنهم القتل أربع سنين، فولد هرون فيها ؛ قاله ابن عباس . فجاءت الأم فقبل ثديها . فذلك قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ ﴾ وفى مصحف أبيّ « فرددناك » . ﴿ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ﴾ وروى عبد الحميد عن ابن عامر « كَى تَقِرَّ عَيْنُهَا » بكسر القاف . قال الجـوهرى : وقَرِرتُ به عينا وقَرَرْتُ به قُـرّة وقُرورا فيهما . ورجل قرير العين؛ وقـد قرّت عينه تَقِرّ وتَقَرّ نقيض سخنت . وأقرّ الله عينه أى أعطاه حتى تقرّ فلا تطمح إلى من هو فوقه؛ ويقـال : حتى تبرد ولا تسخن . وللسرور دمعـة باردة ، وللحزن دمعة حارة . وقد تقدم هـذا المعنى فى « مريم »[1] . « وَلَا تَحْزَنَ » أى على فقدك . ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْسًا ﴾ قال ابن عباس : قتل قبطيا كافرا . قال كعب : وكان إذ ذاك ابن اثنتى

(١) راجع تفسير آية ٢٦ من هذا الجزء .

عشرة سنة . فى صحيح مسلم : وكان قتله خطأ، على ما يأتى . ﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ﴾ أى آمناك من الخوف والقتل والحبس . ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ أى آختبرناك آختبارا حتى صلحت للرسالة . وقال قتادة : بلوناك بلاء . مجاهد : أخلصناك إخلاصا . وقال ابن عباس : اختبرناك بأشياء قبل الرسالة، أولها حملته أمه فى السنة التى كان فرعون يذبح فيها الأطفال، ثم إلقاؤه فى اليم، ثم منعه من الرضاع إلا من ثدى أمه، ثم جره بلحية فرعون، ثم تناوله الجمرة بدل الدّرّة، فدرأ ذلك عنه قتل فرعون، ثم قتله القبطى وخروجه خائفا يترقب، ثم رعايته الغنم ليتدرب بها على رعاية الخلق . فيقال : إنه نَدّ له من الغنم جَدْى فاتبعه أكثر النهار ، وأتعبه ، ثم أخذه فقبله وضمه إلى صدره، وقال له : أتعبتنى وأتعبت نفسك، ولم يغضب عليه . قال وهب ابن منبه : ولهذا آتخذه الله كليما، وقد مضى فى « النساء »[1] .

قوله تعالى : ﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِى أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ يريد عشر سنين أتمّ الأجلين . وقال وهب : لبث عند شعيب ثمانى وعشرين سنة، منها عشر مهر آمرأته صفورا آبنة شعيب، وثمانى عشرة أقامها عنده حتى ولد له عنده . وقوله : ﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾ قال ابن عباس وقتادة وعبد الرحمن بن كيسان : يريد موافقا للنبوة والرسالة، لأن الأنبياء لا يبعثون إلا أبناء أربعين سنة . وقال مجاهد ومقاتل : « على قَدَرٍ » على وعد . وقال محمد بن كعب : ثم جئت على القدر الذى قدرت لك أنك تجىء فيه . والمعنى واحد . أى جئت فى الوقت الذى أردنا إرسالك فيه . وقال الشاعر :

نال الخلافة أو كانت له قَدَرًا * كما أَتَى ربَّه موسى على قَدَر

قوله تعالى : ﴿وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِى﴾ قال ابن عباس : أى اصطفيتك لوحيي ورسالتى . وقيل : « اصْطَنَعْتُكَ » خلقتك ، مأخوذ من الصنعة . وقيل : قويتك وعلمتك لتبلغ عبادى أمرى ونهيى . ﴿اذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِى﴾ قال ابن عباس : يريد التسع الآيات التى أنزلت عليه . ﴿وَلَا تَنِيَا فِى ذِكْرِى﴾ قال ابن عباس : تضعفا أى فى أمر الرسالة ، وقاله قتادة . وقيل : تفترا . قال الشاعر[2] :

فما وَنَى محمدٌ مُذْ أنْ غَفَرْ * له الإلهُ ما مَضَى وما غَبر

(١) راجع جـ ٦ ص ١٨ طبعة أولى أو ثانية . (٢) هو العجاج .

والْوَنَى الضَّعف والفتور، والكَلال والإعياء . وقال امرؤ القيس :

مِسَحٍّ إذا ما السابحاتُ على الوَنَى * أَثَرْنَ غُباراً بالكَدِيدِ المُرَكَّلِ (١)

ويقال: ونيت فى الأمر أَنِي وَنًى وونْيًا أى ضَعُفت، فأنا وانٍ وناقة وانِية وأونيتها أنا أضعفتها وأتعبتها . وفلان لا يَنِى كذا، أى لا يزال، وبه فَسَّر أبان معنى الاية واستشهد بقول طَرَفة :

كأنّ القُدورَ الراسياتِ أَمامَهُمْ * قِبابٌ بَنَوْها لا تَنِي أبدًا تَغْلِي

وعن ابن عباس أيضا : لا تبطئا . وفى قراءة ابن مسعود « وَلَا تَهِنا فِي ذِكْرِى » وتحميدى وتمجيدى وتبليغ رسالتى .

قوله تعالى : ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ٱذْهَبَا﴾ قال فى أول الآية : « ٱذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِى » وقال هنا : « ٱذهبا » فقيل : أمر الله تعالى موسى وهرون فى هذه الآية بالنفوذ إلى دعوة فرعون، وخاطب أولا موسى وحده تشريفا له؛ ثم كرر للتأكيد . وقيل : بيّن بهذا أنه لا يكفى ذهاب أحدهما . وقيل : الأول أمر بالذهاب إلى كل الناس ، والثانى بالذهاب إلى فرعون .

الثانية — فى قوله تعالى : ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا﴾ دليل على جواز الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وأن ذلك يكون باللين من القول لمن معه القوة، وضمنت له العصمة، ألا تراه قال : « فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا » . وقال : « لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى » فكيف بنا فنحن أولى بذلك . وحينئذ يحصل الآمر والناهى على مرغوبه، ويظفر بمطلوبه؛ وهذا واضح .

(١) مسح معناه يصب الجرى صبا . والسابحات اللاتى عدوهن سباحة ؛ والسباحة فى الجرى بسط الأيدى . والكديد : الموضع الغليظ . والمركل : الذى يركل بالأرجل . ومعنى البيت : أن الخيل السريعة إذا فترت فأثارت الغبار بأرجلها من التعب، جرى هذا الفرس جريا مهلا .

الثالثـة — واختلف الناس فى معنى قوله « لَيِّنًا » فقالت فرقة منهم الكلبى وعكرمة : معناه كَنِّياه ؛ وقاله ابن عباس ومجاهد والسدى . ثم قيـل : وكنيته أبو العباس . وقيـل : أبو الوليد . وقيل : أبو مرة ؛ فعلى هذا القول تكنية الكافر جائزة إذا كان وجيها ذا شرف وطُمِع بإسلامه . وقد يجوز ذلك و إن لم يُطمَع بإسلامه ؛ لأن الطمع ليس بحقيقة توجب عملا . وقد قال صلى الله عليه وسلم "إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه" ولم يقل و إن طمعتم فى إسلامه ، ومن الإكرام دعاؤه بالكُنية . وقد قال صـلى الله عليه وسلم لصفوان بن أميـة : "انزل أبا وهب" فكناه . وقال لسعد : "ألم تسمع مايقول أبو حُبَاب" يعنى عبدالله بن أبىّ . وروى فى الإسرائيليات أن موسى عليـه السلام قام على باب فرعون سنة ، لايجد رسولا يبلغ كلاما حتى خرج . فجرى له ماقصّ الله علينا من ذلك ، وكان ذلك تسلية لمن جاء بعده من المؤمنين فى سيرتهم مع الظالمين ، وربك أعلم بالمهتدين . وقيل قال له موسى : تؤمن بمـا جئتُ به ، وتعبـد ربّ العالمين ؛ على أن لك شبابا لايَهْرَم إلى الموت ، وملكا لاينزع منك إلى الموت ، وينسأ فى أجلك أربعمائة سنة ، فإذا متّ دخلت الجنة . فهذا القول اللين . وقال ابن مسعود : القول اللين قوله تعالى : « فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى . وَأَهْدِيَكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى » . وقد قيل إن القول اللين قول موسى : يافرعون إنا رسولا ربك ربّ العالمين . فسماه بهـذا الاسم لأنه أحب إليه ممـا سواه ممـا قيل له ، كما يسمى عندنا الملك ونحوه .

قلت : القول اللَّين هو القول الذى لاخشونة فيه ؛ يقال : لان الشئ يَلِين لِينًا ؛ وشىء لِيِّن ولَيْن مخفّف منه ؛ والجمع أَلْيِناء . فإذا كان موسى أمر بأن يقول لفرعون قولا لينـا ، فمن دونه أحرى بأن يقتدى بذلك فى خطابه ، وأمره بالمعروف فى كلامه . وقد قال تعـالى : « وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا » . على ماتقدم فى « البقرة »(١) بيانه والحمد لله .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ معناه : على رجائكما وطمعكما ؛ فالتوقع فيها إنمـا هو راجع إلى جهة البشر ؛ قاله كبراء النحويين : سيبويه وغيره . وقـد تقدم فى أول «البقرة»(٢) . قال الزجاج : «لعل» لفظة طمع وترج فخاطبهم بما يعقلون . وقيل : «لعل» هاهنا بمعنى

(١) راجع جـ ٢ ص ١٦ وما بعدها طبعة ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٢٢٧ طبعة ثانية أو ثالثة .

الاستفهام ، والمعنى فانظر هل يتذكر . وقيل : هى بمعنى كى . وقيل : هو إخبار من الله تعالى عن قول هرون لموسى لعله يتذكر أو يخشى ؛ قاله الحسن . وقيل : إن لعل وعسى فى جميع القرآن لما قد وقع . وقد تذكر فرعون حين أدركه الغرق وخشى فقال : « آمَنْتُ أنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِى آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ » . ولكن لم ينفعه ذلك ؛ قاله أبو بكر الوراق وغيره . وقال يحيى بن معاذ فى هذه الآية : هـذا رِفقك بمن يقول أنا الإله فكيف رفقك بمن يقـول أنت الإله ؟ ! . وقد قيل : إن فرعون ركَنَ إلى قول موسى لما دعاه ، وشاور آمرأته فآمنت وأشارت عليه بالإيمان ، فشاور هامان فقال : لا تفعل ؛ بعد أن كنت مالكا تصير مملوكا ، وبعد أن كنت ربا تصـير مربوبا . وقال له : أنا أردك شابا ؛ فخضب لحيته بالسواد فهو أول من خضب .

قوله تعالى : قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿٤٥﴾

قوله تعـالى : ﴿ قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى ﴾ قال الضحـاك : « يَفْرُطَ » يعَجّل . قال : و « يَطْغَى » يعتدى . النحاس : التقدير نخاف أن يفرط علينا منه أمر ، قال الفراء : فَرَط منه أمرٌ أى بدر ؛ قال : وأفرط أسرف . قال : وفَرَّط ترك . وقراءة الجمهور « يَفْرُطَ » بفتح الياء وضم الراء ، ومعناه يَعْجَل ويبادر بعقوبتنا . يقال : فَرَط منى أمرٌ أى بدر ؛ ومنه الفارط فى الماء الذى يتقدم القـوم إلى المـاء . أى يعذّبنا عذاب الفارط فى الذنب وهو المتقدم فيه ؛ قاله المبرّد . وقرأت فرقة منهم ابن محيصن « يَفْرَطَ » بفتح الياء والراء ؛ قال المهدوى : ولعلها لغة . وعنه أيضا بضم الياء وفتح الراء ومعناها أن يحمله حامل على التسرع إلينا . وقرأت طائفة « يُفْرِط » بضم الياء وكسر الراء ؛ وبها قرأ ابن عباس ومجاهد وعكرمة وابن محيصن أيضا . ومعناه يشطط فى أذيتنا ؛ قال الراجز :

* قد أَفرطَ العِلْجُ علينا وعَجَّل *

قوله تعـالى : قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٦﴾

فيــه مسئلتان :

الأولى — قال العلماء : لمّا لحقهما ما يلحق البشر من الخوف على أنفسهما عرّفهما الله سبحانه أن فرعون لا يصل إليهما ولا قومه . وهذه الآية تردّ على من قال : إنه لا يخاف ؛ والخوف من الأعداء سنة الله فى أنبيائه وأوليائه مع معرفتهم به وثقتهم . ولقد أحسن البصرى رحمه الله حين قال للمخبر عن عامر بن عبد الله — أنه نزل مع أصحابه فى طريق الشام على ماء، فحال الأسد بينهم وبين الماء، فجاء عامر إلى الماء فأخذ منه حاجته، فقيل له : فقد خاطرت بنفسك . فقال : لأن تختلف الأسنّة فى جَوْفى أحبّ إلىّ من أن يعلم الله أنى أخاف شيئا سواه — : قد خاف من كان خيرا من عامر؛ موسى صلى الله عليه وسلم حين قال له : « إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّاصِحِينَ . فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ » وقال : « فَأَصْبَحَ فِى ٱلْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ » وقال حين ألقى السحرةُ حبالهم وعصيّهم : « فَأَوْجَسَ فِى نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى . قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْأَعْلَى » .

قلت : ومنه حَفْر النبي صلى الله عليه وسلم الخندق حول المدينة تحصينا للسلمين وأموالهم، مع كونه من التوكل والثقة بربه بمحل لم يبلغه أحد ؛ ثم كان من أصحابه ما لا يجهله أحد من تحولهم عن منازلهم، مرة إلى الحبشة، ومرة إلى المدينة ؛ تخوفا على أنفسهم من مشركى مكة ؛ وهربا بدينهم أن يفتنوهم عنه بتعذيبهم . وقد قالت أسماء بنت عُمَيس لعمر لما قال لها سبقناكم بالهجرة، فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم : كذبتَ ياعمر، كلّا والله كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، يُطعِم جائعكم، ويَعظ جاهلكم، وكنّا فى دار — أو أرض — البُعداء البُغَضاء (١) فى الحبشــة ؛ وذلك فى الله و رسوله ؛ وأيمُ اللهِ لا أَطْعَم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلتَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ونحن كنا نُؤذَى ونُخاف . الحديث بطوله خرجه مسلم . قال العلماء : فالمخبر عن نفسه بخلاف ما طبع الله نفوس بنى آدم

---

(١) البعداء : أى فى النسب . البغضاء : أى فى الدين وقول أسماء : كذبت ياعمر أى أخطأت وقد استعملوا كذب بمعنى أخطأ .

[عليه][(١)] كاذب ؛ وقد طبعهم على الهرب مما يضرها و يؤلمها أو يتلفها . قالوا : ولا ضار أضرّ من سبع عادٍ فى فلاة من الأرض على من لا آلة معه يدفعه بها عن نفسه ، من سيف أو رمح أو نبل أو قوس وما أشبه ذلك .

الثانيــة — قوله تعالى : ﴿ إِنَّنِى مَعَكُمَا ﴾ يريد بالنصر والمعونة والقدرة على فرعون . وهـذا كما تقول : الأمير مع فلان إذا أردت أنه يحميه . وقوله : ﴿ أَسْمَعُ وَأَرَى ﴾ عبارة عن الإدراك الذى لا تخفى معه خافية ، تبارك الله رب العالمين .

قوله تعالى : فَأْتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ۖ قَدْ جِئْنَٰكَ بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكَ ۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ فى الكلام حذف ، والمعنى : فأتياه فقالا له ذلك . ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِى إِسْرَائِيلَ ﴾ أى خَلِّ عنهم . ﴿ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ أى بالسّخرة والتعب فى العمل ، وكانت بنـو إسرائيل عنـد فرعون فى عذاب شـديد ؛ يذبّح أبناءهم ، ويستحيي نساءهم ، و يكلّفهم من العمل فى الطّين واللَّبِن وبناء المـدائن ما لا يطيقونه . ﴿ قَـدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ ﴾ قال ابن عباس : يريد العصا واليد . وقيـل : إن فرعون قال له : وما هى ؟ فأدخل يده فى جيب قميصـه ، ثم أخرجها بيضاء لهـا شعاع مثل شعاع الشمس ، غلب نورها على نور الشمس فعجب منهـا . ولم يره العصـا إلا يوم الزّينـة . ﴿ وَالسَّلَامُ عَلَى مَنِ ٱتَّبَعَ الْهُدَى ﴾ قال الزجاج : أى من ٱتبع الهدى سلم من سخط الله عز وجل وعذابه . قال : وليس بتحيـة ، والدليل على ذلك أنه ليس بابتـداء لِقـاءٍ ولا خطاب .

---

(١) الزيادة يقتضيها السياق .

الفراء : السلام على من اتبع الهدى ولمن اتبع الهدى سواء . ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ ﴾ يعنى الهلاك والدّمار فى الدنيا والخلود فى جهنم فى الآخرة ﴿ عَلَى مَنْ كَذَّبَ ﴾ أنبياء الله ﴿وَتَوَلَّى﴾ أعرض عن الإيمان . وقال ابن عباس : هذه أَرْجى آية للموحِّدين لأنهم لم يكذِّبوا ولم يتولّوا .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى ﴾ ذكر فرعون موسى دون هرون لرءوس الآى . وقيل : خصّصه بالذكر لأنه صاحب الرسالة والكلام والآية . وقيل : إنهما جميعا بلّغا الرسالة وإن كان ساكتا؛ لأنه فى وقت الكلام إنما يتكلم واحد، فإذا انقطع وازره الآخر وأيّده . فصار لنا فى هذا البناء فائدة علم؛ أن الاثنين إذا قُلِّدا أمرا فقام به أحدهما، والآخر شخصه هناك موجود مستغنى عنه فى وقت دون وقت أنهما أديا الأمر الذى قُلِّدا وقاما به واستوجبا الثواب؛ لأن الله تعالى قال : « ٱذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ » وقال : « ٱذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ » وقال : «فَقُولَا لَهُ» فأمرهما جميعا بالذهاب وبالقول، ثم أعلمنا فى وقت الخطاب بقوله : « فَمَنْ رَبُّكُمَا » أنه كان حاضرا مع موسى . ﴿ قَالَ ﴾ موسى : ﴿ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ﴾ أى أنه يُعرَف بصفاته، وليس له اسم عَلَم حتى يقال فلان، بل هو خالق العالم، وهو الذى خصّ كل مخلوق بهيئة وصورة، ولو كان الخطاب معهما لقالا : قالا ربنا . « وَخَلْقَهُ » أول مفعولى أعطى، أى أعطى خليقته كل شىء يحتاجون إليه ويرتفقون به، أو ثانيهما أى أعطى كل شىء صورته وشكله الذى يطابق المنفعة المنوطة به؛ على قول الضحاك على ما يأتى . ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ قال ابن عباس وسعيد بن جبير والسدى : أعطى كل شىء زوجه من جنسه، ثم هداه إلى منكحه ومطعمه ومشربه ومسكنه . وعن ابن عباس : ثم هداه إلى الألفة والاجتماع والمناكحة . وقال الحسن وقتادة : أعطى كل شىء صلاحه، وهَداه لما يصلحه . وقال مجاهد : أعطى كل شىء صورة؛ لم يجعل خلق الإنسان فى خلق البهائم، ولا خلق البهائم فى خلق الإنسان، ولكن خلق كل شىء فقدّره تقديرا . وقال الشاعر :

وله فى كلِّ شىءٍ خِلْقَةٌ * وكذاك الله ما شاء فَعَلْ

يعني بالخلقة الصورة؛ وهو قول عطية ومقاتل . وقال الضحاك : أعطى كل شيء خلْقه من المنفعة المنوطة به المطابقة له . يعني اليـد للبطش ، والرجل للمشي ، واللسان للنطق ، والعين للنظر ، والأذن للسمع . وقيل : أعطى كل شيء ما ألهمه من علم أو صناعة . وقال الفراء : خلق الرجل للمرأة ، ولكل ذكر ما يوافقه من الإناث ، ثم هـدى الذكر للأنثى . فالتقدير على هذا أعطى كل شيء مثل خلقه .

قلت : وهذا معنى قول ابن عباس . والآية بعمومها تتناول جميع الأقوال . وروى زائدة عن الأعمش أنه قرأ « الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ » بفتح اللام؛ وهي قراءة آبن أبي إسحق. ورواها نصير عن الكسائي وغيره ؛ أي أعطى بني آدم كل شيء خلقه مما يحتاجون إليـه . فالقراءتان متفقتان في المعنى .

قوله تعالى : قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾ قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَـٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾

فيـه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَمَا بَالُ ﴾ البـال الحال؛ أي ما حالها وما شأنها، فأعلمه أن علمها عند الله تعالى ، أي إن هـذا من علم الغيب الذي سألت عنـه ، وهو مما آستأثر الله تعالى به لا يعلمه إلا هو، وما أنا إلا عبد مثلك ؛ لا أعلم منه إلا ما أخبرني به علام الغيوب، وعلم أحوال القرون مكتوبة عنـد الله في اللوح المحفوظ . وقيـل : المعنى فما بال القرون الأولى لم يقروا بذلك . أي فما بالهم ذهبوا وقد عبدوا غير ربك . وقيل : إنمـا سأله عن أعمال القرون الأولى ، فأعلمه أنها محصاة عند الله تعالى، ومحفوظة عنده في كتاب . أي هي مكتوبة فسيجازيهم غدا بها وعليها . وعنى بالكتاب اللوح المحفوظ . وقيل: هو كتاب مع بعض الملائكة.

الثانيـــة — هـذه الآية ونظائرها مما تقدم ويأتي تدل على تدوين العلوم وكَتْبها لئـلا تُنْسى . فإن الحفظ قـد تعتريه الآفات من الغلط والنّسيان . وقد لا يحفظ الإنسان ما يسمع فيقيده لئلا يذهب عنه . وروينا بالإسناد المتصل عن قتادة أنه قيل له : أنكتب ما نسمع

منك ؟ قال : وما يمنعك أن تكتب وقد أخبرك اللطيف الخبير أنه يكتب ؛ فقال : «عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى» . وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لما قضى الله الخلق كتب فى كتابه على نفسه فهو موضوع عنده إن رحمتى تغلِب غضبى " . وأسند الخطيب أبو بكر عن أبى هريرة قال : كان رجل من الأنصار يجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم يستمع منه الحديث و يعجبه ولا يحفظه ، فشكا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا رسول الله ! إنى أسمع منك الحديث يعجبنى ولا أحفظه ؛ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : " آستعن بيمينك " وأومأ إلى الخطّ . وهـذا نصّ . وعلى جواز كَتْب العلم وتدوينه جمهور الصحابة والتابعين؛ وقد أمر صلى الله عليـه وسلم بكَتْب الخطبة التى خطب بهـا فى الحج لأبى شاه — رجل من اليمن — لما سأله كَتْبها . أخرجه مسلم . وروى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " قَيِّدوا العلمَ بالكتابة " . وقال معاوية بن قُرّة : من لم يكتب العلم لم يعد علمه علما . وقد ذهب قوم إلى المنع من الكَتْب ؛ فروى أبو نضرة قال قيل لأبى سعيد : أنكتب حديثكم هـذا ؟ قال : لم تجعـلونه قـرآنا ؟ ولكن آحفظوا كما حفظنا . وممن كان لا يكتب الشعبي ويونس بن عبيد وخالد الحذّاء — قال خالد : ما كتبت شيئا قط إلا حديثا واحدا، فلما حفظته محـوته — وآبن عون والزهرى . وقـد كان بعضهم يكتب فإذا حفظ محاه ؛ منهم محمد بن سيرين وعاصم بن ضَمْرة . وقال هشام بن حسان : ما كتبت حديثا قطّ إلا حديث الأعماق فلما حفظته محوته .

قلت : وقد ذكرنا عن خالد الحذّاء مثل هـذا . وحديث الأعمـاق خرجه مسلم فى آخر الكتاب : " لا تقوم الساعة حتى ينزل الروم بالأعماق(١) — أو — بدابق " الحديث ذكره فى كتاب الفتن . وكان بعضهم يحفظ ثم يكتب ما يحفظ ؛ منهم الأعمش وعبد الله بن أدريس وهشيم وغيرهم . وهذا آحتياط على الحفظ . والكَتْب أولى على الجملة ، و به وردت الآى والأحاديث ؛ وهو مروىّ عن عمر وعلى وجابر وأنس رضى الله عنهم ، ومن يليهم من كبراء التابعين كالحسن

(١) الأعماق : موضع من أطراف المدينة ؛ ودابق : اسم موضع سوق بها . والشك من الراوى .

وعطاء وطاوس وعروة بن الزبير، ومن بعدهم من أهل العلم ؛ قال الله تعالى : « وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ » . وقال تعالى : « وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » . وقال تعالى : « وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً » الآية . وقال تعالى : « وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ . وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ » . وقال : « عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ » إلى غير هذا من الآى . وأيضا فإن العلم لا يضبط إلا بالكتاب، ثم بالمقابلة والمدارسة والتعهد والتحفظ والمذاكرة والسؤال والفحص عن الناقلين والثقة بما نقلوا، و إنما كره الكَتْب من كره من الصدر الأول لقرب العهد، وتقارب الإسناد لئلا يعتمده الكاتب فيهمله، أو يرغب عن حفظه والعمل به؛ فأما والوقت متباعد، والإسناد غير متقارب، والطرق مختلفة، والنَّقَلة متشابهون، وآفة النسيان معترضة، والوهم غير مأمون؛ فإن تقييد العلم بالكتاب أولى وأشفى، والدليل على وجوبه أقوى؛ فإن آحتج محتج بحديث أبى سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لا تكتبوا عنى ومن كتب غير القرآن فليمحه " خرجه مسلم؛ فالجواب أن ذلك كان متقدما؛ فهو منسوخ بأمره بالكتابة، و إباحتها لأبى شاهٍ وغيره . وأيضا كان ذلك لئلا يخلط بالقرآن ما ليس منه . وكذا ما روى عن أبى سعيد أيضا — حرصنا أن يأذن لنا النبي صلى الله عليه وسلم فى الكتابة فأبى — إن كان محفوظا فهو قبل الهجرة، وحين كان لا يؤمن الآشتغال به عن القرآن .

الثالثة — قال أبو بكر الخطيب : ينبغى أن يكتب الحديث بالسواد؛ ثم الحبر خاصة دون المِداد[1] لأن السواد أصبغ الألوان ، والحبر أبقاها على مر الدهور . وهو آلة ذوى العلم ، وعدّة أهل المعرفة . ذكر عبد الله بن أحمد بن حنبل حدثنى أبى قال: رآنى الشافعى وأنا فى مجلسه وعلى قميصى حبر وأنا أخفيه؛ فقال : لم تخفيه وتستره ؟ إن الحبر على الثوب من المروءة لأن صورته فى الأبصار سواد، وفى البصائر بياض . وقال خالد بن يزيد: الحبر فى ثوب صاحب الحديث مثل الخَلُوق[2] فى ثوب العروس . وأخذ هذا المعنى أبو عبد الله البَلَوى فقال :

مِدادُ المحابرِ طيبُ الرجال * وطيب النساءِ من الزّعفرانْ
فهـذا يَليـق بأثواب ذَا * وهـذا يليقُ بثوب الحَصَانْ

(١) لافرق فى اللغة بين المداد والحبر؛ ولعل المراد الكتابة بالحبر الأسود خاصة ؛ فالتفرقة بحسب اللون على مايبدو.
(٢) الخلوق : طيب معروف يتخذ من الزعفران وغيره .

وذكر الماوردى أن عبد الله[(١)] بن سليمان فيما حكى ؛ رأى على بعض ثيابه أثر صفرة ؛ فأخذ من مداد الدواة وطلاه به ؛ ثم قال : المداد بنا أحسن من الزعفران ؛ وأنشد :

إنّما الزّعفرانُ عِطرُ العَذَارَى * ومِدادُ الدّوِىّ عِطرُ الرِّجالِ

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنْسَى ﴾ اختلف فى معناه على أقوال خمسة ؛ الأول : إنه ابتداء كلام ، تنزيه لله تعالى عن هاتين الصفتين . وقد كان الكلام تم فى قوله : « فى كتاب » . وكذا قال الزجاج ، وأن معنى « لا يضلّ » لا يهلك من قوله : « أَئِذَا ضَلَلْنَا فِى الْأَرْضِ » . « وَلَا يَنْسَى » شيئا ؛ نزّهه عن الهلاك والنّسيان . القول الثانى : « لَّا يَضِلُّ » لا يخطئ ؛ قاله ابن عباس ؛ أى لا يخطئ فى التدبير ، فمن أنظره فلحكمة أنظره ، ومن عاجله فلحكمة عاجله . القول الثالث : « لا يضل » لا يغيب . قال ابن الأعرابى : أصل الضلال الغَيبوبة ؛ يقال : ضلّ الناسى إذا غاب عنه حفظ الشىء . قال : ومعنى « لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنْسَى » أى لا يغيب عنه شىء ولا يغيب عن شىء . القول الرابع : قاله الزجاج أيضا وقال النحاس وهو أشبهها بالمعنى — : أخبر الله عز وجل أنه لا يحتاج إلى كتاب ؛ والمعنى ؛ لا يضل عنه علم شىء من الأشياء ولا معرفتها ، ولا ينسى ما علِمه منها .

قلت : وهذا القول راجع إلى معنى قول ابن الأعرابى . وقول خامس : إن « لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنْسَى » فى موضع الصفة لـ « كتاب » أى الكتاب غير ضال عن الله عز وجل ؛ أى غير ذاهب عنه . « وَلَا يَنْسَى » أى غير ناسٍ له فهما نعتان لـ « كتاب » . وعلى هذا يكون الكلام متصلا ، ولا يوقف على « كتاب » . تقول العرب : ضلّنى الشىء إذا لم أجده ، وأضللته أنا إذا تركته فى موضع فلم تجده فيه . وقرأ الحسن وقتادة وعيسى بن عمر وابن محيصن وعاصم الجَحْدرى وابن كثير فيما روى شبل عنه « لَا يُضِلُّ » بضم الياء على معنى لا يُضيعه ربى ولا ينساه . قال ابن عرفة : الضلالة عند العرب سلوك سبيل غير القصد ؛ يقال : ضلّ عن الطريق ، وأضل الشىء إذا أضاعه . ومنه قرأ من قرأ « لا يُضِلُّ رَبِّى » أى لا يُضيع ؛ هذا مذهب العرب .

---

(١) فى « أدب الدنيا والدين » : عبيد الله بن سليمان .

قوله تعالى : ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَٱرْعَوْا أَنْعَٰمَكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴿٥٤﴾ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴿٥٥﴾

قوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهَادًا[1] ﴾ « الذى » فى موضع نعت « لربى » أى لا يضل ربى الذى جعل . ويجوز أن يكون خبر ابتداء مضمر أى هو « الذى » . ويجوز أن يكون منصوبا بإضمار أعنى . وقرأ الكوفيون « مَهْدًا » هنا وفى « الزخرف » بفتح الميم وإسكان الهاء . الباقون « مِهَادًا » واختاره أبو عبيد وأبو حاتم لاتفاقهم على قراءة « أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا » . النحاس : والجمع أولى لأن « مهدا » مصدر وليس هذا موضع مصدر إلا على حذف ؛ أى ذات مهد . المهدوىّ : ومن قرأ « مَهْدًا » جاز أن يكون مصدرا كالفَرْش أى مَهَد لكم الأرض مَهْدًا ؛ وجاز أن يكون على تقدير حذف المضاف ؛ أى ذات مهد . ومن قرأ « مِهَادًا » جاز أن يكون مفردا كالفراش . وجاز أن يكون جمع « مهد » استعمل استعمال الأسماء فكسّر . ومعنى « مِهَادًا » أى فراشا وقرارا تستقرّون عليها . ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا ﴾ أى طرقا . نظيره « وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا . لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا » . وقال تعالى : « الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مِهَادًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ » . ﴿ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً ﴾ تقدم معناه . وهذا آخر كلام موسى ، ثم قال الله تعالى : ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ . وقيل : كله من كلام موسى ؛ والمعنى « فأخرجنا به » أى بالحرث والمعالجة ؛ لأن الماء المنزل سبب خروج النبات . ومعنى ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ ضروبا وأشباها ، أى أصنافا من النبات المختلفة الأزواج والألوان . وقال الأخفش : التقدير أزواجا شتى من نبات . قال : وقد يكون النبات شتى ؛ فـ« شتى » يجوز أن يكون نعتا لأزواج ، ويجوز أن يكون نعتا للنبات . و« شتّى »

(١) « مهادا » بالجمع قراءة « نافع » وعليها الأصل .

مأخوذ من شتَّ الشيءُ أى تفرق . يقال : أمر شَتٌّ أى متفرّق . وشَتَّ الأمرُ شتًّا وشَتاتًا تفرق ، وآستشتَّ مثله . وكذلك التَّشتت . وشتّته تَشْتِيتا فرّقه . وأَشتَّ بى قومى أى فرّقوا أمرى . والشَّتيت المتفرّق . قال رُؤْبة يصف إبلا :

جَاءتْ مَعًا وآطَّرَقتْ شَتِيتَا * وهى تُثيرُ السَّاطِعَ السِّخْتِيتَا(١)

وثَغر شَتيتٌ أى مُفلَّج . وقوم شَتَّى ، وأشياء شتَّى ، وتقول : جاءوا أشتاتا ؛ أى متفرقين ؛ واحدهم شتٌّ ؛ قاله الجوهرى .

قوله تعالى : ﴿كُلُوا وَآرْعَوْا أَنْعَامَكُمْ﴾ أمر إباحة . «وَآرْعَوْا» من رعت الماشية الكلأ ، ورعاها صاحبها رعاية ؛ أى أسامها وسرحها ؛ لازم ومتعد . ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ أى العقول . الواحدة نُهْيــة . قال لهم ذلك ؛ لأنهم الذين يُنْتهى إلى رأيهم . وقيل : لأنهم ينهون النفس عن القبائح . وهذا كله من موسى آحتجاج على فرعون فى إثبات الصانع جوابا لقوله : « فَمَنْ رَبُّكُمَا يَامُوسَى » . و بين أنه إنمـا يستدل على الصانع اليوم بأفعاله .

قوله تعالى : ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ يعنى آدم عليه السلام لأنه خلق من الأرض ؛ قاله أبو إسحق الزجاج وغيره . وقيل : كل نطفة مخلوقة من التراب ؛ على هذا يدل ظاهر القرآن . و روى أبو هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " مامن مولود إلا وقد ذُرَّ عليه من تراب حُفْرته" أخرجه أبو نعيم الحافظ فى باب ابن سيرين ، وقال : هذا حديث غريب من حديث عون لم نكتبه إلا من حديث أبى عاصم النبيل ، وهو أحد الثقات الأعلام من أهل البصرة . وقد مضى هذا المعنى مبينا فى سورة «الأنعام»(٢) عن ابن مسعود . وقال عطاء الخراسانى : إذا وقعت النطفة فى الرحم انطلق الملك الموكل بالرحم فأخذ من تراب المكان الذى يدفن فيه فيذرّه على النطفة ، فيخلق الله النّسمة من النّطفة ومن التراب ؛ فذلك قوله تعالى : « مِنها خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وِمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى » . وفى حديث البراء عن النبى صلى الله عليه وسلم : "إن العبد المؤمن إذا خرجت روحه صعدت به الملائكة فلا يمرون بها على ملإ من الملائكة

(١) السختيت : دقاق التراب : وهو الغبار الشديد الارتفاع . ويروى : « الشخنيتا » بالشين المعجمة .
(٢) راجع جـ ٦ ص ٣٨٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

إلا قالوا ما هذه الروح الطيبة فيقولون فلان بن فلان بأحسن أسمائه التى كانوا يسمونه بها فى الدنيا فيستفتحون لها فيفتح فيشيّعه من كل سماء مقرّبوها إلى السماء التى تليها حتى ينتهى بها إلى السماء السابعة فيقول الله عز وجل «اكتبوا لعبدى كتابا فى عِلّيين وأعيدوه إلى الأرض فإنى منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى» فتعاد روحه فى جسده " وذكر الحديث . وقد ذكرناه بتمامه فى كتاب «التذكرة» وروى من حديث على رضى الله عنه؛ ذكره الثعلبي . ومعنى ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ أى بعد الموت ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ ﴾ أى للبعث والحساب . ﴿ تَارَةً أُخْرَى ﴾ يرجع هذا إلى قوله : « مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ » لا إلى « نُعِيدُكُمْ » . وهو كقولك : اشتريت ناقة ودارا وناقة أخرى ؛ فالمعنى : من الأرض أخرجناكم ونخرجكم بعد الموت من الأرض تارة أخرى .

قوله تعالى : وَلَقَدْ أَرَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ ﴿٥٦﴾ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٥٧﴾ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى ﴿٥٨﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ ﴿٦٠﴾ قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا ﴾ أى المعجزات الدالة على نبوّة موسى . وقيل : حجج الله الدالة على توحيده . ﴿ فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴾ أى لم يؤمن . وهذا يدل على أنه كفر عنادا، لأنه رأى الآيات عيانا لا خبرا . نظيره « وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا » .

قوله تعالى : ﴿ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَامُوسَى ﴾ لما رأى الآيات التى أتاه بها موسى قال : إنها سحر، والمعنى : جئت لتوهم الناس أنك جئت بآية توجب اتباعك والإيمان بك، حتى تغلب على أرضنا وعلينا . ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ﴾ أى لنعارضنك

بمثل ماجئت به ليتبين للناس أن ما أتيت به ليس من عند الله. ﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ هو مصدر، أى وعدا. وقيل: الموعد اسم لمكان الوعد، كما قال تعالى: « وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ » فالموعد هاهنا مكان. وقيل: الموعد اسم لزمان الوعد، كقوله تعالى: « إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ » فالمعنى: اجعل لنا يوما معلوما، أو مكانا معروفا. قال القشيرى: والأظهر أنه مصدر ولهذا قال: ﴿لَا نُخْلِفُهُ﴾ أى لا نخلف ذلك الوعد، والإخلاف أن يعد شيئا ولا ينجزه. وقال الجوهرى: والميعاد المواعدة والوقت والموضع وكذلك المَوْعِد. وقرأ أبو جعفر ابن القعقاع وشيبة والأعرج « لَا نُخْلِفْهُ » بالجزم جوابا لقوله « ٱجْعَلْ ». ومن رفع فهو نعت لـ «موعد» والتقدير: موعدا غير مخلف. ﴿مَكَانًا سُوًى﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة «سُوًى» بضم السين. الباقون بكسرها، وهما لغتان مثل عُدًا وعِدًا وطُوًى وطِوًى. واختار أبو عبيد وأبو حاتم كسر السين لأنها اللغة العالية الفصيحة. وقال النحاس: والكسر أعرف وأشهر. وكلهم نونوا الواو، وقد روى عن الحسن، واختلف عنه ضم السين بغير تنوين. واختلف فى معناه فقيل: سوى هذا المكان، قاله الكلبى. وقيل: مكانا مستويا يتبيّن للناس ما بيّنا فيه، قاله ابن زيد. ابن عباس: نصفا. مجاهد: منصفا، وعنه أيضا وقتادة عَدلا بيننا وبينك. قال النحاس: وأهل التفسير على أن معنى « سِوًى » نَصَف وعَدْل وهو قول حسن، قال سيبويه يقال: سوى وسُوًى أى عَدْل، يعنى مكانا عَدْلا بين المكانين فيه النَّصَفة، وأصله من قولك: جلس فى سَواء الدار بالمدّ أى فى وسطها، ووسط كل شىء أعدله، وفى الحديث عن النبى صلى الله عليه وسلم: « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا » أى عدلا، وقال زهير:

أَرُونَا خُطَّةً لا ضَيْمَ فيها * يُسَوِّى بيننا فيها السَّوَاءُ

وقال أبو عبيدة والقتبى: وسطا بين الفريقين، وأنشد أبو عبيدة لموسى بن جابر الحنفى:

وإنّ أبانا كان حَلّ ببلدةٍ * سِوًى بين قيسٍ قيسِ عَيْلانَ والفِزْرِ

والفِزْر: سعد بن زيد مَناة بن تميم. وقال الأخفش: «سُوًى» إذا كان بمعنى غير أو بمعنى العدل يكون فيه ثلاث لغات: إن ضممت السين أو كسرت قصرت فيهما جميعا. وإن فتحت مددت، تقول: مكان سِوًى وسُوًى وسَواء، أى عدل ووسط فيما بين الفريقين. قال موسى بن جابر:

* وجدنا أبانا كان حَلَّ ببلدةٍ *

البيت . وقيل : « مكانا سوى » أى قصدا؛ وأنشد صاحب هذا القول :

لو تَمَنَّتْ حَبِيبتى ما عَـدَتْنِي * أو تَمَنَّيتُ ما عَدوتُ سِواها

وتقول : مررت برجل سِواك وسُوَاك وسَـوَائِك أى غيرك . وهما فى هذا الأمر سواء وإن شئت سواءان . وهم سواء للجمع وهم أسواء؛ وهم سواسية مثل ثمانية على غير قياس . وانتصب « مكانا » على المفعـول الثانى لـ « جعل » . ولا يحسن انتصابه بالموعد على أنه مفعـول أو ظرف له ؛ لأن الموعد قد وصف ، والأسماء التى تعمل عمل الأفعال إذا وصفت أو صغِّرت لم يسغ أن تعمل لخروجها عن شبه الفعل ، ولم يحسن حمله على أنه ظرف وقع موقع المفعول الثانى ؛ لأن الموعد إذا وقع بعده ظرف لم تجره العرب مجـرى المصادر مع الظروف ، لكنهم يتسعون فيه كقوله تعالى : « إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ » و« مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَـةِ » . واختلف فى يوم الزينة ، فقيل هو يوم عيد كان لهم يتزيَّنون ويجتمعون فيه ؛ قاله قتادة والسدى وغيرهما . وقال ابن عباس وسعيد بن جبير : كان يوم عاشوراء . وقال سعيد بن المسيّب : يوم سوق كان لهم يتزيَّنـون فيها ؛ وقاله قتادة أيضـا . وقال الضحاك : يوم السبت . وقيـل : يوم النيروز ؛ ذكره الثعلبي . وقيل : يومٌ يكسر فيه الخليج ؛ وذلك أنهم كانوا يخرجون فيه يتفرجون ويتنزهون ؛ وعند ذلك تأمن الديار المصرية من قِبل النيل . وقرأ الحسن والأعمش وعيسى الثقفى والسُّلَمى وهبيرة عن حفص « يَوْمَ الزِّينَـةِ » بالنصب . ورويت عن أبى عمرو ؛ أى فى يوم الزينـة إنجاز موعدنا . الباقون بالرفع على أنه خبر الابتـداء . ﴿ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى ﴾ أى وجمع الناس ؛ فـ « أَنْ » فى موضع رفع على قراءة من قرأ « يَوْمُ » بالرفع . وعطف « وَأَنْ يُحْشَرَ » يقوّى قراءة الرفع ؛ لأن « أَنْ » لا تكون ظرفا ، وإن كان المصـدر الصريح يكون ظرفا كمقدم الحاج ؛ لأن من قال : آتيك مقدم الحاج لم يقل آتيك أن يقدم الحاج . النحاس : وأولى من هـذا أن يكون فى موضع خفض عطفا على الزينـة . والضحا مؤنثـة تصغرها العرب بغير هاء لئلا يشبه تصغيرها تصغير ضحوة ؛ قاله النحاس . وقال الجوهرى :

ضحوة النهار بعد طلوع الشمس، ثم بعده الضُّحَا وهى حين تُشرق الشمس؛ مقصورة تؤنث وتذكّر؛ فمن أنث ذهب إلى أنها جمع ضحوة؛ ومن ذكّر ذهب الى أنه اسم على فُعَل مثل صُرَد ونُغَر؛ وهو ظرف غير متمكن مثل سحر؛ تقول : لقيته ضُحًا؛ وضُحَا إذا أردت به ضُحَا يومك لم تنونه، ثم بعده الضَّحاء ممدود مذكر، وهو عند ارتفاع النهار الأعلى . وخصّ الضُّحا لأنه أول النهار، فلو امتد الأمر فيا بينهم كان فى النهار متّسع . وروى عن ابن مسعود والجحدرى وغيرهما « وَأَنْ يَحْشُرَ النَّاسَ ضُحًا » على معنى وأن يحشر الله الناس ونحوه . وعن بعض القراء « وَأَنْ تَحْشُرَ الناس » والمعني وأن تحشر أنت يا فرعون الناس . وعن الجحدرى أيضا « وَأَنْ نَحْشُرَ » بالنون . وإنما واعدهم ذلك اليوم؛ ليكون علو كلمة الله، وظهور دينه، وكبت الكافر، وزهوق الباطل على رءوس الأشهاد، وفى المجمع الغاصّ لتقوى رغبة من رغب فى الحقّ، ويكلّ حدّ المبطلين وأشياعهم، ويُكثر المحدّثُ بذلك الأمر العلمَ فى كل بدو وحضر، ويشيع فى جمع أهل الوَبَر والمدَر .

قوله تعالى : ﴿ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ أى حيله وسحره؛ والمراد جَمْع السّحرة . قال ابن عباس : كانوا اثنين وسبعين ساحرا، مع كل ساحر منهم حبال وعصىّ . وقيل : كانوا أربعمائة . وقيل : كانوا اثنى عشر ألفا . وقيل : أربعة عشر ألفا . وقال ابن المنكدر : كانوا ثمانين ألفا . وقيل : كانوا مجمعين على رئيس يقال له شمعون . وقيل : كان اسمه يوحنا معه اثنا عشر نقيبا، مع كل نقيب عشرون عريفا، مع كل عريف ألف ساحر . وقيل : كانوا ثلثمائة ألف ساحر من الفيوم، وثلثمائة ألف ساحر من الصعيد، وثلثمائة ألف ساحر من الريف، فصاروا تسعمائة ألف، وكان رئيسهم أعمى . ﴿ ثُمَّ أَتَى ﴾ أى أتى الميعاد . ﴿ قَالَ لَهُمْ مُوسَى ﴾ أى قال لفرعون والسحرة ﴿ وَيْلَكُمْ ﴾ دعاء عليهم بالويل . وهو بمعنى المصدر . وقال أبو إسحق الزجاج : هو منصوب بمعنى ألزمهم الله وَيْلا . قال : ويجوز أن يكون نداء كقوله تعالى : « يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا » . ﴿ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا ﴾ أى لا تختلقوا عليه الكذب، ولا تشركوا به، ولا تقولوا للعجزات إنها سحر . ﴿ فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ ﴾ من عنده أى يستأصلكم بالإهلاك .

يقال فيه : سَحَت وأَسْحَت بمعنًى . وأصله من آستقصاء الشَّعْر . وقرأ الكوفيون « فَيُسْحِتَكُمْ » من أَسْحَت ، الباقون «فَيَسْحَتَكُمْ» من سَحَت وهذه لغة أهل الحجاز و[الأولى لغـة](١) بنى تميم . وانتصب على جواب النهى . وقال الفرزدق :

وعَضّ زمانٍ يابنَ مَرْوانَ لم يَدَعْ * من المالِ إِلَّا مُسْـحَتًا(٢) أو مُجَلَّفُ(٣)

الزمخشرى : وهذا بيت لا تزال الركب تصطك فى تسوية إعرابه . ﴿وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾ أى خسر وهلك ، وخاب من الرحمة والثواب من آدعى على الله مالم يأذن به .

قوله تعـالى : فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَىٰ ﴿٦٢﴾ قَالُوٓاْ إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾ فَأَجْمِعُواْ كَيْدَكُمْ ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ ﴿٦٤﴾

قوله تعـالى : ﴿ فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ أى تشاوروا ؛ يريد السّحرة . ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى ﴾ قال قتادة ﴿ قَالُوا ﴾ : إن كان ما جاء به سحرا فسنغلبه ، و إن كان من عنـد الله فسيكون له أمر ؛ وهـذا الذى أسروه . وقيل الذى أسروا قولهم : « إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ » الآية ، قاله السدى ومقاتل . وقيـل الذى أسروا قولهم : إن غَلَبَنا اتبعناه ؛ قاله الكلبى ؛ دليله ما ظهر من عاقبـة أمرهم . وقيل : كان سرهم أن قالوا حين قال لهم موسى « وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللهِ كَذِبًا » : ما هذا بقول ساحر . و « النجوى » المناجاة يكون آسما ومصدرا ؛ وقد تقدم فى « النساء »(٤) بيانه .

---

(١) الزيادة من كتب التفسير .	(٢) ويروى : « إلا مسحت » ومن رواه كذلك جعل معنى « لم يدع » لم يتقار ؛ ومن رواه « إلا مسحتا » جعل « لم يدع » بمعنى لم يترك . ورفع « مجلف » بإضمار ؛ كأنه قال : أو هو مجلف . « اللسان » .	(٣) المجلف : الذى بقيت منه بقية .	(٤) راجع جـ ٥ ص ٣٨٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ إِنْ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ ﴾ قرأ أبو عمرو « إِنَّ هَذَيْنِ لَسَاحِرَانِ » . وروىت عن عثمان وعائشة رضى الله عنهما وغيرهما من الصحابة ؛ وكذلك قرأ الحسن وسعيد بن جبير وإبراهيم النَّخَعىّ وغيرهم من التابعين ؛ ومن القراء عيسى بن عمر وعاصم الجحدرى ؛ فيما ذكر النحاس . وهذه القراءة موافقة للإعراب مخالفة للصحف . وقرأ الزهرىّ والخليل بن أحمد والمفضل وأبان وابن محيصن وابن كثير وعاصم فى رواية حفص عنه « إِنْ هَذَانِ » بتخفيف «إن» «لساحران» وابن كثير يشدّد نون «هذانّ» . وهذه القراءة سلمت من مخالفة المصحف ومن فساد الإعراب، ويكون معناها ما هذان إلا ساحران . وقرأ المدنيون والكوفيون « إِنَّ هَـذَانِ » بتشديد « إنّ » « لساحران » فوافقوا المصحف وخالفوا الإعراب . قال النحاس : فهذه ثلاث قراءات قد رواها الجماعة عن الأئمة، وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قرأ « إِنْ هذانِ إِلّا ساحِرانِ » وقال الكسائى فى قراءة عبد الله : « إِنْ هَذَانِ سَاحِرَانِ » بغير لام ؛ وقال الفراء فى حرف أبىّ « إِنْ ذَانِ إِلَّا سَاحِرَانِ » فهذه ثلاث قراءات أخرى تحمل على التفسير لا أنها جائز أن يقرأ بها لمخالفتها المصحف .

قلت : وللعلماء فى قراءة أهل المدينة والكوفة ستة أقوال ذكرها ابن الأنبارى فى آخر كتاب الرّدّ له، والنحاس فى إعرابه، والمهدوى فى تفسيره، وغيرهم أدخل كلام بعضهم فى بعض . وقد خطأها قوم حتى قال أبو عمرو : إنى لأستحى من الله أن أقرأ « إِنَّ هَذَانِ » : وروى عروة عن عائشة رضى الله عنها أنها سئلت عن قوله تعالى : « لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ » ثم قال : « والمقيمين » وفى « المائدة » « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ » و « إِنَّ هَـذَانِ لَسَاحِرَانِ » فقالت : يابن أختى ! هـذا خطأ من الكاتب . وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه : فى المصحف لحن وستقيمه العرب بألسنتهم . وقال أبان بن عثمان : قرأت هذه الآية عند أبى عثمان بن عفان، فقال : لحن وخطأ ؛ فقال له قائل : ألا تغيّروه؟ فقال : دَعُوه فإنه لا يحرّم حلالا ولا يحلّل حراما . القول الأول من الأقوال الستة أنها لغة بنى الحرث بن كعب وزَبيد وخَثْعم وكنانة بن زيد يجعلون رفع الاثنين ونصبه وخفضه بالألف ؛

يقولون: جاء الزيدان ورأيت الزيدان ومررت بالزيدان، ومنه قوله تعالى: «وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ» على ما تقدّم[1]. وأنشد الفراء لرجل من بنى أسد[2] — قال: وما رأيت أفصح منه:

فأَطرقَ إطراقَ الشُّجاعِ ولو يَرَى * مَساغًا لِنَاباهُ الشُّجاعُ لَصَمَّما[3]

ويقولون: كسرت يداه وركبت عَلَاه؛ بمعنى يديه وعليه؛ قال شاعرهم[4]:

تَزَوَّدَ مِنّا بين أُذْنَاه ضَرْبةً * دعته إلى هابِي التُّرابِ عَقِيم

وقال آخر[5]: * طَارُوا عَلَاهُنَّ فَطِرْ عَلَاهَا *

أى عليهنّ وعليها.

وقال آخر[6]: إنّ أَبَاهَا وأَبَا أَبَاهَا * قد بَلَغَا فى المجدِ غايتاها

أى إن أبا أبيها وغايتها. قال أبو جعفر النحاس: وهذا القول من أحسن ما حملت عليه الآية؛ إذ كانت هذه اللغة معروفة، وقد حكاها من يرتضى بعلمه وأمانته؛ منهم أبو زيد الأنصارى، وهو الذى يقول: إذا قال سيبويه حدّثنى من أثق به فإنما يعنينى؛ وأبو الخطاب الأخفش وهو رئيس من رؤساء اللغة، والكسائى والفراء كلهم قالوا هذا على لغة بنى الحرث بن كعب. وحكى أبو عبيدة عن أبى الخطاب أن هذه لغة بنى كنانة. المهدوى: وحكى غيره أنها لغة لخثعم. قال النحاس ومن أبين ما فى هذا قول سيبويه: وآعلم أنك إذا ثنيت الواحد زدت عليه زائدتين، الأولى منهما حرف مدّ ولين وهو حرف الإعراب؛ قال أبو جعفر فقول سيبويه: وهو حرف الإعراب، يوجب أن الأصل ألا يتغير، فيكون «إِنَّ هَذَانِ» جاء

---

(١) راجع جـ ٨ ص ٣٢٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية. (٢) هو المتلمس كما فى «اللسان». (٣) صمم الشجاع فى عضته: أى عض ونيب فلم يرسل ما عض. (٤) هو هوبر الحارثى. والهابى من التراب ما آرتفع ودق. (٥) قيل: هو لبعض أهل اليمن، وأن قبله:

أىّ قلوص راكب تراها * طاروا علاهن فطر علاها
وآشدد بمثنى حقب حقواها * ناجية وناجيا أباها

والحقو: الخاصرة. والناجية: السريعة. (٦) نسبه الجوهرى لأبى النجم، وأن قبله:

واها لسلمى ثم واها واها * هى المنى لو أننا نلناها
يا ليت عيناها لنا وفاها * بثمن نرضى به أباها

إن أباها ... الخ. ونسبه بعضهم لرؤبة. وقيل: لبعض أهل اليمن؛ وأن قبله:

أى قلوص راكب تراها * طاروا علاهن ... الخ.

على أصله ليعلم ذلك ، وقد قال تعالى : « ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَانُ » ولم يقل آستحاذ ؛ فجاء هذا ليدل على الأصل ، وكذلك « إِنَّ هَٰذَانِ » ولا يفكر فى إنكار من أنكر هذه اللغة إذا كان الأئمة قد رووها . القول الثانى : أن يكون « إنّ » بمعنى نعم ؛ كما حكى الكسائى عن عاصم قال : العرب تأتى بـ « إنّ » بمعنى نعم ، وحكى سيبويه أن « إنّ » تأتى بمعنى أَجَلْ ، وإلى هذا القول كان محمد بن يزيد ، وإسمعيل بن إسحق القاضى يذهبان ؛ قال النحاس : ورأيت أبا إسحق الزجاج وعلى بن سليمان يذهبان إليه . الزمخشرى : وقد أعجب به أبو إسحق . النحاس : وحدّثنا علىّ بن سليمان ، قال حدّثنا عبد الله بن أحمد بن عبد السلام النيسابورىّ ، ثم لقيت عبد الله بن أحمد [هذا[1]] فحدّثنى ، قال حدّثنى عمير بن المتوكل ، قال حدثنا محمد بن موسى النوفلى من ولد حرث بن عبد المطلب ، قال حدثنا عمر بن جميع الكوفى عن جعفر بن محمد عن أبيه عن علىّ — وهو ابن الحسين — عن أبيه عن علىّ بن أبى طالب رضوان الله عليهم أجمعين ، قال : لا أحصى كم سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول على منبره : " إنّ الحمدُ لله نحمده ونستعينه " ثم يقول : " أنا أفصح قريش كلها وأفصحها بعدى أبان بن سعيد بن العاص " قال أبو محمد الخفاف قال عمير : إعرابه عند أهل العربية والنحو " إنّ الحمد لله " بالنصب إلا أن العرب تجعل « إن » فى معنى نعم ، كأنه أراد صلى الله عليه وسلم نعم الحمد لله ؛ وذلك أن خطباء الجاهلية كانت تفتتح خطبها بنعم . وقال الشاعر فى معنى نعم :

قالوا غَدَرْتَ فقلتُ إنّ وربّما * نَالَ العُلَا وشَفَى الغَليلَ الغادِرُ

وقال عبد الله بن قيس الرُّقيات :

بَكَرَ العواذلُ فى الصَّبا * حِ يَلُمْنَنِي وأَلُومُهُنَّهْ
ويَقلْنَ شيبٌ قد عَلَا * كَ وقد كَبِرتَ فقلتُ إنَّهْ

فعلى هذا جائز أن يكون قول الله عز وجل : « إِنَّ هَٰذَانِ لَسَاحِرَانِ » بمعنى نعم ولا تنصب . قال النحاس : أنشدنى داود بن الهيثم ، قال أنشدنى ثعلب :

ليت شعرى هل للمحبّ شفاء * من جَوَى حبّهن إنَّ اللقاءُ

(١) الزيادة من « إعراب القرآن » للنحاس .

قال النحاس : وهذا قول حسن إلا أن فيه شيئا لأنه إنما يقال : نعم زيد خارج ، ولا تكاد تقع اللام هاهنا ، وإن كان النحويون قد تكلموا فى ذلك فقالوا : اللام ينوى بها التقديم ؛ كما قال :

خالِى لأنتَ ومَنْ جريرٌ خالُه * يَنلِ العَلَاء ويُكْرِمِ الأَخوالَا

آخر :

أمُّ الحُلَيْسِ لَعَجُوزٌ شَهْرَبَهْ * تَرْضَى من الشَّاةِ بعَظْمِ الرَّقَبَهْ

أى لخالى ولأمّ الحليس ؛ وقال الزجاج : والمعنى فى الآية إن هـذان لهما ساحران ثم حذف المبتدأ . المهدوى : وأنكره أبو علىّ وأبو الفتح بن جنىّ . قال أبو الفتح : « هما » المحذوف لم يحذف إلا بعد أن عُرِف ، وإذا كان معروفا فقد آستغنى بمعرفته عن تأكيده باللام ، ويقبح أن تحذف المؤكَّد وتترك المؤكِّد . القول الثالث قاله الفراء أيضا : وجدت الألف دعامة ليست بلام الفعل ، فزدت عليها نونا ولم أغيرها ، كما قلت : « الذى » ثم زدت عليه نونا فقلت : جاءنى الذين عندك ، ورأيت الذين عندك ، ومررت بالذين عندك . القـول الرابع قاله بعض الكوفيين ؛ قال : الألف فى «هذان» مشبهة بالألف فى يفعلان ؛ فلم تغير . القول الخامس : قال أبو إسحق : النحويون القدماء يقولون الهـاء هاهنا مضمرة ، والمعنى : إنه هذان لساحران ؛ قال ابن الأنبارى : فأضمرت الهاء التى هى منصوب « إن » و « هـذان » خبر « إن » و « ساحران » يرفعها « هما » المضمر [والتقدير](١) إنه هذان لهما ساحران . والأشبه عند أصحاب أهل هذا الجواب أن الهاء اسم « إن » و « هذان » رفع بالآبتداء وما بعده خبر الآبتداء . القول السادس : قال أبو جعفر النحاس وسألت أبا الحسن بن كيسان عن هذه الآية ، فقال : إن شئت أجبتك بجواب النحويين ، وإن شئت أجبتك بقولى ؛ فقلت : بقولك ؛ فقال : سألنى إسمعيل بن إسحق عنها فقلت : القول عندى أنه لمـا كان يقال «هذا» فى موضع الرفع والنصب والخفض على حال واحدة ، وكانت التثنية يجب ألا يغير لها الواحد ، أجريت التثنية مجرى الواحدة ؛ فقال : ما أحسن هذا لو تقدمك أحد بالقول به حتى يؤنس به ؛ قال ابن كيسان : فقلت له : فيقول القاضى به حتى يؤنس به ؛ فتبسم .

---

(١) الزيادة يقتضيها السياق .

قوله تعالى : ﴿ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ﴾ هذا من قول فرعون للسحرة ؛ أى غرضهما إفساد دينكم الذى أنتم عليه ؛ كما قال فرعون : « إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ » . ويقال : فلان حسن الطريقة أى حسن المذهب . وقيل : طريقة القوم أفضل القول ؛ وهذا الذى ينبغى أن يسلكوا طريقته ويقتدوا به ؛ فالمعنى : ويذهبا بسادتكم ورؤسائكم ؛ ٱستمالة لهم . أو يذهبا ببنى إسرائيل وهم الأماثل وإن كانوا خولا لكم لما يرجعون إليه من الٱنتساب إلى الأنبياء . أو يذهبا بأهل طريقتكم فحذف المضاف . و « المثلى » تأنيث الأمثل ؛ كما يقال الأفضل والفضلى . وأنث الطريقة على اللفظ ، وإن كان يراد بها الرجال . ويجوز أن يكون التأنيث على الجماعة . وقال الكسائى : « بطريقتكم » بسنتكم وسمتكم . و « المثلى » نعت كقولك آمرأة كبرى . تقول العرب : فلان على الطريقة المثلى يعنون على الهدى المستقيم .

قوله تعالى : ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ﴾ الإجماع الإحكام والعزم على الشيء . تقول : أجمعت الخروج وعلى الخروج أى عزمت . وقراءة كل الأمصار « فَأَجْمِعُوا » إلا أبا عمرو فإنه قرأ « فَاجْمَعُوا » بالوصل وفتح الميم . وآحتج بقوله : « فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَى » . قال النحاس وفيما حُكى لى عن محمد بن يزيد أنه قال : يجب على أبى عمرو أن يقرأ بخلاف قراءته هذه ، وهى القراءة التى عليها أكثر الناس . قال : لأنه احتج بـ « جمع » وقوله عز وجل : «فجمع كيده» قد ثبت هذا فيبعد أن يكون بعده «فَاجْمَعُوا» ويقرب أن يكون بعده «فَأَجْمِعُوا» أى آعزموا وجدّوا؛ ولما تقدم ذلك وجب أن يكون هذا بخلاف معناه يقال : أمر مجمع ومُجمَع عليه . قال النحاس : ويصحح قراءة أبى عمرو « فَاجْمَعُوا » أى آجمعوا كل كيد لكم وكل حيلة فضُمّوه مع أخيه . وقاله أبو إسحق . الثعلبى : القراءة بقطع الألف وكسر الميم لها وجهان : أحدهما — بمعنى الجمع ، تقول : أجمعت الشيء وجمعته بمعنى واحد ، وفى الصحاح : وأجمعت الشيء جعلته جميعا ؛ قال أبو ذؤيب يصف حُمُرا :

فكأنّها بالجِزْعِ بَيْنَ نُبَايِعٍ (1) * وأولاتِ ذى العَرْجاءِ نَهْبٌ مُجمَعُ

(1) نبايع : اسم مكان أو جبل أو واد فى بلاد هذيل ، ويجمع على « نبايعات » .

أى مجموع . والثانى — أنه بمعنى العزم والإحكام؛ قال الشاعر :

يا ليت شِعرِى والمُنَى لا تنفعُ * هل أغدُوَن يومًا وأمرِى مُجمَعُ

أى مُحكَم . ﴿ ثُمَّ آئتُوا صَفًّا ﴾ قال مقاتل والكلبى : جميعا . وقيل : صفوفا ليكون أشد لهيبتكم . وهو منصوب بوقوع الفعل عليه على قول أبى عبيدة؛ قال يقال : أتيت الصّفّ يعنى المصلَّى؛ فالمعنى عنده آئتوا الموضع الذى تجتمعون فيه يوم العيد . وحكى عن بعض فصحاء العرب : ما قدرت أن آتى الصفّ؛ يعنى المصلَّى . وقال الزجاج : يجوز أن يكون المعنى ثم آئتوا والناس مصطفون؛ فيكون على هذا مصدرا فى موضع الحال . ولذلك لم يجمع . وقرئ « ثُمِّ ايتُوا » بكسر الميم وياء . ومن ترك الهمز أبدل من الهمزة ألفا . ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى ﴾ أى من غلب . وهذا كله من قول السحرة بعضهم لبعض . وقيل : من قول فرعون لهم .

قوله تعالى : قَالُواْ يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴿٦٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُواْ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴿٦٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴿٦٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٦٨﴾ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَـٰحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَـٰرُونَ وَمُوسَىٰ ﴿٧٠﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَـٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ﴿٧١﴾

قوله تعالى: ﴿ قَالُوا يَا مُوسَى ﴾ يريد السحرة . ﴿ إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ ﴾ عصاك من يدك ﴿ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴾ تأدبوا مع موسى فكان ذلك سبب إيمانهم . ﴿ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ ﴾ فى الكلام حذف، أى فألقوا؛ دل عليه المعنى . وقرأ الحسن ﴿ وَعُصِيُّهُمْ ﴾ بضم العين . قال هرون القارئ : لغة بنى تميم « وعُصِيُّهُمْ » وبها يأخذ الحسن . الباقون بالكسر إتباعا لكسرة الصاد . ونحوه دُلِيّ ودِلِيّ وقُسى وقِسى . ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴾ . وقرأ ابن عباس وأبو حيوة وابن ذكوان وروح عن يعقوب « تُخَيَّلُ » بالتاء؛ وردّوه إلى العصىّ والحبال إذ هى مؤنثة . وذلك أنهم لطخوا العصىّ بالزئبق، فلما أصابها حرّ الشمس ٱرتهشت وٱهتزّت . قال الكلبي : خُيِّل إلى موسى أن الأرض حيّات وأنها تسعى على بطنها . وقرئ « تَخَيَّلُ » بمعنى تتخيل وطريقه طريق « تُخَيَّلُ » ومن قرأ « يُخَيَّلُ » بالياء رده إلى الكيد . وقرئ « نُخَيِّلُ » بالنون على أن الله هو المخيِّل للمحنة والابتلاء . وقيل : الفاعل « أَنَّهَا تَسْعَى » فـ « أنّ » فى موضع رفع؛ أى يخيّل إليه سعيها؛ قاله الزجاج . وزعم الفراء أن موضعها موضع نصب؛ أى بأنها ثم حذف الباء . والمعنى فى الوجه الأول : تشبّه إليه من سحرهم وكيدهم حتى ظن أنها تسعى . وقال الزجاج : ومن قرأ بالتاء جعل «أنّ» فى موضع نصب أى تَخيّل إليه ذاتَ سعى . قال : ويجوز أن تكون فى موضع رفع بدلا من الضمير فى «تخيّل» وهو عائد على الحبال والعصىّ، والبدل فيه بدل اشتمال . و «تسعى» معناه تمشى .

قوله تعالى : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴾ أى أضمر . وقيل : وجد . وقيل : أحسّ . أى من الحيات وذلك على مايعرض من طباع البشر على ماتقدم . وقيل : خاف أن يفتتن الناس قبل أن يلق عصاه . وقيل : خاف حين أبطأ عليه الوحى بإلقاء العصا أن يفترق الناس قبل ذلك فيفتتنوا . وقال بعض أهل الحقائق : إنما كان السبب أن موسى عليه السلام لما التقى بالسحرة وقال لهم : « وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ » التفت فإذا جبريل على يمينه فقال له ياموسى ترَفّق بأولياء الله . فقال موسى : ياجبريل هؤلاء سحرة جاءوا بسحر عظيم ليبطلوا المعجزة، وينصروا دين فرعون، ويردّوا دين الله، تقول : ترَفّق

بأولياء الله ! فقال جبريل : هم من الساعة إلى صلاة العصر عندك، و بعد صلاة العصر في الجنة . فلما قال له ذلك ، أوجس في نفس موسى ، وخطر أن مايدريني ماعلم الله فيّ ، فلعلّي أكون الآن في حالة، وعلم الله فيّ على خلافها كما كان هؤلاء . فلمّا علم الله مافي قلبه أوحى الله إليه ﴿ لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ ﴾ أي الغالب لهم في الدنيا، وفي الدرجات العلا في الجنة؛ للنبوة والاصطفاء الذي آتاك الله به . وأصل « خيفة » خِوْفة فانقلبت الواو ياء لانكسار الخاء .

قوله تعالى : ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفْ[1] مَا صَنَعُوا﴾ ولم يقل وألق عصاك، فجائز أن يكون تصغيرا لها؛ أي لاتبال بكثرة حبالهم وعصيّهم، وألق العُوَيد الفَرْد الصغير الجِرْم الذي في يمينك، فإنه بقدرة الله يتلقّفها على وحدته وكثرتها ، وصغره وعظمها . وجائز أن يكون تعظيما لها أي لا تحفل بهذه الأجرام الكثيرة الكبيرة فإن في يمينك شيئا أعظم منها كلها، وهذه على كثرتها أقل شيء وأنزره عندها؛ فألقه يتلقّفها بإذن الله ويمحقها . و « تَلَقَّفْ » بالجزم جواب الأمر؛ كأنه قال : إن تلقه تتلقّف؛ أي تأخذ وتبتلع . وقرأ السُّلَميّ وحفص « تَلْقَفْ » ساكنة اللام من لَقِف يَلْقَف لَقْفا . وقرأ ابن ذكوان وأبو حيوة الشامي ويحيي بن الحرث «تَلَقَّفُ» بحذف التاء ورفع الفاء، على معنى فإنها تتلقف . والخطاب لموسى . وقيل : للعصا. واللقف الأخذ بسرعة. يقال : لَقِفتُ الشيء (بالكسر) ألقفه لَقْفا، وتلقفته أيضا أي تناولته بسرعة. عن يعقوب : يقال رجل لَقِف ثَقِف أي خفيف حاذق . واللَّقَف (بالتحريك) سقوط الحائط . ولقد لقِف الحوضُ لَقَفا أي تهوّر من أسفله واتسع . وتَلْقف وتَلْقم وتَلْهم بمعنى . وقد مضى في « الأعراف »[2] . لقمت اللُّقمة (بالكسر) لَقْما، وتَلَقَّمتها إذا ابتلعتها في مهلة . وكذلك لَهِمه (بالكسر) إذا ابتلعه . ﴿ مَا صَنَعُوا ﴾ أي الذي صنعوه وكذا ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا ﴾ أي إن الذي صنعوه . ﴿ كَيْدُ ﴾ بالرفع ﴿ سِحْرٍ ﴾ بكسر السين وإسكان الحاء؛ وهي قراءة الكوفيين إلا عاصما . وفيه وجهان : أحدهما — أن يكون الكيد مضافا إلى السحر

---

(١) « تلقف » بالتشديد قراءة « نافع » .　　(٢) راجع جـ ٧ ص ٢٥٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

على الإتباع من غير تقدير حذف . والثانى — أن يكون فى الكلام حذف أى كيد ذى سحر. وقرأ الباقون « كَيْدَ » بالنصب بوقوع الصنع عليه، و « ما » كافة ولا تضمر هاء[1] « ساحِرٍ » بالإضافة . والكيد فى الحقيقة على هذه القراءة مضاف للساحر لا للسحر . ويجوز فتح « أنّ » على معنى لأن ماصنعوا كيد ساحر . ﴿ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴾ أى لا يفوز ولا ينجو حيث أتى من الأرض . وقيل : حيث احتال . وقد مضى فى « البقرة »[2] حكم الساحر ومعنى السحر فتأمله هناك .

قوله تعالى : ﴿ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴾ لما رأوا من عظيم الأمر وخرق العادة فى العصا؛ فإنها ٱبتلعت جميع ما ٱحتالوا به من الحبال والعصىّ؛ وكانت حمل ثلثمائة بعير ثم عادت عصًا لا يعلم أحد أين ذهبت الحبال والعصىّ إلا الله تعالى . وقد مضى فى «الأعراف»[3] هذا المعنى وأمر العصا مستوفى . ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى . قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ ﴾ أى به ؛ يقال : آمن له وآمن به؛ ومنه « فَآمَنَ لَهُ لُوطٌ » وفى الأعراف « قَالَ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ » . إنكار منه عليهم؛ أى تعديتم وفعلتم مالم آمركم به . ﴿ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ﴾ . أى رئيسكم فى التعليم ، وإنما غلبكم لأنه أحذق به منكم . وإنما أراد فرعون بقوله هذا ليشبه على الناس حتى لا يتبعوهم فيؤمنوا كإيمانهم ، و إلا فقد علم فرعون أنهم لم يتعلموا من موسى، بل قد علموا السحر قبل قدوم موسى وولادته . ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ ﴾ أى على جذوع النخل . قال سويد بن أبى كاهل :

هُمُ صَلَبُوا العبدىّ فى جذع نخلةٍ * فلا عَطَسَتْ شيبانُ إلا بأَجْدَعَا

فقطّع وصلّب حتى ماتوا رحمهم الله تعالى . وقرأ ابن محيصن هنا وفى الأعراف « فَلَأَقْطَعَنَّ » ، « وَلَأَصْلِبَنَّكُمْ » بفتح الألف والتخفيف من قطَع وصلَب . ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴾ يعنى أنا أم ربُّ موسى .

---

(١) العبارة هنا على إطلاقها تفيد أن هذه قراءة الجمهور، والجمهور قرأ « كيد ساحر » برفع « كيد » كما فى «البحر» وغيره؛ قال فى البحر: وقرأ الجمهور « كيد » بالرفع .

(٢) راجع جـ ٢ ص ٤٣ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٣) راجع جـ ٧ ص ٢٥٩ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : قَالُوا لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿٧٣﴾ إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾ وَمَن يَأْتِهِۦ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَٰتُ ٱلْعُلَىٰ ﴿٧٥﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴿٧٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا ﴾ يعنى السّحرة ﴿ لَنْ نُؤْثِرَكَ ﴾ أى لن نختارك ﴿ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ ﴾ قال ابن عباس : يريد من اليقين والعلم . وقال عكرمة وغيره : لما سجدوا أراهم الله فى سجودهم منازلهم فى الجنة؛ فلهذا قالوا « لن نؤثرك » . وكانت امرأة فرعون تسأل من غلب ، فقيل لها : غلب موسى وهرون ؛ فقالت : آمنت برب موسى وهرون . فأرسل إليها فرعون فقال : انظروا أعظم صخرة فإن مضت على قولها فألقوها عليها ؛ فلما أتوها رفعت بصرها إلى السماء فأبصرت منزلها فى الجنة، فمضت على قولها فانتزع روحها، وألقيت الصخرة على جسدها وليس فى جسدها روح . وقيل : قال مقدم السّحرة لمن يثق به لما رأى من عصا موسى ما رأى : انظر إلى هذه الحية هل تخوفت (١) فتكون جنياً أو لم تتخوف فهى من صنعة الصانع الذى لا يعزب عليه مصنوع ؛ فقال : ما تخوفت ؛ فقال : آمنت برب هرون وموسى . ﴿ وَالَّذِى فَطَرَنَا ﴾ قيل : هو معطوف على « مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ » أى لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات ولا على الذى فطرنا أى خلقنا . وقيل : هو قسم أى والله لن نؤثرك . ﴿ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ﴾ التقدير ما أنت قاضيه . وليست « ما » ها هنا التى تكون مع الفعل بمنزلة المصدر، لأن تلك توصل بالأفعال، وهذه موصولة بابتداء وخبر .

(١) فى نسخة « تجوفت — أو لم تجوف — ما تجوفت » بالجيم .

قال ابن عباس : فاصنع ما أنت صانع . وقيل : فاحكم ما أنت حاكم ؛ أى من القَطْع والصَّلْب . وحذفت الياء من قاض فى الوصل لسكونها وسكون التنوين . واختار سيبويه إثباتها فى الوقف لأنه قد زالت علة الساكنين . ﴿ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴾ أى إنما ينفذ أمرك فيها . وهى منصوبة على الظرف ، والمعنى : إنما تقضى فى متاع هذه الحياة الدنيا . أو وقت هذه الحياة الدنيا ، فتقدر حذف المفعول . ويجوز أن يكون التقدير : إنما تقضى أمور هذه الحياة الدنيا ، فتنتصب انتصاب المفعول و « ما » كافة لإنّ . وأجاز الفراء الرفع على أن تجعل « ما » بمعنى الذى وتحذف الهاء من تقضى ورفعت « هـذه الحياة الدنيا » . ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا ﴾ أى صدقنا بالله وحده لا شريك له وما جاءنا به موسى ﴿ لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ﴾ يريدون الشِّرْك الذى كانوا عليه . ﴿ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ﴾ « ما » فى موضع نصب معطوفة على الخطايا . وقيل : لا موضع لها وهى نافية ؛ أى ليغفر لنا خطايانا من السّحر وما أكرهتنا عليه . النحاس : والأول أولى . المهدوى : وفيه بعد ؛ لقولهم : « إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ » وليس هذا بقول مُكْرَهين ؛ ولأن الإكراه ليس بذنب ، وإن كان يجوز أن يكونوا أكرهوا على تعليمه صغارا . قال الحسن : كانوا يعلَّمون السحر أطفالا ثم عملوه مختارين بعد . ويجوز أن يكون « ما » فى موضع رفع بالابتداء ويضمر الخبر ، والتقدير : وما أكرهتنا عليه من السحر موضوع عنّا . و « من السـحر » على هـذا القول والقول الأوّل يتعلق بـ « أكرهتنا » . وعلى أنّ « ما » نافية يتعلق بـ « خطايانا » . ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ أى ثوابه خير وأبقى فحذف المضاف ؛ قاله ابن عباس . وقيل : الله خير لنا منك وأبقى عذابا لنا من عذابك لنا . وهو جواب قوله : « وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ » وقيل : الله خير لنا إن أطعناه ، وأبقى عذابا منك إن عصيناه .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا ﴾ قيل : هو من قول السحرة لما آمنوا . وقيل : ابتداء كلام من الله عز وجل . والكناية فى « إنه » ترجع إلى الأمر والشأن . ويجـوز إنّ من يأت ، ومنه قول الشاعر (١) :

إنّ من يَدخلِ الكنيسةَ يوماً * يـلْقَ فيها جآذِرًا وظبـاء

(١) البيت للأخطل وهو نصرانى .

أراد إنه من يدخل؛ أى إن الأمر هذا؛ وهو أن المجرم يدخل النار، والمؤمن يدخل الجنة. والمجرم الكافر. وقيل: الذى يقترف المعاصى و يكتسبها. والأول أشبه؛ لقوله: ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَا ﴾ وهذه صفة الكافر المكذّب الجاحد — على ما تقدم بيانه فى سورة «النّساء» وغيرها — فلا ينتفع بحياته ولا يستريح بموته. قال الشاعر:

ألا مَنْ لنفس لا تموت فينقضى * شقاها ولا تحيا حياةً لها طَعْمُ

وقيل: نفس الكافر معلقة فى حنجرته؛ كما أخبر الله تعالى عنه فلا يموت بفراقها، ولا يحيا باستقرارها. ومعنى «مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا» من يأت موعد ربه. ومعنى ﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا ﴾ أى يمت عليه و يوافيه مصدقا به. ﴿ قَدْ عَمِلَ ﴾ أى وقد عمل ﴿ الصَّالِحَاتِ ﴾ أى الطاعات وما أمر به ونهى عنه. ﴿ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَا ﴾ أى الرفيعة التى قصرت دونها الصفات. ودل قوله: «وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا» على أن المراد بالمجرم المشرك.

قوله تعالى: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ بيان للدرجات و بدل منها، والعَدْن الإقامة؛ وقد تقدم بيانه (١). ﴿ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا ﴾ أى من تحت غرفها وسررها ﴿ الْأَنْهَارُ ﴾ من الخمر والعسل واللبن والماء وقد تقدم. ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ أى ماكثين دائمين. ﴿ وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴾ أى من تطهّر من الكفر والمعاصى. ومن قال هذا من قول السّحرة قال: لعل السّحرة سمعوه من موسى، أو من بنى إسرائيل إذ كان فيهم بمصر أقوام، وكان فيهم أيضا المؤمن من آل فرعون.

قلت: و يحتمل أن يكون ذلك إلهاما من الله لهم أنطقهم بذلك لما آمنوا؛ والله أعلم.

قوله تعالى: وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِۦ فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴿٧٨﴾ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٩﴾

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى ﴾ تقدم الكلام فى هذا مستوفى. ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى الْبَحْرِ يَبَسًا ﴾ أى يابسا لا طين فيه ولا ماء؛ وقد مضى فى «البقرة» (٢)

(١) راجع جـ ١٠ ص ٣٩٦ طبعة أولى أو ثانية. (٢) جـ ١ ص ٣٨٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة.

ضرب موسى البحر وكنيته إياه ، و إغراق فرعون فلا معنى للإعادة . ﴿ لَا تَخَافُ دَرَكًا ﴾ أى لحاقا من فرعون وجنوده . ﴿ وَلَا تَخْشَى ﴾ قال ابن جريج قال أصحاب موسى : هذا فرعون قد أدركنا، وهذا البحر قد غشينا، فأنزل الله تعالى « لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى » أى لا تخاف دركا من فرعون ولا تخشى غرقا من البحر أن يمسّك إن غشيك . وقرأ حمزة « لا تخف » على أنه جواب الأمر . التقدير إن تضرب لهم طريقا فى البحر لا تخف . و « لا تخشى » مستأنف على تقدير: ولا أنت تخشى . أو يكون مجزوما والألف مشبعة من فتحة؛ كقوله : « فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا » أو يكون على حدّ قول الشاعر (١) :

* كَأَنْ لَمْ تَرَى قَبْلِي أَسِيرا يَمَانِيَا *

على تقدير حذف الحركة كما تحذف حركة الصحيح . وهذا مذهب الفراء . وقال آخر :

هَجوت زَبَّان ثم جئتَ معتذرا * من هجوِ زَبَّانَ لَمْ تَهْجُو ولَمْ تَدَعِ

وقال آخر (٢) : أَلَمْ يأتيـكَ والأنباءُ تَنْمِى * بِمَا لَاقَتْ لَبُون بَنِي زِيادِ

قال النحاس : وهذا من أقبح الغلط أن يحمل كتاب الله عز وجل على الشذوذ من الشعر؛ وأيضا فإن الذى جاء به من الشعر لا يشبه من الآية شيئا؛ لأن الياء والواو مخالفتان للألف؛ لأنهما تتحركان والألف لا تتحرك، وللشاعر إذا اضطر أن يقدرهما متحركتين ثم تحذف الحركة للجزم، وهذا محال فى الألف؛ والقراءة الأولى أبين لأن بعده « وَلَا تَخْشَى » مجمع عليه بلا جزم؛ وفيها ثلاث تقديرات : الأول — أن يكون « لا تخاف » فى موضع الحال من المخاطب ، التقدير فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا غير خائف ولا خاشٍ . الثانى — أن يكون فى موضع النعت للطريق؛ لأنه معطوف على يبس الذى هو صفة، ويكون التقدير لا تخاف فيه؛ فحذف الراجع من الصفة . والثالث — أن يكون منقطعا خبر ابتداء محذوف تقديره وأنت لا تخاف .

(١) هو عبد يغوث بن وقاص من شعراء الجاهلية . وصدر البيت :

* وتضحك منى شيخة عبشمية *

(٢) البيت من أبيات لقيس بن زهير بن جذيمة بن رواحة العبسى ، وكان قد نشأت بينه و بين الربيع بن زياد شحناء فى شأن درع فاستاق إبل الربيع و باعها بمكة من عبد الله بن جدعان القرشى .

قوله تعالى : ﴿ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ ﴾ أى أتبعهم ومعه جنوده، وقرئ « فَٱتَّبَعَهُمْ » بالتشديد فتكون الباء فى « بِجنودِهِ » عدّت الفعل إلى المفعول الثانى؛ لأن آتبع يتعدى إلى مفعول واحد . أى تبعهم ليلحقهم بجنوده أى مع جنوده كما يقال : ركب الأمير بسيفه أى مع سيفه . ومن قطع « فأتبع » يتعدى إلى مفعولين : فيجوز أن تكون الباء زائدة، ويجوز أن يكون اقتصر على مفعول واحد . يقال : تبعه وأتبعه ولحقه وألحقه بمعنى واحد . وقوله : « بِجنودِهِ » فى موضع الحال؛ كأنه قال : فأتبعهم سائقا جنوده . ﴿ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ﴾ أى أصابهم من البحر ما غرّقهم، وكرر على معنى التعظيم والمعرفة بالأمر . ﴿ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَى ﴾ أى أضلّهم عن الرشد وما هداهم إلى خير ولا نجاة؛ لأنه قدّر أن موسى عليه السلام ومن معه لا يفوتونه؛ لأن بين أيديهم البحر . فلما ضرب موسى البحر بعصاه آنفلق منه آثنا عشر طريقا، وبين الطرق الماء قائما كالجبال . وفى سورة الشعراء « فكان كُلُّ فِرقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ » أى الجبل الكبير؛ فأخذ كل سِبْط طريقا . وأوحى الله إلى أطواد الماء أَنْ تَشَبَّكى فصارت شبكات يرى بعضهم بعضا، ويسمع بعضهم كلام بعض، وكان هذا من أعظم المعجزات، وأكبر الآيات، فلما أقبل فرعون ورأى الطرق فى البحر والماء قائما أوهمهم أن البحر فعل هذا لهيبته، فدخل هو وأصحابه فانطبق البحر عليهم . وقيل إن قوله : « وَمَا هَدَى » تأكيد لإضلاله إياهم . وقيل : هو جواب قول فرعون « مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ » فكذّبه الله تعالى . وقال ابن عباس : « وَمَا هَدَى » أى ما هدى نفسه بل أهلك نفسه وقومه .

قوله تعالى : يَـٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ قَدْ أَنجَيْنَـٰكُم مِّنْ عَدُوِّكُمْ وَوَٰعَدْنَـٰكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ﴿٨٠﴾ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَلَا تَطْغَوْا۟ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِى وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ ﴿٨٢﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ﴾ لما أنجاهم من فرعون قال لهم هذا ليشكروا . ﴿ وَوَاعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنَ ﴾ « جانب » نصب على المفعول الثانى « لواعدنا » ولا يحسن أن ينتصب على الظرف ؛ لأنه ظرف مكان محض غير مبهم . وإنما تتعدى الأفعال والمصادر إلى ظروف المكان بغير حرف جر إذا كانت مبهمة . قال مكىّ : هذا أصل لا خلاف فيه ؛ وتقدير الآية : وواعدناكم إتيان جانب الطُّور ؛ ثم حذف المضاف . قال النحاس : أى أمرنا موسى أن يأمركم بالخروج معه ليكلمه بحضرتكم فتسمعوا الكلام . وقيـل : وعد موسى بعد إغراق فرعون أن يأتى جانب الطور الأيمن فيؤتيه التوراة ، فالوعد كان لموسى ولكن خوطبوا به لأن الوعد كان لأجلهـم . وقرأ أبو عمرو « وَوَعَدْنَاكُمْ » بغير ألف واختاره أبو عبيد ؛ لأن الوعد إنما هو من الله تعالى لموسى خاصة ، والمواعدة لا تكون إلا من اثنين ؛ وقد مضى فى « البقرة » (١) هذا المعنى . و « الْأَيْمَنَ » نصب ؛ لأنه نعت للجانب وليس للجبل يمين ولا شمال ، فإذا قيل : خذ عن يمين الجبل فمعناه خذ على يمينك من الجبل . وكان الجبل على يمين موسى إذ أتاه . ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى ﴾ أى فى التِّيه وقد تقدّم القول فيه (٢) . ﴿ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ أى من لذيذ الرزق . وقيل : من حلاله إذ لا صنع فيـه لآدمى فتـدخله شبهة . ﴿ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ ﴾ أى لا تحملنكم السعة والعافية أن تعصـوا ؛ لأن الطغيان التجاوز إلى ما لا يجوز . وقيل : المعنى ؛ أى لا تكفروا النعمة ولا تنسوا شكر المنعم بها عليكم . وقيل : أى ولا تستبدلوا بها شيئا آخر كما قال : « أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ » . وقيـل : لا تدّخروا منـه لأكثر من يوم وليـلة ؛ قال ابن عباس : فيتدوّد عليهم ما ادخروه ؛ ولولا ذلك ما تدوّد طعام أبدا . ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ أى يجب وينزل ، وهو منصوب بالفاء فى جواب النهى من قوله : « وَلَا تَطْغَوْا » . ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى ﴾ قرأ الأعمش ويحيى بن وثاب والكسائى « فَيَحُلَّ » بضم الحاء « وَمَنْ يَحْلُلْ » بضم اللام الأولى . والباقون بالكسر وهما لغتان . وحكى

(١) راجع جـ ١ ص ٣٩٤ طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) راجع جـ ١ ص ٤٠٦ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

أبو عبيدة وغيره : أنه يقال حَلّ يحِلّ إذا وجب وحَلّ يحُلّ إذا نزل . وكذا قال الفراء : الضم من الحلول بمعنى الوقوع والكسر من الوجوب . والمعنيان متقاربان إلا أن الكسر أولى؛ لأنهم قد أجمعوا على قوله : « وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ » . وغضب الله عقابه ونقمته وعذابه . ﴿ فَقَدْ هَوَى ﴾ قال الزجاج : فقد هلك ؛ أى صار إلى الهاوية وهى قعر النار ، من هوى يهوى هويا أى سقط من علو إلى سفل ، وهوى فلان أى مات . وذكر ابن المبارك : أخبرنا إسمعيل بن عياش قال حدثنا ثعلبة بن مسلم عن أيوب بن بشير عن شُفَىّ(١) الأصبحىّ قال : إن فى جهنم جبلا يدعى صَعُودًا يطلع فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يرقاه ؛ قال الله تعالى : « سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا » وإن فى جهنم قصرا يقال له هَوَى يُرمى الكافر من أعلاه فيهوى أربعين خريفا قبل أن يبلغ أصله قال الله تعالى : « وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِى فَقَدْ هَوَى » وذكر الحديث ؛ وقد ذكرناه فى كتاب « التذكرة » .

قوله تعالى : ﴿ وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ ﴾ أى من الشّرك . ﴿ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَى ﴾ أى أقام على إيمانه حتى مات عليه ؛ قاله سفيان الثورى وقتادة وغيرهما . وقال ابن عباس : أى لم يشكّ فى إيمانه ؛ ذكره الماوردى والمهدوى . وقال سهل بن عبد الله التُّسْتَرىّ وابن عباس أيضا : أقام على السنّة والجماعة ؛ ذكره الثعلبى . وقال أنس : أخذ بسنّة النبى صلى الله عليه وسلم ؛ ذكره المهدوى ، وحكاه الماوردى عن الربيع بن أنس . وقول خامس : أصاب العمل ؛ قاله ابن زيد ؛ وعنه أيضا تعلم العلم ليهتدى كيف يفعل ؛ ذكر الأول المهدوى ، والثانى الثعلبىّ . وقال الشعبىّ ومقاتل والكلبىّ : علم أن لذلك ثوابا وعليه عقابا ؛ وقاله الفراء . وقول ثامن : « ثم آهتدى » فى ولاية أهل بيت النبى صلى الله عليه وسلم ؛ قاله ثابت البُنَانِى . والقول الأول أحسن هذه الأقوال — إن شاء الله — وإليه يرجع سائرها . قال وكيع عن سفيان : كنا نسمع فى قوله عز وجل : « وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ » أى من الشّرك « وآمن » أى بعد الشّرك « وَعَمِلَ صَالِحًا » صلّى وصام « ثُمَّ ٱهْتَدَى » مات على ذلك .

---

(١) بالتصغير بن ماتع (بالتاء المثناة الفوقية) الأصبحى .

قوله تعالى : وَمَآ أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَـٰمُوسَىٰ ﴿٨٣﴾ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِى وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٤﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٥﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَـٰنَ أَسِفًا قَالَ يَـٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾ قَالُوا مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَـٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَـٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ ﴿٨٧﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُۥ خُوَارٌ فَقَالُوا هَـٰذَآ إِلَـٰهُكُمْ وَإِلَـٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِىَ ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى ﴾ أى ما حملك على أن تسبقهم . قيل : عنى بالقوم جميع بنى إسرائيل؛ فعلى هـذا قيل : آستخلف هرونَ على بنى إسرائيل، وخرج معـه بسبعين رجلا للميقات . فقوله : ﴿ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِى ﴾ ليس يريد أنهم يسيرون خلفه متوجهين إليه، بل أراد أنهم بالقرب منى ينتظرون عودى إليهم . وقيل : لا بل كان أمر هرون بأن يتبع فى بنى إسرائيل أثره ويلتحقوا به . وقال قوم : أراد بالقوم السبعين الذين آختارهم،وكان موسى لمـا قرب من الطور سبقهم شوقا إلى سماع كلام الله . وقيل : لمـا وفد إلى طور سينا بالوعد آشتاق إلى ربه، وطالت عليـه المسافة من شدّة الشوق إلى الله تعالى ، فضاق به الأمر حتى شقّ قميصه، ثم لم يصبر حتى خلّفهم ومضى وحده؛ فلما وقف فى مقامه قال الله تبارك وتعالى : « وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى » فبقى صلى الله عليـه وسلم متحيرا عن الجواب وكنى عنه بقوله : « هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِى » وإنمـا سأله عن السبب الذى أعجله بقوله : « ما » فأخبر عن مجيئهم بالأثر . ثم قال : ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى ﴾ فكنى عن

ذكر الشوق وصدقه إلى ٱبتغاء الرضا . ذكر عبد الرزاق عن مَعْمَر عن قتادة فى قوله « وعَجِلْتُ إِلَيْكَ رب لِتَرْضَى » قال : شوقا . وكانت عائشة رضى الله عنها إذا آوت إلى فراشها تقول : هاتوا المجيد . فتؤتى بالمصحف فتأخذه فى صدرها وتنام معه تتسلى بذلك ؛ رواه سفيان عن مِسْعَر عن عائشة رضى الله عنها . وكان عليه الصلاة والسلام إذا أمطرت السماء خلع ثيابه وتجرد حتى يصيبه المطر ويقول : " إنه حديث عهد بربّى " فهذا من الرسول صلى الله عليه وسلم وممن بعده من قبيل الشوق ؛ ولذلك قال الله تبارك اسمه فيما يروى عنه : « طال شوق الأبرار إلى لقائى وأنا إلى لقائهم أشوق » . قال ٱبن عباس : كان الله عالما ولكن قال « وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ » رحمة لموسى ، وإكراما له بهذا القول ، وتسكينا لقلبه ، ورقة عليه ؛ فقال مجيبا لربه : « هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِى » . قال أبو حاتم قال عيسى : بنو تميم يقولون : « هُمْ أُولَى » مقصورة مرسلة ، وأهل الحجاز يقولون « أولاءِ » ممدودة . وحكى الفراء « هُمْ أُولَاىَ عَلَى أَثَرِى » وزعم أبو إسحق الزجاج : أن هذا لا وجه له . قال النحاس : وهو كما قال ؛ لأن هذا ليس مما يضاف فيكون مثل هُدَاىَ . ولا يخلو من إحدى جهتين : إما أن يكون اسما مبهما فإضافته محال ؛ وإما أن يكون بمعنى الذين فلا يضاف أيضا ؛ لأن ما بعده من تمامه وهو معرفة . وقرأ ابن أبى إسحق ونصر ورويس عن يعقوب « على إِثْرِى » بكسر الهمزة وإسكان الثاء وهو بمعنى أثر ؛ لغتان . « وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى » أى عجلت إلى الموضع الذى أمرتنى بالمصير إليه لترضى عنّى . يقال : رَجُلٌ عَجِلٌ وعَجُلٌ وعَجُولٌ وعَجْلَانُ بين العَجَلة ؛ والعَجَلة خلاف البطء .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ ﴾ أى ٱختبرناهم وٱمتحنّاهم بأن يستدلوا على الله عز وجل . ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِىُّ ﴾ أى دعاهم إلى الضلالة أو هو سببها . وقيل : فتناهم ألقيناهم فى الفتنة : أى زيّنا لهم عبادة العجل ؛ ولهذا قال موسى : « إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ » . قال ابن عباس رضى الله عنهما : كان السامرىّ من قوم يعبدون البقر ، فوقع بأرض مصر فدخل فى دين بنى إسرائيل بظاهره ، وفى قلبه ما فيه من عبادة البقر . وقيل : كان رجلا

من القبط ، وكان جارا لموسى آمن به وخرج معه . وقيل : كان عظيما من عظماء بنى إسرائيل ، من قبيلة تعرف بالسامرة وهم معروفون بالشام . قال سعيد بن جبير: كان من أهل كرمان.

قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا ﴾ حال وقد مضى فى « الأعراف (١) » بيانه مستوفى . ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا ﴾ وعدهم عز وجل الجنة إذا أقاموا على طاعته ، ووعدهم أنه يسمعهم كلامه فى التوراة على لسان موسى ؛ ليعملوا بما فيها فيستحقوا ثواب عملهم . وقيل : وعدهم النصر والظفر . وقيل : وعده قوله « وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمن » الآية . ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾ أى أفنسيتم ؛ كما قيل ؛ والشيء قد ينسى لطول العهد. ﴿أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ «يحلّ» أى يجب وينزل . والغضب العقوبة والنقمة. والمعنى : أم أردتم أن تفعلوا فعلا يكون سبب حلول غضب الله بكم ؛ لأن أحدا لا يطلب غضب الله ، بل قد يرتكب ما يكون سببا للغضب . ﴿ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي ﴾ لأنهم وعدوه أن يقيموا على طاعة الله عز وجل إلى أن يرجع إليهم من الطّور . وقيل : وعدهم على أثره للميقات فتوقفوا . ﴿ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا ﴾ بفتح الميم ، وهى قراءة نافع وعاصم وعيسى بن عمر. قال مجاهد والسدى : ومعناه بطاقتنا . ابن زيد : لم نملك أنفسنا أى كنا مضطرين . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر «بِمِلْكِنَا» بكسر الميم . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنها اللغة العالية . وهو مصدر ملكت الشيء أملكه ملكا . والمصدر مضاف إلى الفاعل والمفعول محذوف ؛ كأنه قال : بِمِلْكِنَا الصواب بل أخطأنا فهو اعتراف منهم بالخطأ . وقرأ حمزة والكسائى « بِمُلْكِنَا » بضم الميم والمعنى بسلطاننا . أى لم يكن لنا مُلك فنخلف موعدك . ثم قيل قوله : « قَالُوا » عام يراد به الخاص ؛ أى قال الذين ثبتوا على طاعة الله إلى أن يرجع إليهم من الطور : « مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمِلْكِنَا » وكانوا اثنى عشر ألفا ، وكان جميع بنى إسرائيل ستمائة ألف . ﴿ وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا ﴾ بضم الحاء وتشديد الميم مكسورة ؛ قرأه نافع وابن كثير وابن عامر وحفص ورويس . الباقون بفتح الحرفين خفيفة . واختاره أبو عبيد وأبو حاتم ؛ لأنهم حملوا حُلى القوم

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٨٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

معهم وما حملوه كرها . ﴿ أَوْزَارًا ﴾ أى أثقالا ﴿ مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ ﴾ أى من حليّهم؛ وكانوا آستعاروه حين أرادوا الخروج مع موسى عليه السلام ، وأوهموهم أنهم يجتمعون فى عيد لهم أو وليمة ، وقيل : هو ما أخذوه من آل فرعون ، لما قذفهم البحر إلى الساحل . وسميت أوزارا بسبب أنها كانت آثاما . أى لم يحلّ لهم أخذها ولم تحل لهم الغنائم، وأيضا فالأوزار هى الأثقال فى اللغة . ﴿ فَقَذَفْنَاهَا ﴾ أى ثقل علينا حمل ما كان معنا من الحلىّ فقذفناه فى النار ليذوب ، أى طرحناه فيها . وقيل : طرحناه إلى السامرىّ لترجع فترى فيها رأيك . قال قتادة : إن السامرىّ قال لهم حين آستبطأ القومُ موسى : إنما آحتبس عليكم من أجل ما عندكم من الحلىّ؛ فجمعوه ودفعوه إلى السامرىّ فرمى به فى النار، وصاغ لهم منه عجلا، ثم ألقى عليه قبضة من أثر فرس الرسول وهو جبريل عليه السلام . وقال معمر : الفرس الذى كان عليه جبريل هو الحياة، فلما ألقى عليه القبضة صار عجلا جسدا له خُوار . والخُوار صوت البقر . وقال ابن عباس : لما آنسكبت الحلىّ فى النار، جاء السامرىّ وقال لهرون : يانبىّ الله أؤلقى ما فى يدى — وهو يظن أنه كبعض ما جاء به غيره من الحلىّ — فقذف التراب فيه، وقال: كن عجلا جسدا له خُوار ، فكان كما قال؛ للبلاء والفتنة؛ فخار خَورة واحدة لم يُتبعها مثلها . وقيل : خُواره وصوته كان بالريح؛ لأنه كان عمل فيه خروقا فإذا دخلت الريح فى جوفه خار ولم تكن فيه حياة . وهذا قول مجاهد . وعلى القول الأوّل كان عجلا من لحم ودم، وهو قول الحسن وقتادة والسدىّ . وروى حماد عن سِماك عن سعيد بن جُبير عن ابن عباس قال : مرّ هرون بالسامرىّ وهو يصنع العجل، فقال : ما هذا ؟ فقال : ينفع ولا يضر؛ فقال : اللهم أعطه ما سألك على ما فى نفسه؛ فقال : اللهم إنى أسألك أن يخور . وكان إذا خار سجدوا، وكان الخوار من أجل دعوة هرون . قال ابن عباس : خار كما يخور الحىّ من العجول . وروى أن موسى قال : يا رب هذا السامرىّ أخرج لهم عجلا جسدا له خُوار من حليّهم ، فمن جعل الجسد والخوار ؟ قال الله تبارك وتعالى : أنا . قال موسى صلى الله عليه وسلم : وعزتك وجلالك وآرتفاعك وعلوك وسلطانك ما أضلّهم غيرُك . قال : صدقت ياحكيم

الحكماء . وقد تقدم هذا كله فى سورة « الأعراف »(١) . ﴿ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ ﴾ أى قال السامرىّ ومن تبعه وكانوا ميالين إلى التّشبيه؛ إذ قالوا : « ٱجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ » . ﴿ فَنَسِيَ ﴾ أى فضلّ موسى [وذهب](٢) يطلبه فلم يعلم مكانه، وأخطأ الطريق إلى ربه . وقيل معناه : فتركه موسى هنا وخرج يطلبه . أى ترك موسى إلهه هنا . وروى إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال : أى فنسى موسى أن يذكر لكم أنه إلهه . وقيل : الخطاب خبر عن السامرىّ . أى ترك السامرىّ ما أمره به موسى من الإيمان فضل؛ قاله ابن الأعرابىّ . فقال الله تعالى محتجا عليهم : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ ﴾ أى يعتبرون ويتفكرون فى ﴿ أنْ ﴾ ه ﴿ لَا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا ﴾ أى لا يكلمهم . وقيل : لا يعود إلى الخوار والصوت . ﴿ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ فكيف يكون إلها؟! والذى يعبده موسى صلى الله عليه وسلم يضر وينفع ويثيب ويعطى ويمنع . « أَنْ لَا يَرْجِعُ » تقديره أنه لا يرجع فلذلك ٱرتفع الفعل فخففت « أن » وحذف الضمير . وهو الٱختيار فى الرؤية والعلم والظن . قال :

فى فتية من سيوف الهند قد علموا * أنْ هالكٌ كلُّ من يَحْفَى ويَنْتَعِلُ

وقد يحذف مع التشديد؛ قال :

فلو كنتَ ضَبِّيًّا عرفتَ قَرَابتى * ولكنَّ زنجىٌّ عظيمُ المشافِرِ

أى ولكنك .

قوله تعالى : وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓاْ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُواْ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ ﴿٩١﴾ قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓاْ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل أن يأتى موسى ويرجع إليهم ﴿ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ﴾ أى ٱبتليتم وأضللتم به؛ أى بالعجل ﴿ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ ﴾

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٨٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) زيادة يقتضيها السياق .

لا العجل ﴿فَٱتَّبِعُونِي﴾ فى عبادته ﴿وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ لا أمر السامرى . أو فاتبعونى فى مسيرى إلى موسى ودعوا العجل ؛ فعصوه و ﴿قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ﴾ أى لن نزال مقيمين على عبادة العجل ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ فينظر هل يعبده كما عبدناه ؛ فتوهموا أن موسى يعبد العجل ، فاعتزلهم هرون فى آثنى عشر ألفا من الذين لم يعبدوا العجل ، فلما رجع موسى وسمع الصياح والجلبة وكانوا يرقصون حول العجل قال للسبعين معه : هذا صوت الفتنة ؛ فلما رأى هرون أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله غضبا و ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا﴾ أى أخطئوا الطريق وكفروا . ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾ «لا» زائدة أى أن تتبع أمرى ووصيتى. وقيل : ما منعك عن آتباعى فى الإنكار عليهم . وقيل : معناه هلّا قاتلتهم إذ قد علمت أنى لو كنت بينهم لقاتلتهم على كفرهم . وقيل : ما منعك من اللحوق بى لما فتنوا . ﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي﴾ يريد أن مقامك بينهم وقد عبدوا غير الله تعالى عصيان منك لى ؛ قاله ابن عباس . وقيل : معناه هلّا فارقتهم فتكون مفارقتك إياهم تقريعا لهم وزجرا . ومعنى « أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي » قيل : إن أمره ما حكاه الله تعالى عنه « وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَارُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ » فلما أقام معهم، ولم يبالغ فى منعهم، والإنكار عليهم ، نسبه إلى عصيانه ومخالفة أمره .

مسئلة — وهذا كله أصل فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتغييره ومفارقة أهله ، وأن المقيم بينهم لا سيما إذا كان راضيا حكمه كحكمهم . وقد مضى هذا المعنى فى آل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف والأنفال . وسئل الإمام أبو بكر الطُّرْطُوشى رحمه الله : ما يقول سيدنا الفقيه فى مذهب الصوفية ؟ وأُعلِم — حرس الله مدته — أنه آجتمع جماعة من رجال ، فيكثرون من ذكر الله تعالى ، وذكر محمد صلى الله عليه وسلم ، ثم إنهم يوقعون بالقضيب على شىء من الأديم ، ويقوم بعضهم يرقص ويتواجد حتى يقع مغشيا عليه ، ويحضرون شيئا يأكلونه . هل الحضور معهم جائز أم لا ؟ أفتونا مأجورين، وهذا القول الذى يذكرونه :

يا شيخ كُفّ عن الذُّنوبْ * قبـلَ التفـرّق والزَّلَلْ
واعمـلْ لنفسكَ صالحاً * مادام ينفعـك العمـلْ
أمّا الشبابُ فقـد مضَى * ومَشيبُ رأسكَ قد نزَلْ

وفى مثل هذا ونحوه . الجواب : — يرحمك الله — مذهب الصوفية بطالة وجهالة وضلالة، وما الإسلام إلا كتاب الله وسنة رسوله ، وأما الرقص والتواجد فأول من أحدثه أصحاب السامرىّ، لما آتخذ لهم عجلا جسدا له خُوار قاموا يرقصون حواليه ويتواجدون؛ فهو دين الكفار وعبّاد العجل ؛ وأما القضيب فأول من آتخذه الزنادقة ليشغلوا به المسلمين عن كتاب الله تعالى؛ و إنمـا كان يجلس النبى صلى الله عليه وسلم مع أصحابه كأنمـا على رءوسهم الطير من الوقار ؛ فينبغى للسلطان ونوابه أن يمنعهم من الحضور فى المساجد وغيرها ؛ ولا يحـلّ لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يحضُر معهم ، ولا يعينهم على باطلهم ؛ هـذا مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل وغيرهم من أئمة المسلمين وبالله التوفيق .

قوله تعالى : قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَٱذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّن تُخْلَفَهُۥ وَٱنظُرْ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

قوله تعالى : ﴿ يَا بْنَ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحيَتِي وَلَا بِرَأْسِي ﴾ ابن عباس : أخذ شعره بيمينه ولحيته بيساره؛ لأن الغـيرة فى الله ملكته؛ أى لا تفعل هـذا فيتوهموا أنه منك آستخفاف

أو عقوبة . وقد قيل : إن موسى عليه السلام إنما فعل هذا على غير استخفاف ولا عقوبة كما يأخذ الإنسان بلحية نفسه . وقد مضى هذا فى « الأعراف »(١) مستوفى . والله عز وجل أعلم بما أراد نبيه عليه السلام . ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أى خشيت أن أخرج وأتركهم وقد أمرتنى أن أخرج معهم ، فلو خرجت لاتبعنى قوم ويتخلف مع العجل قوم ؛ وربما أدى الأمر إلى سفك الدماء ؛ وخشيت إن زجرتهم أن يقع قتال فتلومنى على ذلك . وهذا جواب هرون لموسى عليه السلام عن قوله : « أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي » وفى الأعراف « إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ » لأنك أمرتنى أن أكون معهم . وقد تقدم . ومعنى ﴿ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾ لم تعمل بوصيتى فى حفظه ؛ قاله مقاتل . وقال أبو عبيدة : لم تنتظر عهدى وقدومى . فتركه موسى ثم أقبل على السامرىّ ف ﴿ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ ﴾ أى ، ما أمرك وشأنك ، وما الذى حملك على ما صنعت ؟ قال قتادة : كان السامرىّ عظيما فى بنى إسرائيل من قبيلة يقال لها سامرة ، ولكن عدو الله نافق بعد ما قطع البحر مع موسى ، فلما مرت بنو إسرائيل بالعمالقة وهم يعكفون على أصنام لهم « قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ » فاغتنمها السامرىّ وعلم أنهم يميلون إلى عبادة العجل فاتخذ العجل . ف ﴿ قَالَ ﴾ السامرىّ مجيبا لموسى : ﴿ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ يعنى : رأيت ما لم يروا ؛ رأيت جبريل عليه السلام على فرس الحياة ، فألقى فى نفسى أن أقبض من أثره قبضة ، فما ألقيته على شىء إلا صار له روح ولحم ودم ؛ فلما سألوك أن تجعل لهم إلها زَيَّنَتْ لى نفسى ذلك . وقال علىّ رضى الله عنه : لما نزل جبريل ليصعد بموسى عليه السلام إلى السماء ، أبصره السامرىّ من بين الناس فقبض قبضة من أثر الفرس . وقيل قال السامرى : رأيت جبريل على الفرس وهى تلقى خطوها مدّ البصر ، فألقى فى نفسى أن أقبض من أثرها فما ألقيته على شىء إلا صار له روح ودم . وقيل : رأى جبريل يوم نزل على رمكة وديق(٢) ، فتقدم خيل فرعون فى ورود البحر . ويقال : إن أم السامرىّ جعلته حين وضعته فى غار خوفا

---

(١) راجع ج ٧ ص ٢٨٩ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

(٢) الرمكة : الفرس والبرذونة التى تتخذ للنسل ؛ معرب . وهى هنا الفرس . والوديق : التى تشتهى الفحل .

من أن يقتله فرعون؛ فجاءه جبريل عليه السلام، فجعل كفّ السامرىّ فى فم السامرىّ، فرضع العسل واللبن فاختلف إليه فعرفه من حينئذ. وقد تقدم هذا المعنى فى «الأعراف»[1]. ويقال: إن السامرىّ سمع كلام موسى عليه السلام، حيث عمل تمثالين من شمع أحدهما ثور والآخر فرس فألقاهما فى النيل طلب قبر يوسف عليه السلام وكان فى تابوت من حجر فى النيل، فأتى به الثور على قرنه، فتكلم السامرىّ بذلك الكلام الذى سمعه من موسى، وألقى القبضة فى جوف العجل فخار. وقرأ حمزة والكسائى والأعمش وخلف «بِمَا لَمْ تَبْصُرُوا» بالتاء على الخطاب. الباقون بالياء على الخبر. وقرأ أُبَىّ بن كعب وابن مسعود والحسن وقتادة «فَقَبَصْتُ قبصَةً» بصاد غير معجمة. وروى عن الحسن ضم القاف من «قبصة» والصاد غير معجمة. الباقون: ﴿قَبَضْتُ قَبْضَةً﴾ بالضاد المعجمة. والفرق بينهما أن القبض بجميع الكفّ، والقبص بأطراف الأصابع، ونحوهما الخَضْم والقَضْم، والقُبْضة بضم القاف القدر المقبوض؛ ذكره المهدوى. ولم يذكر الجوهرى «قُبْصة» بضم القاف والصاد غير معجمة، وإنما ذكر «القُبْضة» بضم القاف والضاد المعجمة وهو ما قبضت عليه من شىء؛ يقال: أعطاه قُبْضة من سَويق أو تمر أى كفا منه، وربما جاء بالفتح. قال: والقِبْص بكسر القاف والصاد غير المعجمة العدد الكثير من الناس؛ قال الكميت:

لكم مسجدا الله المَزُوران والحَصَى * لكم قِبْصُهُ من بين أَثْرَى وأَقْتَرَى[2]

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ أى طرحتها فى العجل.

﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾ أى زينته؛ قاله الأخفش. وقال ابن زيد: حدثتنى نفسى. والمعنى متقارب.

قوله تعالى: ﴿قَالَ فَٱذْهَبْ﴾ أى قال له موسى فاذهب أى من بيننا ﴿فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلْحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَ﴾ أى لا أمسّ ولا أُمسّ طول الحياة. فنفاه موسى عن قومه وأمر بنى إسرائيل ألّا يخالطوه ولا يقربوه ولا يكلّموه عقوبة له. قال الشاعر:

تميمٌ كرهط السّامرىّ وقوله * ألَا لا يريدُ السامرىّ مِساسَا

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٨٤ طبعة أولى أو ثانية. (٢) أى من بين مثر ومقل.

قال الحسن : جعـل الله عقوبة السامرى ألا يمـاس الناس ولا يمـاسوه عقوبة له ولمن كان منه إلى يوم القيامة ؛ وكأن الله عز وجل شـدد عليه المحنة ، بأن جعله لا يمـاس أحدا ولا يمكن من أن يمسه أحد ، وجعل ذلك عقوبة له فى الدنيا . ويقال : ابتلى بالوسواس ؛ وأصل الوسواس من ذلك الوقت . وقال قتادة : بقاياهم إلى اليوم يقولون ذلك — لامساس — وإن مس واحد من غيرهم أحدا منهم حم كلاهما فى الوقت . ويقـال : إن موسى هم بقتل السامرى ، فقال الله تعالى له : لا تقتله فإنه سخى . ويقال لمـا قال له موسى : ﴿ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ ﴾ خاف فهرب فجعل يهيم فى البرية مع السباع والوحش ، لا يجد أحدا من الناس يمسه حتى صـار كالقائل لا مساس ؛ لبعده عن الناس وبعد الناس عنه ؛ كما قال الشاعر :

حَمَّـالُ رايـاتٍ بهـا قَنَاعِسَـا　*　حتى تقـولَ الأزدُ لا مسابسا (١)

مسئلة : هذه الآية أصل فى نفى أهل البدع والمعاصى وهجرانهم وألا يخالطوا ، وقد فعل النبي صلى الله عليه وسـلم ذلك بكعب بن مالك والثلاثة الذين خُلِّفوا . ومن التجأ إلى الحرم وعليه قتلٌ لا يُقتَل عند بعض الفقهاء ، ولكن لا يعامل ولا يبايع ولا يشارى ، وهو إرهاق إلى الخروج . ومن هذا القبيل التغريب فى حد الزنى ، وقد تقدم جميع هذا كله فى موضعه ، فلا معنى لإعادته . والحمد لله وحده . وقال هرون القارئ : ولغـة العرب لا مَساسِ بكسر السين وفتح الميم ، وقد تكلم النحويون فيه ؛ فقال سيبويه : هو مبنى على الكسر كما يقال اضربِ الرجل . وقال أبو إسحق : لا مساسِ نفى وكسرت السين لأن الكسرة من علامة التأنيث ؛ تقول : فعلتِ يا امرأة . قال النحاس : وسمعت على بن سليمان يقول سمعت محمـد بن يزيد يقول : إذا اعتل الشىء من ثلاث جهات وجب أن يبنى ، وإذا اعتل من جهتين وجب ألا ينصرف ؛ لأنه ليس بعـد ترك الصرف إلا البناء ؛ فمساسِ ودراكِ اعتل من ثلاث جهات : منهـا أنه معدول ، ومنها أنه مؤنث ، وأنه معرفة ؛ فلمـا وجب البناء فيـه وكانت الألف قبـل السين ساكنة كسرت السين لالتقاء الساكنين ؛ كما تقول : اضرب الرجلَ . ورأيت أبا إسحق

(١) كذا فى الأصل ، ولم نقف عليه .

يذهب إلى أن هـذا القول خطأ ، وألزم أبا العباس إذا سمى آمرأة بفرعون يبنيه ، وهذا لا يقوله أحد . وقال الجوهرى فى الصحاح : وأما قول العرب لا مَساسِ مثال قَطامِ فإنما بنى على الكسر لأنه معدول عن المصدر وهو المسّ . وقرأ أبو حيوة «لا مَسَاسِ» . ﴿وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ﴾ يعنى يوم القيامة . والموعد مصـدر ؛ أى إن لك وعدا لعـذابك . وقرأ ابن كثير وأبو عمرو «تُخْلِفَهُ» بكسر اللام وله معنيان : أحدهما — ستأتيه ولن تجده مخلفا؛ كما تقول : أحمدته أى وجدته محمودا . والثانى — على التهـديد أى لا بد لك من أن تصير إليه . الباقون بفتح اللام ؛ بمعنى : إن الله لن يخلفك إياه .

قوله تعالى : ﴿وَٱنْظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِى ظَلْتَ عَلَيْهِ﴾ أى دمت وأقمت عليه . ﴿عَاكِفًا﴾ أى ملازما؛ وأصله ظللت؛ قال(١) :

خَلَا أنّ العِتاقَ من المطايا * أَحَسْنَ به فهنّ إليه شُوسُ

أى أَحْسَسن . وكذلك قرأ الأعمش بلامين على الأصل . وفى قراءة ابن مسعود «ظِلْتَ» بكسر الظاء . يقال : ظَللت أفعـل كذا إذا فعلته نهارا وظَلْت وظِلْت ؛ فمن قال : ظَلْت حذف اللام الأولى تخفيفـا ؛ ومن قال : ظِلْت ألقى حركة اللام على الظاء . و﴿لَنُحَرِّقَنَّهُ﴾ قراءة العامة بضم النون وشـد الراء من حرّق يحرّق . وقرأ الحسن وغيره بضم النون وسكون الحاء وتخفيف الراء، من أحرقه يُحرقه . وقرأ علىّ وابن عباس وأبو جعفر وابن محيصن وأشهب العقيلى «لَنَحْرُقَنَّهُ» بفتح النون وضم الراء خفيفة، من حرقت الشىء أحرقه حرقا بردّته وحككت بعضه ببعض، ومنه قولهم : حَرَق نابَه يحرِقه ويحرُقه أى سحقه حتى سُمع له صَرِيف؛ فمعنى هذه القراءة لنبردنّه بالمبارد، ويقال للبرد المِحْرَق . والقراءتان الأوليان معناهما الحرق بالنار . وقد يمكن جمع ذلك فيـه ؛ قال السدى : ذبح العجل فسال منه كما يسيل من العجل إذا ذبح، ثم بَرَد عظامه بالمبرد وحَرَقه . وفى حرف ابن مسعود «لنذبحنه ثم لنحرقنه» واللحم والدم إذا أحرقا

---

(١) هو أبو زبيدة ؛ والشوس (بالتحريك) قال ابن سيدة : أن ينظر بإحدى عينيه ، و يميل وجهه فى شق العين التى ينظر بها ؛ و يكون ذلك خلقة ، و يكون من الكبر والتيه والغضب .

صارا رمادا فيمكن تذريته فى اليم؛ فأما الذهب فلا يصير رمادا . وقيل : عرف موسى ما صير به الذهب رمادا، وكان ذلك من آياته . ومعنى ﴿ لَنَنْسِفَنَّهُ ﴾ لنطيّرنه . وقرأ أبو رجاء « لَنَنْسُفَنَّهُ » بضم السين لغتان ، والنّسف نفض الشيء ليذهب به الريح وهو التذرية ، والمِنْسف ما يُنسف به الطعام ؛ وهو شيء متصوِّب الصدر أعلاه مرتفع ، والنُّسافة ما يسقط منه ؛ يقال : آعزل النُّسافة وكُلْ من الخالص . ويقال : أتانا فلان كأنّ لحيته مِنْسف ؛ حكاه أبو نصر أحمد بن حاتم . والمِنْسفة آلةُ يقلع بها البناء ، ونسفت البناء نسفا قلعته ، ونَسف البعيرُ الكَلأَ يَنْسِفه بالكسر اذا اقتلعه بأصله ، وآنتسفت الشيء آقتلعته ؛ عن أبي زيد .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ لا العِجْل ؛ أى وسع كل شيء عِلْمه ؛ يفعل الفعل عن العلم ؛ ونصب على التفسير . وقرأ مجاهد وقتادة « وَسَّعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا » .

قوله تعالى : كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا (١٠٠) خَٰلِدِينَ فِيهِ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا (١٠١) يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤)

قوله تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ الكاف فى موضع نصب نعت لمصدر محذوف . أى كما قصصنا عليك خبر موسى ﴿ كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ ﴾ قصصا كذلك من أخبار ما قد سبق ؛ ليكون تسلية لك ، وليدل على صدقك . ﴿ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴾ يعنى القرآن . وسمى القرآن ذكرا ؛ لما فيه من الذكر كما سمى الرسول ذكرا ؛ لأن الذكر كان ينزل عليه . وقيل : « آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا » أى شرفا ، كما قال تعالى : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ » أى شرف وتنويه بآسمك .

قوله تعالى : ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ أى القرآن فلم يؤمن به، ولم يعمل بما فيه ﴿فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا﴾ أى إثما عظيما وحملا ثقيلا. ﴿خَالِدِينَ فِيهِ﴾ يريد مقيمين فيه؛ أى فى جزائه وجزاؤه جهنم . ﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ يريد بئس الحمل حملوه يوم القيامة . وقرأ داود ابن رفيع « فَإِنَّهُ يُحَمَّلُ » .

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾ قراءة العامة «يُنْفَخُ» بضم الياء على الفعل المجهول. وقرأ أبو عمرو وابن أبى إسحق بنون مسمى الفاعل. واستدل أبو عمرو بقوله تعالى: «وَنَحْشُرُ» بنون. وعن ابن هُرْمُز «يَنْفُخُ» بفتح الياء أى ينفخ إسرافيل. أبو عياض : « فِي الصُّوَرِ » . الباقون : « فى الصُّورِ » وقد تقدم هذا فى « الأنعام »(١) مستوفى وفى كتاب « التذكرة » . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « ويُحْشَرُ » بضم الياء « الْمُجْرِمُونَ » رفعا بخلاف المصحف . والباقون ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ﴾ أى المشركين . ﴿زُرْقًا﴾ حال من المجرمين، والزَّرَق خلاف الكَحَل . والعرب تتشاءم بزَرَق العيون وتذمّه ؛ أى تشوه خلقتهم بزرقة عيونهم وسواد وجوههم . وقال الكلبى والفراء : « زرقا » أى عميا . وقال الأزهرى : عطاشا قد آزرقت أعينهم من شدة العطش؛ وقاله الزجاج؛ قال : لأن سواد العين يتغير و يزرقّ من العطش . وقيل : إنه الطمع الكاذب إذا تعقبته الخيبة ؛ يقال : آبيضت عينى لطول انتظارى لكذا . وقول خامس : إن المراد بالزرقة شخوص البصر من شدة الخوف؛ قال الشاعر :

لقد زَرِقت عيناك يابنَ مُكَعْبَرٍ * كما كُلُّ ضَبِّىٍّ من اللؤم أَزْرَقُ

يقال : رجل أزرق العين، والمرأة زرقاء بينة الزَّرَق. والاسم الزُّرقة. وقد زَرِقت عينه بالكسر وآزرقت عينه آزرقاقا، وازراقت عينه آزريقاقا . وقال سعيد بن جبير : قيل لابن عباس فى قوله « وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا » وقال فى موضع آخر : « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا » فقال : إن ليوم القيامة حالات؛ فحالة يكونون فيه زرقا، وحالة عميا . ﴿يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ﴾ أصل الخفت فى اللغة السكون، ثم قيل لمن خفض صوته خَفَته .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

يتسارون ؛ قاله مجاهد ؛ أى يقول بعضهم لبعض فى الموقف سرا ﴿إِنْ لَبِثْتُمْ﴾ أى ما لبثتم يعنى فى الدنيا ، وقيل : فى القبور ﴿إِلَّا عَشْرًا﴾ يريد عشر ليال . وقيل : أراد ما بين النفختين وهو أربعون سنة ؛ يرفع العذاب فى تلك المدة عن الكفار — فى قول ابن عباس — فيستقصرون تلك المدة . أو مدة مقامهم فى الدنيا لشدة ما يرون من أهوال يوم القيامة ؛ ويخيل إلى أمثلهم أى أعدلهم قولا وأعقلهم وأعلمهم عند نفسه أنهم مالبثوا إلا يوما واحدا يعنى لبثهم فى الدنيا ؛ عن قتادة ؛ فالتقدير : إلا مثل يوم . وقيل : إنهم من شدة هول المطلع نسوا ما كانوا فيه من نعيم الدنيا حتى رأوه كيوم . وقيل : أراد بيوم لبثهم ما بين النفختين ، أو لبثهم فى القبور على ما تقدم . « وعشرا » و « يوما » منصوبان بـ « لبثتم » .

قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ۖ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٨﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾

قوله تعالى : ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ﴾ أى عن حال الجبال يوم القيامة . ﴿فَقُلْ﴾ جاء هذا بفاء وكل سؤال فى القرآن « قل » بغير فاء إلا هذا ، لأن المعنى إن سألوك عن الجبال فقل ، فتضمن الكلام معنى الشرط . وقد علم الله أنهم يسئلونه عنها ، فأجابهم قبل السؤال ، وتلك أسئلة تقدمت سألوا عنها النبى صلى الله عليه وسلم فجاء الجواب عقب السؤال ؛ فلذلك كان بغير فاء ، وهذا سؤال لم يسئلوه عنه بعد ؛ فتفهّمه . ﴿يَنْسِفُهَا﴾ يطيرها . ﴿نَسْفًا﴾ قال ابن الأعرابى وغيره : يقلعها قلعا من أصولها ، ثم يصيرها رملا يسيل سيلا ، ثم يصيرها كالصوف المنفوش تطيرها الرياح هكذا وهكذا . قال : ولا يكون العهن من الصوف إلا المصبوغ ، ثم كالهباء المنثور . ﴿فَيَذَرُهَا﴾ أى يذر مواضعها ﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ القاع الأرض الملساء

بلا نبات ولا بناء؛ قاله ابن الأعرابى . وقال الجوهرى : والقاع المستوى من الأرض والجمع أَقْوُعٌ وأَقْوَاعٌ وقيعانٌ صارت الواو ياء لكسر ما قبلها . وقال الفراء : القاع مستنقع الماء والصفصف القرعاء . الكلبى : هو الذى لا نبات فيه . وقيل : المستوى من الأرض كأنه على صف واحد فى آستوائه؛ قاله مجاهد . والمعنى واحد فى القاع والصفصف؛ فالقاع الموضع المنكشف، والصفصف المستوى الأملس . وأنشد سيبويه (١) :

وكَمْ دُونَ بيتكَ من صَفْصَفٍ * ودَكْدَاكِ رَمْـلٍ وأَعْقَـادِهَا

و «قاعا» نصب على الحال والصفصف . و ﴿ لَا تَرَى ﴾ فى موضع الصفة . ﴿ فِيهَا عِوَجًا ﴾ قال ابن الأعرابى : العِوج التّعوج فى الفِجاج . والأَمْت النَّبَك . وقال أبو عمرو : الأَمْت النِّبَاك وهى التلال الصغار واحدها نَبَك؛ أى هى أرض مستوية لا آنخفاض فيها ولا ارتفاع . تقول : آمتلأ فما به أَمْت، وملأْتُ القربة مَلْئا لا أمت فيه؛ أى لا آسترخاء فيه . والأمت فى اللغة المكان المرتفع . وقال آبن عباس : «عِوَجًا» مَيْلا . قال : والأمت الأثر مثل الشراك . وعنه أيضا «عِوَجًا»، واديا «وَلَا أَمْتًا» رابية . وعنه أيضا : العوج [الآنخفاض] (٢) والأمت الآرتفاع . وقال قتادة : «عِوَجًا» صدعا «وَلَا أَمْتًا» أى أكمة . وقال يمان : الأمت الشقوق فى الأرض . وقيل : الأمت أن يغلظ مكان فى الفضاء أو الجبل ويدق فى مكان؛ حكاه الصولى .

قلت : وهذه الآية تدخل فى باب الرُّقَى؛ ترقى بها الثآليل وهى التى تسمى عندنا (بالبراريق) واحدها (بروقة)؛ تطلع فى الجسد وخاصة فى اليد : تأخذ ثلاثة أعواد من تبن الشعير، يكون فى طرف كل عود عقدة، تُمِرّ كل عُقدة على الثآليل وتقرأ الآية مرة، ثم تدفن الأعواد فى مكان ندىّ؛ تعفن وتعفن الثآليل؛ فلا يبقى لها أثر؛ جرّبت ذلك فى نفسى وفى غيرى فوجدته نافعا إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ ﴾ يريد إسرافيل عليه السلام إذا نفخ فى الصور ﴿ لَا عِوَجَ لَهُ ﴾ أى لا معدل لهم عنه؛ أى عن دعائه لا يزيغون ولا ينحرفون بل يسرعون إليه ولا يحيدون

(١) البيت للأعشى؛ وقد وصف بعد المسافة بينه وبين الممدوح الذى قصده ليستوجب بذلك جائزته . والدكداك من الرمل المستوى . الأعقاد (جمع) عقدة وهو المنعقد من الرمل المتراكب . (٢) زيادة يقتضيها المعنى .

عنه . وعلى هذا أكثر العلماء . وقيل : « لَا عِوَجَ لَهُ » أى لدعائه . وقيل : يتّبعون الداعى اتباعا لا عوج له ؛ فالمصدر مضمر ؛ والمعنى : يتّبعون صوت الداعى للحشر ؛ نظيره : « وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِي مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ » الآية . وسيأتى . ﴿ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ ﴾ أى ذَلّت وسكنت ؛ عن ابن عباس قال : لما أتى خبر الزبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشّع ، فكل لسان ساكت هناك للهيبة . ﴿ لِلرَّحْمَٰنِ ﴾ أى من أجله . ﴿ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ الهمس الصوت الخفىّ ؛ قاله مجاهد . عن ابن عباس : الحس الخفىّ . الحسن وابن جريج : هو صوت وقع الأقدام بعضها على بعض إلى المحشر ؛ ومنه قول الراجز :

* وهُنّ يَمْشِينَ بِنا هَمِيسَا *

يعنى صوت أخفاف الإبل فى سيرها . ويقال للأسد الهموس ؛ لأنه يَهمِس فى الظلمة ؛ أى يطأ وطئا خفيّا . قال رؤبة يصف نفسه بالشدّة :

لَيثٌ يَدقُّ الأسدَ الهَمُوسَا * والأَقْهبينِ[1] الفيلَ والجاموسَا

وهمس الطعام ؛ أى مضغه وفُوه منضمّ ؛ قال الراجز :

لقد رأيتُ عجبًا مُذْ أَمْسَا * عجائزًا مثلَ السَّعالِى خَمْسَا

* يأكُلْنَ ما أصنع هَمْسًا هَمْسَا *

وقيل : الهمْس تحريك الشّفة واللسان . وقرأ أبىّ بن كعب « فَلَا يَنْطِقُونَ إِلَّا هَمْسًا » . والمعنى متقارب ؛ أى لا يسمع لهم نطق ولا كلام ولا صوت أقدام . وبناء (هـ م س) أصله الخفاء كيفما تصرف ؛ ومنه الحروف المهموسة ، وهى عشرة يجمعها قولك : (حَثَّهُ شَخْصٌ فَسَكَتَ) وإنما سمى الحرف مهموسا لأنه ضَعُف الاعتمادُ من موضعه حتى جَرَى معه النفَس .

قوله تعالى : ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ « من » فى موضع نصب على الاستثناء الخارج من الأوّل ؛ أى لا تنفع الشفاعة أحدا إلا شفاعة من أذن له الرحمن . ﴿ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴾ أى رضى قوله فى الشفاعة . وقيل : المعنى ، أى إنما تنفع الشفاعة لمن أذن له الرحمن فى أن يشفع له ، وكان له قول يرضى . قال ابن عباس : هو قول لا إله إلا الله .

(١) سمى الفيل والجاموس أقهبين للونهما وهو الغبرة .

قوله تعالى : ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى من أمر الساعة . ﴿ وَمَا خَلْفَهُمْ ﴾ مِن أَمرِ الدنيا قاله قتادة . وقيل : يعلم ما يصيرون إليه من ثواب أو عقاب «وما خلفهم» ما خلفوه وراءهم فى الدنيا . ثم قيل : الآية عامة فى جميع الخلق . وقيـل : المراد الذين يتبعون الداعى . والحمـــد لله .

قوله تعـالى : ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً ﴾ الهاء فى « به » لله تعالى؛ أى أحد لا يحيط به علما؛ إذ الإحاطة مشعرة بالحد ويتعالى الله عن التحديد . وقيل : تعود على العلم؛ أى أحد لا يحيط علما بما يعلمه الله . وقال الطبرى : الضمير فى «أيديهم» و«خلفهم» و«يحيطون» يعود على الملائكة؛ أعلم الله من يعبدها أنها لا تعلم ما بين أيديها وما خلفها .

قوله تعـالى : وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ وَقَـدْ خَابَ مَنْ حَمَـلَ ظُلْمًـا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًـا وَلَا هَضْماً ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَعَنَتِ الْوُجُوهُ ﴾ أى ذلّت وخضعت؛ قاله ابن الأعرابى وغيره . ومنه قيل للأسير عانٍ . قال أمية بن أبى الصَّلْت :

مليـكٌ على عرش السّماءِ مُهَيْمِنٌ * لعـزّته تعنُو الوجـوهُ وتَسـجدُ

وقال أيضا :

وَعَنَـاله وَجْهِى وخَلْقِى كلُّه * فى الساجدين لوجهـه مَشْكُورَا

قال الجوهرى : عنا يعنو خضع وذلّ وأعناه غيره؛ ومنه قوله تعالى : « وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ » . ويقال أيضا : عَنَا فيهم فلان أسـيرا؛ أى أقام فيهم على إساره واحتبس . وعَنَّاه غيرُه تعنيةً حبسه . والعانى الأسير . وقوم عُناة ونسوة عَوَانٍ . وعَنَتْ به أمورٌ نزلت . وقال ابن عبـاس : « عَنَت » ذلّت . وقال مجاهد : خشعت . المـاوردى : والفـرق بين الذل والخشوع — وإن تقارب معناهما — أن الذل أن يكون ذليل النفس، والخشوع أن يتذلل لذى طاعة . وقال الكلبى : « عنت » أى علمت . عطية العوفى : استسلمت . وقال طَلْق

ابن حبيب : إنه وضع الجبهة والأنف على الأرض فى السجود . النحاس : «وَعَنَتِ الْوُجُوهُ» فى معناه قولان : أحدهما — أن هـذا فى الآخرة . وروى عكرمة عن ابن عبـاس « وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ » قال : الركوع والسجود؛ ومعنى «عنت» فى اللغة القهر والغلبة، ومنه فتحت البلاد عَنوة أى غلبة؛ قال الشاعر[1] :

فما أخذوها عَنْوةً عن مودّة * ولكنّ ضربَ المَشْرَفِيّ آستقالها

وقيـل : هو من العناء بمعنى التعب؛ وكنى عن النـاس بالوجوه ؛ لأن آثار الذل إنما تتبين فى الوجه . ﴿ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴾ وفى القيوم ثلاث تأويلات؛ أحدها — أنه القائم بتدبير الخلق . الثانى — أنه القائم على كل نفس بما كسبت . الثالث — أنه الدائم الذى لا يزول ولا يبيد . وقد مضى فى « البقرة »[2] هذا . ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ أى خسر من حمل شركا .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ لأن العمل لا يقبل من غير إيمان . و « من » فى قوله : « مِنَ الصَّالِحَاتِ » للتبعيض؛ أى شيئا من الصالحات . وقيل: للجنس. ﴿ فَلَا يَخَافُ ﴾ قرأ ابن كثير ومجاهـد وابن محيصن « يَخَفْ » بالجـزم جوابا لقوله : « وَمَنْ يَعْمَلْ » . الباقون « يَخَافُ » رفعا على الخبر؛ أى فهو لا يَخَافُ؛ أو فإنه لا يخاف . ﴿ ظُلْمًا ﴾ أى نقصا لثواب طاعته ، ولا زيادة عليـه فى سيئاته . ﴿ وَلَا هَضْمًا ﴾ بالآنتقاص من حقه . والهضم النقص والكسر؛ يقال : هضمتُ ذلك من حقّ أى حططتُه وتركته . وهذا يهضم الطعام أى ينقص ثقله . وآمرأة هَضِيمُ الكشح ضامرة البطن . المـاوردى : والفرق بين الظلم والهضم أن الظلم المنع من الحق كله ، والهضم المنـع من بعضه، والهضم ظلم وإن افترقا من وجه؛ قال المتوكل الليثى :

إنّ الأذلةَ واللئـامَ لَمعشرٌ * مَوْلَاهُم المتهضّم المظـلومُ

قال الجوهرى : ورجل هَضِيمٌ ومُهتضَم أى مظلوم . وتَهضَّمه أى ظلمه وآهتضمه إذا ظلمه وكَسَر عليه حقه .

---

(١) أنشده الفراء لكثير كما فى « اللسان » .	(٢) راجع جـ ٣ ص ٢٧١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا ﴿١١٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أى كما بيّنا لك فى هذه السّورة من البيان فكذلك جعلناه ﴿ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ أى بلغة العرب . ﴿ وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ ﴾ أى بيّنا ما فيه من التخويف والتهديد والثواب والعقاب . ﴿ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ أى يخافون الله فيجتنبون معاصيه، ويحذرون عقابه . ﴿ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴾ أى موعظة . وقال قتادة : حذرا وورعا . وقيل : شرفا؛ فالذكر ها هنا بمعنى الشرف؛ كقوله : « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » . وقيل : أى ليتذكروا العذاب الذى توعدوا به . وقرأ الحسن «أَوْ نُحْدِثُ» بالنون؛ وروى عنه رفع الثاء وجزمها .

قوله تعالى : ﴿ فَتَعَالَى اللهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ ﴾ لما عرف العباد عظيم نعمه، وإنزال القرآن نزّه نفسه عن الأولاد والأنداد فقال : «فَتَعَالَى اللهُ» أى جلّ الله الملك الحق؛ أى ذو الحق. ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ ﴾ علّم نبيه كيف يتلقى القرآن. قال ابن عباس: كان عليه السلام يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحى حرصا على الحفظ ، وشفقة على القرآن مخافة النسيان ، فنهاه الله عن ذلك وأنزل « وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ » . وهذا كقوله : « لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ » على ما يأتى . وروى ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : لا تتله قبل أن تتبينه . وقيل : «وَلَا تَعْجَلْ» أى لا تسل إنزاله «مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى» أى يأتيك « وَحْيُهُ » . وقيل : المعنى لا تلقه إلى الناس قبل أن يأتيك بيان تأويله . وقال الحسن : نزلت فى رجل لطم وجه امرأته، فجاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم تطلب القصاص، فجعل النبى صلى الله عليه وسلم لها القصاص، فنزل « الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ » ولهذا قال : « وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا » أى فهما ؛ لأنه عليه السلام حكم بالقصاص وأبى الله ذلك . وقرأ ابن مسعود وغيره « مِنْ قَبْلِ أَنْ نَقْضِيَ » بالنون وكسر الضاد « وَحْيَهُ » بالنصب .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ ﴾ قرأ الأعمش باختلاف عنه «فَنَسِي» بإسكان الياء وله معنيان : أحدهما — ترك ؛ أى تَرَكَ الأمر والعهد ؛ وهذا قول مجاهد وأكثر المفسرين ومنه «نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ» . و[وثانيهما](١) قال ابن عباس : «نسى» هنا من السهو والنسيان ، وإنما أخذ الإنسان منه لأنه عهد إليه فنسى . قال ابن زيد : نسى ما عهد الله إليه فى ذلك ، ولو كان له عزم ما أطاع عدوه إبليس . وعلى هذا القول يحتمل أن يكون آدم عليه السلام فى ذلك الوقت مأخوذا بالنسيان ، وإن كان النسيان عنا اليوم مرفوعا . ومعنى «مِنْ قَبْلُ» أى من قبل أن يأكل من الشجرة ؛ لأنه نهى عنها . والمراد تسلية النبى صلى الله عليه وسلم ؛ أى طاعة بنى آدم الشيطان أمر قديم ؛ أى إن نَقَضَ هؤلاء العهد فإن آدم أيضا عهدنا إليه فنسى ؛ حكاه القشيرى وكذلك الطبرى . أى وإن يعرض يا محمد هؤلاء الكفرة عن آياتى ، ويخالفوا رسلى ، ويطيعوا إبليس ، فقدمًا فعل ذلك أبوهم آدم . قال ابن عطية : وهذا التأويل ضعيف ، وذلك كون آدم مثالا للكفار الجاحدين بالله ليس بشىء ، وآدم إنما عصى بتأويل ، ففى هذا غضاضة عليه صلى الله عليه وسلم ؛ وإنما الظاهر فى الآية إما أن يكون ابتداء قصص لا تعلق له بما قبله ، وإما أن يجعل تعلقه أنه لما عهد إلى محمد صلى الله عليه وسلم ألا يعجل بالقرآن ، مثل له بنبىّ قبله عهد إليه فنسى فعوقب ؛ ليكون أشد فى التحذير ، وأبلغ فى العهد إلى محمد صلى الله عليه وسلم ؛ والعهد هاهنا فى معنى الوصية ؛ «ونسى» معناه ترك ؛ ونسيان الذهول لا يمكن هنا ؛ لأنه لا يتعلق بالناسى عقاب . والعزم المضى على المعتقد فى أى شىء كان ؛ وآدم عليه السلام قد كان يعتقد ألا يأكل من الشجرة لكن لما وسوس إليه إبليس لم يعزم على معتقده . والشىء الذى عهد إلى آدم هو ألا يأكل من الشجرة ، وأعلم مع ذلك أن إبليس عدو له . واختلف فى معنى قوله : ﴿ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴾ فقال ابن عباس وقتادة : لم نجد له صبرا عن أكل الشجرة ، ومواظبة على التزام الأمر . قال

(١) زيادة يقتضيها السياق .

النحاس : وكذلك هو فى اللغة؛ يقال : لفلان عزم أى صبر وثبات على التحفظ من المعاصى حتى يسلم منها، ومنه «فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ» . وعن ابن عباس أيضا وعطية العوفى : حفظا لما أمر به ؛ أى لم يتحفظ مما نهيته حتى نسى ، وذهب عن علم ذلك بترك الاستدلال ؛ وذلك أن إبليس قال له : إن أكلتها خُلِّدت فى الجنة؛ يعنى عين تلك الشجرة، فلم يطعه فدعاه إلى نظير تلك الشجرة مما دخل فى عموم النهى وكان يجب أن يستدل عليه فلم يفعل ، وظنّ أنها لم تدخل فى النهى فأكلها تأويلا ، ولا يكون ناسيا للشىء من يعلم انه معصية . وقال ابن زيد : « عزما » محافظة على أمر الله . وقال الضحاك : عزيمة أمر . ابن كيسان : إصرارا ولا إضمارا للعود إلى الذنب . قال القشيرى : والأول أقرب إلى تأويل الكلام ؛ ولهذا قال قوم : آدم لم يكن من أولى العزم من الرسل ؛ لأن الله تعالى قال : «وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » . وقال المُعْظَم : كل الرسل أولو العزم، وفى الخبر : " ما من نبىّ إلا وقد أخطأ أوهمّ بخطيئة ما خلا يحيى بن زكريا " فلو خرج آدم بسبب خطيئته من جملة أولى العزم لخرج جميع الأنبياء سوى يحيى . وقد قال أبو أمامة : لو أن أحلام بنى آدم جمعت منذ خلق الله الخلق إلى يوم القيامة ، ووضعت فى كفة ميزان، ووضع حِلم آدم فى كفة أخرى لرجحهم؛ وقد قال الله تبارك وتعالى : « وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا » .

قوله تعالى : وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِأَدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ (١١٩)

قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴾ تقدم فى «البقرة»[(١)] مستوفى . ﴿ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا ﴾ نهى؛ ومجازه :

(١) راجع جـ ١ ص ٢٩١ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

لا تقبلا منه فيكون ذلك سببا لخروجكما ﴿ مِنَ الْجَنَّةِ ﴾ . ﴿ فَتَشْقَىٰ ﴾ يعنى أنت وزجك لأنهما فى ٱستواء العلة واحد ؛ ولم يقل : فتشقيا ؛ لأن المعنى معروف ، وآدم عليه السلام هو المخاطب ، وهو المقصود . وأيضا لما كان الكادّ عليها والكاسبَ لها كان بالشقاء أخص . وقيل : الإخراج واقع عليهما والشقاوة على آدم وحده ، وهو شقاوة البدن ؛ ألا ترى أنه عقبه بقوله : « إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ » أى فى الجنة « وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ » فأعلمه أن له فى الجنة هذا كله : الكسوة والطعام والشراب والمسكن ؛ وأنك إن ضَيَّعت الوصية ، وأطعت العدوّ أخرجكما من الجنة فشقيت تعبا ونصبا ؛ أى جُعْتَ وعريتَ وظَمِئتَ وأصابتك الشمس ؛ لأنك ترد إلى الأرض إذا أخرجت من الجنة . وإنما خصّه بذكر الشقاء ولم يقل فتشقيان : يعلمنا أن نفقة الزوجة على الزوج ؛ فمن يومئذ جرت نفقة النساء على الأزواج ، فلما كانت نفقة حواء على آدم كذلك نفقات بناتها على بنى آدم بحق الزوجية . وأعلمنا فى هذه الآية أن النفقة التى تجب للمرأة على زوجها هذه الأربعة : الطعام والشراب والكسوة والمسكن ؛ فإذا أعطاها هذه الأربعة فقد خرج إليها من نفقتها ؛ فإن تفضل بعد ذلك فهو مأجور ، فأما هذه الأربعة فلا بد لها منها ؛ لأن بها إقامة المهجة . قال الحسن المراد بقوله : « فتشقى » شقاء الدنيا ؛ لا يُرَى ابنُ آدم إلا ناصبا . وقال الفراء : هو أن يأكل من كدّ يديه . وقال سعيد بن جبير : أهبط إلى آدم ثور أحمر فكان يحرث عليه ، ويمسح العرق عن جبينه ، فهو شقاؤه الذى قال الله تبارك وتعالى . وقيل : لما أهبِط من الجنة كان من أول شقائه أن جبريل أنزل عليه حبات من الجنة ؛ فقال : يا آدم آزرع هذا ، فحرث وزرع ، ثم حصد ثم درس ثم نقى ثم طحن ثم عجن ثم خبز ، ثم جلس ليأكل بعد التعب ؛ فتدحرج رغيفه من يده حتى صار أسفل الجبل ، وجرى وراءه آدم حتى تعب وقد عرق جبينه ، قال : يا آدم فكذلك رزقك بالتعب والشقاء ، ورزق ولدك من بعدك ما كنت فى الدنيا .

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ . وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴾

فيه مسئلتان :

الأولى : قوله تعالى : « إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا » أى فى الجنة « وَلَا تَعْرَى » . « وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا » أى لا تعطش . والظمأ العطش . « وَلَا تَضْحَى » أى تبرز للشمس فتجد حرّها . إذ ليس فى الجنة شمس، إنما هو ظل ممدود، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس . قال أبو العالية : نهار الجنة هكذا : وأشار إلى ساعة المصلين صلاة الفجر . قال أبو زيد : ضَحَا الطريقُ يَضْحُو ضُحُوًّا إذا بدا لك وظهر . وضَحَيْتُ وضَحِيتُ (بالكسر) ضَحًا عرِقت . وضَحِيتُ أيضا للشمس ضَحاء ممدود بَرَزْتُ وضَحَيْتُ (بالفتح) مثله ، والمستقبل أَضْحَى فى اللغتين جميعا ؛ قال عمر بن أبى ربيعة :

رَأَتْ رَجُلًا أَيْمَا إذا الشمسُ عَارَضَتْ * فَيَضْحَى وأَمَّا بالعَشِيِّ فَيَخْصَرُ

وفى الحديث أن ابن عمر رأى رجلا محرما قد آستظل، فقال : أَضْحِ لمن أحرمت له . هكذا يرويه المحدِّثون بفتح الألف وكسر الحاء من أضحيت . وقال الأصمعى : إنما هو آضْحَ لمن أحرمتَ له ؛ بكسر الألف وفتح الحاء ، مَن ضَحِيت أَضْحَى ؛ لأنه أمره بالبروز للشمس ؛ ومنه قوله تعالى : « وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى » وأنشد :

ضَحِيتُ له كَىْ أَسْتَظِلَّ بِظِلِّهِ * إذا الظلُّ أَضْحَى فى القيامة قَالِصا

وقرأ أبو عمرو والكوفيون إلا عاصما فى رواية أبى بكر عنه « وَأَنَّكَ » بفتح الهمزة عطفا على « أَلَّا تَجُوعَ » . ويجوز أن يكون فى موضع رفع عطفا على الموضع ، والمعنى : ولك أنك لا تظمأ فيها . الباقون بالكسر على الآستئناف، أو على العطف على « إِنَّ لَكَ » .

قوله تعالى : فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾

قوله تعالى : ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ ﴾ تقدم فى « الأعراف »(١) . ﴿ قَالَ ﴾ يعنى الشيطان ﴿ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴾ وهذا يدل على المشافهة، وأنه دخل الجنة فى جوف الحية على ما تقدم فى « البقرة »(٢) بيانه، وتقدم هناك تعيين الشجرة، وما للعلماء فيها فلا معنى للإعادة . ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ﴾ تقدم فى « الأعراف »(٣) مستوفى . وقال الفراء : « وَطَفِقَا » فى العربية أقبلا؛ قال وقيل : جعلا يلصقان عليهما ورق التين .

قوله تعالى : ﴿ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴾ فيه ست مسائل :

الأولى — قوله تعالى : « وَعَصَى » تقدم فى « البقرة »(٤) القول فى ذنوب الأنبياء . وقال بعض المتأخرين من علمائنا والذى ينبغى أن يقال : إن الله تعالى قد أخبر بوقوع ذنوب من بعضهم، ونسبها إليهم، وعاتبهم عليها، وأخبروا بذلك عن نفوسهم، وتنصّلوا منها، وآستغفروا منها وتابوا ، وكل ذلك ورد فى مواضع كثيرة لا يقبل التأويل جملتها، وإن قبل ذلك آحادها، وكل ذلك مما لا يزرى بمناصبهم ، وإنما تلك الأمور التى وقعت منهم على جهة الندور، وعلى جهة الخطأ والنسيان، أو تأويل دعا إلى ذلك، فهى بالنسبة إلى غيرهم حسنات، وفى حقهم سيئات بالنسبة إلى مناصبهم، وعلو أقدارهم؛ إذ قد يؤاخذ الوزير بما يثاب عليه السائس؛ فأشفقوا من ذلك فى موقف القيامة، مع علمهم بالأمن والأمان والسلامة . قال : وهذا هو الحق . ولقد أحسن الجنيد حيث قال : حسنات الأبرار سيئات المقربين؛ فهم — صلوات الله وسلامه عليهم — وإن كانوا قد شهدت النصوص بوقوع ذنوب منهم، فلم يخل ذلك بمناصبهم، ولا قدح فى رتبتهم، بل قد تلافاهم، وآجتباهم وهداهم، ومدحهم وزكاهم وآختارهم واصطفاهم؛ صلوات الله عليهم وسلامه .

الثانية — قال القاضى أبو بكر بن العربى : لا يجوز لأحد منا اليوم أن يخبر بذلك عن آدم إلا إذا ذكرناه فى أثناء قوله تعالى عنه ، أو قول نبيه، فأما أن يبتدئ ذلك من قبل

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٧٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع جـ ١ ص ٣٠٥ طبعة ثانية أو ثالثة .
(٣) راجع جـ ٧ ص ١٨٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٤) راجع جـ ١ ص ٣٠٨ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

نفسه فليس بجائز لنا فى آبائنا الأدنين إلينا، المماثلين لنا، فكيف فى أبينا الأقدم الأعظم الأكرم النبي المقدّم، الذى عذره الله سبحانه وتعالى وتاب عليه وغفر له .

قلت : وإذا كان هذا فى المخلوق لا يجوز، فالإخبار عن صفات الله عز وجل كاليد والرجل والإصبع والجنب والنزول إلى غير ذلك أولى بالمنع ، وأنه لا يجوز الابتداء بشيء من ذلك إلا فى أثناء قراءة كتابه أو سنة رسوله ، ولهذا قال الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه : من وصف شيئا من ذات الله عز وجل مثل قوله : « وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ » فأشار بيده إلى عنقه قطعت يده، وكذلك فى السمع والبصر يقطع ذلك منه؛ لأنه شبه الله تعالى بنفسه .

الثالثة — روى الأئمة واللفظ [لمسلم][1] عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : " احتج آدم وموسى فقال موسى يا آدم أنت أبونا خيبتنا وأخرجتنا من الجنة فقال آدم يا موسى اصطفاك الله عز وجل بكلامه وخطّ لك بيده يا موسى : أتلومنى على أمر قدّره الله علىّ قبل أن يخلقنى بأربعين سنة فحجّ آدم موسى ثلاثا[2] " قال المهلب قوله : " فحج آدم موسى " أى غلبه بالحجة . قال الليث بن سعد إنما صحت الحجة فى هذه القصة لآدم على موسى عليهما السلام من أجل أن الله تعالى قد غفر لآدم خطيئته وتاب عليه ، فلم يكن لموسى أن يعيره بخطيئة قد غفرها الله تعالى له ؛ ولذلك قال آدم : أنت موسى الذى آتاك الله التوراة ، وفيها علم كل شيء ، فوجدت فيها أن الله قد قدّر علىّ المعصية ، وقدّر علىّ التوبة منها ، وأسقط بذلك اللوم عنى أفتلومنى أنت والله لا يلومنى ؛ وبمثل هذا احتج ابن عمر على الذى قال له : إن عثمان فرّ يوم أحد ؛ فقال ابن عمر : ما على عثمان ذنب ؛ لأن الله تعالى قد عفا عنه بقوله : « وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ » . وقد قيل : إن آدم عليه السلام أب وليس تعييره من برّه أن لو كان مما يعيّر به غيره ؛ فإن الله تبارك وتعالى يقول فى الأبوين الكافرين : « وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا » ولهذا إن إبراهيم عليه السلام لما قال له أبوه وهو كافر : « لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا . قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ » فكيف بأبٍ هو نبيّ قد اجتباه ربه وتاب عليه وهدى .

(١) فى الأصول : اللفظ للبخارى . والتصويب عن صحيح مسلم .
(٢) ثلاثا : أى قال النبي صلى الله عليه وسلم " فحج آدم موسى " ثلاث مرات .

الرابعة — وأما من عمل الخطايا ولم تأته المغفرة، فإن العلماء مجمعون على أنه لا يجوز له أن يحتج بمثل حجة آدم، فيقول تلومني على أن قتلت أو زنيت أو سرقت وقد قدّر الله على ذلك؛ والأمة مجمعة على جواز حمد المحسن على إحسانه، ولوم المسيء على إساءته، وتعديد ذنوبه عليه.

الخامسة — قوله تعالى: ﴿ فَغَوَىٰ ﴾ أي ففسد عليه عيشه، حكاه النقاش واختاره القشيري. وسمعت شيخنا الأستاذ المقرئ أبا جعفر القرطبي يقول: « فَغَوَىٰ » ففسد عيشه بنزوله إلى الدنيا؛ والغيّ الفساد؛ وهو تأويل حسن، وهو أولى من تأويل من يقول: « فغوى » معناه ضلّ؛ من الغيّ الذي هو ضد الرشد. وقيل: معناه جهل موضع رشده؛ أي جهل أن تلك الشجرة هي التي نهي عنها؛ والغيّ الجهل. وعن بعضهم « فغوى » فبَشِم من كثرة الأكل؛ الزمخشري: وهذا وإن صحّ على لغة من يقلب الياء المكسور ما قبلها ألفا؛ فيقول في فَنِيَ وبَقِيَ: فَنَى وبَقَى وهم بنو طيّ تفسير خبيث.

السادسة — قال القشيري أبو نصر قال قوم يقال: عصى آدم وغوى ولا يقال له عاصٍ ولا غاوٍ، كما أن من خاط مرة يقال له: خاط، ولا يقال له خيّاط ما لم تتكرر منه الخياطة. وقيل: يجوز للسيد أن يطلق في عبده عند معصيته ما لا يجوز لغيره أن يطلقه، وهذا تكلّف؛ وما أضيف من هذا إلى الأنبياء فإما أن تكون صغائر، أو ترك الأولى، أو قبل النبوّة.

قلت: هذا حسن؛ قال الإمام أبو بكر بن فورك رحمه الله تعالى: كان هذا من آدم قبل النبوّة، ودليل ذلك قوله تعالى: « ثُمَّ ٱجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ » فذكر أن الاجتباء والهداية كانا بعد العصيان، وإذا كان هذا قبل النبوّة فجائز عليهم الذنوب وجها واحدا؛ لأن قبل النبوّة لا شرع علينا في تصديقهم، فإذا بعثهم الله تعالى إلى خلقه وكانوا مأمونين في الأداء معصومين لم يضر ما قد سلف منهم من الذنوب. وهذا نفيس والله أعلم.

قوله تعالى: قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾

قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِيٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ
ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ
وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٢٧﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا ﴾ خاطب آدم وإبليس . « مِنها » أى من الجنة . وقد قال لأبليس : « ٱخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا » فلعله أخرج من الجنة إلى موضع من السماء، ثم أهبط إلى الأرض . ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾ تقدم فى « البقرة »(١) أى أنت عدو للحية ولأبليس وهما عدوان لك . وهذا يدل على أن قوله : « آهبِطا » ليس خطابا لآدم وحواء، لأنهما ما كانا متعاديين، وتضمن هبوط آدم هبوط حواء. ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى ﴾ أى رشدا وقولا حقا . وقد تقدم فى « البقرة »(٢) . ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ ﴾ يعنى الرسل والكتب. ﴿ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾ قال ابن عباس : ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضلّ فى الدنيا، ولا يشقى فى الآخرة، وتلا الآية . وعنه : من قرأ القرآن وآتبع ما فيه هداه الله من الضلالة، ووقاه يوم القيامة سوء الحساب، ثم تلا الآية . ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى ﴾ أى دينى، وتلاوة كتابى، والعمل بما فيه . وقيل : عما أنزلت من الدلائل . ويحتمل أن يحمل الذكر على الرسول؛ لأنه كان منه الذكر . ﴿ فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ أى عيشا ضيقا؛ يقال : منزل ضنك وعيش ضنك يستوى فيه الواحد والأثنان والمذكر والمؤنث والجمع؛ قال عنترة :

إنْ يُلحقوا أَكْرُرْ وإنْ يُستلحَموا * أَشـدُدْ وإنْ يُلْفَوْا بضَنْكٍ أنزلِ

وقال أيضا :

إنّ المنيةَ لو تُمثَّل مُثِّلتْ * مثلى إذا نزلُوا بضَنْكِ المنزلِ

وقرئ «ضَنْكَى» على وزن فَعْلَى : ومعنى ذلك أن الله عز وجل جعل مع الدين التسليم والقناعة والتوكل عليه وعلى قسمته ، فصاحبه ينفق مما رزقه الله — عز وجل — بسماح وسهولة

(١) راجع جـ ١ ص ٣١٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

(٢) راجع جـ ١ ص ٣٢٨ طبعة ثانية أو ثالثة .

ويعيش عيشا رافغا(١)؛ كما قال الله تعالى : « فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً » . والمعرض عن الدين مستولٍ عليه الحرص الذى لا يزال يطمح به إلى الازدياد من الدنيا، مسلط عليه الشّح، الذى يقبض يده عن الإنفاق، فعيشه ضَنك، وحاله مظلمة، كما قال بعضهم : لا يعرض أحد عن ذكر ربه إلا أظلم عليه وقته، وتَشوَّش عليه رزقُه، وكان فى عيشة ضنك . وقال عكرمة : « ضَنْكًا » كسبا حراما . الحسن : طعام الضَّريع والزَّقوم . وقول رابع وهو الصحيح أنه عذاب القبر ؛ قاله أبو سعيد الخدرى وعبد الله بن مسعود، ورواه أبو هريرة مرفوعا عن النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ذكرناه فى كتاب « التذكرة » ؛ قال أبو هريرة : يضيق على الكافر قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، وهو المعيشة الضنك . ﴿ وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ قيل : أعمى فى حال وبصيرا فى حال ؛ وقد تقدّم فى آخر « سبحان(٢) » . وقيل : أعمى عن الحجة ؛ قاله مجاهد . وقيل : أعمى عن جهات الخير، لا يهتدى لشىء منها . وقيل : عن الحيلة فى دفع العذاب عن نفسه، كالأعمى الذى لا حيلة له فيما لا يراه. ﴿ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى ﴾ أى بأى ذنب عاقبتنى بالعمى . ﴿ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴾ أى فى الدنيا، وكأنه يظن أنه لا ذنب له . وقال ابن عباس ومجاهد : أى « لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى » عن حجتى « وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا » أى عالما بحجتى؛ القشيرى : وهو بعيد إذ ما كان للكافر حجة فى الدنيا . ﴿ قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا ﴾ أى قال الله تعالى له : « كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا » أى دلالاتنا على وحدانيتنا وقدرتنا . ﴿ فَنَسِيتَهَا ﴾ أى تركتها ولم تنظر فيها، وأعرضت عنها . ﴿ وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى ﴾ أى تترك فى العذاب؛ يريد جهنم . ﴿ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ ﴾ أى وكما جزينا من أعرض عن القرآن، وعن النظر فى المصنوعات، والتفكر فيها، وجاوز الحدّ فى المعصية . ﴿ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ أى لم يصدق بها . ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ ﴾ أى أفظع من المعيشة الضّنك، وعذاب القبر . ﴿ وَأَبْقَى ﴾ أى أدوم وأثبت؛ لأنه لا ينقطع ولا ينقضى .

(١) عيش أرفغ ورافغ ورفيغ : خصيب واسع طيب .
(٢) راجع جـ ١٠ ص ٣٣٣ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَىٰ ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴿١٣٠﴾

قوله تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ ﴾ يريد أهل مكة ؛ أى أفلم يتبين لهم خبر من أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إذا سافروا وخرجوا فى التجارة طلب المعيشة، فيرون بلاد الأمم الماضية، والقرون الخالية خاوية ؛ أى أفلا يخافون أن يحلّ بهم مثل ماحلّ بالكفار قبلهم . وقرأ ابن عباس والسُّلَمى وغيرهما « نَهْدِ لَهُمْ » بالنون وهى أبين . و « يهد » بالياء مشكل لأجل الفاعل؛ فقال الكوفيون : ﴿ كَمْ ﴾ الفاعل؛ النحاس : وهذا خطأ؛ لأن « كم » آستفهام فلا يعمل فيها ما قبلها . وقال الزجاج : المعنى أو لم يهد لهم الأمر بإهلاكنا من أهلكنا . وحقيقة «يهد» يدل على الهدى؛ فالفاعل هو الهدى تقديره : أفلم يهد الهدى لهم . قال الزجاج : « كم » فى موضع نصب بـ﴿ أهلكنا ﴾ .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا ﴾ فيه تقديم وتأخير؛ أى ولولا كلمة سبقت من ربك وأجل مسمى لكان لزاما؛ قاله قتادة . واللزام الملازمة؛ أى لكان العذاب لازما لهم . وأضمر اسم كان . قال الزجاج : ﴿ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى ﴾ عطف على « كلمة » . قتادة : والمراد القيامة؛ وقاله القتبى . وقيل : تأخيرهم إلى يوم بدر .

قوله تعالى : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ ﴾ أمره تعالى بالصبر على أقوالهم : إنه ساحر؛ إنه كاهن؛ إنه كذاب؛ إلى غير ذلك . والمعنى : لا تحفل بهم ؛ فإن لعذابهم وقتا مضروبا لا يتقدم ولا يتأخر . ثم قيل : هذا منسوخ بآية القتال . وقيل : ليس منسوخا ؛ إذ لم يستأصل الكفار بعد آية القتال بل بقى المعظم منهم .

قوله تعالى : ﴿ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ ﴾ قال أكثر المتأولين : هذا إشارة إلى الصلوات الخمس « قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ » صلاة الصبح ﴿ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ صلاة العصر ﴿ وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ ﴾ العتمة ﴿ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ ﴾ المغرب والظهر ؛ لأن الظهر فى آخر طرف النهار الأول ، وأول طرف النهار الآخر ؛ فهى فى طرفين منه ؛ والطرف الثالث غروب الشمس وهو وقت المغرب . وقيل : النهار ينقسم قسمين فصلهما الزوال ، ولكل قسم طرفان ، فعند الزوال طرفان ؛ الآخر من القسم الأول والأول من القسم الآخر ؛ فقال عن الطرفين أطرافا على نحو « فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا » وأشار إلى هذا النظر ابن فورك فى المشكل . وقيل : النهار للجنس فلكل يوم طرف ، وهو إلى جمع لأنه يعود فى كل نهار . « وآناء الليل » ساعاته وواحد الآناء إِنْيٌ وإِنًى وأَنًى . وقالت فرقة : المراد بالآية صلاة التطوع ؛ قاله الحسن .

قوله تعالى : ﴿ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴾ بفتح التاء ؛ أى لعلك تثاب على هذه الأعمال بما ترضى به . وقرأ الكسائى وأبو بكر عن عاصم « تُرْضَى » بضم التاء ؛ أى لعلك تُعطَى ما يرضيك .

قوله تعالى : وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا ۖ لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكَ ۗ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ ﴿١٣٢﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ ﴾ وقد تقدم معناه فى « الحجر »[(١)] . ﴿ أَزْوَاجًا ﴾ مفعول بـ « متعنا » . و﴿ زَهْرَةَ ﴾ نصب على الحال . وقال الزجاج : « زهرة » منصوبة بمعنى « متعنا » لأن معناه جعلنا لهم الحياة الدنيا زهرة ؛ أو بفعل مضمر وهو « جعلنا » أى جعلنا لهم زهرة الحياة الدنيا ؛ عن الزجاج أيضا . وقيل : هى بدل من الهاء فى « به » على الموضع ، كما تقول : مررت به أخاك . وأشار الفراء إلى نصبه على الحال ؛ والعامل فيه « مَتَّعْنَا » قال : كما تقول مررت به المسكين ؛ وقدره : متعناهم به زهرةَ الحياة فى الدنيا وزينة فيها . ويجوز أن ينتصب على المصدر مثل « صُنْعَ اللهِ » و « وَعْدَ اللهِ » وفيه

(١) راجع جـ ١٠ ص ٥٦ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

نظر . والأحسن أن ينتصب على الحال ويحذف التنوين لسكونه وسكون اللام من الحياة ؛ كما قرئ « وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارَ » بنصب النهار بسابق على تقدير حذف التنوين لسكونه وسكون اللام ، وتكون « الحياة » مخفوضة على البدل من « ما » فى قوله : « إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ » فيكون التقدير : ولا تمدن عينيك إلى الحياة الدنيا زهرةً أى فى حال زهرتها . ولا يحسن أن يكون « زهرة » بدلا من « ما » على الموضع فى قوله : « إلى ما متعنا » لأن « لِنَفْتِنَهُمْ » متعلق بـ « متعنا » و « زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » يعنى زينتها بالنبات . والزَّهَرة، بالفتح فى الزاى والهاء نَوْر النبات . والزُّهَرة بضم الزاى وفتح الهاء النجم . وبنو زُهْرة بسكون الهاء ؛ قاله ابن عزيز . وقرأ عيسى بن عمر « زَهَرَةَ » بفتح الهاء مثل نَهْر ونَهَر . ويقال : سراج زاهر أى له بريق . وزهر الأشجار ما يروق من ألوانها . وفى الحديث : كان النبى صلى الله عليه وسلم أزهر اللون؛ أى نير اللون؛ يقال لكل شىء مستنير: زاهر، وهو أحسن الألوان . ﴿لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ أى لنبتليهم . وقيل . لنجعل ذلك فتنة لهم وضلالا . ومعنى الآية : لا تجعل يا محمد لزهرة الدنيا وزنا، فإنه لا بقاء لها . «وَلَا تَمُدَّنَّ» أبلغ من لا تنظرن، لأن الذى يمدّ بصره، إنما يحمله على ذلك حرص مقترن، والذى ينظر قد لا يكون ذلك معه.

مسئلة — قال بعض الناس : سبب نزول هذه الآية ما رواه ابو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : نزل ضيف برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأرسلنى عليه السلام إلى رجل من اليهود، وقال قل له يقول لك محمد : نزل بنا ضيف ولم يُلْفَ عندنا بعضُ الذى يصلحه ؛ فبعنى كذا وكذا من الدقيق ، أو أسلفنى إلى هلال رجب فقال : لا ، إلا برهن . قال : فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فقال : " والله إنى لأمين فى السماء أمين فى الأرض ولو أسلفنى أو باعنى لأدّيت إليه اذهب بدِرْعى إليه " ونزلت الاية تعزية له عن الدنيا . قال ابن عطية : وهذا معترض أن يكون سببا ؛ لأن السورة مكية والقصة المذكورة مدنية فى آخر عمر النبى صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه مات ودِرعه مرهونة عند يهودى بهذه القصة التى ذكرت ؛ وإنما الظاهر أن الآية متناسقة مع ما قبلها ، وذلك أن الله تعالى

وبخهم على ترك الاعتبار بالأمم السالفة ثم توعدهم بالعـذاب المؤجل ، ثم أمر نبيه بالاحتقار لشأنهم ، والصبر على أقوالهم ، والإعراض عن أموالهم وما فى أيديهم من الدنيا ؛ إذ ذلك منصرم عنهم صائر إلى خزى .

قلت : وكذلك ما روى عنـه عليه السـلام أنه مرّ بإبل بنى المصطلق وقـد عبست[1] فى أبوالها [وأبعارها][2] من السِّمن فتقنّع بثوبه ثم مضى ؛ لقوله عز وجل : « وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ » الآية . ثم سـلّاه فقال : ﴿ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴾ أى ثواب الله على الصبر وقلة المبالاة بالدنيا أولى ؛ لأنه يبقى والدنيا تفنى . وقيـل : يعنى بهـذا الرزق ما يفتح الله على المؤمنين من البلاد والغنائم .

قوله تعالى : ﴿ وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ ﴾ أمره تعالى بأن يأمر أهله بالصلاة و يمتثلها معهم ، و يصطبر عليها و يلازمها . وهـذا خطاب للنبى صلى الله عليه وسلم ويدخل فى عمومه جميـع أمته ، وأهل بيته على التخصيص . وكان عليه السلام بعد نزول هذه الآية يذهب كل صباح إلى بيت فاطمة وعلىّ رضوان الله عليهما فيقول : " الصلاة " . و يروى أن عُرْوة بن الزبير رضى الله عنـه كان إذا رأى شيئا من أخبار السلاطين وأحـوالهم بادر إلى منزله فدخله ، وهو يقرأ « وَلَا تَمُـدَّنَّ عَيْنَيْكَ » ـــ الآية ـــ إلى قوله : « وَأَبْقَى » ثم ينادى بالصـلاة : الصلاة يرحمكم الله ؛ و يصلّى . وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يوقظ أهل داره لصلاة الليل و يصلى وهو يتمثل بالآية .

قوله تعالى : ﴿ لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا ﴾ أى لا نسئلك أن ترزق نفسك و إياهم ، وتشتغل عن الصلاة بسبب الرزق ، بل نحن نتكفل برزقك و إياهم ؛ فكان عليه السلام إذا نزل بأهـله ضيق أمرهم بالصلاة . وقـد قال الله تعـالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ . إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ » .

قوله تعـالى : ﴿ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴾ أى الجنـة لأهل التقوى ؛ يعنى العاقبة المحمودة . وقد تكون لغير التقوى عاقبة ولكنها مذمومة فهى كالمعدومة .

---

(١) عبست فى أبوالهـا : هو أن تجف أبوالهـا وأبعارها على أفخاذها وذلك إنما يكون من الشحم .
(٢) الزيادة من « النهاية » لابن الأثير .

قوله تعالى : وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٣٣﴾ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴿١٣٤﴾ قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِىِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿١٣٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ ﴾ يريد كفار مكة ؛ أى لولا يأتينا محمد بآية توجب العلم الضرورى . أو بآية ظاهرة كالناقة والعصا . أو هلا يأتينا بالآيات التى نقترحها نحن كما أتى الأنبياء من قبله .

قال الله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴾ يريد التوراة والإنجيل والكتب المتقدمة ، وذلك أعظم آية إذ أخبر بما فيها . وقرئ « الصُّحْفِ » بالتخفيف . وقيل : أو لم تأتهم الآية الدالة على نبوته بما وجدوه فى الكتب المتقدمة من البشارة . وقيل : أو لم يأتهم إهلاكنا الأمم الذين كفروا واقترحوا الآيات ، فما يؤمّنهم إن أتتهم الآيات أن يكون حالهم حال أولئك . وقرأ أبو جعفر وشيبة ونافع وأبو عمرو و يعقوب وابن أبى إسحق وحفص « أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ » بالتاء لتأنيث البينة . الباقون بالياء لتقدم الفعل ؛ ولأن البينة هى البيان والبرهان فردّوه إلى المعنى ، واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . وحكى الكسائى « أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى » قال : ويجوز على هذا « بَيِّنَةً مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى » . قال النحاس : إذا نونت « بينة » ورفعت جعلت « ما » بدلا منها ، و إذا نصبتها فعلى الحال ؛ والمعنى : أو لم يأتهم ما فى الصحف الأولى مبيّنًا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ ﴾ أى من قبل بعثة محمد صلى الله عليه وسلم ونزول القرآن ﴿ لَقَالُوا ﴾ أى يوم القيامة ﴿ رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا ﴾ أى هلا أرسلت إلينا رسولا . ﴿ فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى ﴾ وقرئ « نُذَلَّ وَنُخْزَى » على

ما لم يسمّ فاعله . وروى أبو سعيد الخدرىّ قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الهالك فى الفترة والمعتوه والمولود قال: "يقول الهالك فى الفترة لم يأتنى كتاب ولا رسول – ثم تلا – « وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَـذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَـا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُـولًا » – الآية – ويقول المعتوه ربِّ لم تجعل لى عقلا أعقل به خيرا ولا شرا ويقول المولود ربِّ لم أدرك العمل فتُرفَع لهم نار فيقـول لهم رِدُوها وادخلوها – قال – فيَرِدُها أو يدخلهـا من كان فى علم الله سـعيدا لو أدرك العمل ويمسك عنها من كان فى علم الله شقيا لو أدرك العمل فيقول الله تبارك وتعالى إياى عصيتم فكيف رسلى لو أتتكم" ويروى موقوفا عن أبى سعيد قوله؛ وفيه نظر؛ وقد بيناه فى كتاب «التذكرة» وبه آحتج من قال : إن الأطفال وغيرهم يمتحنون فى الآخرة . « فَنَتَّبِـعَ » نصب بجواب التخصيص . « آياتك » يريد ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . « مِنْ قَبْـلِ أَنْ نَذِلَّ » أى فى العـذاب « وَنَخْزَى » فى جهنم ؛ قاله ابن عباس . وقيـل : « مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ » فى الدنيا بالعذاب « وَنَخْزَى » فى الآخرة بعذابها . ﴿ قُلْ كُلٌّ مُتَرَبِّصٌ ﴾ أى قل لهم يا محمد كل متربص ؛ أى كل المؤمنين والكافرين منتظر دوائر الزمان ولمن يكون النصر . ﴿ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ آهْتَدَى ﴾ يريد الدين المستقيم والهـدى ؛ والمعنى : فستعلمون بالنصر من آهتـدى إلى دين الحق . وقيـل : فستعلمون يوم القيامة من اهتـدى إلى طريق الجنة . وفى هـذا ضرب من الوعيـد والتخويف والتهديد ختم به السورة . وقرئ « فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ » . قال أبو رافع : حفظتـه من رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ ذكره الزمخشرى . و« من » فى موضع رفع عند الزجاج . وقال الفراء: يجوز أن يكون فى موضع نصب مثل « وَاللهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ » . قال أبو إسحق : هـذا خطأ؛ لأن الآستفهام لا يعمل فيه ما قبـله ، و« مَن » هاهنا آستفهام فى موضع رفع بالآبتداء؛ والمعنى : فستعلمون أصحاب الصراط السوىّ نحن أم أنتم ؟ . قال النحاس : والفراء يذهب إلى أن معنى « مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ » من لم يضلّ ، وإلى أن معنى « وَمَنِ آهْتَدَى » من ضلّ ثم آهتدى . وقرأ يحيى بن يعمر وعاصم الجحدرى « فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ

الصِّرَاطِ السُّوَّى » بتشديد الواو بعدها ألف التأنيث على فُعْلَى بغير همزة ؛ وتأنيث الصراط شاذ قليل، قال الله تعالى : « ٱهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » فجاء مذكرا فى هـذا وفى غيره، وقد ردّ هذا أبو حاتم قال: إن كان من السّوء وجب أن يقال السُّوءَى و إن كان من السَّواء وجب أن يقال : السِّيَّا بكسر السين والأصل السِّوْيَا . قال الزمخشرى : وقرئ « السَّوَاءَ » بمعنى الوسط والعدل ؛ أو المستوِى . النحاس : وجواز قراءة يحيى بن يعمر والجحدرى أن يكون الأصل « السُّوءَى » والساكن ليس بحاجز حصين ، فكأنه قلب الهمزة ضمة فأبدل منها واوا كما يبدل منها ألف إذا انفتح ما قبلها . تمت والحمد لله وحده .

سـورة الانبياء

مكيـة فى قول الجميـع ، وهى مائة وآثنتا عشرة آية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى : ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ هَلْ هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ ٱلسِّحْرَ وَأَنتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٣﴾

قوله تعالى : ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾ قال عبد الله بن مسعود : الكهف ومريم وطه والأنبياء من العتاق الأول، وهنّ من تلادى؛ يريد من قديم ما كسب وحفظ من القرآن كالمال التّلاد . وروى أن رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبنى جدارا، فمرّ به آخر فى يوم نزول هـذه السورة ، فقال الذى كان يبنى الجدار : ماذا نزل اليوم من القرآن ؟ فقال الآخر : نزل « ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ » فنفض يده من البنيان، وقال : والله لا بنيت أبدا وقد اقترب الحساب . « ٱقترب » أى قرب الوقت

الذى يحاسبون فيه على أعمالهم . « للناس » قال ابن عباس : المراد بالناس هنا المشركون بدليل قوله تعالى : «إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ» إلى قوله : « أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ» . وقيل : الناس عموم و إن كان المشار إليه فى ذلك الوقت كفار قريش؛ يدل على ذلك ما بعد من الآيات؛ ومن عَلِم اقتراب الساعة قصر أمله ، وطابت نفسه بالتوبة ، ولم يركن إلى الدنيا، فكأنّ ما كان لم يكن إذا ذهب ، وكل آتٍ قريب ، والموت لا محالة آتٍ؛ وموت كل إنسان قيام ساعته ؛ والقيامة أيضا قريبة بالإضافة إلى ما مضى من الزمان ، فما بقى من الدنيا أقل مما مضى . وقال الضحاك : معنى « ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ » أى عذابهم يعنى أهل مكة ؛ لأنهم آستبطئوا ما وُعِدوا به من العذاب تكذيبا، وكان قتلهم يوم بَدْر . النحاس : ولا يجوز فى الكلام آقترب حسابهم للناس؛ لئلا يتقدّم مضمر على مظهر لا يجوز أن ينوى به التأخير.

﴿ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ ﴾ آبتداء وخبر . ويجوز النصب فى غير القرآن على الحال . وفيه وجهان : أحدهما — « وهم فِي غفلةٍ معرضون » يعنى بالدنيا عن الآخرة . الثانى — عن التأهب للحساب وعما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم . وهذه الواو عند سيبويه بمعنى « إذ » وهى التى يسميها النحويون واو الحال ؛ كما قال الله تبارك وتعالى : « يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ » .

قوله تعالى : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحْدَثٍ ﴾ «مُحْدَثٍ» نعت لـ«ـذكر» . وأجاز الكسائى والفراء « مُحْدَثًا » بمعنى ما يأتيهم محدثا؛ نصب على الحال . وأجاز الفراء أيضا رفع «مُحْدَث» على النعت للذِّكر؛ لأنك لوحذفت «مِن» رفعت ذكرا؛ أى ما يأتيهم ذكر من ربهم مُحدَث؛ يريد فى النزول وتلاوة جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم، فإنه كان ينزل سورة بعد سورة، وآية بعد آية، كما كان ينزله الله تعالى عليه فى وقت بعد وقت؛ لا أن القرآن مخلوق . وقيل : الذكر ما يذكرهم به النبي صلى الله عليه وسلم و يعظهم به . وقال : « مِنْ رَبِّهِمْ » لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق إلا بالوحى، فوعظ النبي صلى الله عليه وسلم وتحذيره ذكر، وهو محدث؛ قال الله تعالى : « فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ» . ويقال : فلان فى مجلس

الذكر. وقيل : الذكر الرسول نفسه؛ قاله الحسين بن الفضل بدليل ما فى سياق الآية « هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » ولو أراد بالذكر القرآن لقال : هل هذا إلا أساطير الأولين؛ ودليل هذا التأويل قوله تعالى : « وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ. وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ » يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم. وقال : « قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا. رَسُولًا ». ﴿ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ ﴾ يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم، أو القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم أو من أمته. ﴿ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴾ الواو واو الحال يدل عليه « لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ » ومعنى « يَلْعَبُونَ » أى يلهون. وقيل : يشتغلون؛ فإن حُمِل تأويله على اللهو احتمل ما يلهون به وجهين : أحدهما — بلذاتهم. الثانى — بسماع ما يتلى عليهم. وإن حمل تأويله على الشغل احتمل ما يتشاغلون به وجهين : أحدهما — بالدنيا لأنها لعب؛ كما قال الله تعالى : « إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ». الثانى — يتشاغلون بالقَدْح فيه، والاعتراض عليه. قال الحسن : كلما جدّد لهم الذكر استمروا على الجهل. وقيل : يستمعون القرآن مستهزئين.

قوله تعالى : ﴿ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ ﴾ أى ساهيةً قلوبهم، معرضةً عن ذكر الله، متشاغلةً عن التأمل والتفهم؛ من قول العرب : لَهَيْتُ عن ذكر الشيء إذا تركتَه وسلوتَ عنه أَلْهَى لَهِيًّا ولِهْيَانًا. و « لاهية » نعت تقدّم الاسم، ومن حق النعت أن يتبع المنعوت فى جميع الإعراب، فإذا تقدّم النعت الاسم انتصب كقوله : « خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ » و « وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا » و « لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ » قال الشاعر :

لِعَـزَّةَ مُوحِشًا طَلَلُ * يَـلُوحُ[(١)] كَأَنَّهُ خِلَـلُ

أراد: طلل موحش. وأجاز الكسائى والفراء « لَاهِيَةٌ قُلُوبُهُمْ » بالرفع بمعنى قلوبهم لاهية. وأجاز غيرهما الرفع على أن يكون خبرا بعـد خبر وعلى إضمار مبتدأ. وقال الكسائى : ويجوز أن يكون المعنى ؛ إلا استمعوه لاهية قلوبهم. ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أى تناجوا فيما بينهم بالتكذيب، ثم بين من هم فقال : « الَّذِينَ ظَلَمُوا » أى الذين أشركوا؛ فـ « الذين ظلموا » بدل من الواو فى « أسروا » وهو عائد على الناس المتقدّم ذكرهم؛ ولا يوقف على هذا

(١) هو كثيرة عزة؛ أى تلوح آثاره وتتبين تبين الوشى فى خلل السيوف، وهى أغشية الأغماد؛ واحدتها خلة،

القول على « النجوى » . قال المبرّد وهو كقولك : إن الذين فى الدار آنطلقوا بنو عبد الله فبنو بدل من الواو فى آنطلقوا . وقيل : هو رفع على الذم، أى هم الذين ظلموا . وقيل : على حذف القول؛ التقدير : يقول الذين ظلموا وحذف القول ؛ مثل « وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ » . وآختار هذا القول النحاس؛ قال : والدليل على صحة هذا الجواب أن بعده « هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » . وقول رابع : يكون منصوبا بمعنى أعنى الذين ظلموا . وأجاز الفراء أن يكون خفضا بمعنى آقترب للناس الذين ظلموا حسابهم؛ ولا يوقف على هذا الوجه على « النجوى » و يوقف على الوجوه المتقدّمة الثلاثة قبله ؛ فهذه خمسة أقوال . وأجاز الأخفش الرفع على لغة من قال : أكلونى البراغيث؛ وهو حسن؛ قال الله تعالى : « ثُمَّ عَمُوا وَصَمُّوا كَثِيرٌ مِنْهُمْ » . وقال الشاعر :

بكَ نال النِّضالُ دون المساعى * فآهتدينَ النِّبالُ للأغراض

وقال آخر:[(1)] ولكنْ دِيافِىٌّ أبوه وأمُّهُ * بحَوْرانَ يَعْصِرْنَ السَّلِيطَ أقاربُهْ

وقال الكسائى : فيه تقديم وتأخير؛ مجازه : والذين ظلموا أسروا النجوى . أبو عبيدة : « أسروا » هنا من الأضداد ؛ فيحتمل أن يكونوا أخفوا كلامهم، ويحتمل أن يكونوا أظهروه وأعلنوه .

قوله تعالى : ﴿ هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ﴾ أى تناجوا بينهم وقالوا : هل هذا الذكر الذى هو الرسول، أو هل هذا الذى يدعوكم إلا بشر مثلكم، لا يتميز عنكم بشىء، يأكل الطعام ، ويمشى فى الأسواق كما تفعلون . وما علموا أن الله عز وجل بيّن أنه لا يجوز أن يرسل إليهم إلا بشرا ليتفهموا و يعلمهم . ﴿ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ ﴾ أى إن الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم سحر، فكيف تجيئون إليه وتتبعونه ؟ فأطلع الله نبيه عليه السلام على ما تناجوا به . و«السحر» فى اللغة كل مموّه لا حقيقة له ولا صحة . ﴿ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴾ أنه إنسان مثلكم مثل : «وأنتم تعقلون» لأن العقل البصر بالأشياء . وقيل : المعنى؛ أفتقبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر . وقيل : المعنى؛ أفتعدلون إلى الباطل وأنتم تعرفون الحق؛ ومعنى الكلام التوبيخ.

(1) هو الفرزدق يهجو عمرو بن عفراء . ودياف : موضع بالجزيرة، وهم نبط الشام . والسليط : الزيت .

قوله تعالى : ﴿ قَٰلَ رَبِّي يَعْلَمُ ٱلْقَوْلَ فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوٓا۟ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍۭ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ[1] رَبِّى يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِى السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى لا يخفى عليه شىء مما يقال فى السماء والأرض . وفى مصاحف أهل الكوفة « قَالَ رَبِّى » أى قال محمد ربى يعلم القول؛ أى هو عالم بما تناجيتم به . وقيل : إن القراءة الأولى أولى ؛ لأنهم أسروا هذا القول فأظهر الله عز وجل عليه نبيه صلى الله عليه وسلم، وأمره أن يقول لهم هذا؛ قال النحاس : والقراءتان صحيحتان وهما بمنزلة الآيتين، وفيهما من الفائدة أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر وأنه قال كما أُمر .

وقوله تعالى : ﴿ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ قال الزجاج : أى قالوا الذى يأتى به أضغاث أحلام . وقال غيره : أى قالوا هو أخلاط كالأحلام المختلطة ؛ أى أهاويل رآها فى المنام؛ قال معناه مجاهد وقتادة؛ ومنه قول الشاعر :

* كضِغْثِ حُلْمٍ غُرَّ منه حَالِمُه *

وقال القتبى : إنها الرؤيا الكاذبة ؛ وفيه قول الشاعر :

أحاديثُ طَسْمٍ أو سرابٌ بفدفدٍ * ترقْرَقُ للسَّارِى وأضغاثُ حالِمِ

وقال اليزيدىّ : الأضغاث ما لم يكن له تأويل . وقد مضى هذا فى «يوسف»[2] . فلما رأوا أن الأمر ليس كما قالوا آنتقلوا عن ذلك فقالوا : « بل آفتراه » ثم آنتقلوا عن ذلك فقالوا : « بل هو شاعر » أى هم متحيّرون لا يستقرّون على شىء : قالوا مرة سحر، ومرة أضغاث أحلام، ومرة آفتراه، ومرة شاعر . وقيل : أى قال فريق إنه ساحر، وفريق إنه أضغاث أحلام ؛ وفريق إنه آفتراه ، وفريق إنه شاعر . والآفتراء الآختلاق ؛ وقد تقدّم .

(١) «قل» على الأمر قراءة «نافع» . (٢) راجع جـ ٩ ص ٢٠٠ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

﴿ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ ﴾ أى كما أرسل موسى بالعصا وغيرها من الآيات ومثل ناقة صالح . وكانوا عالمين بأن القرآن ليس بسحر ولا رؤيا ولكن قالوا : ينبغى أن يأتى بآية نقترحها ؛ ولم يكن لهم الاقتراح بعد ما رأوا آية واحدة . وأيضا إذا لم يؤمنوا بآية هى من جنس ما هم أعلم الناس به ، ولا مجال للشبهة فيها فكيف يؤمنون بآية غيرها ، ولو أبرأ الأكمه والأبرص لقالوا : هذا من باب الطبّ ، وليس ذلك من صناعتنا ؛ و إنما كان سؤالهم تعنتا إذ كان الله أعطاهم من الآيات ما فيه كفاية . و بين الله عز وجل أنهم لو كانوا يؤمنون لأعطاهم ما سألوه لقوله عز وجل : « وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ » .

قوله تعالى : ﴿ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ ﴾ قال ابن عباس : يريد قوم صالح وقوم فرعون . ﴿ أَهْلَكْنَاهَا ﴾ يريد كان فى علمنا هلاكها . ﴿ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴾ يريد يصدقون ؛ أى فما آمنوا بالآيات فاستؤصلوا ، فلو رأى هؤلاء ما اقترحوا لما آمنوا ؛ لما سبق من القضاء بأنهم لا يؤمنون أيضا ؛ وإنما تأخر عقابهم لعلمنا بأن فى أصلابهم من يؤمن . و « مِن » زائدة فى قوله : « مِنْ قَرْيَةٍ » كقوله : « فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسْئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٨﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَن نَّشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٩﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا يُوحَى إِلَيْهِمْ[1] ﴾ هذا رد عليهم فى قولهم : « هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » وتأنيس لنبيه صلى الله عليه وسلم ؛ أى لم يرسل قبلك إلا رجالا .

(١) « يوحى » بالياء قراءة نافع .

﴿ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ يريد أهل التوراة والإنجيل الذين آمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم، قاله سفيان . وسماهم أهل الذكر؛ لأنهم كانوا يذكرون خبر الأنبياء مما لم تعرفه العرب . وكان كفار قريش يراجعون أهل الكتاب فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم . وقال ابن زيد : أراد بالذكر القرآن؛ أى فاسئلوا المؤمنين العالمين من أهل القرآن؛ قال جابر الجعفى : لما نزلت هذه الآية قال علىّ رضى الله عنه نحن أهل الذكر . وقد ثبت بالتواتر أن الرسل كانوا من البشر؛ فالمعنى لا تبدءوا بالإنكار وبقولكم ينبغى أن يكون الرسول من الملائكة، بل ناظروا المؤمنين ليبينوا لكم جواز أن يكون الرسول من البشر . والملك لا يسمى رجلا؛ لأن الرجل يقع على ماله ضدّ من لفظه؛ تقول : رجل وآمرأة، ورجل وصبىّ؛ فقوله : « إِلَّا رِجَالًا » من بنى آدم . وقرأ حفص وحمزة والكسائى « نُوحِى إِلَيْهِمْ » .

مســئلة — لم يختلف العلماء أن العامة عليها تقليد علمائها، وأنهم المراد بقول الله عز وجل : « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » وأجمعوا على أن الأعمى لابدّ له من تقليد غيره ممن يثق بميزه بالقبلة إذا أشكلت عليــه؛ فكذلك من لا علم له ولا بصر بمعنى ما يدين به لا بد له من تقليد عالمه، وكذلك لم يختلف العلماء أن العامة لا يجوز لها الفتيا؛ لجهلها بالمعانى التى منها يجوز التحليل والتحريم .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ﴾ الضمير فى « جعلناهم » للأنبياء؛ أى لم نجعل الرسل قبلك خارجين عن طباع البشر لا يحتاجون إلى طعام وشراب . ﴿ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴾ يريد لا يموتون . وهذا جواب لقولهم : « مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ » وقولهم : « مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ » . و « جسدا » آسم جنس؛ ولهذا لم يقل أجسادا . وقيل : لم يقل أجسادا؛ لأنه أراد وما جعلنا كل واحد منهم جسدا . والجسد البدن؛ تقول منه : تجسّد كما تقول من الجسم تجسّم . والجسد أيضا الزعفران أو نحوه من الصّبغ، وهو الدم أيضا؛ قال النابغة :

* وما هُريقَ على الأنصابِ من جسد[1] *

(١) صدر البيت : * فلا لعمر الذى مسحت كعبته *
أقسم بالله أولا ثم بالدماء التى كانت تصب فى الجاهلية على الأنصاب .

وقال الكلبي : والجسد هو المتجسد الذى فيه الروح يأكل ويشرب؛ فعلى مقتضى هذا القول يكون مالا يأكل ولا يشرب جسما . وقال مجاهد : الجسد مالا يأكل ولا يشرب؛ فعلى مقتضى هذا القول يكون ما يأكل ويشرب نفسا؛ ذكره الماوردى .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ ﴾ يعنى الأنبياء ؛ أى بإنجائهم ونصرهم وإهلاك مكذّبيهم . ﴿ وَمَنْ نَشَاءُ ﴾ أى الذين صدّقوا الأنبياء . ﴿ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴾ أى المشركين .

قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَاباً ﴾ يعنى القرآن . ﴿ فِيهِ ذِكْرُكُمْ ﴾ رفع بالابتداء والجملة فى موضع نصب لأنها نعت لكتاب؛ والمراد بالذكر هنا الشرف ؛ أى فيه شرفكم، مثل « وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ » . ثم نبههم بالاستفهام الذى معناه التوقيف فقال عز وجل : ﴿ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . وقيل : فيه ذكركم أى ذكر أمر دينكم ؛ وأحكام شرعكم ، وما تصيرون إليه من ثواب وعقاب ، أفلا تعقلون هذه الأشياء التى ذكرناها ؟! وقال مجاهد : « فِيهِ ذِكْرُكُمْ » أى حديثكم . وقيل : مكارم أخلاقكم ، ومحاسن أعمالكم . وقال سهل بن عبدالله : العمل بما فيه حياتكم .

قلت : وهذه الأقوال بمعنًى والأوّل يعمّها ؛ إذ هى شرف كلها ، والكتاب شرف لنبينا عليه السلام ؛ لأنه معجزته ، وهو شرف لنا إن عملنا بما فيه ، دليله قوله عليه السلام : " القرآن حجة لك أو عليك " .

قوله تعالى : وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَٱرْجِعُوٓا إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً ﴾ يريد مدائن كانت باليمن . وقال أهل التفسير والأخبار : إنه أراد أهل حَضُور(١) وكان بعث إليهم نبى آسمه شعيب بن ذى مَهْدَم، وقبر شعيب هذا باليمن بجبل يقال له ضَنَن(٢) كثير الثلج ، وليس بشعيب صاحب مدين ؛ لأن قصة حَضُور قبل مدة عيسى عليه السلام، و بعد مئين من السنين من مدة سليمان عليه السلام، وأنهم قتلوا نبيهم وقتل أصحاب الرَّسّ فى ذلك التاريخ نبيا لهم آسمه حنظلة بن صفوان، وكانت حَضُور بأرض الحجاز من ناحيـة الشام ، فأوحى الله إلى أرميا أن آيت بختنصر فأعلمه أنى قد سلطته على أرض العرب، وأنى منتقم بك منهم، وأوحى الله إلى أرميا أن آحمل مَعَدّ بن عدنان على البراق إلى أرض العراق ؛ كى لا تصيبه النقمة والبلاء معهم ، فإنى مستخرج من صلبـه نبيا فى آخر الزمان آسمه محمد ، فحمل مَعَـدّا وهو ابن اثنتى عشرة سنة، فكان مع بنى إسرائيل إلى أن كبر وتزوج امرأة آسمها معانة ؛ ثم إن بختنصر نهض بالجيـوش ، وكمن للعرب فى مكان — وهو أوّل من آتخذ المكامن فيما ذكروا — ثم شنّ الغارات على حَضُور فقتل وسَبَى وخرّب العامر، ولم يترك بحَضُور أثرا ، ثم آنصرف راجعا إلى السواد . و « كَمْ » فى موضع نصب بـ « قصمنا » . والقَصْم الكسر؛ يقال : قَصمتُ ظهر فلان وانقصمت سنّه إذا آنكسرت ، والمعنىّ به ها هنا الإهلاك . وأما الفَصْم (بالفاء) فهو الصدع فى الشىء من غير بينونة ؛ قال الشاعر(٣) :

كأنّـه دُمْلُجٌ من فِضَةٍ نَبَـهٌ * فى مَلْعبٍ من عَذَارَى الحىّ مَفْصُومُ

ومنه الحديث "فيُفْصِم عنه و إن جبينه ليتفصّد عَرَقا". وقوله : « كَانَتْ ظَالِمَةً» أى كافرة؛ يعنى أهلهـا . والظلم وضـع الشىء فى غير موضـعه ، وهم وضعوا الكفر موضـع الإيمان . ﴿ وَأَنْشَأْنَا ﴾ أى أوجدنا وأحدثنا بعد إهلاكهم ﴿ قَوْمًا آخَرِينَ ﴾ . ﴿ فَلَمَّا أَحَسُّوا ﴾ أى رأوا عذابنا ؛ يقال : أحسست منـه ضعفا . وقال الأخفش : « أحسّوا » خافوا وتوقعـوا . ﴿ إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴾ أى يهربون و يفرّون . والركض العدو بشـدة الوطء . والركض

---

(١) وتروى حضوراء (بالألف الممدودة) . (٢) كذا فى الأصل . (٣) هو ذو الرمة، يذكر غزالا شبهه وهو نائم بدملج فضة قد طرح ونسى . ونبـه : أى منسىّ نسيته العذارى فى الملعب .

تحريك الرِّجل ؛ ومنه قوله تعالى : « ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ » وركضت الفرس برجلي آستحثثته ليعدو ثم كثر حتى قيل رَكَض الفرسُ إذا عَدَا وليس بالأصل ، والصواب رُكِض الفرسُ على ما لم يسمّ فاعله فهو مركوض . ﴿ لَا تَرْكُضُوا ﴾ أى لا تفرّوا . وقيل : إن الملائكة نادتهم لما آنهزموا آستهزاء بهم وقالت : « لا تركضوا » . ﴿ وَٱرْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ ﴾ أى إلى نعمكم التى كانت سبب بطركم ، والمترف المتنعم ؛ يقال : أترف على فلان أى وُسِّع عليه فى معاشه . وإنما أترفهم الله عز وجل كما قال : « وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » . ﴿ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴾ أى لعلكم تُسألون شيئا من دنياكم ؛ آستهزاء بهم ؛ قاله قتادة . وقيل : المعنى « لَعَلَّكُمْ تَسْئَلُونَ » عما نزل بكم من العقوبة فتخبرون به . وقيل : المعنى « لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ » أن تؤمنوا كما كنتم تسألون ذلك قبل نزول البأس بكم ؛ قيل لهم ذلك آستهزاء وتقريعا وتوبيخا . ﴿ قَالُوا يَا وَيْلَنَا ﴾ لما قالت لهم الملائكة : « لا تركضوا » ونادت يالثارات الأنبياء ! ولم يروا شخصا يكلمهم عرفوا أن الله عز وجل هو الذى سلط عليهم عدوهم بقتلهم النبي الذى بعث فيهم ، فعند ذلك قالوا . ﴿ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ فاعترفوا بأنهم ظلموا حين لا ينفع الاعتراف . ﴿ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ ﴾ أى لم يزالوا يقولون : « يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ » . ﴿ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا ﴾ أى بالسيوف كما يحصد الزرع بالمنجل ؛ قاله مجاهد ، وقال الحسن : أى بالعذاب . ﴿ خَامِدِينَ ﴾ أى ميتين . والخمود الهمود كخمود النار إذا طفئت فشبه خمود الحياة بخمود النار، كما يقال لمن مات قد طفئ تشبيها بانطفاء النار .

قوله تعالى : وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَاءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿١٦﴾
لَوْ أَرَدْنَا أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿١٧﴾
بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ
مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴾ أى عبثا و باطلا ؛ بل للتنبيه على أن لها خالقا قادرا يجب آمتثال أمره، وأنه يجازى المسيء والمحسن؛ أى ما خلقنا السماء والأرض ليظلم بعض الناس بعضا، و يكفر بعضهم، و يخالف بعضهم ما أمر به ثم يموتوا ولا يجازوا، ولا يؤمروا فى الدنيا بحسن ولا ينهوا عن قبيح . وهذا اللعب المنفى عن الحكيم ضده الحكمة .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا ﴾ لما آعتقد قوم أن له ولدا قال : « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا » واللهو المرأة بلغة اليمن؛ قاله قتادة . وقال عقبة بن أبى جَسْرَة — وجاء طاوس وعطاء ومجاهد يسألونه عن قوله تعالى : « لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا » — فقال : اللهو الزوجة؛ وقاله الحسن. وقال ابن عباس : اللهو الولد؛ وقاله الحسن أيضا. قال الجوهرى : وقد يكنى باللهو عن الجماع .

قلت : ومنه قول آمرئ القيس :

أَلَا زَعمتْ بَسْبَاسَةُ اليومَ أنّنِى * كَبِرتُ وأَلَّا يُحسِنَ اللَّهْوَ أَمثالِى

و إنما سمى الجماع لهوا لأنه ملهى للقلب، كما قال[1] :

* وفيهِنّ مَلْهًى للصديق ومَنْظَرُ *

الجوهرى : وقوله تعالى «لو أردنا أن نتخذ لهوا» قالوا آمرأة، و يقال : ولدا . ﴿ لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا ﴾ أى من عندنا لا من عندكم. قال آبن جريج : من أهل السماء لا من أهل الأرض. قيل : أراد الرد على من قال إن الأصنام بنات الله؛ أى كيف يكون منحوتكم ولدا لنا . وقال ابن قتيبة : الآية رد على النصارى . ﴿ إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ قال قتادة ومقاتل وابن جريج والحسن : المعنى ما كنا فاعلين ؛ مثل « إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ » أى ما أنت إلا نذير. و «إن» بمعنى الجحد وتم الكلام عند قوله : «لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا» . وقيل : إنه على معنى الشرط ؛ أى إن كنا فاعلين ذلك ولكن لسنا بفاعلين ذلك لاستحالة أن يكون لنا ولد ؛ إذ لو كان ذلك لم نخلق جنة ولا

(١) هو زهير بن أبى سلمى، والبيت من معلقته وتمامه :

* أنيقٌ لعين الناظرِ المتوسِّم *

نارا ولاموتا ولابعثا ولا حسابا . وقيل : لو أردنا أن نتخذ ولدا على طريق التبنى لاتخذناه من عندنا من الملائكة . ومال إلى هذا قوم ؛ لأن الإرادة قد تتعلق بالتبنى فأما آتخاذ الولد فهو محال ، والإرادة لا تتعلق بالمستحيل ؛ ذكره القشيرى .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ ﴾ القذف الرمى ؛ أى نرمى بالحق على الباطل . ﴿ فَيَدْمَغُهُ ﴾ أى يقهره ويهلكه . وأصل الدمغ شجّ الرأس حتى يبلغ الدماغ ، ومنه الدامغة . والحق هنا القرآن ، والباطل الشيطان فى قول مجاهد ؛ قال : وكل ما فى القرآن من الباطل فهو الشيطان . وقيل : الباطل كذبهم ووصفهم الله عز وجل بغير صفاته من الولد وغيره . وقيل : أراد بالحق الحجة ، و بالباطل شبههم . وقيل : الحق المواعظ ، والباطل المعاصى ؛ والمعنى متقارب . والقرآن يتضمن الحجة والموعظة . ﴿ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ أى هالك وتالف ؛ قاله قتادة . ﴿ وَلَكُمُ الْوَيْلُ ﴾ أى العذاب فى الآخرة بسبب وصفكم الله بما لا يجوز وصفه . وقال ابن عباس : الويل واد فى جهنم ؛ وقد تقدم (1) . ﴿ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ أى مما تكذبون ؛ عن قتادة ومجاهد ؛ نظيره « سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ » أى بكذبهم . وقيل : مما تصفون الله به من المحال وهو آتخاذه سبحانه الولد .

قوله تعالى : وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا۟ ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴿٢١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى ملكا وخلقا فكيف يجوز أن يشرك به ما هو عبده وخلقه . ﴿ وَمَنْ عِنْدَهُ ﴾ يعنى الملائكة الذين ذكرتم أنهم بنات الله . ﴿ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ أى لا يأنفون ﴿ عَنْ عِبَادَتِهِ ﴾ والتذلل له . ﴿ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴾ أى يعيون ؛ قاله قتادة . مأخوذ من الحسير وهو البعير المنقطع بالإعياء والتعب ، [يقال] : حسر البعير يحسر حُسورا أعيا وكَلّ ، وآستحسر وتحسر مثله ، وحسرته أنا حسرا يتعدى ولا يتعدى ،

(1) راجع جـ ٢ ص ٧ وما بعدها طبعة ثانية .

وأحسرته أيضا فهو حسير . وقال ابن زيد : لا يملون . ابن عباس : لا يستنكفون . وقال أبو زيد: لا يكلّون . وقيل: لا يفشلون؛ ذكره ابن الأعرابى؛ والمعنى واحد . ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾ أى يصلون و يذكرون الله و ينزهونه دائما . ﴿ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ أى لا يضعفون ولا يسأمون، يلهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون النَّفَس . قال عبد الله بن الحرث سألت كعبا فقلت : أما لهم شغل عن التسبيح؟ أما يشغلهم عنه شىء؟ فقال : من هذا؟ فقلت : من بنى عبد المطلب؛ فضمنى إليه وقال: يا بن أخى هل يشغلك شىء عن النفس؟! إن التسبيح لهم بمنزلة النَّفَس . وقد ٱستدل بهذه الآية من قال: إن الملائكة أفضل من بنى آدم . وقد تقدّم(١) والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ أَمِ ٱتَّخَذُوٓا ءَالِهَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ هُمْ يُنشِرُونَ ﴾ قال المفضل : مقصود هذا الآستفهام الجحد ، أى لم يتخذوا آلهة تقدر على الإحياء . وقيل : « أم » بمعنى « هل » أى هل ٱتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض يحيون الموتى . ولا تكون « أم » هنا بمعنى بل؛ لأن ذلك يوجب لهم إنشاء الموتى إلا أن تقدر « أم » مع الاستفهام فتكون « أم » المنقطعة فيصح المعنى؛ قاله المبرد . وقيل : « أم » عطف على المعنى أى أخلقنا السماء والأرض لعبا ، أم هذا الذى أضافوه إلينا من عندنا فيكون لهم موضع شبهة ؟ أو هل ما ٱتخذوه من الآلهة فى الأرض يحيي الموتى فيكون موضع شبهة ؟ . وقيل : « لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » ثم عطف عليه بالمعاتبة، وعلى هذين التأويلين تكون « أم » متصلة . وقرأ الجمهور « يُنشِرُونَ » بضم الياء وكسر الشين من أنشر الله الميت فنُشِر أى أحياه فحيي . وقرأ الحسن بفتح الياء؛ أى يحيون ولا يموتون .

قوله تعالى : لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمِ ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ قُلْ هَاتُوا بُرْهَٰنَكُمْ ۖ هَٰذَا ذِكْرُ مَن مَّعِىَ وَذِكْرُ مَن قَبْلِى ۗ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْحَقَّ ۖ فَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

(١) راجع جـ ١ ص ٢٨٩ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ أى لو كان فى السموات والأرضين آلهـة غير الله معبودون لفسدتا . قال الكسائى وسيبويه : « إلّا » بمعنى غير فلما جعلت إلا فى موضع غير أعرب الأسم الذى بعدها بإعراب غير، كما قال :

وكلُّ أخٍ مفارقُه أخـوهُ * لَعَمْرُ أبيكَ إلّا الفَرْقَدَان

وحكى سيبويه : لوكان معنا رجل إلا زيد لهلكنا . وقال الفراء : « إلا » هنا فى موضع سوى، والمعنى : لوكان فيهما آلهة سوى الله لفسد أهلها . وقال غيره : أى لوكان فيهما إلهان لفسد التدبير؛ لأن أحدهما إن أراد شيئا والآخر ضده كان أحدهما عاجزا . وقيل : معنى « لَفَسَدَتَا » أى خربتا وهلك من فيهما بوقوع التنازع بالآختلاف الواقع بين الشركاء . ﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ نَزّه نفسه وأمر العباد أن ينزهوه عن أن يكون له شريك أو ولد .

قوله تعالى : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ قاصمة للقدرية وغيرهم . قال ابن جريج : المعنى لا يسأله الخلق عن قضائه فى خلقه وهو يسأل الخلق عن عملهم؛ لأنهم عبيد . بيّن بهذا أن من يسأل غدا عن أعماله كالمسيح والملائكة لايصلح للإلهية . وقيل : لا يؤاخذ على أفعاله وهم يؤاخذون . وروى عن على رضى عنه أن رجلا قال له يا أمير المؤمنين : أيحب ربنا أن يعصى ؟ قال : أفيعصى ربنا قهرا ؟ قال : أرأيت إن منعنى الهدى ومنحنى الردى أأحسن إلى أم أساء ؟ قال : إن منعك حقك فقـد أساء، و إن منعك فضله فهو فضله يؤتيـه من يشاء . ثم تلا الآية « لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ » . وعن ابن عباس قال : لما بعث الله عز وجل موسى وكلمه، وأنزل عليه التوراة، قال : اللهم إنك رب عظيم ،لو شئت أن تطاع لأُطِعت ،ولو شئت ألا تُعصى ما عُصيت ،وأنت تحب أن تطاع وأنت فى ذلك تُعصى فكيف هذا يارب ؟ فأوحى الله إليه : إنى لا أسأل عما أفعل وهم يسألون .

قوله تعالى : ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً ﴾ أعاد التعجب فى آتخاذ الآلهـة من دون الله مبالغة فى التوبيخ ؛ أى صفتهم كما تقـدم فى الإنشاء والإحياء، فتكون « أم » بمعنى هل على ما تقدم، فليأتوا بالبرهان على ذلك . وقيل : الأول احتجاج من حيث المعقول؛ لأنه قال : « هُمْ يُنْشِرُونَ » ويحيون الموتى؛ هيهات ! والثانى آحتجاج بالمنقول، أى هاتوا برهانكم من

هذه الجهة، ففى أى كتاب نزل هذا ؟! فى القرآن، أم فى الكتب المنزلة على سائر الأنبياء ؟!
﴿ هَٰذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ ﴾ بإخلاص التوحيد فى القرآن ﴿ وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي ﴾ فى التوراة والإنجيل، وما أنزل الله من الكتب؛ فانظروا هل فى كتاب من هـذه الكتب أن الله أمر باتخاذ آلهـة سواه ؟ فالشرائع لم تختلف فيما يتعلق بالتوحيد، وإنما اختلفت فى الأوامر والنواهى . وقال قتادة : الإشارة إلى القرآن؛ المعنى : « هَٰذَا ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ » بما يلزمهم من الحلال والحرام « وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي » من الأمم ممن نجا بالإيمان وهلك بالشرك . وقيل : « ذِكْرُ مَنْ مَعِيَ » بمالهم من الثواب على الإيمان والعقاب على الكفر « وَذِكْرُ مَنْ قَبْلِي » من الأمم السالفة فيما يفعل بهم فى الدنيا، وما يفعل بهم فى الآخرة . وقيل : معنى الكلام الوعيد والتهديد، أى افعلوا ما شئتم فعن قريب ينكشف الغطاء . وحكى أبو حاتم : أن يحيى بن يعمر وطلحة بن مُصَرِّف قرأا « هـذا ذِكْرٌ مِنْ مَعِي وذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي » بالتنوين وكسر الميم، وزعم أنه لا وجه لهذا . وقال أبو إسحق الزجاج فى هذه القراءة : المعنى؛ هذا ذكرٌ مما أنزل إلىّ ومما هو معى وذكرٌ من قبلى . وقيـل : ذكرٌ كائن من قبلى ، أى جئت بما جاءت به الأنبياء من قبلى .
﴿ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ ﴾ وقرأ ابن مُحيصن والحسن « الْحَقُّ » بالرفع بمعنى هو الحقُّ وهذا هو الحقُّ . وعلى هـذا يوقف على « لا يعلمون » ولا يوقف عليه على قراءة النصب .
﴿ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴾ أى عن الحق وهو القرآن، فلا يتأملون حجة التوحيد .

قوله تعالى : وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُوحَى[1] إِلَيْهِ ﴾ . وقرأ حفص وحمزة والكسائى « نوحِى إِلَيْهِ » بالنون؛ لقوله : « أَرْسَلْنَا » . ﴿ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ أى قلنا للجميع لا إله إلا الله ؛ فأدلة العقل شاهدة أنه لا شريك له ، والنقل عن جميع الأنبياء موجود، والدليل إما معقول وإما منقول . وقال قتادة : لم يرسل نبى إلا بالتوحيد، والشرائع مختلفة فى التوراة والإنجيل والقرآن، وكل ذلك على الإخلاص والتوحيد .

(١) « يُوحَى » بالياء قراءة « نافع » .

قوله تعالى : وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)

قوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ ﴾ نزلت فى خزاعة حيث قالوا : الملائكة بنات الله، وكانوا يعبدونهم طمعا فى شفاعتهم لهم . وروى معمر عن قتادة قال قالت اليهود — قال معمر فى روايته — أو طوائف من الناس : خاتَنَ إلى الجن والملائكة من الجن ، فقال الله عز وجل : « سبحانه » تنزيها له . ﴿ بَلْ عِبَادٌ ﴾ أى بل هم عباد ﴿ مُكْرَمُونَ ﴾ أى ليس كما زعم هؤلاء الكفار . ويجوز النصب عند الزجاج على معنى بل آتخذ عبادا مكرمين . وأجازه الفراء على أن يرده على ولد، أى بل لم نتخذهم ولدا، بل اتخذناهم عبادا مكرمين . والولد هاهنا للجمع ، وقد يكون الواحد والجمع ولدا . ويجوز أن يكون لفظ الولد للجنس، كما يقال لفلان مال . ﴿ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ ﴾ أى لا يقولون حتى يقول، ولا يتكلمون إلا بما يأمرهم . ﴿ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ أى بطاعته وأوامره . ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ ﴾ أى يعلم ما عملوا وماهم عاملون؛ قاله ابن عباس . وعنه أيضا : «مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» الآخرة «وَمَا خَلْفَهُمْ» الدنيا ؛ ذكر الأول الثعلبى ، والثانى القشيرى . ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ ﴾ قال ابن عباس : هم أهل شهادة أن لا إله إلا الله . وقال مجاهد : هم كل من رضى الله عنه ، والملائكة يشفعون غدا فى الآخرة كما فى صحيح مسلم وغيره، وفى الدنيا أيضا؛ فإنهم يستغفرون للؤمنين ولمن فى الأرض ، كما نص عليه التنزيل على ما يأتى . ﴿ وَهُم ﴾ يعنى الملائكة ﴿ مِّنْ خَشْيَتِهِ ﴾ يعنى من خوفه ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ أى خائفون لا يأمنون مكره .

قوله تعالى : ﴿ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ ﴾ قال قتادة والضحاك وغيرهما : عنى بهذه الاية إبليس حيث آدعى الشركة ، ودعا إلى عبادة نفسه وكان من الملائكة ، ولم يقل أحد من الملائكة إنى إله غيره . وقيل : الإشارة إلى جميع الملائكة ، أى فذلك القائل ﴿ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ ﴾ . وهذا دليل على أنهم و إن أكرموا بالعصمة فهم متعبِّدون ، وليسوا مضطرين إلى العبادة كما ظنه بعض الجهال . وقد آستدل ابن عباس بهذه الآية على أن محمدا صلى الله عليه وسلم أفضل أهل السماء . وقد تقدم فى «البقرة»(١) . ﴿ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ أى كما جزينا هذا بالنار فكذلك نجزى الظالمين الواضعين الألوهية والعبادة فى غير موضعهما .

قوله تعالى : أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾

قوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ قراءة العامة « أَوَلَمْ » بالواو . وقرأ آبن كثير وآبن محيصن وحميد وشبل بن عباد « أَلَمْ يَرَ » بغير واو ، وكذلك هو فى مصحف مكة . « أَوَلَمْ يَرَ » بمعنى يعلم . ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا ﴾ قال الأخفش : « كانتا » لأنهما صنفان ، كما تقول العرب : هما لِقاحان أسودان ، وكما قال الله عز وجل : « إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا » قال أبو إسحق : « كانتا » لأنه يعبر عن السموات بلفظ الواحد بسماء ؛ ولأن السموات كانت سماء واحدة ، وكذلك الأرضون . وقال : «رتقا»

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٦١ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

ولم يقل رتقين؛ لأنه مصدر؛ والمعنى كانتا ذواتى رتق . وقرأ الحسن « رَتَقًا » بفتح التاء. قال عيسى بن عمر : هو صواب وهى لغة . والرتق السد ضد الفتق، وقد رتقت الفتق أرتقه فارتتق أى التأم، ومنه الرتقاء للمنضمة الفرج . قال ابن عباس والحسن وعطاء والضحاك وقتادة : يعنى أنها كانت شيئا واحدا ملترقتين ففصل الله بينهما بالهواء . وكذلك قال كعب : خلق الله السموات والأرض بعضها على بعض ثم خلق ريحا بوسطها ففتحها بها، وجعل السموات سبعا والأرضين سبعا . وقول ثان قاله مجاهد والسدى وأبو صالح: كانت السموات مؤتلفة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبع سموات، وكذلك الأرضين كانت مرتتقة طبقة واحدة ففتقها فجعلها سبعا . وحكاه القتبى فى عيون الأخبار له، عن إسمعيل بن أبى خالد فى قول الله عز وجل : «أَوَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا» قال: كانت السماء مخلوقة وحدها والأرض مخلوقة وحدها، ففتق من هذه سبع سموات، ومن هذه سبع أرضين ؛ خلق الأرض العليا فجعل سكانها الجن والإنس ، وشق فيها الأنهار وأنبت فيها الأثمار ، وجعل فيها البحار وسماها رعاء، عرضها مسيرة خمسمائة عام ؛ ثم خلق الثانية مثلها فى العرض والغلظ وجعل فيها أقواما ، أفواههم كأفواه الكلاب وأيديهم أيدى الناس ؛ وآذانهم آذان البقر وشعورهم شعور الغنم ، فإذا كان عند اقتراب الساعة ألقتهم الأرض إلى يأجوج ومأجوج، واسم تلك الأرض الدكماء، ثم خلق الأرض الثالثة غلظها مسيرة خمسمائة عام، ومنها هواء إلى الأرض . الرابعة خلق فيها ظلمة وعقارب لأهل النار مثل البغال السود، ولها أذناب مثل أذناب الخيل الطوال، يأكل بعضها بعضا فتسلط على بنى آدم . ثم خلق الله الخامسة [مثلها (١)] فى الغلظ والطول والعرض فيها سلاسل وأغلال وقيود لأهل النار . ثم خلق الله الأرض السادسة واسمها ماد، فيها حجارة سُود بُهْم، ومنها خلقت تربة آدم عليه السلام، تبعث تلك الحجارة يوم القيامة وكل حجر منها كالطود العظيم، وهى من كبريت تعلق فى أعناق الكفار فتشتعل حتى تحرق وجوههم وأيديهم، فذلك قوله عز وجل : «وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ» ثم خلق الله الأرض السابعة واسمها عربية وفيها جهنم، فيها بابان اسم

(١) زيادة يقتضيها السياق .

الواحد سجين والآخر الغَلَق، فأما سجين فهو مفتوح وإليه ينتهى كتاب الكفار، وعليه يعرض أصحاب المائدة وقوم فرعون، وأما الغَلَق فهو مغلق لا يفتح إلى يوم القيامة. وقد مضى في «البقرة» (١) أنها سبع أرضين بين كل أرضين مسيرة خمسمائة عام، وسيأتى له في آخر «الطلاق» (٢) زيادة بيان إن شاء الله تعالى. وقول ثالث قاله عكرمة وعطية وابن زيد وابن عباس أيضا فيما ذكر المهدوى: إن السموات كانت رتقا لا تمطر، والأرض كانت رتقا لا تنبت، ففتق السماء بالمطر، والأرض بالنبات؛ نظيره قوله عز وجل: «وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ . وَالْأَرْضِ ذَاتِ الصَّدْعِ». واختار هذا القول الطبرى؛ لأن بعده «وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ».

قلت: وبه يقع الاعتبار مشاهدة ومعاينة؛ ولذلك أخبر بذلك في غير ما آية؛ ليدل على كمال قدرته، وعلى البعث والجزاء. وقيل:

يَهونُ عليهم إذا يَغضبو * نَ سخطُ العداة وإرغامُها
ورَتْق الفُتوق وفَتْق الرُّتو * ق ونَقْضُ الأمورِ وإبرامُها

وفي قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ ثلاث تأويلات: أحدها — أنه خلق كل شيء من الماء؛ قاله قتادة. الثانى — حفظ حياة كل شيء بالماء. الثالث — وجعلنا من ماء الصلب كل شيء حي؛ قاله قطرب. «وجعلنا» بمعنى خلقنا. وروى أبو حاتم البستى في المسند الصحيح له من حديث أبي هريرة قال: قلت يا رسول الله! إذا رأيتك طابت نفسى، وقرت عينى؛ أنبئنى عن كل شيء؛ قال: "كل شيء خلق من الماء" الحديث؛ قال أبو حاتم قول أبي هريرة: «أنبئنى عن كل شيء» أراد به عن كل شيء خلق من الماء، والدليل على صحة هذا جواب المصطفى إياه حيث قال: "كل شيء خلق من الماء" وإن لم يكن مخلوقا. وهذا احتجاج آخر سوى ما تقدم من كون السموات والأرض رتقا. وقيل: الكل قد يذكر بمعنى البعض كقوله: «وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ»

(١) راجع جـ ١ ص ٢٥٨ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة.
(٢) في تفسير قوله تعالى: «الله الذى خلق سبع سموات ... الخ» آية ١٢

وقوله : « تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ » والصحيح العموم؛ لقوله عليه السلام : "كل شيء خلق من الماء" والله أعلم . ﴿ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴾ أى أفلا يصدقون بما يشاهدون ، وأن ذلك لم يكن بنفسه، بل لمكوّن كوّنه، ومدبر أوجده، ولا يجوز أن يكون ذلك المكوّن محدثا .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ ﴾ أى جبالا ثوابت . ﴿ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ ﴾ أى لئلا تميد بهم، ولا تتحرك ليتم القرار عليها؛ قاله الكوفيون . وقال البصريون : المعنى كراهية أن تميد . والميد التحرك والدوران . يقال : ماد رأسه؛ أى دار . وقد مضى فى «النحل»(١) مستوفى . ﴿ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا ﴾ يعنى فى الرواسى ؛ عن ابن عباس . والفجاج المسالك . والفجّ الطريق الواسع بين الجبلين . وقيل : وجعلنا فى الأرض فجاجا أى مسالك ؛ وهو اختيار الطبرى؛ لقوله : ﴿ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ أى يهتدون إلى السير فى الأرض . « سُبُلًا » تفسير الفجاج ؛ لأن الفج قد يكون طريقا نافذا مسلوكا وقد لا يكون . وقيل : ليهتدوا بالاعتبار بها إلى دينهم .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا ﴾ أى محفوظا من أن يقع ويسقط على الأرض ؛ دليله قوله تعالى : « وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ » . وقيل : محفوظا بالنجوم من الشياطين؛ قاله الفرّاء . دليله قوله تعالى : « وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ » . وقيل : محفوظا من الهدم والنقض، وعن أن يبلغه أحد بحيلة . وقيل : محفوظا فلا يحتاج إلى عماد . وقال مجاهد : مرفوعا . وقيل : محفوظا من الشرك والمعاصى . ﴿ وَهُمْ ﴾ يعنى الكفار ﴿ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴾ قال مجاهد يعنى الشمس والقمر . وأضاف الآيات إلى السماء لأنها مجعولة فيها، وقد أضاف الآيات إلى نفسه فى مواضع ، لأنه الفاعل لها . بين أن المشركين غفلوا عن النظر فى السموات وآياتها ، من ليلها ونهارها ، وشمسها وقمرها، وأفلاكها ورياحها وسحابها، وما فيها من قدرة الله تعالى، إذ لو نظروا واعتبروا لعلموا أن لها صانعا قادرا واحدا فيستحيل أن يكون له شريك .

(١) راجع جـ ١٠ ص ٩٠ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ ذكّرهم نعمة أخرى : جعل لهم الليل ليسكنوا فيه، والنهار ليتصرفوا فيه لمعايشهم . ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ أى وجعل الشمس آية النهار، والقمر آية الليل؛ لتعلم الشهور والسنون والحساب، كما تقدم فى « سبحان »(١) بيانه . ﴿ كُلٌّ ﴾ يعنى من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار ﴿ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ أى يجرون ويسيرون بسرعة كالسابح فى الماء . قال الله تعالى وهو أصدق القائلين : « وَالسَّابِحَاتِ سَبْحًا » ويقال للفرس الذى يمد يده فى الجرى سابح . وفيه من النحو أنه لم يقل : يسبحْن ولا تسبح؛ فمذهب سيبويه : أنه لما أخبر عنهنّ بفعل من يعقل وجعلهنّ فى الطاعة بمنزلة من يعقل، أخبر عنهن بالواو والنون . ونحوه قال الفراء . وقد تقدم هذا المعنى فى « يوسف »(٢) . وقال الكسائى : إنما قال : « يسبحون » لأنه رأس آية ، كما قال الله تعالى : « نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ » ولم يقل منتصرون . وقيل : الجرى للفلك فنسب إليها . والأصح أن السيارة تجرى فى الفلك، وهى سبعة أفلاك دون السموات المطبقة، التى هى مجال الملائكة وأسباب الملكوت ، فالقمر فى الفلك الأدنى، ثُمَّ عُطَارِد، ثم الزُّهَرة، ثم الشمس، ثم المِرِّيخ، ثم المُشْتَرِى، ثم زُحَل ، والثامن فلك البروج، والتاسع الفلك الأعظم . والفلك واحد أفلاك النجوم . قال أبو عمرو : ويجوز أن يجمع على فُعْلٍ مثل أَسَد وأُسْد وخَشَب وخُشْب . وأصل الكلمة من الدوران ، ومنه فَلْكة المِغزل؛ لاستدارتها . ومنه قيل : فلّك ثدىُ المرأة تفليكا، وتَفلّك استدار . وفى حديث ابن مسعود : تركت فرسى كأنه يدور فى فلك . كأنه لدورانه شبهه بفلك السماء الذى تدور عليه النجوم . قال ابن زيد : الأفلاك مجارى النجوم والشمس والقمر . قال : وهى بين السماء والأرض . وقال قتادة : الفلك آستدارة فى السماء تدور بالنجوم مع ثبوت السماء . وقال مجاهد : الفلك كهيئة حديد الرحى وهو قطبها . وقال الضحاك : فلكها مجراها وسرعة مسيرها . وقيل : الفلك موج مكفوف ومجرى الشمس والقمر فيه؛ والله أعلم .

(١) راجع جـ ١٠ ص ٢٢٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٢) راجع جـ ٩ ص ١٢٢ طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ ﴾ أى دوام البقاء فى الدنيا نزلت حين قالوا : نتربص بمحمد ريب المنون . وذلك أن المشركين كانوا يدفعون نبوّته و يقولون : شاعر نتربص به ريب المنون، ولعله يموت كما مات شاعر بنى فلان؛ فقال الله تعالى: قد مات الأنبياء من قبلك، وتولى الله دينه بالنصر والحياطة، فهكذا نحفظ دينك وشرعك . ﴿ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴾ أى أفهم؛ مثل قول الشاعر(١) :

رَفَوْنى وقالوا ياخُوَيلِدُ لا تُرَعْ ＊ فقلتُ وأنكرتُ الوجوهَ هُمُ هُمُ

أى أهم! فهو آستفهام إنكار . وقال الفرّاء : جاء بالفاء ليدل على الشرط؛ لأنه جواب قولهم سيموت . ويجوز أن يكون جىء بها؛ لأن التقدير فيها : أفهم الخالدون إن متّ! قال الفرّاء: ويجوز حذف الفاء و إضمارها؛ لأن « هم » لا يتبين فيها الإعراب . أى إن مت فهم يموتون أيضا، فلا شماتة فى الإماتة . وقرئ « مِتَّ » و « مُتَّ » بكسر الميم وضمها لغتان .

قوله تعالى : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾ تقدم فى « آل عمران »(٢) ﴿ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً ﴾ « فِتْنَةً » مصدر على غير اللفظ . أى نختبركم بالشدّة والرخاء والحلال والحرام، فننظر كيف شكركم وصبركم . ﴿ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ أى للجزاء بالأعمال .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَءَاكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ كَٰفِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾

---

(١) هو أبو خراش الهذلى . ورفاه سكنه من الرعب؛ يقول : سكنونى . آعتبر بمشاهدة الوجوه، وجعلها دليلا على ما فى النفوس .　　(٢) راجع جـ ٤ ص ٢٩٧ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَآكَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا ﴾ أى ما يتخذونك . والهزء السخرية ؛ وقد تقدم . وهم المستهزئون المتقدمو الذكر فى آخر سورة « الحجر »(١) فى قوله : « إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ » . كانوا يعيبون من جحد إلهية أصنامهم وهم جاحدون لإلهية الرحمن ؛ وهذا غاية الجهل . ﴿ أَهَذَا الَّذِي ﴾ أى يقولون : أهذا الذى ؟ فأضمر القول وهو جواب « إذا » وقوله : « إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا » كلام معترض بين « إذا » وجوابه . ﴿ يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ ﴾ أى بالسوء والعيب . ومنه قول عنترة :

لا تَذْكُرِى مُهْرِى وما أطعمتُه * فيكون جلدُك مثلَ جلدِ الأَجْرَبِ(٢)

أى لا تعيبي مهرى . ﴿ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ ﴾ أى بالقرآن . ﴿ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ « هم » الثانية توكيد كفرهم ، أى هم الكافرون مبالغة فى وصفهم بالكفر .

قوله تعالى : خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَن وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِم بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠)

قوله تعالى : ﴿ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ ﴾ أى رُكِّب على العَجَلة فخلق عَجُولا ؛ كما قال الله تعالى : « اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ » أى خلق الإنسان ضعيفا . ويقال : خلق الإنسان من الشر أى شريرا إذا بالغت فى وصفه به . ويقال : إنما أنت ذهاب ومجىء . أى ذاهب جائى . أى طبع الإنسان العجلة ، فيستعجل كثيرا من الأشياء وإن كانت مضرة . ثم قيل : المراد بالإنسان آدم عليه السلام . قال سعيد بن جبير والسدى : لما دخل الروح فى عينى

(١) راجع جـ ١٠ ص ٦٢ طبعة أولى أو ثانية .

(٢) قاله لامرأة له من بجيلة كانت تلومه فى فرس كان يؤثره على خيله و يطعمه ألبان إبله .

آدم عليه السلام نظر فى ثمار الجنة، فلما دخل جوفه اشتهى الطعام، فوثب من قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة . فذلك قوله : « خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ » . وقيل : خلق آدم يوم الجمعة فى آخر النهار، فلما أحيا الله رأسه استعجل، وطلب تتميم نفخ الروح فيه قبل غروب الشمس؛ قاله الكلبى ومجاهد وغيرهما. وقال أبو عبيدة وكثير من أهل المعانى: العَجَل الطين بلغة حِمْيَر . وأنشدوا :

* والنخلُ ينبتُ بين الماءِ والعَجَلِ *[1]

وقيل: المراد بالإنسان الناس كلهم . وقيل المراد: النضر بن الحرث بن علقمة بن كلدة بن عبد الدار فى تفسير ابن عباس؛ أى لا ينبغى لمن خلق من الطين الحقير أن يستهزئ بآيات الله ورسله . وقيل : إنه من المقلوب ؛ أى خلق العجل من الإنسان . وهو مذهب أبى عبيدة . النحاس : وهذا القول لا ينبغى أن يجاب به فى كتاب الله؛ لأن القلب إنما يقع فى الشعر اضطرارا كما قال:[2]

* كان الزِّناءُ فَرِيضةَ الرَّجْمِ *

ونظيره هذه الآية : «وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا» وقد مضى فى « سبحان »[3] . ﴿سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ﴾ هذا يقوى القول الأول، وأن طبع الإنسان العَجَلة، وأنه خلق خلقا لا يتمالك، كما قال عليه السلام، حسب ما تقدم فى « سبحان » . والمراد بالآيات ما دل على صدق محمد عليه السلام من المعجزات، وما جعله له من العاقبة المحمودة . وقيل : ماطلبوه من العذاب، فأرادوا الاستعجال وقالوا : « مَتَى هَذَا الْوَعْدُ » ؟ وما علموا أن لكل شىء أجلا مضروبا . نزلت فى النضر بن الحرث . وقوله : « إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ » . وقال الأخفش سعيد : معنى « خلِق الإنسان مِن عجلٍ » أى قيل له كن فكان، فمعنى « فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ » على هذا القول أنه من يقول للشىء كن فيكون، لا يعجزه إظهار ما استعجلوه من الآيات . ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ أى الموعود، كما يقال: الله رجاؤنا أى مرجونا . وقيل : معنى « الوعد » هنا الوعيد، أى الذى يعدنا من العذاب . وقيل: القيامة . ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يا معشر المؤمنين .

---

(١) صدر البيت : * والنبع فى الصخرة الصماء منبته *

(٢) البيت للجعدى وصدره : * كانت فريضة ما تقول كما *

(٣) راجع ج ١٠ ص ٢٢٦ طبعة أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ العلم هنا بمعنى المعرفة فلا يقتضى مفعولا ثانيا مثل « لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ » . وجواب « لو » محذوف ، أى لو علموا الوقت الذى ﴿ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴾ وعرفوه لما استعجلوا الوعيد . وقال الزجاج : أى لعلموا صدق الوعد . وقيل : المعنى لو علموه لما أقاموا على الكفر ولآمنوا . وقال الكسائى : هو تنبيه على تحقيق وقوع الساعة، أى لو علموه علم يقين لعلموا أن الساعة آتية . ودل عليه ﴿ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً ﴾ أى فجأة يعنى القيامة . وقيل : العقوبة . وقيل : النار فلا يتمكنون من حيلة ﴿ فَتَبْهَتُهُمْ ﴾ . قال الجوهرى : بهته بهتا أخذه بغتة، قال الله تعالى : « بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ » . وقال الفراء : « فتبهتهم » أى تحيرهم، يقال : بهته يبهته إذا واجهه بشىء يحيره . وقيل : فتفجأهم . ﴿ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا ﴾ أى صرفها عن ظهورهم . ﴿ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾ أى لا يمهلون و يؤخرون لتوبة واعتذار .

قوله تعالى : وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤١﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ ﴾ هذا تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتعزية له . يقول : إن آستهزأ بك هؤلاء، فقد آستهزئ برسل من قبلك، فاصبر كما صبروا . ثم وعده النصر فقال : ﴿ فَحَاقَ ﴾ أى أحاط ودار ﴿ بِالَّذِينَ ﴾ كفروا و ﴿ سَخِرُوا مِنْهُمْ ﴾ وهزءوا بهم ﴿ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ أى جزاء آستهزائهم .

قوله تعالى : قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ۗ بَلْ هُمْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا ۚ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُم مِّنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٣﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَٰٓؤُلَآءِ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ طَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۗ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٤٤﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ ﴾ أى يحرسكم ويحفظكم . والكلاءة الحراسة والحفظ ؛ كلاه الله كِلَاء (بالكسر) أى حفظه وحرسه . يقال : اذهب فى كِلاءة الله ؛ واكتلأت منهم أى احترست ، قال الشاعر هو ابن هَرْمة :

إنّ سليمى والله يكلؤها * ضنّت بشىء ما كان يرزؤها

وقال آخر : * أَنَخْتُ بَعِيرِى وَٱكْتَلَأْتُ بِعَيْنِهِ * (١)

وحكى الكسائى والفراء «قُلْ مَنْ يَكْلَوْكُمْ» بفتح اللام وإسكان الواو . وحكيا « مَنْ يَكْلَاكُمْ» على تخفيف الهمزة فى الوجهين ، والمعروف تحقيق الهمزة وهى قراءة العامة . فأما «يَكْلَاكُمْ» فخطأ من وجهين فيما ذكره النحاس : أحدهما — أن بدل الهمزة إنما يكون فى الشعر . والثانى — أنهما يقولان فى الماضى كَلَيْتُه ، فينقلب المعنى ؛ لأن كَلَيته أوجعت كليته ، ومن قال لرجل : كَلَاكَ الله فقد دعا عليه بأن يصيبه الله بالوجع فى كُلْيته .

ثم قيل : مخرج اللفظ مخرج الاستفهام والمراد به النفى . وتقديره : قل لا حافظ لكم ﴿ بِاللَّيْلِ ﴾ إذا نمتم ﴿ و ﴾ بـ﴿ النَّهَارِ ﴾ إذا قمتم وتصرفتم فى أموركم . ﴿ مِنَ الرَّحْمَٰنِ ﴾ أى من عذابه وبأسه ؛ كقوله تعالى : « فَمَنْ يَنْصُرُنِى مِنَ اللَّهِ » أى من عذاب الله . والخطاب لمن اعترف منهم بالصانع ؛ أى إذا أقررتم بأنه الخالق ، فهو القادر على إحلال العذاب الذى تستعجلونه . ﴿ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ ﴾ أى عن القرآن . وقيل : عن مواعظ ربهم . وقيل : عن معرفته . ﴿ مُعْرِضُونَ ﴾ لاهون غافلون .

قوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ ﴾ المعنى : ألهم والميم صلة . ﴿ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا ﴾ أى من عذابنا . ﴿ لَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ يعنى الذين زعم هؤلاء الكفار أنهم ينصرونهم لا يستطيعون ﴿ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ ﴾ فكيف ينصرون عابديهم . ﴿ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴾ قال ابن عباس : يُمنعون . وعنه : يُجَارون ؛ وهو اختيار الطبرى . تقول العرب : أنا لك جار وصاحب من فلان ؛ أى مجير منه ؛ قال الشاعر :

يُنادِى بأعلى صوتِه متعوِّذًا * لِيُصحَبَ منها والرِّماحُ دَوَانِى

(١) هو كعب بن زهير ؛ وعجزه . * وآمرت نفسى أى أمرى أفعل *

وروى معمر عن ابن أبى نجيح عن مجاهد قال : « يُنْصَرُونَ » أى يحفظون . قتادة : أى لا يصحبهم الله بخير، ولا يجعل رحمته صاحبا لهم .

قوله تعالى : ﴿ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ ﴾ قال ابن عباس : يريد أهل مكة . أى بسطنا لهم ولآبائهم فى نعيمها و﴿ طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴾ فى النعمة فظنوا أنها لا تزول عنهم، فاغتروا وأعرضوا عن تدبر حجج الله عز وجل . ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ أى بالظهور عليها لك يا محمد أرضا بعد أرض، وفتحها بلدا بعد بلد مما حول مكة؛ قال معناه الحسن وغيره . وقيل : بالقتل والسبى؛ حكاه[1] الكلبى . والمعنى واحد . وقد مضى فى « الرعد »[2] الكلام فى هذا مستوفى . ﴿ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾ يعنى كفار مكة بعد أن نقصنا من أطرافهم، بل أنت تغلبهم وتظهر عليهم .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ ﴾ أى أخوفكم وأحذركم بالقرآن . ﴿ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ ﴾ أى من أصم الله قلبه، وختم على سمعه، وجعل على بصره غشاوة، عن فهم الآيات وسماع الحق . وقرأ أبو عبد الرحمن السلمى ومحمد بن السَّمَيْقع « وَلَا يُسْمَعُ » بياء مضمومة وفتح الميم على ما لم يسم فاعله « الصُّمُّ » رفعا أى إن الله لا يُسمعهم . وقرأ ابن عامر والسلمى أيضا، وأبو حيوة ويحيى بن الحرث « وَلَا تُسْمِعُ » بتاء مضمومة وكسر الميم « الصُّمَّ » نصبا؛ أى إنك يا محمد « لَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ »؛ فالخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم . ورد هذه القراءة بعض أهل اللغة . وقال : وكان يجب أن يقول : إذا ما تنذرهم . قال النحاس : وذلك جائز؛ لأنه قد عرف المعنى .

---

(١) فى نسخة : « حكاه الثعلبى » . (٢) راجع جـ ٩ ص ٣٣٣ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴾ قال ابن عباس : طرف . قال قتادة : عقوبة . ابن كيسان : قليل وأدنى شيء؛ مأخوذة من نفح المسك . قال (١) :

وعَمْرةُ من سَرَواتِ النِّساء * تَنفَّحُ بالمسك أَرْدانُها

ابن جريج : نصيب؛ كما يقال : نفح فلان لفلان من عطائه ، إذا أعطاه نصيبا من المال . قال الشاعر (٢) :

لمَّا أتيتك أرجو فضلَ نائِلكم * نَفحتْني نَفْحةً طابتْ لها العَرَبُ

أى طابت لها النفس . والنفحة فى اللغة الدفعة اليسيرة؛ فالمعنى ولئن مسهم أقل شيء من العذاب . ﴿ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ أى متعدين فيعترفون حين لا ينفعهم الاعتراف.

قوله تعالى : وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴿٤٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا ﴾ الموازين جمع ميزان . فقيل : إنه يدل بظاهره على أن لكل مكلَّف ميزانا توزن به أعماله ، فتوضع الحسنات فى كفة ، والسيئات فى كفة . وقيل : يجوز أن يكون هناك موازين للعامل الواحد ، يوزن بكل ميزان منها صنف من أعماله ؛ كما قال :

مَلِكٌ تقومُ الحادثاتُ لعَدْلِه * فلكلِّ حادثةٍ لها ميزانُ

ويمكن أن يكون ميزانا واحدا عبر عنه بلفظ الجمع . وخرج اللَّالَكائى الحافظ أبو القاسم فى سننه عن أنس يرفعه : " إن ملَكا موكَّلا بالميزان فيؤتى بابن آدم فيوقف بين كفتى الميزان فإن رجح نادى الملك بصوت يُسمع الخلائق سَعِد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدا وإن خفَّ نادى الملك شَقِى فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدا " . وخرج عن حذيفة رضى الله عنه قال : " صاحب الميزان يوم القيامة جبريل عليه السلام " وقيل : للميزان كفتان وخيوط ولسان والشاهين ؛ فالجمع يرجع إليها . وقال مجاهد وقتادة والضحاك : ذكر الميزان مثل وليس ثَمَّ

(١) هو قيس بن الخطيم الأنصارى .   (٢) هو للرماح بن ميادة مدح به الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

ميزان وإنما هو العدل . والذى وردت به الأخبار وعليه السواد الأعظم القول الأول . وقد مضى فى «الأعراف»(١) بيان هذا، وفى « الكهف » أيضا . وقد ذكرناه فى كتاب «التذكرة» مستوفى والحمد لله . و « القِسط» العدل أى ليس فيها بخس ولا ظلم كما يكون فى وزن الدنيا . و « الْقِسْطَ » صفة الموازين ووحد لأنه مصدر؛ يقال : ميزان قسط، وميزانان قسط، وموازين قسط . مثل رجال عدل ورضًا . وقرأت فرقة «الْقِصْطَ» بالصاد . ﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أى لأهل يوم القيامة . وقيل : المعنى فى يوم القيامة . ﴿فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا﴾ أى لا ينقص من إحسان محسن ولا يزاد فى إساءة مسىء . ﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ قرأ نافع وشيبة وأبو جعفر « مِثْقَالُ حَبَّةٍ » بالرفع هنا ؛ وفى « لقمان » على معنى إن وقع أو حضر؛ فتكون كان تامة ولا تحتاج إلى خبر . الباقون « مِثْقَالَ » بالنصب على معنى و إن كان العمل أو ذلك الشىء مثقالَ . ومثقال الشىء ميزانه من مثله . ﴿أَتَيْنَا بِهَا﴾ مقصورة الألف قراءة الجمهور أى أحضرناها وجئنا بها للمجازاة عليها ولها . يجاء بها أى بالحبة ولو قال به أى بالمثقال لجاز . وقيل : مثقال الحبة ليس شيئا غير الحبة فلهذا قال « أَتَيْنَا بِهَا » . وقرأ مجاهد وعكرمة « آتَيْنَا » بالمد على معنى جازينا بها . يقال : آتى يؤاتى مؤاتاة . ﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ أى محاسبين على ما قدموه من خير وشر . وقيل : « حاسِبين » إذ لا أحد أسرع حسابا منا . والحساب العدّ . روى الترمذى عن عائشة رضى الله عنها : أن رجلا قعد بين يدى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا رسول الله ! إن لى مملوكين يكذبوننى ويخونوننى و يعصوننى وأشتمهم وأضربهم فكيف أنا منهم ؟ قال : "يُحسَب ما خانوك وعصوك وكذبوك وعقابك إياهم فإن كان عقابك إياهم بقدر ذنوبهم كان كَفَافا لا لك ولا عليك و إن كان عقابك إياهم دون ذنوبهم كان فضلا لك و إن كان عقابك فوق ذنوبهم اقتص لهم منك الفضل" قال : فتنحّى الرجل فجعل يبكى و يهتف . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم "أما تقرأ كتاب الله تعالى « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا »" فقال الرجل : والله يارسول الله ما أجد لى ولهؤلاء شيئا خيرا من مفارقتهم، أشهدك أنهم أحرار كلهم . قال حديث غريب .

---

(١) راجع جـ ٧ ص ١٦٥ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلْفُرْقَانَ وَضِيَآءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٥٠﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَرُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً ﴾ وحكى عن ابن عباس وعكرمة « الْفُرْقَانَ ضِيَاءً » بغير واو على الحال . وزعم الفراء أن حذف الواو والمجىء بها واحد، كما قال الله عز وجل : « إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا » أى حفظا . ورد عليه هذا القول الزجاج . قال : لأن الواو تجىء لمعنى فلا تزاد . قال : وتفسير «الفرقان» التوراة ؛ لأن فيها الفرق بين الحرام والحلال . قال : « وَضِيَاءً » مثل « فِيهِ هُدًى وَنُورٌ » وقال ابن زيد : « الفرقان » هنا هو النصر على الأعداء ؛ دليله قوله تعالى : « وما أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ » يعنى يوم بدر . قال الثعلبي : وهذا القول أشبه بظاهر الآية ؛ لدخول الواو فى الضياء؛ فيكون معنى الآية : ولقد آتينا موسى وهرون النصر والتوراة التى هى الضياء والذكر . ﴿ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ ﴾ أى غائبين ؛ لأنهم لم يروا الله تعالى، بل عرفوا بالنظر والاستدلال أن لهم ربا قادرا ، يجازى على الأعمال فهم يخشونه فى سرائرهم ، وخلواتهم التى يغيبون فيها عن الناس . ﴿ وَهُمْ مِنَ السَّاعَةِ ﴾ أى من قيامها قبل التوبة . ﴿ مُشْفِقُونَ ﴾ أى خائفون وجلون . ﴿ وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ ﴾ يعنى القرآن ﴿ أَفَأَنْتُمْ لَهُ ﴾ يامعشر العرب ﴿ مُنْكِرُونَ ﴾ وهو معجز لا تقدرون على الإتيان بمثله . وأجاز الفراء «وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكًا أَنْزَلْنَاهُ » بمعنى أنزلناه مباركا .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِىٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا۟ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ

وَءَابَآؤُكُمْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ
ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِى فَطَرَهُنَّ
وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٦﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ ﴾ قال الفراء : أى أعطيناه هداه . ﴿ مِنْ قَبْلُ ﴾ أى من قبل النبوة ؛ أى وفقناه للنظر والاستدلال ، لما جَنَّ عليه الليل فرأى النجم والشمس والقمر . وقيل : « مِنْ قَبْلُ » أى من قبل موسى وهرون . والرشد على هذا النبوة . وعلى الأول أكثر أهل التفسير ؛ كما قال ليحيى : « وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا » . وقال القرظى : رشده صلاحه . ﴿ وَكُنَّا بِهِ عالِمِينَ ﴾ أى إنه أهل لإتياء الرشد وصالح للنبوة .

قوله تعالى : ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾ قيل : المعنى أى اذكر حين قال لأبيه ؛ فيكون الكلام قد تم عند قوله : « وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ » . وقيل : المعنى ؛ « وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ إِذْ قَالَ » فيكون الكلام متصلا ولا يوقف على قوله : « عالمين » . « لأبِيهِ » وهو آزر ﴿ وَقَوْمِهِ ﴾ نمرود ومن آتبعه . ﴿ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ ﴾ أى الأصنام . والتمثال آسم موضوع للشيء المصنوع مشبها بخلق من خلق الله تعالى . يقال : مثّلت الشيء بالشيء أى شبّهته به . واسم ذلك الممثَّل تمثال . ﴿ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ أى مقيمون على عبادتها . ﴿ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴾ أى نعبدها تقليدا لأسلافنا . ﴿ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أى فى خسران بعبادتها ؛ إذ هى جمادات لا تنفع ولا تضر ولا تعلم . ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ ﴾ أى أجاءٍ أنت بحقّ فيما تقول؟ ﴿ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴾ أى لاعب مازح . ﴿ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ أى لست بلاعب ، بل ربكم والقائم بتدبيركم خالق السموات والأرض . ﴿ الَّذِي فَطَرَهُنَّ ﴾ أى خلقهن وأبدعهن . ﴿ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴾ أى على أنه رب السموات والأرض . والشاهد يبين الحكم ، ومنه « شَهِدَ اللَّهُ » بيّن الله ؛ فالمعنى : وأنا أبيّن بالدليل ما أقول .

قوله تعالى : وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾
فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾

قوله تعالى: ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ﴾ أخبر أنه لم يكتف بالمحاجّة باللسان بل كسر أصنامهم فِعل واثق بالله تعالى، موطن نفسه على مقاساة المكروه فى الذب عن الدين. والتاء فى « تَاللَّهِ » تختص فى القسم بآسم الله وحده، والواو تختص بكل مظهر، والباء بكل مضمر ومظهر. قال الشاعر (١):

تالله يَبْقَى على الأيام ذو حِيَدٍ * بِمُشْمَخِرٍّ به الظَّيَّانُ والآسُ

وقال ابن عباس: أى وحرمة الله لأكِيدن أصنامكم، أى لأمكرنّ بها. والكيد المكر. كاده يكيده كيدا ومكيدة، وكذلك المكايدة؛ وربما سمى الحرب كيدا؛ يقال: غزا فلان فلم يَلْق كيدا، وكل شىء تعالجه فأنت تكيده. ﴿ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴾ أى منطلقين ذاهبين. وكان لهم فى كل سنة عيد يجتمعون فيه، فقالوا لإبراهيم: لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا — روى ذلك عن ابن مسعود على ما يأتى بيانه فى « والصافاتِ » (٢) — فقال إبراهيم فى نفسه: « تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ ». قال مجاهد وقتادة: إنما قال ذلك إبراهيم فى سر من قومه، ولم يسمعه إلا رجل واحد وهو الذى أفشاه عليه. والواحد يخبر عنه بخبر الجمع إذا كان ما أخبر به مما يرضى به غيره. ومثله « يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ». وقيل: إنما قاله بعد خروج القوم، ولم يبق منهم إلا الضعفاء فهم الذين سمعوه. وكان إبراهيم آحتال فى التخلف عنهم بقوله: « إِنِّي سَقِيمٌ » أى ضعيف عن الحركة.

قوله تعالى: ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا ﴾ أى فتاتا. والجذ الكسر والقطع؛ جذذت الشىء كسرته وقطعته. والجِذاذ والجُذاذ ما كسر منه، والضم أفصح من كسره. قاله الجوهرى. الكسائى: ويقال لحجارة الذهب جُذاذ؛ لأنها تكسر. وقرأ الكسائى والأعمش وابن محيصن « جِذَاذًا » بكسر الجيم؛ أى كسرا وقطعا جمع جَذيذ وهو الهشيم، مثل خَفيف وخِفاف وظَريف وظِراف. قال الشاعر:

جَذَّذ الأصنامَ فى مِحرابِها * ذاك فى الله العلىِّ المقتدِر

(١) هو مالك بن خالد الخناعى الهذلى. وحيد هنا (كعنب): كل نتوء فى الجبل. والمشمخر: الجبل العالى. والظيان: ياسمين البر. والمعني: لا يبقى.

(٢) فى تفسير قوله تعالى: « فراغ إلى آلهتهم ... الخ. » الآيات: ٩١ و٩٢ و٩٣

الباقون بالضم؛ واختاره أبو عبيد وأبو حاتم . [مثل][1] الحُطام والرُّفات الواحدة جُذَاذة . وهذا هو الكيد الذى أقسم به ليفعلنه بها . وقال : « فجعلهم » ؛ لأن القوم اعتقدوا فى أصنامهم الإلهيـة . وقرأ ابن عباس وأبو نهيك وأبو السمال « جَذَاذًا » بفتح الجيم ؛ والفتح والكسر لغتـان كالحَصاد والحِصاد . أبو حاتم : الفتـح والكسر والضم بمعـنى ؛ حكاه قطـرب . ﴿ إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ ﴾ أى عظيم الآلهة فى الخلق فإنه لم يكسره . وقال السدى ومجاهـد : ترك الصنم الأكبر وعلّق الفأس الذى كسر به الأصنام فى عنقه؛ ليحتج به عليهم . ﴿ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ ﴾ أى إلى إبراهيم ودينه ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ إذا قامت الحجة عليهم . وقيل : « لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ » أى إلى الصنم الأكبر « يَرْجِعُونَ » فى تكسيرها .

قوله تعـالى : قَالُواْ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُواْ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُواْ فَأْتُواْ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾

قوله تعالى : ﴿ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ المعنى لمـا رجعوا من عيدهم ورأوا ما أحدث بآلهتهم ، قالوا على جهة البحث والإنكار : « مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ » . وقيل : « من » ليس آستفهاما ، بل هو ابتداء وخبره « لمن الظالمين » . أى فاعل هذا ظالم . والأول أصح لقوله : ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ وهذا هو جواب « مَنْ فَعَلَ هذا » . والضمير فى « قالوا » للقوم الضعفاء الذين سمعوا إبراهيم ، أو الواحد على ما تقدّم . ومعنى « يذكرهم » يعيبهم ويسبّهم فلعله الذى صنع هـذا . واختلف النـاس فى وجه رفع إبراهيم ؛ فقـال الزجاج : يرتفع على معنى يقال له هو إبراهيم ؛ فيكون [خبر مبتدإ][2] محذوف ، والجملة محكية . قال : ويجوز أن يكون رفعا على النـداء وضمه بناء ، وقام له مقام ما لم يسم فاعله . وقيل : رفعه على أنه مفعول ما لم يسم فاعله ؛ على أن يجعل إبراهيم غير دال على الشخص ، بل يجعل النطق به دالا على بناء هذه اللفظة . أى يقال له هذا القول وهذا اللفظ ، كما تقول

(١) فى الأصل : « أى » وهو تحريف . (٢) فى الأصل : « فيكون مبتدأ وخبره محذوف » وهو تحريف .

زيد وزن فَعْل، أو زيد ثلاثة أحرف، فلم تدل بوجه على الشخص، بل دلت بنطقك على نفس اللفظة. وعلى هـذه الطريقة تقول: قلت إبراهيم، ويكون مفعولا صحيحا نزلته منزلة قول وكلام؛ فلا يتعذر بعد ذلك أن يبنى الفعل فيه للمفعول. هذا اختيار ابن عطية فى رفعه. وقال الأستاذ أبو الحجاج الأشبيلى الأعلم: هو رفع على الإهمال. قال ابن عطية: لما رأى وجوه الرفع كأنها لا توضح المعنى الذى قصدوه، ذهب إلى رفعه بغير شىء، كما قد يرفع التجرد والعرو عن العوامل الابتـداء. والفتى الشاب والفتاة الشابة. وقال ابن عباس: ما أرسل الله نبيا إلا شابا. ثم قرأ «سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ».

قوله تعالى: ﴿قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ﴾ فيه مسئلة واحدة، وهى:

أنه لما بلغ الخبر نمرود وأشراف قومه، كرهوا أن يأخذوه بغـير بينة، فقالوا: آئتوا به ظاهرا بمرأى من الناس حتى يروه ﴿لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ﴾ عليه بما قال؛ ليكون ذلك حجة عليه. وقيل: «لعلهم يشهدون» عقابه فلا يقـدم أحد على مثل ما أقدم عليه. أو لعل قوما «يشهدون» بأنهم رأوه يكسر الأصنام، أو «لعلهـم يشهدون» طعنه على آلهتهم؛ ليعلموا أنه يستحق العقاب.

قلت: وفى هذا دليل على أنه كان لا يؤاخذ أحد بدعوى أحد فيما تقدم؛ لقوله تعالى: «فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ» وهكذا الأمر فى شرعنا ولا خلاف فيه.

قوله تعـالى: قَالُوٓاْ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُواْ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾

قوله تعالى: ﴿قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيمُ﴾ فيه أربع مسائل:

الأولى — لما لم يكن السماع عاما ولا ثبتت الشهادة، استفهموه هل فعـل أم لا؟ وفى الكلام حذف فجاء إبراهيم حين أتى به فقالوا: أأنت فعلت هذا بالآلهة؟ فقال لهم إبراهيم على جهة الاحتجاج عليهم: ﴿بَلْ فَعَـلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ أى إنه غار وغضب من أن يعبد هو

ويعبد الصغار معه ففعل هـذا بها لذلك ، إن كانوا ينطقون فاسألوهم . فعلق فعـل الكبير بنطق الآخرين ؛ تنبيها لهم على فساد اعتقادهم . كأنه قال : بل هو الفاعل إن نطق هؤلاء . وفى الكلام تقديم على هذا التأويل فى قوله : ﴿فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ . وقيل : أراد بل فعله كبيرهم إن كانوا ينطقون . بين أن من لا يتكلم ولا يعلم لا يستحق أن يعبد . وكان قـوله من المعاريض ، وفى المعاريض مندوحة عن الكذب . أى سلوهم إن نطقـوا فإنهم يصدقون ، وإن لم يكونوا ينطقون فليس هو الفاعل . وفى ضمن هذا الكلام اعتراف بأنه هو الفاعل وهـذا هو الصحيح لأنه عدده على نفسه ، فدل أنه خرج مخرج التعريض . وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة من دون الله ، كما قال إبراهيم لأبيه : « يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ » — الآية — فقال إبراهـيم : « بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـذَا » ليقولوا إنهم لا ينطقـون ولا ينفعـون ولا يضرون ؛ فيقـول لهم فلم تعبدونهم ؟ فتقوم عليهم الحجـة منهم ، ولهذا يجوز عند الأمة فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من ذات نفسه ؛ فإنه أقرب فى الحجة وأقطع للشبهة ، كما قال لقومه : « هَذَا رَبِّى » وهذه أختى و « إِنِّى سَقِيمٌ » و « بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَـذَا » وقرأ ابن السميقع « بل فَعَلَّهُ » بتشديد اللام بمعنى فلعل الفاعل كبيرهم . وقال الكسائى : الوقف عند قوله « بل فعله » أى فعـله من فعـله ؛ ثم يبتدئ « كَبِيرهم هذا » . وقيل : أى لم ينكرون أن يكون فعله كبيرهم ؟ فهذا إلزام بلفظ الخبر . أى من اعتقد عبادتها يلزمه أن يثبت لهـا فعلا ؛ والمعنى : بل فعله كبيرهم فيما يلزمكم .

الثانيـــة — روى البخارى ومسلم والترمذى عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لم يكذب إبراهيم النبى فى شىء قط إلا فى ثلاث قوله « إِنى سقِيم » وقوله لسارة أختى وقوله « بل فعله كبِيرهم » " لفظ الترمذى . وقال : حديث حسن صحيح . ووقع فى الإسراء فى صحيح مسـلم ، من حديث أبى هريرة رضى الله عنـه فى قصـة إبراهيم قال : وذكر قوله فى الكوكب « هذا ربى » . فعلى هذا تكون الكذبات أربعا إلا أن الرسول عليه السلام قد نفى تلك بقوله : " لم يكذب إبراهيم النبى قط إلا فى ثلاث كذبات ثنتين فى ذات الله قـوله

« إِنى سقِيم » وقوله « بل فعله كَبِيرهم » وواحدة فى شأن سارة " الحديث لفظ مسلم .
وإنما لم يعد عليه قوله فى الكوكب : « هذا ربى » كذبة وهى داخلة فى الكذب؛ لأنه — والله أعلم — كان حين قال ذلك فى حال الطفولة ، وليست حالة تكليف . أو قال لقومه مستفهما لهم على جهة التوبيخ والإنكار، وحذفت همزة الاستفهام. أو على طريق الاحتجاج على قومه: تنبيها على أن مايتغير لا يصلح للربوبية. وقد تقدمت هذه الوجوه كلها فى «الأنعام»[1] مبينة والحمد لله .

الثالثة — قال القاضى أبو بكر بن العربى : فى هذا الحديث نكتة عظمى تقصم الظهر، وهى أنه عليه السلام قال : " لم يكذب إبراهيم إلا فى ثلاث كذبات ثنتين مَاحَلَ بهما عن دين الله وهما قوله « إِنى سقِيم » وقوله « بل فعله كبيرهم » " ولم يعد [قوله[2]] هذه أختى فى ذات الله تعالى وإن كان دفع بها مكروها، ولكنه لما كان لإبراهيم عليه السلام فيها حظ من صيانة فراشه وحماية أهله ، لم يجعلها فى ذات الله؛ وذلك لأنه لا يجعل فى جنب الله وذاته إلا العمل الخالص من شوائب الدنيا، والمعاريض التى ترجع إلى النفس إذا خلصت للدين كانت لله سبحانه، كما قال : « أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ » . وهذا لو صدر منا لكان لله، لكن منزلة إبراهيم اقتضت هذا . والله أعلم .

الرابعة — قال علماؤنا : الكذب هو الإخبار عن الشىء بخلاف ما هو عليه . والأظهر أن قول إبراهيم فيما أخبر عنه عليه السلام كان من المعاريض، وإن كانت معاريض وحسنات وحججا فى الخلق ودلالات ، لكنها أثرت فى الرتبة، وخفضت عن محمد المنزلة ، واستحيا منها قائلها، على ما ورد فى حديث الشفاعة؛ فإن الأنبياء يشفقون مما لا يشفق منه غيرهم إجلالا لله؛ فإن الذى كان يليق بمرتبته فى النبوة والخُلَّة، أن يصدع بالحق ويصرح بالأمر كيفما كان، ولكنه رخص له فقبل الرخصة فكان ما كان من القصة ؛ ولهذا جاء فى حديث الشفاعة " إنما اتخذت خليلا من وراءَ وراءَ " بنصب وراء فيهما على البناء كخمسة عشر ، وكما قالوا

(١) راجع جـ ٧ ص ٢٥ ما بعدها طبعة أولى أو ثانية .
(٢) الزيادة من « أحكام القرآن » لابن العربى .

جارى بَيْتَ بَيْتَ . ووقع فى بعض نسخ مسلم " من وراءُ من وراءُ " بإعادة من ، وحينئذ لا يجوز البناء على الفتح ، وإنما يبنى كل واحد منهما على الضم ؛ لأنه قطع عن الإضافة ونوى المضاف كقبل وبعد ، وإن لم ينو المضاف أعرب ونون غير أن وراء لا ينصرف ؛ لأن ألفه للتأنيث ؛ لأنهم قالوا فى تصغيرها وريية ؛ قال الجوهرى : وهى شاذة . فعلى هذا يصح الفتح فيهما مع وجود « مِن » فيهما . والمعنى إنى كنت خليلا متأخرا عن غيرى . ويستفاد من هذا أن الخُلَّة لم تصح بكمالها إلا لمن صح له فى ذلك اليوم المقام المحمود كما تقدم. وهو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله تعالى : فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَـٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾

قوله تعالى : ﴿ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ ﴾ أى رجع بعضهم إلى بعض رجوع المنقطع عن حجته ، المتفطن لصحة حجة خصمه . ﴿ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى بعبادة من لا ينطق بلفظة ، ولا يملك لنفسه لحظة ، وكيف ينفع عابديه ويدفع عنهم البأس ، من لا يرد عن رأسه الفأس .

قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ ﴾ أى عادوا إلى جهلهم وعبادتهم فقالوا : ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴾ فـ﴿ قَالَ ﴾ قاطعا لما به يهذون ، ومفحما لهم فيما يتقوّلون ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ . أُفٍّ لَكُمْ ﴾ أى النتن لكم ﴿ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ . وقيل : « نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ » أى طأطئوا رءوسهم خجلا من إبراهيم ، وفيه نظر ؛ لأنه لم يقل نكسوا رءوسهم ، بفتح الكاف بل قال « نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ » أى ردوا على ما كانوا عليه فى أول الأمر ، وكذا قال ابن عباس ، قال : أدركهم الشقاء فعادوا إلى كفرهم .

قوله تعالى : ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾

قوله تعالى : ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ﴾ لما ٱنقطعوا بالحجة أخذتهم عزة بإثم وٱنصرفوا إلى طريق الغَشْم والغلبة وقالوا حرّقوه . روى أن قائل هـذه المقالة هو رجل من الأكراد من أعراب فارس ؛ أى من باديتها ؛ قاله ابن عمر ومجاهد وابن جريج . ويقال : ٱسمه هيزر[(١)] فخسف الله به الأرض ، فهو يتجلجل فيها إلى يوم القيامة . وقيل : بل قاله ملكهم نمرود . ﴿وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾ بتحريق إبراهيم لأنه يسبها و يعيبها . وجاء فى الخبر : أن نمرود بنى صرحا طوله ثمانون ذراعا وعرضه أر بعون ذراعا . قال ابن إسحق : و جمعوا الحطب شهرا ثم أوقدوها ، وٱشتعلت وٱشتدت ، حتى أن كان الطائر ليمر بجنباتها فيحترق من شدّة وهجها . ثم قيدوا إبراهيم ووضعوه فى المنجنيق مغلولا . و يقال : إن إبليس صـنع لهم المنجنيق يومئـذ . فضجت السموات والأرض ومن فيهن من الملائكة و جميع الخلق ، إلا الثقلين ضجة واحدة : ربنا ! إبراهيم ليس فى الأرض أحد يعبدك غيره يُحرَق فيك فأذنْ لنا فى نُصرته . فقال الله تعالى : « إن ٱستغاث بشىء منكم أو دعاه فلينصره فقد أذنت له فى ذلك و إن لم يدع غيرى فأنا أعلم به وأنا وليه » فلما أرادوا إلقاءه فى النار، أتاه خُزَّان المـاء — وهو فى الهواء — فقالوا : ياإبراهيم إن أردت أخمدنا النـار بالمـاء . فقال : لا حاجة لى إليكم . وأتاه ملك الريح فقال : لو شئت طيرت النـار . فقال : لا . ثم رفع رأسـه إلى السماء فقال : « اللهـم أنت الواحد فى السماء وأنا الواحد فى الأرض ليس أحد يعبدك غيرى حسبى الله ونعم الوكيل » . و روى أبىّ بن كعب رضى الله عنـه عن النبي صلى الله عليـه وسلم " إن إبراهيم حين قيـدوه ليلقوه فى النـار قال لا إله إلا أنت سبحانك رب العالمين لك الحمد ولك الملك لا شريك لك " قال : ثم رموا به فى المنجنيق من مضرب شاسع ، فٱستقبله جبريل ؛ فقال : ياإبراهيم ألك حاجة ؟ قال : « أمّا إليك فلا » . فقال جبريل : فاسأل ربك . فقال : « حسبى من سؤالى علمه بحالى » . فقال

(١) وقيل : اسمه « هيزن » كما فى تاريخ الطبرى وتفسيره . وقيل : « هيون » .

الله تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿ يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ قال بعض العلماء : جعل الله فيها بردا يرفع حرها ، وحرا يرفع بردها ، فصارت سلاما عليه . قال أبو العالية : ولو لم يقل « بَرْدًا وَسَلَامًا » لكان بردها أشد عليه من حرها ، ولو لم يقل « على إبراهيم » لكان بردها باقيا على الأبد . وذكر بعض العلماء : أن الله تعالى أنزل زربية[1] من الجنة فبسطها فى الجحيم ، وأنزل الله ملائكة : جبريل وميكائيل وملك البرد وملك السلامة . وقال علىّ وابن عباس : لو لم يتبع بردها سلاما لمات إبراهيم من بردها ، ولم تبق يومئذ نار إلا طفئت ظنت أنها تعنى . قال السدى : وأمر الله كل عود من شجرة أن يرجع إلى شجره و يطرح ثمرته . وقال كعب وقتادة : لم تحرق النار من إبراهيم إلا وثاقه . فأقام فى النار سبعة أيام لم يقدر أحد أن يقرب من النار ، ثم جاءوا فإذا هو قائم يصلى . وقال المنهال بن عمرو قال إبراهيم : « ما كنت أياما قط أنعم منى فى الأيام التى كنت فيها فى النار » . وقال كعب وقتادة والزهرى : ولم تبق يومئذ دابة إلا أطفأت عنه النار إلا الوزغ فإنها كانت تنفخ عليه ؛ فلذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلها وسماها فويسقة . وقال شعيب الجمّانى : ألقى إبراهيم فى النار وهو ابن ست عشرة سنة . وقال ابن جريج : ألقى إبراهيم فى النار وهو ابن ست وعشرين سنة . ذكر الأول الثعلبى ، والثانى الماوردى ؛ فالله أعلم . وقال الكلبى : بردت نيران الأرض جميعا فما أنضجت كراعا ، فرآه نمرود من الصرح وهو جالس على السرير يؤنسه ملك الظل . فقال : نعم الربّ ربّك ! لأقربن له أربعة آلاف بقرة وكفّ عنه .

قوله تعالى : وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧٣﴾

---

(١) الزربية : الطنفسة ، وقيل : البساط ذو الخمل ، وزاياها مثلثة .

قوله تعالى : ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا ﴾ أى أراد نمرود وأصحابه أن يمكروا به ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ فى أعمالهم ، ورددنا مكرهم عليهم بتسليط أضعف خلقنا . قال ابن عباس (١) : سلط الله عليهم أضعف خلقه البعوض ، فما برح نمرود حتى رأى عظام أصحابه وخيله تلوح ، أكلت لحومهم وشربت دماءهم ، ووقعت واحدة فى منخره فلم تزل تأكل إلى أن وصلت دماغه ، وكان أكرم الناس عليه الذى يضرب رأسه بمرزبة من حديد . فأقام بهذا نحوا من أربعمائة سنة .

قوله تعالى : ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴾ يريد نجينا إبراهيم ولوطا إلى أرض الشام وكانا بالعراق ، وكان [إبراهيم] (٢) عليه السلام عمه ؛ قاله ابن عباس . وقيل : لها مباركة لكثرة خصبها وثمارها وأنهارها ؛ ولأنها معادن الأنبياء . والبركة ثبوت الخير ، ومنه برك البعير إذا لزم مكانه فلم يبرح . وقال ابن عباس : الأرض المباركة مكة . وقيل : بيت المقدس ؛ لأن منها بعث الله أكثر الأنبياء ، وهى أيضا كثيرة الخصب والنمو ، عذبة الماء ، ومنها يتفرق فى الأرض . قال أبو العالية : ليس ماء عذب إلا يهبط من السماء إلى الصخرة التى ببيت المقدس ، ثم يتفرق فى الأرض . ونحوه عن كعب الأحبار . وقيل : الأرض المباركة مصر .

قوله تعالى : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ﴾ أى زيادة ؛ لأنه دعا فى إسحق وزيد فى يعقوب من غير دعاء فكان ذلك نافلة ؛ أى زيادة على ما سأل ؛ إذ قال : « رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ » . ويقال لولد الولد نافلة ؛ لأنه زيادة على الولد . ﴿ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴾ أى وكلا من إبراهيم وإسحق ويعقوب جعلناه صالحا عاملا بطاعة الله . وجَعْلهم صالحين إنما يتحقق بخلق الصلاح والطاعة لهم ، وبخلق القدرة على الطاعة ، ثم ما يكتسبه العبد فهو مخلوق لله تعالى .

قوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا ﴾ أى رؤساء يقتدى بهم فى الخيرات وأعمال الطاعات . ومعنى « بِأَمْرِنَا » أى بما أنزلنا عليهم من الوحى والأمر والنهى ؛ فكأنه قال يهدون بكتابنا . وقيل : المعنى يهدون الناس إلى ديننا بأمرنا إياهم بإرشاد الخلق ، ودعائهم إلى التوحيد . ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ﴾ أى أن يفعلوا الطاعات . ﴿ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴾ أى مطيعين .

(١) سبق أن نبهنا على أن ابن عباس يكذب عليه بعض الرواة . (٢) فى الأصل : «لوط» وهو تحريف .

قوله تعالى : وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِي كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ «لوطا» منصوب بفعل مضمر دل عليه الثانى ؛ أى وآتينا لوطا آتيناه . وقيل : أى وآذكر لوطا . والحكم النبوّة ، والعلم المعرفة بأمر الدين وما يقع به الحكم بين الخصوم . وقيل : «عِلْمًا» فهما ؛ والمعنى واحد . ﴿ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ ﴾ يريد سَدُوم . ابن عباس : كانت سبع قرى ، قلب جبريل عليه السلام ستة وأبقى واحدة للوط وعياله ، وهى زَغَر التى فيها الثمر من كُورة فلسطين إلى حد السراة ؛ ولها قرى كثيرة إلى حد بحر الحجاز . وفى الخبائث التى كانوا يعملونها قولان : أحدهما — اللواط على ما تقدّم . والثانى — الضراط ؛ أى كانوا يتضارطون فى ناديهم ومجالسهم . وقيل : الضراط وحذف الحصى وسيأتى . ﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴾ أى خارجين عن طاعة الله ، والفسوق الخروج وقد تقدم . ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا ﴾ فى النبوّة . وقيل : فى الإسلام . وقيل : الجنة . وقيل : عنى بالرحمة إنجاءه من قومه ﴿ إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

قوله تعالى : وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ ﴾ أى وآذكر نوحا إذ نادى ؛ أى دعا . « مِنْ قَبْلُ » أى من قبل إبراهيم ولوط على قومه ، وهو قوله : «رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا» وقال لما كذبوه : «أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ» . ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴾ أى من الغرق . والكرب الغم الشديد « وَأَهْلَهُ » أى المؤمنين منهم . ﴿ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ قال أبو عبيدة : « مِن » بمعنى على . وقيل : المعنى فانتقمنا له « مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا » . ﴿ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ أى الصغير منهم والكبير .

قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ ٱلْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَٱلطَّيْرَ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴿٧٩﴾

فيه ست وعشرون مسئلة :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ ﴾ أى وآذكرهما إذ يحكمان ، ولم يرد بقوله « إذ يحكمان » الآجتماع فى الحكم وإن جمعهما فى القول ؛ فإن حكمين على حكم واحد لا يجوز . وإنما حكم كل واحد منهما على آنفراده ، وكان سليمان الفاهم لها بتفهيم الله تعالى إياه . ﴿ فِي ٱلْحَرْثِ ﴾ اختلف فيه على قولين : فقيل : كان زرعا ؛ قاله قتادة . وقيل : كرما نبتت عناقيده ؛ قاله ابن مسعود وشريح . و « الحرث » يقال فيهما ، وهو فى الزرع أبعد من الآستعارة .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ﴾ أى رعت فيه ليلا ؛ والنفش الرعى بالليل . يقال : نفشت بالليل ، وهملت بالنهار، إذا رعت بلا راعٍ . وأنفشها صاحبها . وإبلٌ نُفَّاش . وفى حديث عبد الله بن عمرو : الحبة فى الجنة مثل كِرش البعير يبيت نافشا ؛ أى راعيا ؛ حكاه الهروى . وقال ابن سيده : لا يقال الهَمَل فى الغنم ، وإنما هو فى الإبل .

الثالثة — قوله تعالى : ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ دليل على أن أقل الجمع آثنان . وقيل : المراد الحاكمان والمحكوم عليه ؛ فلذلك قال « لِحُكْمِهِم » .

الرابعة — قوله تعالى : ﴿ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ﴾ أى فهمناه القضية والحكومة ، فكنى عنها إذ سبق ما يدل عليها . وفضل حكم سليمان حكم أبيه فى أنه أحرز أن يبقى كل واحد منهما على متاعه ، وتبقى نفسه طيبة بذلك ؛ وذلك أن داود عليه السلام رأى أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث . وقالت فرقة : بل دفع الغنم إلى صاحب الحرث ، والحرث إلى صاحب الغنم . قال ابن عطية : فيشبه على القول الواحد أنه رأى الغنم تقاوم الغلة التى أفسدت . وعلى القول

الثانى رآها تقاوم الحرث والغلة؛ فلما خرج الخصمان على سليمان وكان يجلس على الباب الذى يخرج منه الخصوم، وكانوا يدخلون إلى داود من باب آخر فقال: بم قضى بينكما نبى الله داود ؟ فقالا : قضى بالغنم لصاحب الحرث . فقال لعل الحكم غير هذا انصرفا معى . فأتى أباه فقال : يا نبىّ الله إنك حكمت بكذا وكذا و إنى رأيت ما هو أرفق بالجميع . قال : وما هو ؟ قال : ينبغى أن تدفع الغنم إلى صاحب الحرث فينتفع بألبانها وسمونها وأصوافها، وتدفع الحرث إلى صاحب الغنم ليقوم عليه ، فإذا عاد الزرع إلى حاله التى أصابته الغنم فى السنة المقبلة ، رد كل واحد منهما ماله إلى صاحبه . فقال داود : وفقت يا بنىّ لا يقطع الله فهمك . وقضى بما قضى به سليمان ؛ قال معناه ابن مسعود ومجاهد وغيرهما . قال الكلبى : قوم داود الغنم والكرم الذى أفسدته الغنم فكانت القيمتان سواء، فدفع الغنم إلى صاحب الكرم . وهكذا قال النحاس؛ قال : إنما قضى بالغنم لصاحب الحرث ؛ لأن ثمنها كان قريبا منه . وأما فى حكم سليمان فقد قيل : كانت قيمة ما نال من الغنم وقيمة ما أفسدت الغنم سواء أيضا .

الخامسة — قوله تعالى : ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ تأوّل قوم أن داود عليه السلام لم يخطئ فى هذه النازلة ، بل فيها أوتى الحكم والعلم . وحملوا قوله : « فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ » على أنه فضيلة له على داود وفضيلته راجعة إلى داود، والوالد تسره زيادة ولده عليه . وقالت فرقة : بل لأنه لم يصب العين المطلوبة فى هذه النازلة ، و إنما مدحه الله بأن له حكما وعلما يرجع إليه فى غير هذه النازلة . وأما فى هذه فأصاب سليمان وأخطأ داود عليهما الصلاة والسلام ، ولا يمتنع وجود الغلط والخطإ من الأنبياء كوجوده من غيرهم ، لكن لا يقرون عليه، وإن أقر عليه غيرهم . ولما هدم الوليد كنيسة دمشق كتب إليه ملك الروم : إنك هدمت الكنيسة التى رأى أبوك تركها، فإن كنت مصيبا فقد أخطأ أبوك، و إن كان أبوك مصيبا فقد أخطأت أنت ؛ فأجابه الوليد « وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ. فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا» . وقال قوم : كان داود وسليمان — عليهما السلام — نبيين يقضيان بما يوحى إليهما، فحكم داود بوحى،

وحكم سليمان بوحى نسخ الله به حكم داود، وعلى هذا « فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ » أى بطريق الوحى الناسخ لما أوحى إلى داود، وأمر سليمان أن يبلغ ذلك داود؛ ولهذا قال : « وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا » . هذا قول جماعة من العلماء ومنها ابن فورك . وقال الجمهور : إن حكمهما كان باجتهاد وهى :

السادسة — وآختلف العلماء فى جواز الآجتهاد على الأنبياء فمنعه قوم ، وجوّزه المحققون؛ لأنه ليس فيه استحالة عقلية ؛ لأنه دليل شرعى فلا إحالة أن يستدل به الأنبياء، كما لو قال له الله سبحانه وتعالى : إذا غلب على ظنك كذا فاقطع بأن ما غلب على ظنك هو حكمى فبلغه الأمة؛ فهذا غير مستحيل فى العقل . فإن قيل : إنما يكون دليلا إذا عدم النص وهم لا يعدمونه . قلنا : إذا لم ينزل الملك فقد عدم النص عندهم، وصاروا فى البحث كغيرهم من المجتهدين عن معانى النصوص التى عندهم . والفرق بينهم وبين غيرهم من المجتهدين أنهم معصومون عن الخطأ، وعن الغلط، وعن التقصير فى آجتهادهم ، وغيرهم ليس كذلك . كما ذهب الجمهور فى أن جميع الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون عن الخطأ والغلط فى آجتهادهم . وذهب أبو على ابن أبى هريرة من أصحاب الشافعى إلى أن نبينا صلى الله عليه وسلم مخصوص منهم فى جواز الخطأ عليهم ، وفرق بينه وبين غيره من الأنبياء أنه لم يكن بعده من يستدرك غلطه، ولذلك عصمه الله تعالى منه، وقد بُعِث بعد غيره من الأنبياء من يستدرك غلطه . وقد قيل : إنه على العموم فى جميع الأنبياء، وأن نبينا وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم فى تجويز الخطإ على سواء إلا أنهم لا يقرون على إمضائه ، فلم يعتبر فيه آستدراك من بعدهم من الأنبياء . هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سألته آمرأة عن العِدَّة فقال لها : " آعتدّى حيث شئت " ثم قال لها : " آمكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله " . وقال له رجل : أرأيت إن قُتِلت صبرا محتسبا أيحجزنى عن الجنة شىء؟ فقال : " لا " ثم دعاه فقال : " إلا الدَّين كذا أخبرنى جبريل عليه السلام " .

السابعة — قال الحسن : لولا هذه الآية لرأيت القضاة هلكوا، ولكنه تعالى أثنى على سليمان بصوابه ، وعذر داود باجتهاده . وقد آختلف الناس فى المجتهدين فى الفروع إذا

آختلفوا ؛ فقالت فرقة : الحق فى طرف واحد عند الله ، وقد نصب على ذلك أدلة ، وحمل المجتهدين على البحث عنها ، والنظر فيها ، فمن صادف العين المطلوبة فى المسئلة فهو المصيب على الإطلاق ، وله أجران أجر فى الآجتهاد وأجر فى الإصابة ، ومن لم يصادفها فهو مصيب فى آجتهاده مخطئ فى أنه لم يصب العين فله أجر وهو غير معذور . وهذا سليمان قد صادف العين المطلوبة ، وهى التى فهم . ورأت فرقة أن العالم المخطئ لا إثم عليه فى خطئه و إن كان غير معذور . وقالت فرقة : الحق فى طرف واحد ولم ينصب الله تعالى عليه دلائل [بل][1] وكل الأمر إلى نظر المجتهدين فمن أصابه أصاب ومن أخطأ فهو معذور مأجور، ولم يتعبد بإصابته العين بل تعبدنا بالآجتهاد فقط . وقال جمهور أهل السنة وهو المحفوظ عن مالك وأصحابه رضى الله عنهم : إن الحق فى مسائل الفروع فى الطرفين ، وكل مجتهد مصيب ، والمطلوب إنما هو الأفضل فى ظنه ، وكل مجتهد قد أداه نظره إلى الأفضل فى ظنه ؛ والدليل على هذه المقالة أن الصحابة فمن بعدهم قرّر بعضهم خلاف بعض، ولم ير أحد منهم أن يقع الآحتمال على قوله دون قول مخالفه . ومنه ردّ مالك رحمه الله للمنصور أبى جعفر عن حمل الناس على « الموطأ » ؛ فإذا قال عالم فى أمر حلال فذلك هو الحق فيما يختص بذلك العالم عند الله تعالى و بكل من أخذ بقوله ، وكذا فى العكس . قالوا : و إن كان سليمان عليه السلام فهم القضية المثلى والتى هى أرجح فالأولى ليست بخطإ ، وعلى هذا يحملون قوله عليه السلام : "إذا آجتهد العالم فأخطأ" أى فأخطأ الأفضل .

الثامنة — روى مسلم وغيره عن عمرو بن العاص أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران و إذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر " هكذا لفظ الحديث فى كتاب مسلم " إذا حكم فاجتهد " فبدأ بالحكم قبل الاجتهاد، والأمر بالعكس ؛ فإن الاجتهاد مقدّم على الحكم، فلا يجوز الحكم قبل الاجتهاد بالإجماع . و إنما معنى هذا الحديث : إذا أراد أن يحكم ، كما قال : « فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ » فعند

(١) زيادة يقتضيها السياق .

ذلك أراد أن يجتهد فى النازلة . ويفيد هذا صحة ما قاله الأصوليون : إن المجتهد يجب عليه أن يجدد نظرا عند وقوع النازلة، ولا يعتمد على اجتهاده المتقدّم لإمكان أن يظهر له ثانيا خلاف ما ظهر له أوّلا، اللهم إلا أن يكون ذاكرا لأركان اجتهاده، مائلا إليه، فلا يحتاج إلى استئناف نظر فى أمارة أخرى .

التاسعة — إنما يكون الأجر للحاكم المخطئ إذا كان عالما بالاجتهاد والسنن والقياس، وقضاء من مضى؛ لأن آجتهاده عبادة ولا يؤجر على الخطأ بل يوضع عنه الإثم فقط، فأما من لم يكن محلا للاجتهاد فهو متكلف لا يعذر بالخطإ فى الحكم ، بل يخاف عليه أعظم الوزر . يدل على ذلك حديثه الآخر؛ رواه أبو داود : "القضاة ثلاثة" الحديث . قال ابن المنذر : إنما يؤجر على آجتهاده فى طلب الصواب لا على الخطأ ، ومما يؤيد هذا قوله تعالى : « فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ » الآية . قال الحسن : أثنى على سليمان ولم يذم داود .

العاشرة — ذكر أبو التمام المالكى أن مذهب مالك أن الحق فى واحد من أقاويل المجتهدين، وليس ذلك فى أقاويل المختلفين، وبه قال أكثر الفقهاء . قال : وحكى آبن القاسم أنه سأل مالكا عن آختلاف الصحابة ، فقال: مخطئ ومصيب، وليس الحق فى جميع أقاويلهم . وهذا القول قيل : هو المشهور عن مالك وإليه ذهب محمد بن الحسين . واحتج من قال هذا بحديث عبد الله بن عمرو؛ قالوا : وهو نص على أن فى المجتهدين وفى الحاكمين مخطئا ومصيبا؛ قالوا : والقول بأن كل مجتهد مصيب يؤدّى إلى كون الشىء حلالا حراما ، وواجبا ندبا . وآحتج أهل المقالة الأولى بحديث ابن عمر .

قال : نادى فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم انصرف من الأحزاب "ألا لا يصلينّ أحدٌ العصر إلا فى بنى قُرَيظة" فتخوّف ناس فوت الوقت فصلوا دون بنى قُرَيظة ، وقال الآخرون : لا نصلى إلا حيث أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإن فاتنا الوقت ، قال : فما عنف واحدا من الفريقين؛ قالوا : فلوكان أحد الفريقين مخطئا لعينّه النبي صلى الله عليه وسلم . ويمكن أن يقال : لعله إنما سكت عن تعيين المخطئين لأنه غير آثم بل مأجور،

فاستغنى عن تعيينه . والله أعلم . ومسئلة الاجتهاد طويلة متشعبة، وهذه النبذة التى ذكرناها كافية فى معنى الآية، والله الموفق للهداية .

الحادية عشرة — ويتعلق بالآية فصل آخر: وهو رجوع الحاكم بعد قضائه من آجتهاده إلى اجتهاد آخر أرجح من الأوّل؛ فإن داود عليه السلام فعل ذلك . وقد اختلف فى ذلك علماؤنا رحمهم الله تعالى؛ فقال عبد الملك ومُطَرِّف فى «الواضحة» : ذلك له ما دام فى ولايته؛ فأما إن كانت ولاية أخرى فليس له ذلك، وهو بمنزلة غيره من القضاة . وهذا هو ظاهر قول مالك رحمه الله فى «المدونة» . وقال سحنون فى رجوعه من اجتهاد فيه قول إلى غيره مما رآه أصوب ليس له ذلك؛ وقاله ابن عبد الحكم . قالا : ويستأنف الحكم بما قوى عنده. قال سحنون : إلا أن يكون نسى الأقوى عنده فى ذلك الوقت، أو وهم فحكم بغيره فله نقضه؛ وأما إن حكم بحكم هو الأقوى عنده فى ذلك الوقت ثم قوى عنده غيره بعد ذلك فلا سبيل إلى نقض الأول؛ قاله سحنون فى كتاب آبنه . وقال أشهب فى كتاب ابن المواز : إن كان رجوعه إلى الأصوب فى مال فله نقض الأول، وإن كان فى طلاق أو نكاح أو عتق فليس له نقضه .

قلت : رجوع القاضى عما حكم به إذا تبين له أن الحق فى غيره ما دام فى ولايته أولى . وهكذا فى رسالة عمر إلى أبى موسى رضى الله عنهما؛ رواها الدارقطنى، وقد ذكرناها فى « الأعراف » ولم يفصل؛ وهى الحجة لظاهر قول مالك . ولم يختلف العلماء أن القاضى إذا قضى تجوّزا وبخلاف أهل العلم فهو مردود، وإن كان على وجه الآجتهاد؛ فأما أن يتعقب قاض حكم قاض آخر فلا يجوز ذلك له؛ لأن فيه مضرة عظمى من جهة نقض الأحكام، وتبديل الحلال بالحرام، وعدم ضبط قوانين الإسلام، ولم يتعرض أحد من العلماء لنقض ما رواه الآخر، وإنما كان يحكم بما ظهر له .

الثانيــة عشرة — قال بعض النـاس : إن داود عليه السلام لم يكن أنفذ الحكم وظهر له ما قال غيره . وقال آخرون : لم يكن حكما وإنما كانت فتيا .

قلت : وهكذا تؤول فيما رواه أبو هريرة عنه عليه السلام أنه قال : بينما آمرأتان معهما آبناهما جاء الذئب فذهب بابن إحداهما ، فقالت هذه لصاحبتها : إنما ذهب بآبنك أنت . وقالت الأخرى : إنما ذهب بآبنك ؛ فتحاكمتا إلى داود ، فقضى به للكبرى ؛ فخرجتا على سليمان بن داود عليهما السلام فأخبرتاه ؛ فقال : آئتونى بالسكين أشقه بينكما ؛ فقالت الصغرى : لا — يرحمكَ الله — هو آبنها ؛ فقضى به للصغرى ؛ قال أبو هريرة : إنْ سمعتُ بالسكين قط إلا يومئذ ، ما كنا نقول إلا المُدْية ؛ أخرجه مسلم . فأما القول بأن ذلك من داود فتيا فهو ضعيف ؛ لأنه كان النبي — صلى الله عليه وسلم — وفتياه حكم . وأما القول الآخر فيبعد ؛ لأنه تعالى قال : « إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ » فبين أن كل واحد منهما كان قد حكم . وكذا قوله فى الحديث : فقضى به للكبرى ؛ يدل على إنفاذ القضاء و إنجازه . ولقد أبعد من قال : إنه كان من شرع داود أن يحكم به للكبرى من حيث هى كبرى ؛ لأن الكبر والصغر طرد محض عند الدعاوى كالطول والقصر والسواد والبياض وذلك لا يوجب ترجيح أحد المتداعيين حتى يحكم له أو عليه لأجل ذلك . وهو مما يقطع به من فهم ما جاءت به الشرائع . والذى ينبغى أن يقال : إن داود عليه السلام إنما قضى به للكبرى لسبب آقتضى عنده ترجيح قولها . ولم يذكر فى الحديث تعيينه إذ لم تدع حاجة إليه ، فيمكن أن الولد كان بيدها ، وعلم عجز الأخرى عن إقامة البينة ، فقضى به لها إبقاء لما كان على ما كان . وهذا التأويل أحسن ما قيل فى هذا الحديث . وهو الذى تشهد له قاعدة الدعاوى الشرعية التى يبعد آختلاف الشرائع فيها . لا يقال : فإن كان داود قضى بسبب شرعى فكيف ساغ لسليمان نقض حكمه ؛ فالجواب : أن سليمان عليه السلام لم يتعرض لحكم أبيه بالنقض ، و إنما آحتال حيلة لطيفة ظهر له بسببها صدق الصغرى ؛ وهى أنه لما قال : هات السكين أشقه بينكما ، قالت الصغرى : لا ؛ فظهر له من قرينة الشفقة فى الصغرى ، وعدم ذلك فى الكبرى ، مع ما عساه آنضاف إلى ذلك من القرائن ما حصل له العلم بصدقها فحكم لها . ولعله كان ممن سوغ له أن يحكم بعلمه . وقد ترجم النسائى على هذا الحديث « حكم الحاكم بعلمه » . وترجم له أيضا « السعة للحاكم أن يقول

للشيء الذى لا يَفعله أَفْعلُ ليستبين الحق » . وترجم له أيضا « نقض الحاكم لا يَحكم به غيرُه ممن هو مثله أو أجلّ منه » . ولعل الكبرى آعترفت بأن الولد للصغرى عند ما رأت من سليمان الحزم والجد فى ذلك، فقضى بالولد للصغرى ؛ و يكون هذا كما إذا حكم الحاكم باليمين، فلما مضى ليحلف حضر من استخرج من المنكر ما أوجب إقراره، فإنه يحكم عليه بذلك الإقرار قبل اليمين و بعدها ، ولا يكون ذلك من باب نقض الحكم الأول ، لكن من باب تبدّل الأحكام بحسب تبدّل الأسباب . والله أعلم . وفى هذا الحديث من الفقه أن الأنبياء سوغ لهم الحكم بالآجتهاد ؛ وقد ذكرناه . وفيه من الفقه آستعمال الحكام الحيل التى تستخرج بها الحقوق، وذلك يكون عن قوة الذكاء والفطنة ، وممارسة أحوال الخلق؛ وقد يكون فى أهل التقوى فراسة دينية ، وتوسمات نورية ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء . وفيه الحجة لمن يقول : إن الأم تُستلحَق؛ وليس مشهور مذهب مالك ، وليس هذا موضع ذكره . وعلى الجملة فقضاء سليمان فى هذه القصة تضمنها مدحه تعالى له بقوله : « فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ » .

الثالثة عشرة — قد تقدّم القول فى الحرث والحكم فى هذه الواقعة فى شرعنا : أن على أصحاب الحوائط حفظ حيطانهم و زروعهم بالنهار ، ثم الضمان فى المثل بالمثليات ، و بالقيمة فى ذوات القيم . والأصل فى هذه المسئلة فى شرعنا ما حكم به نبينا صلى الله عليه وسلم فى ناقة البراء بن عازب . رواه مالك عن آبن شهاب عن حرام بن سعد بن مُحيِّصة : أن ناقة للبراء دخلت حائط رجل فأفسدت فيه، فقضى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن على أهل الحوائط حفظها بالليل، وأن ما أفسدت المواشى بالليل ضامن[1] على أهلها . هكذا رواه جميع الرواة مرسلا . وكذلك رواه أصحاب آبن شهاب عن ابن شهاب، إلا ابن عيينة فإنه رواه عن الزهرى عن سعيد وحرام بن سعد بن مُحيِّصة : أن ناقة؛ فذكر مثله بمعناه . ورواه آبن أبى ذئب عن آبن شهاب أنه بلغه أن ناقة البراء دخلت حائط قوم ؛ مثل حديث مالك سواء، إلا أنه لم يذكر حرام بن سعد بن محيصة ولا غيره . قال أبو عمر : لم يصنع آبن أبى ذئب

(١) ضامن بمعنى مضمون .

شيئا؛ إلا أنه أفسد إسناده . ورواه عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى عن حرام بن محيصة عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يتابع عبد الرزاق على ذلك وأنكروا عليه قوله عن أبيه . ورواه آبن جريج عن آبن شهاب قال : حدثنى أبو أمامة بن سهل بن حنيف أن ناقة دخلت فى حائط قوم فأفسدت؛ فجعل الحديث لآبن شهاب عن أبى أمامة، ولم يذكر أن الناقة كانت للبراء . وجائز أن يكون الحديث عن ابن شهاب عن ابن مُحَيّصة، وعن سعيد بن المسيّب، وعن أبى أمامة — والله أعلم — فحدّث به عمن شاء منهم على ما حضره وكلهم ثقات . قال أبو عمر : وهذا الحديث و إن كان مرسلا فهو حديث مشهور أرسله الأئمة، وحدّث به الثقات، وآستعمله فقهاء الحجاز وتلقوه بالقبول، وجرى فى المدينة العمل به، وحسبك باستعمال أهل المدينة وسائر أهل الحجاز لهذا الحديث .

الرابعة عشرة — ذهب مالك و جمهور الأئمة إلى القول بحديث البراء، وذهب أبو حنيفة وأصحابه و جماعة من الكوفيين إلى أن هذا الحكم منسوخ، وأن البهائم إذا أفسدت زرعا فى ليل أو نهار أنه لا يلزم صاحبها شىء، وأدخل فسادها فى عموم قوله صلى الله عليه وسلم : "جُرح العجماء جُبَار" فقاس جميع أعمالها على جرحها . ويقال : إنه ما تقدم أبا حنيفة أحد بهذا القول، ولا حجة له ولا لمن آتبعه فى حديث العجماء، وكونه ناسخا لحديث البراء ومعارضا له؛ فإن النسخ شروطه معدومة، والتعارض إنما يصح إذا لم يمكن آستعمال أحدهما إلا بنفى الآخر، وحديث "العجماء جرحها جبار" عموم متفق عليه، ثم خص منه الزرع والحوائط بحديث البراء؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم لو جاء عنه فى حديث واحد : العجماء جرحها جبار نهارا لا ليلا وفى الزرع والحوائط والحرث، لم يكن هذا مستحيلا من القول؛ فكيف يجوز أن يقال فى هذا متعارض؟ ! و إنما هذا من باب العموم والخصوص على ما هو مذكور فى الأصول .

الخامسة عشرة — إن قيل : ما الحكمة فى تفريق الشارع بين الليل والنهار، وقد قال الليث بن سعد : يضمن أرباب المواشى بالليل والنهار كل ما أفسدت، ولا يضمن أكثر من قيمة الماشية ؟ قلنا : الفرق بينهما واضح، وذلك أن أهل المواشى لهم ضرورة إلى إرسال

مواشيهم ترعى بالنهار، والأغلب عندهم أن من عنده زرع يتعاهده بالنهار ويحفظه عمن أراده، فجعل حفظ ذلك بالنهار على أهل الزروع؛ لأنه وقت التصرف فى المعاش، كما قال الله سبحانه وتعالى: «وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا» فإذا جاء الليل فقد جاء الوقت الذى يرجع كل شىء إلى موضعه وسكنه؛ كما قال الله تعالى: «مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ» وقال: «وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا» ويرد أهل المواشى مواشيهم إلى مواضعهم ليحفظوها، فإذا فرط صاحب الماشية فى ردها إلى منزله، أو فرط فى ضبطها وحبسها عن الانتشار بالليل حتى أتلفت شيئا فعليه ضمان ذلك، فجرى الحكم على الأوفق الأسمح، وكان ذلك أرفق بالفريقين، وأسهل على الطائفتين، وأحفظ للمالين، وقد وضح الصبح لذى عينين، ولكن لسليم الحاستين؛ وأما قول الليث: لا يضمن أكثر من قيمة الماشية، فقد قال أبو عمر: لا أعلم من أين قال هذا الليث بن سعد، إلا أن يجعله قياسا على العبد الجانى لا يفتك بأكثر من قيمته، ولا يلزم سيده فى جنايته أكثر من قيمته، وهذا ضعيف الوجه؛ كذا قال فى «التمهيد» وفى «الاستذكار» فخالف الحديث فى "العجماء جرحها جبار" وخالف ناقة البراء، وقد تقدمه إلى ذلك طائفة من العلماء منهم عطاء. قال ابن جريج قلت لعطاء: الحرث تصيبه الماشية ليلا أو نهارا؟ قال: يضمن صاحبها ويغرم. قلت: كان عليه حظرا أو لم يكن؟ قال: نعم! يغرم. قلت: ما يغرم؟ قال: قيمة ما أكل حماره ودابته وماشيته. وقال معمر عن ابن شُبْرُمة: يُقوّم الزرع على حاله التى أصيب عليها دراهم. وروى عن عمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز رضى الله عنهما: يضمن رب الماشية ليلا أو نهارا، من طرق لا تصح.

السادسة عشرة — قال مالك: ويقوم الزرع الذى أفسدت المواشى بالليل على الرجاء والخوف. قال: والحوائط التى تحرس والتى لا تحرس، والمحظر عليها وغير المحظر سواء، يغرم أهلها ما أصابت بالليل بالغا ما بلغ، وإن كان أكثر من قيمتها. قال: وإذا انفلتت دابة بالليل فوطئت على رجل نائم لم يغرم صاحبها شيئا، وإنما هذا فى الحائط والزرع والحرث؛ ذكره عنه ابن عبد الحكم. وقال ابن القاسم: ما أفسدت الماشية بالليل فهو فى مال ربها،

وإن كان أضعاف ثمنها؛ لأن الجناية من قبله إذ لم يربطها، وليست الماشية كالعبيد؛ حكاه سحنون وأصبغ وأبو زيد عن ابن القاسم .

السابعة عشرة — ولا يستأنى بالزرع أن ينبت أو لا ينبت كما يفعل فى سنّ الصغير . وقال عيسى عن ابن القاسم: قيمته لو حل بيعه. وقال أشهب وابن نافع فى المجموعة عنه: وإن لم يبد صلاحه. ابن العربى: والأوّل أقوى لأنها صفته فتقوّم كما يقوم كل متلف على صفته .

الثامنة عشرة — لو لم يقض للفسد له بشىء حتى نبت وآنجبر فإن كان فيه قبل ذلك منفعة رعى أو شىء ضمن تلك المنفعة، وإن لم تكن فيه منفعة فلا ضمان . وقال أصبغ: يضمن؛ لأن التلف قد تحقق والجبر ليس من جهته فلا يعتد له به .

التاسعة عشرة — وقع فى كتاب ابن سحنون أن الحديث إنما جاء فى أمثال المدينة التى هى حيطان محدقة، وأما البلاد التى هى زروع متصلة غير مُحظَرة، وبساتين كذلك، فيضمن أرباب النَّعم ما أفسدت من ليل أو نهار؛ كأنه ذهب إلى أن ترك تثقيف الحيوان فى مثل هذه البلاد تعدّ؛ لأنها ولا بد تفسد . وهذا جنوح إلى قول الليث .

الموفية عشرين — قال أصبغ فى المدينة: ليس لأهل المواشى أن يخرجوا مواشيهم إلى قرى الزرع بغير ذوّاد؛ فركب العلماء على هذا أن البقعة لا تخلو أن تكون بقعة زرع، أو بقعة سرح، فإن كانت بقعة زرع فلا تدخلها ماشية إلا ماشية تجتاح، وعلى أربابها حفظها، وما أفسدت فصاحبها ضامن ليلا أو نهارا؛ وإن كانت بقعة سرح فعلى صاحب الذى حرّثه فيها حفظه، ولا شىء على أرباب المواشى .

الحادية والعشرون — المواشى على قسمين: ضوارى وحَريسة وعليهما قسمها مالك . فالضوارى هى المعتادة للزرع والثمار، فقال مالك: تُغرَّب وتباع فى بلد لا زرع فيه؛ رواه ابن القاسم فى الكتاب وغيره . قال ابن حبيب: وإن كره ذلك ربها، وكذلك قال مالك فى الدابة التى ضريت فى إفساد الزرع: تغرّب وتباع . وأما ما يستطاع الاحتراس منه فلا يؤمر صاحبه بإخراجه .

الثانيـة والعشرون — قال أصبغ : النحل والحمام والإوز والدجاج كالماشية، لا يمنع صاحبها من اتخاذها وإن [ضريت][1]، وعلى أهل القرية حفظ زروعهم . قال ابن العربى : وهذه رواية ضعيفة لا يلتفت إليها من أراد أن يجد ما ينتفع به مما لا يضر بغيره مُكِّن منه، وأما انتفاعه بما يتخذه بإضراره بأحد فلا سبيل إليه . قال عليه السلام : "لا ضرر ولا ضرار" وهذه الضوارى عن ابن القاسم فى المدينة لاضمان على أربابها إلا بعد التقدم . ابن العربى : وأرى الضمان عليهم قبل التقدّم إذا كانت ضوارى .

الثالثـة والعشرون — ذكر عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الشعبى أن شاة وقعت فى غزل حائك فاختصموا إلى شُرَيح ، فقال الشّعبى : آنظروه فإنه سيسألهم ليلا وقعت فيه أو نهارا ؛ ففعل . ثم قال : إن كان بالليل ضمن، وإن كان بالنهار لم يضمن، ثم قرأ شريح « إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ » قال : والنَّفش بالليل والهَمَل بالنهار .

قلت : ومن هـذا الباب قوله صلى الله عليه وسلم : "العجماء جرحها جبار" الحديث . وقال ابن شهاب : والجبار الهـدر، والعجماء البهيمة ، قال علماؤنا : ظاهر قوله : "العجماء جرحها جبار" أن ماانفردت البهيمة بإتلافه لم يكن فيه شيء، وهذا مجمع عليه . فلو كان معها قائد أو سائق أو راكب فحملها أحدهم على شيء فأتلفته لزمه حكم المتلف؛ فإن كانت جناية مضمونة بالقصاص وكان الحمل عمدا كان فيه القصاص ولا يختلف فيه؛ لأن الدابة كالآلة . وإن كان عن غير قصد كانت فيه الدية على العاقلة . وفى الأموال الغرامة فى مال الجانى .

الرابعـة والعشرون — واختلفوا فيمن أصابته برجلها أو ذنبها، فلم يضمّن مالك والليث والأوزاعى صاحبها ، وضمّنـه الشافعى وابن أبى ليـلى وآبن شُبْرُمـة . واختلفوا فى الضارية فجمهورهم أنها كغيرها، ومالك وبعض أصحابه يضمنونه .

الخامسـة والعشرون — روى سفيان بن حسين عن الزهرى عن سعيد بن المسيّب عن أبى هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "الرِّجل جبار" قال الدار قطنى : لم يروه

(١) فى الأصل : «أضرت» . والتصويب من «الموطأ» .

غير سفيان بن حسين ولم يتابع عليه، وخالفه الحفاظ عن الزهرى منهم مالك وابن عيينة ويونس ومعمر وابن جريج والزبيدى وعقيل وليث بن سعد، وغيرهم كلهم رووه عن الزهرى فقالوا : " العجماء جبار والبئر جبار والمعدن جبار " ولم يذكروا الرِّجل وهو الصواب . وكذلك روى أبو صالح السمان ، وعبد الرحمن الأعرج ، ومحمد بن سيرين ، ومحمد بن زياد وغيرهم عن أبى هريرة، ولم يذكروا فيه " والرِّجل جبار " وهو المحفوظ عن أبى هريرة .

السادسة والعشرون — قوله : " والبئر جُبار " قد روى موضعه " والنار " قال الدارقطنى : حدّثنا حمزة بن القاسم الهاشمى حدّثنا حنبل بن إسحق قال سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول فى حديث عبد الرزاق : حديث أبى هريرة " والنار جبار " ليس بشىء لم يكن فى الكتاب باطل ليس هو بصحيح . حدّثنا محمد بن مخلد حدّثنا إسحق بن إبراهيم بن هانئ قال سمعت أحمد بن حنبل يقول : أهل اليمن يكتبون النار النير ويكتبون البير، يعنى مثل ذلك . وإنما لقن عبد الرزاق " النار جبار ". وقال الرمادى : قال عبد الرزاق قال معمر لا أراه إلا وَهَما. قال أبو عمر : روى عن النبي صلى الله عليه وسلم حديث معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : " النار جُبار " وقال يحيي بن معين : أصله البئر ولكن معمرا صحّفه . قال أبو عمر : لم يأتِ ابن معين على قوله هذا بدليل، وليس هكذا ترد أحاديث الثقات . ذكر وكيع عن عبد العزيز بن حصين عن يحيي بن يحيي الغسانى قال : أحرق رجل سافى قَراح[1] له فخرجت شررة من نار حتى أحرقت شيئا لجاره . قال : فكتب فيه إلى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه آبن حصين فكتب إلىّ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : " العجماء جبار " وأرى أن النار جبار . وقد روى " والسائمة جبار " بدل العجماء فهذا ما ورد فى ألفاظ هذا الحديث ولكل معنى لفظ صحيح مذكور فى شرح الحديث وكتب الفقه .

قوله تعالى : ﴿ وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ ﴾ قال وهب : كان داود يمر بالجبال مسبّحا والجبال تجاوبه بالتسبيح، وكذلك الطير. وقيل : كان داود إذا وجد فترة أمر الجبال فسبحت

(١) قراح : مزرعة .

حتى يشتاق، ولهذا قال : «وَسَخَّرْنَا» أى جعلناها بحيث تطيعه إذا أمرها بالتسبيح . وقيل : إن سيرها معه تسبيحها ، والتسبيح مأخوذ من السباحة ، دليله قوله تعالى : « يَاجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ » . وقال قتادة : « يُسَبِّحْنَ » يصلين معه إذا صلى ، والتسبيح الصلاة . وكل محتمل . وذلك فعل الله تعالى بها ، ذلك لأن الجبال لاتعقل فتسبيحها دلالة على تنزيه الله تعالى عن صفات العاجزين والمحدثين .

قوله تعالى : وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّن بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾

فيه ثلاث مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ يعنى اتخاذ الدروع بإلانة الحديد له ، واللبوس عند العرب السلاح كله ، درعا كان أو جَوْشنا أو سيفا أو رمحا . قال الهُذَلى[1] يصف رمحا :

وَمَعِى لَبُوسٌ لِلبَئِيسِ كَأَنَّهُ * رَوْقٌ بجبهة ذِى نِعَاجٍ مُجْفِلِ

واللبوس كل مايلبس ، وأنشد ابن السكيت[2] :

ٱلْبَسْ لكلِّ حالةٍ لَبُوسَهَا * إمّا نَعِيمَهَا و إمّا بُوسَهَا

وأراد الله تعالى هنا الدّرع ، وهو بمعنى الملبوس نحو الرّكوب والحلوب . قال قتادة : أول من صنع الدروع داود . و إنما كانت صفائح ، فهو أول من سردها وحلقها .

الثانية — قوله تعالى : ﴿ لِيُحْصِنَكُمْ[3] ﴾ ليحرزكم . ﴿ مِنْ بَأْسِكُمْ ﴾ أى من حربكم . وقيل : من السيف والسهم والرمح ، أى من آلة بأسكم فحذف المضاف . ابن عباس : « مِنْ بَأْسِكُمْ » من سلاحكم . الضحاك : من حرب أعدائكم . والمعنى واحد . وقرأ الحسن

(١) هو أبو كبير الهذلى ، واسمه عامر بن الحليس من قصيدة أولها :

أزهير هل عن شيبة من معدل * أم لا سبيل إلى الشباب الأول

والبئيس : الشجاع . والروق : القرن . وذو نعاج : يعنى ثورا ؛ والنعاج : البقر من الوحش .

(٢) البيت لبيهس الفزارى . (٣) « ليحصنكم » بالياء قراءة نافع .

وأبو جعفر وابن عامر وحفص وروح « لِتُحْصِنَكُمْ » بالتاء ردا على الصفة . وقيل : على اللبوس والمنعة التى هى الدروع . وقرأ شيبة وأبو بكر والمفضل ورويس وابن أبى إسحق «لِنُحْصِنَكُمْ» بالنون لقوله : « وَعَلَّمْنَاهُ » . وقرأ الباقون بالياء جعلوا الفعل للبوس، أو يكون المعنى ليحصنكم الله . ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ أى على تيسير نعمة الدروع لكم . وقيل : « هَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ » بأن تطيعوا رسولى .

الثالثة — هذه الآية أصل فى آتخاذ الصنائع والأسباب ، وهو قول أهل العقول والألباب ، لا قول الجهلة الأغبياء القائلين بأن ذلك إنما شرع للضعفاء ، فالسبب سنة الله فى خلقه فمن طعن فى ذلك فقد طعن فى الكتاب والسنة ، ونسب من ذكرنا إلى الضعف وعدم المنة . وقد أخبر الله تعالى عن نبيه داود عليه السلام أنه كان يصنع الدروع، وكان أيضا يصنع الخوص، وكان يأكل من عمل يده، وكان آدم حراثا، ونوح نجارا، ولقمان خياطا، وطالوت دباغا . وقيل : سقاء ؛ فالصنعة يكفّ بها الإنسان نفسه عن الناس، ويدفع بها عن نفسه الضرر والباس. وفى الحديث : «إن الله يحب المؤمن المحترف الضعيف المتعفِّف ويبغض السائل الملحف» . وسيأتى لهذا مزيد بيان فى سورة «الفرقان»(١) . وقد تقدم فى غير ما آية، وفيه كفاية والحمد لله .

قوله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ ٱلشَّيَٰطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُۥ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَٰلِكَ ۖ وَكُنَّا لَهُمْ حَٰفِظِينَ ﴿٨٢﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً ﴾ أى وسخرنا لسليمان الريح عاصفة، أى شديدة الهُبوب . يقال منه : عَصفت الريحُ أى آشتدت فهى ريح عاصفٌ وعَصُوف . وفى لغة بنى أسد : أَعصفت الريحُ فهى مُعصِف ومُعصِفة . والعَصْف التِّبن فسمى به شدة الريح ؛

(١) راجع المسئلة الثالثة من تفسير قوله تعالى : « وما أرسلنا قبلك من المرسلين ... الخ » آية ٢٠ من السورة المذكورة .

لأنها تعصفه بشدة تطيرها . وقرأ عبد الرحمن الأعرج والسُّلَمى وأبو بكر « وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحُ » برفع الحاء على القطع مما قبله ؛ والمعنى ولسليمان تسخير الريح ؛ ابتداء وخبر . ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾ يعنى الشام . يروى أنها كانت تجرى به و بأصحابه إلى حيث أراد ، ثم تردّه إلى الشام . وقال وهب : كان سليمان بن داود إذا خرج إلى مجلسه عكفت عليه الطير، وقام له الجن والإنس حتى يجلس على سريره . وكان آمرأ غزّاء لا يقعد عن الغزو ؛ فإذا أراد أن يغزو أمر بخُشب فمدت ورفع عليها الناس والدواب وآلة الحرب، ثم أمر العاصف فأقلت ذلك، ثم أمر الرخاء فمرت به شهرا فى رواحه وشهرا فى غدوّه، وهو معنى قوله تعالى : « تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ » . والرخاء اللينة . ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ أى بكل شىء عملنا عالمين بتدبيره .

قوله تعالى : ﴿ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ ﴾ أى وسخرنا له من يغوصون ؛ يريد تحت الماء، أى يستخرجون له الجواهر من البحر. والغَوْص النزول تحت الماء، وقد غاص فى الماء، والهاجم على الشىء غائص . والغوّاص الذى يغوص فى البحر على اللؤلؤ، وفعله الغِيَاصة . ﴿ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ﴾ أى سوى ذلك من الغوْص ؛ قاله الفراء . وقيل : يراد بذلك المحاريب والتماثيل وغير ذلك مما يسخّرهم فيه . ﴿ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴾ أى لأعمالهم . وقال الفراء : حافظين لهم من أن يفسدوا أعمالهم ، أو يهيجوا أحدا من بنى آدم فى زمان سليمان . وقيل : «حافظين» من أن يهربوا أو يمتنعوا . أو حفظناهم من أن يخرجوا عن أمره . وقد قيل : إن الحمام والنورة والطواحين والقوارير والصابون من استخراج الشياطين .

قوله تعالى : وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ وَءَاتَيْنَٰهُ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَٰبِدِينَ ﴿٨٤﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ أى واذكر أيوب إذ نادى ربه. ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ﴾ أى نالنى فى بدنى ضرّ وفى مالى وأهلى. قال ابن عباس: سمى أيوب لأنه آب إلى الله تعالى فى كل حال. وروى أن أيوب عليه السلام كان رجلا من الروم ذا مال عظيم، وكان برًّا تقيًّا رحيما بالمساكين، يكفل الأيتام والأرامل، ويكرم الضيف، ويبلغ ابن السبيل، شاكرا لأنعم الله تعالى، وأنه دخل مع قومه على جبار عظيم فخاطبوه فى أمر، فجعل أيوب يلين له فى القول من أجل زرع كان له فامتحنه الله بذهاب ماله وأهله، وبالضر فى جسمه حتى تناثر لحمه وتدوّد جسمه، حتى أخرجه أهل قريته إلى خارج القرية، وكانت امرأته تخدمه. قال الحسن: مكث بذلك تسع سنين وستة أشهر. فلما أراد الله أن يفرّج عنه قال الله تعالى له: «ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَـٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ» فيه شفاؤك، وقد وهبت لك أهلك ومالك وولدك ومثلهم معهم. وسيأتى فى «ص»(1) ما للمفسرين فى قصة أيوب من تسليط الشيطان عليه، والرد عليهم إن شاء الله تعالى. واختلف فى قول أيوب: «مَسَّنِيَ الضُّرُّ» على خمسة عشر قولا: الأول — أنه وثب ليصلى فلم يقدر على النهوض فقال: «مَسَّنِيَ الضُّرُّ» إخبارا عن حاله، لا شكوى لبلائه؛ رواه أنس مرفوعا. الثانى — أنه إقرار بالعجز فلم يكن منافيا للصبر. الثالث — أنه سبحانه أجراه على لسانه ليكون حجة لأهل البلاء بعده فى الإفصاح بما ينزل بهم. الرابع — أنه أجراه على لسانه إلزاما له فى صفة الآدمى فى الضعف عن تحمل البلاء. الخامس — أنه انقطع الوحى عنه أربعين يوما فخاف هجران ربه فقال: «مَسَّنِيَ الضُّرُّ». وهذا قول جعفر بن محمد. السادس — أن تلامذته الذين كانوا يكتبون عنه لما أفضت حاله إلى ما انتهت إليه محوا ما كتبوا عنه، وقالوا: ما لهذا عند الله قدر؛ فاشتكى الضر فى ذهاب الوحى والدين من أيدى الناس. وهذا مما لم يصح سنده. والله أعلم؛ قاله ابن العربى. السابع — أن دودة سقطت من لحمه فأخذها وردها فى موضعها فعقرته فصاح «مَسَّنِيَ الضُّرُّ» فقيل: أعلينا تتصبر. قال ابن العربى: وهذا بعيد جدا

(1) راجع تفسير قوله تعالى: «واذكر عبدنا أيوب ... الخ» آية ٤١

مع أنه يفتقر إلى نقل صحيح، ولا سبيل إلى وجوده . الثامن — أن الدود كان يتناول بدنه فصبر حتى تناولت دودة قلبه وأخرى لسانه ، فقال : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » لاشتغاله عن ذكر الله . قال ابن العربى : وما أحسن هذا لو كان له سند ولم تكن دعوى عريضة . التاسع — أنه أبهم عليه جهة أخذ البلاء له هل هو تأديب ، أو تعذيب، أو تخصيص ، أو تمحيص ، أو ذُخر أو طهر ، فقال : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » أى ضرّ الإشكال فى جهة أخذ البلاء . قال ابن العربى : وهذا غلو لا يحتاج إليه . العاشر — أنه قيل له سل الله العافية فقال : أقمت فى النعيم سبعين سنة وأقيم فى البلاء سبع سنين وحينئذ أسأله فقال : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » . قال ابن العربى : وهذا ممكن ولكنه لم يصح فى إقامته مدّةَ خبرٌ ولا فى هذه القصة . الحادى عشر — أن ضره قول إبليس لزوجه آسجدى لى فخاف ذهاب الإيمان عنها فتهلك ويبقى بغير كافل . الثانى عشر — لما ظهر به البلاء قال قومه : قد أضر بنا كونه معنا وقذره فليخرج عنا ، فأخرجته آمرأته إلى ظاهر البلد؛ فكانوا إذا خرجوا رأوه وتطيروا به وتشاءموا برؤيته، فقالوا : ليبعد بحيث لا نراه . فخرج إلى بعدٍ من القرية، فكانت آمرأته تقوم عليه وتحمل قوته إليه . فقالوا : إنها تتناوله وتخالطنا فيعود بسببه ضره إلينا . فأرادوا قطعها عنه؛ فقال : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » . الثالث عشر — قال عبد الله بن عبيد بن عمير : كان لأيوب أخوان فأتياه فقاما من بعيد لا يقدران أن يدنوا منه من نتن ريحه ، فقال أحدهما : لو علم الله فى أيوب خيرا ما آبتلاه بهذا البلاء؛ فلم يسمع شيئا أشد عليه من هذه الكلمة؛ فعند ذلك قال : « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » ثم قال : «اللهم إن كنت تعلم أنى لم أبت شبعان قط وأنا أعلم مكان جائع فصدقنى » فنادى مناد من السماء « أن صدق عبدى » وهما يسمعان فخرا ساجدين . الرابع عشر — أن معنى « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » من شماتة الأعداء؛ ولهذا قيل له : ما كان أشد عليك فى بلائك؟ قال شماتة الأعداء . قال ابن العربى : وهذا ممكن فإن الكليم قد سأله أخوه العافية من ذلك فقال : « إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَاءَ » . الخامس عشر — أن آمرأته كانت ذات ذوائب فعرفت حين منعت أن تتصرف لأحد بسببه

ما تعود به عليه، فقطعت ذوائبها واشترت بها ممن يصلها قوتا وجاءت به إليه، وكان يستعين بذوائبها فى تصرفه وتنقله، فلما عدمها وأراد الحركة فى تنقله لم يقدر قال: « مَسَّنِيَ الضُّرُّ ». وقيل: إنها لما اشترت القوت بذوائبها جاءه إبليس فى صفة رجل وقال له: إن أهلك بغت فأخذت وحلق شعرها. فحلف أيوب أن يجلدها؛ فكانت المحنة على قلب المرأة أشد من المحنة على قلب أيوب.

قلت: وقول سادس عشر — ذكره ابن المبارك: أخبرنا يونس بن يزيد عن عقيل عن ابن شهاب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوما أيوب النبى صلى الله عليه وسلم وما أصابه من البلاء؛ الحديث. وفيه أن بعض إخوانه ممن صابره ولازمه قال: يا نبى الله لقد أعجبنى أمرك وذكرته إلى أخيك وصاحبك، أنه قد ابتلاك بذهاب الأهل والمال وفى جسدك، منذ ثمانية عشرة سنة حتى بلغتَ ماترى؛ ألا يرحمك فيكشف عنك! لقد أذنبتَ ذنبا ما أظن أحدا بلغه! فقال أيوب عليه السلام: « ما أدرى ما يقولان غير أن ربى عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتزاعمان وكل يحلف بالله — أو على النفر يتزاعمون — فأنقلب إلى أهلى فأكفر عن أيمانهم إرادة ألا يأثم أحد ذكره ولا يذكره أحد إلا بالحق » فنادى ربه ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ وإنما كان دعاؤه عَرْضا عرضه على الله تبارك وتعالى يخبره بالذى بلغه، صابرا لما يكون من الله تبارك وتعالى فيه. وذكر الحديث. وقول سابع عشر — سمعته ولم أقف عليه أن دودة سقطت من جسده فطلبها ليردّها إلى موضعها فلم يجدها فقال: « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » لما فقد من أجر ألم تلك الدودة، وكان أراد أن يبقى له الأجر موفرا إلى وقت العافية، وهذا حسن إلا أنه يحتاج إلى سند. قال العلماء: ولم يكن قوله « مَسَّنِيَ الضُّرُّ » جزعا؛ لأن الله تعالى قال: « إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا » بل كان ذلك دعاء منه، والجزع فى الشكوى إلى الخلق لا إلى الله تعالى، والدعاء لا ينافى الرضا. قال الثعلبى سمعت أستاذنا أبا القاسم بن حبيب يقول: حضرت مجلسا غاصا بالفقهاء والأدباء فى دار السلطان، فسئلت عن هذه الآية بعد إجماعهم على أن قول أيوب كان شكاية وقد قال الله تعالى: « إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا »

فقلت : ليس هذا شكاية وإنما كان دعاء ؛ بيانه ﴿ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ والإجابة تتعقب الدعاء لا الاشتكاء . فآستحسنوه وارتضوه . وسئل الجنيد عن هذه الاية فقال : عرّفه فاقة السؤال ليمنّ عليه بكرم النّوال .

قوله تعالى : ﴿ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ ﴾ قال مجاهد وعكرمة قيل لأيوب صلى الله عليه وسلم : قد آتيناك أهلك فى الجنة فإن شئت تركناهم لك فى الجنة وإن شئت آتيناكهم فى الدنيا . قال مجاهد : فتركهم الله عز وجل له فى الجنة وأعطاه مثلهم فى الدنيا . قال النحاس : والإسناد عنهما بذلك صحيح .

قلت : وحكاه المهدوى عن ابن عباس . وقال الضحاك : قال عبد الله بن مسعود كان أهل أيوب قد ماتوا إلا آمرأته فأحياهم الله عز وجل فى أقل من طرف البصر ، وآتاه مثلهم معهم . وعن ابن عباس أيضا : كان بنوه قد ماتوا فأحيوا له وولد له مثلهم معهم . وقاله قتادة وكعب الأحبار والكلبى وغيرهم . قال ابن مسعود : مات أولاده وهم سبعة من الذكور وسبعة من الإناث فلما عوفى نشروا له ، وولدت آمرأته سبعة بنين وسبع بنات . الثعلبى : وهذا القول أشبه بظاهر الآية .

قلت : لأنهم ماتوا آبتلاء قبل آجالهم حسب ما تقدم بيانه فى سورة « البقرة »(١) فى قصة « الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ » . وفى قصة السبعين الذين أخذتهم الصعقة فماتوا ثم أحيوا(٢) ؛ وذلك أنهم ماتوا قبل آجالهم ، وكذلك هنا والله أعلم . وعلى قول مجاهد وعكرمة يكون المعنى : « وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ » فى الآخرة « وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ » فى الدنيا . وفى الخبر : إن الله بعث إليه جبريل عليه السلام حين ركض برجله على الأرض ركضة فظهرت عين ماء حار ، وأخذ بيده ونفضه نفضة فتناثرت عنه الديدان ، وغاص فى الماء غوصة فنبت لحمه وعاد إلى منزله ، ورد الله عليه أهله ومثلهم معهم ، ونشأت سحابة على قدر قواعد داره فأمطرت ثلاثة أيام بلياليها جرادا من ذهب . فقال له جبريل : أشبعت ؟ فقال : ومن

(١) راجع جـ ٣ ص ٢٣٠ طبعة أولى وثانية .
(٢) راجع جـ ١ ص ٤٠٤ ثانية أو ثالثة وجـ ٧ ص ٢٩٥ طبعة أولى أو ثانية .

يشبع من الله! فضل. فأوحى الله إليه: قد أثنيت عليك بالصبر قبل وقوعك فى البلاء و بعده، ولولا أنى وضعت تحت كل شعرة منك صبرا ما صبرت. ﴿ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا ﴾ أى فعلنا ذلك به رحمة من عندنا. وقيل: ابتليناه ليعظم ثوابه غدا. ﴿ وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ ﴾ أى وتذكيرا للعباد؛ لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب وصبره عليه ومحنته له وهو أفضل أهل زمانه وطنوا أنفسهم على الصبر على شدائد الدنيا نحو ما فعل أيوب، فيكون هذا تنبيها لهم على إدامة العبادة، واحتمال الضرر. واختلف فى مدة إقامته فى البلاء؛ فقال ابن عباس: كانت مدة البلاء سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام وسبع ليال. وهب: ثلاثين سنة. الحسن سبع سنين وستة أشهر. قلت: وأصح من هذا والله أعلم ثمانى عشرة سنة؛ رواه ابن شهاب عن النبي صلى الله عليه وسلم؛ ذكره ابن المبارك وقد تقدّم.

قوله تعالى: وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾

قوله تعالى: ﴿ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ ﴾ وهو أخنوخ وقد تقدّم ﴿ وَذَا الْكِفْلِ ﴾ أى وآذكرهم. وخرج الترمذى الحكيم فى «نوادر الأصول» وغيره من حديث ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "كان فى بنى إسرائيل رجل يقال له ذو الكفل لا يتورع من ذنب عمله فآتبع امرأة فأعطاها ستين دينارا [على أن يطأها][1] فلما قعد منها مقعد الرجل من آمرأته ارتعدت و بكت فقال ما يبكيك قالت من هذا العمل والله ما عملته قط قال أأكرهتك قالت لا ولكن حملنى عليه الحاجة قال اذهبي فهو لك والله لا أعصى الله بعدها أبدا ثم مات من ليلته فوجدوا مكتوبا على باب داره إن الله قد غفر لذى الكفل" وخرجه أبو عيسى الترمذى أيضا. ولفظه عن ابن عمر رضى الله عنهما قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يحدّث حديثا لو لم أسمعه إلا مرة أو مرتين — حتى عدّ سبع مرات — [لم أحدّث به][2] ولكنى سمعته أكثر من ذلك؛ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "كان

(١) الزيادة من «الدر المنثور». (٢) الزيادة من صحيح الترمذى.

ذو الكفل من بنى إسرائيل لا يتورع من ذنب عمله فأتته امرأة فأعطاها ستين دينارا على أن يطأها فلما قعد منها مقعد الرجل من امرأته ارتعدت وبكت فقال ما يبكيك أأكرهتك قالت لا ولكنه عمل ما عملته قط وما حملنى عليه إلا الحاجة فقال تفعلين أنت هذا وما فعلته اذهبى فهى لك وقال والله لا أعصى الله بعدها أبدا فمات من ليلته فأصبح مكتوبا على بابه إن الله قد غفر لذى الكفل " قال: حديث حسن . وقيل إن اليسع لما كبر قال: لو استخلفت رجلا على الناس حتى أنظر كيف يعمل . فقال: من يتكفل لى بثلاث: بصيام النهار وقيام الليل وألا يغضب وهو يقضى ؟ فقال رجل من ذرية العيص : أنا ؛ فرده ثم قال مثلها من الغد؛ فقال الرجل : أنا؛ فاستخلفه فوفّى فأثنى الله عليه فسمى ذا الكفل؛ لأنه تكفل بأمر ؛ قاله أبو موسى ومجاهد وقتادة . وقال عمرو بن عبد الرحمن بن الحرث وقال أبو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم : إن ذا الكفل لم يكن نبيا، ولكنه كان عبدا صالحا فتكفل بعمل رجل صالح عند موته ،وكان يصلى لله كل يوم مائة صلاة فأحسن الله الثناء عليه . وقال كعب : كان فى بنى إسرائيل ملك كافر فمرّ ببلاده رجل صالح فقال : والله إن خرجت من هذه البلاد حتى أعرض على هذا الملك الإسلام . فعرض عليه فقال : ما جزائى؟ قال : الجنة — ووصفها له — قال : من يتكفل لى بذلك ؟ قال : أنا ؛ فأسلم الملك وتخلى عن المملكة وأقبل على طاعة ربه حتى مات ، فدفن فأصبحوا فوجدوا يده خارجة من القبر وفيها رقعة خضراء مكتوب فيها بنور أبيض: إن الله قد غفر لى وأدخلنى الجنة ووفّى عن كفالة فلان ؛ فأسرع الناس إلى ذلك الرجل بأن يأخذ عليهم الإيمان، ويتكفل لهم بما تكفل به للملك ، ففعل ذلك فآمنوا كلهم فسمى ذا الكفل . وقيل : كان رجلا عفيفا يتكفل بشأن كل إنسان وقع فى بلاء أو تهمة أو مطالبة فينجيه الله على يديه . وقيل: سمى ذا الكفل لأن الله تعالى تكفل له فى سعيه وعمله بضعف عمل غيره من الأنبياء الذين كانوا فى زمانه . والجمهور على أنه ليس بنبى . وقال الحسن : هو نبى قبل إلياس . وقيل : هو زكريا بكفالة مريم . ﴿ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴾ أى على أمر الله والقيام بطاعته واجتناب معاصيه . ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ﴾ أى فى الجنة ﴿ إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ .

قوله تعالى : وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُۨجِى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾

قوله تعالى: ﴿ وَذَا النُّونِ ﴾ أى وآذكر « ذَ النُّون » وهو لقب ليونس بن متى لابتلاع النون إياه . والنون الحوت. وفى حديث عثمان رضى الله عنه أنه رأى صبيا مليحا فقال : دَسّموا نُونَته كى لاتصيبه العين . روى ثعلب عن ابن الأعرابى: النّونة النقبة التى تكون فى ذقن الصبى الصغير ، ومعنى دسِّموا سوِّدوا . ﴿ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً ﴾ قال الحسن والشعبى وسعيد بن جبير: مغاضبا لربه عز وجل. واختاره الطبرى والقتبى واستحسنه المهدوى، وروى عن ابن مسعود. وقال النحاس: وربما أنكر هذا من لايعرف اللغة وهو قول صحيح. والمعنى: مغاضبا من أجل ربه ، كما تقول : غضبت لك أى من أجلك . والمؤمن يغضب لله عز وجل إذا عُصى . وأكثر أهل اللغة يذهب إلى أن قول النبى صلى الله عليه وسلم لعائشة : "آشترطى لهم الولاء" من هذا . وبالغ القتبى فى نصرة هـذا القول . وفى الخبر فى وصف يونس : إنه كان ضيق الصدر فلما حمل أعباء النبوّة تَفسَّخ تحتها تفسّخ الرُّبَع(١) تحت الحمل الثقيل ، فمضى على وجهه مضى الآبق النادّ. وهذه المغاضبة كانت صغيرة . ولم يغضب على الله ولكن غضب لله إذ رفع العذاب عنهم . وقال ابن مسعود : أبق من ربه أى من أمر ربه حتى أمره بالعود إليهم بعد رفع العـذاب عنهم . فإنه كان يتوعد قومه بنزول العذاب فى وقت معلوم ، وخرج من عندهم فى ذلك الوقت، فأظلهم العذاب فتضرعوا فرفع عنهم ولم يعلم يونس بتوبتهم؛ فلذلك ذهب مغاضبا وكان من حقه ألا يذهب إلا بإذن محدّد. وقال الحسن: أمره الله تعالى بالمسير إلى قومه فسأل أن ينظر ليتأهب، فأعجله الله حتى سأل أن يأخذ نعلا ليلبسها فلم يُنظر، وقيل له : الأمر أعجل من ذلك ـــ وكان فى خلقه ضيق ـــ فخرج مغاضبا لربه؛ فهذا قول وقول

---

(١) الربع : ما ولد من الإبل فى الربيع .

النحاس أحسن ما قيل فى تأويله . أى خرج مغاضبا من أجل ربه، أى غضب على قومه من أجل كفرهم بربه . وقيل : إنه غاضب قومه حين طال عليه أمرهم وتعنتهم فذهب فارّا بنفسه، ولم يصبر على أذاهم وقد كان الله أمره بملازمتهم والدعاء، فكان ذنبه خروجه من بينهم من غير إذن من الله. روى معناه عن ابن عباس والضحاك ، وأن يونس كان شابا ولم يحمل أثقال النبوة ؛ ولهذا قيل للنبيّ صلى الله عليه وسلم : « وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْحُوتِ » . وعن الضحاك أيضا خرج مغاضبا لقومه؛ لأن قومه لما لم يقبلوا منه وهو رسول من الله عز وجل كفروا بهذا فوجب أن يغاضبهم ، وعلى كل أحد أن يغاضب من عصى الله عز وجل . وقالت فرقة منهم الأخفش : إنما خرج مغاضبا للملك الذى كان على قومه . قال ابن عباس : أراد شعيا النبي والملك الذى كان فى وقته اسمه حزقيا أن يبعثوا يونس إلى ملك نينوى ، وكان غزا بنى إسرائيل وسبى الكثير منهم ليكلمه حتى يرسل معه بنى إسرائيل، وكان الأنبياء فى ذلك الزمان يوحى إليهم ، والأمر والسياسة إلى ملك قد اختاروه ، فيعمل على وحى ذلك النبى ، وكان أوحى الله لشعيا : أن قل لحزقيا الملك أن يختار نبيا قويا أمينا من بنى إسرائيل فيبعثه إلى أهل نينوى فيأمرهم بالتخلية عن بنى إسرائيل فإنى ملق فى قلوب ملوكهم وجبابرتهم التخلية عنهم . فقال يونس لشعيا : هل أمرك الله بإخراجى ؟ قال : لا . قال : فهل سمانى لك ؟ قال : لا . قال فهاهنا أنبياء أمناء أقوياء . فألحوا عليه فخرج مغاضبا للنبي والملك وقومه، فأتى بحر الروم وكان من قصته ما كان؛ فابتلى ببطن الحوت لتركه أمر شعيا؛ ولهذا قال الله تعالى : « فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ » والمليم من فعل ما يلام عليه . وكان ما فعله إما صغيرة أو ترك الأولى . وقيل : خرج ولم يكن نبيا فى ذلك الوقت ولكن أمره ملك من ملوك بنى إسرائيل أن يأتى نينوى ؛ ليدعو اهلها بأمر شعيا فأنف أن يكون ذهابه إليهم بأمر أحد غير الله ، فخرج مغاضبا للملك ؛ فلما نجا من بطن الحوت بعثه الله إلى قومه فدعاهم وآمنوا به . وقال القشيرى : والأظهر أن هذه المغاضبة كانت بعد إرسال الله تعالى إياه ، و بعد رفع العذاب عن القوم بعد ما أظلهم؛ فإنه كره رفع العذاب عنهم .

قلت : هذا أحسن ما قيل فيه على ما يأتى بيانه فى « والصافات »[(١)] إن شاء الله تعالى .

وقيل : إنه كان من أخلاق قومه قتل من جربوا عليه الكذب فخشى أن يقتل فغضب ، وخرج فارًّا على وجهه حتى ركب فى سفينة فسكنت ولم تجر . فقال أهلها : أفيكم آبق ؟ فقال : أنا هو . وكان من قصته ما كان ، وٱبتلى ببطن الحوت تمحيصا من الصغيرة كما قال فى أهل أحد : « حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ » إلى قوله : « وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا » فمعاصى الأنبياء مغفورة، ولكن قد يجرى تمحيص ويتضمن ذلك زجرا عن المعاودة . وقول رابع : إنه لم يغاضب ربه، ولا قومه، ولا الملك، وأنه من قولهم غضب إذا أنف . وفاعَل قد يكون من واحد؛ فالمعنى أنه لما وعد قومه بالعذاب وخرج عنهم تابوا وكشف عنهم العذاب، فلما رجع وعلم أنهم لم يهلكوا أنف من ذلك فخرج آبقا . وينشد هذا البيت :

* وأغضب أن تُهجى تميم بدارم *

أى آنف . وهذا فيه نظر؛ فإنه يقال لصاحب هذا القول : إن تلك المغاضبة وإن كانت من الأنفة، فالأنفة لابد أن يخالطها الغضب وذلك الغضب وإن دق على من كان ؟! وأنت تقول لم يغضب على ربه ولا على قومه ! .

قوله تعالى : ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ﴾ قيل : معناه ٱستزله إبليس ووقع فى ظنه إمكان ألا يقدر الله عليه بمعاقبته . وهذا قول مردود مرغوب عنه؛ لأنه كفر. روى عن سعيد بن جبير حكاه عنه المهدوى، والثعلبى عن الحسن . وذكر الثعلبى وقال عطاء وسعيد بن جبير وكثير من العلماء معناه : فظن أن لن نضيّق عليه . قال الحسن : هو من قوله تعالى : « ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ » أى يضيّق . وقوله : « وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ » .

قلت : وهذا الأشبه بقول سعيد والحسن . وقَدَر وقُدِر وقَتَر وقُتِر بمعنى، أى ضُيّق وهو قول ابن عباس فيما ذكره الماوردى والمهدوى . وقيل : هو من القدر الذى هو القضاء والحكم؛ أى فظن أن لن نقضى عليه بالعقوبة؛ قاله قتادة ومجاهد والفراء . مأخوذ من القدر وهو الحكم

(١) فى تفسير قوله تعالى : « وإن يونس لمن المرسلين ... » الآيات ١٣٩ وما بعدها .

دون القدرة والاستطاعة . وروى عن أبى العباس أحمد بن يحيى ثعلب، أنه قال فى قول الله عز وجل : « فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ » هو من التقدير ليس من القدرة، يقال منه : قدَر الله لك الخير يقدره قدرا، بمعنى قدّر الله لك الخير . وأنشد ثعلب :

فليست عشيّات اللّوى برواجع * لنا أبدًا ما أورق السَّـلَم النضرُ
ولا عائد ذاك الزمان الذى مضى * تباركت ما تقدِر يقعْ ولك الشكرُ

يعنى ما تقـدّره وتقضى به يقع . وعلى هـذين التأويلين العلماء . وقرأ عمر بن عبد العزيز والزهرى : « فَظَنَّ أَنْ لَنْ نُقَدِّرَ عَلَيْهِ » بضم النون وتشديد الدال من التقدير . وحكى هذه القراءة المـاوردى عن ابن عباس . وقرأ عبيد بن عمير وقتادة والأعرج : «أَنْ لَنْ يُقَدَّرَ عَلَيْهِ» بضم الياء مشددا على الفعل المجهول . وقرأ يعقوب وعبد الله بن أبى إسحق والحسن وابن عباس أيضا « يُقْدَرَ عَلَيْهِ » بياء مضمومة وفتح الدال مخفّفا على الفعل المجهول . وعن الحسن أيضا « فَظَنَّ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ » . الباقون « نَقْدِرَ » بفتح النون وكسر الدال وكله بمعنى التقدير .

قلت : وهذان التأويلان تأولها العلماء فى قول الرجل الذى لم يعمل خيرا قط لأهله إذا مات فحرقوه "فوالله لئن قدر الله على" الحديث فعلى التأويل الأول يكون تقديره : والله لئن ضيق الله على و بالغ فى محاسبتى وجزانى على ذنوبى ليكونن ذلك، ثم أمر أن يحرق بإفراط خوفه . وعلى التأويل الثانى : أى لئن كان سبق فى قدر الله وقضائه أن يعذب كل ذى جرم على جرمه ليعذبنى الله على إجرامى وذنوبى عذابا لا يعذبه أحدا من العالمين غيرى . وحديثه خرجه الأئمة فى الموطأ وغيره . والرجل كان مؤمنا موحدا . وقد جاء فى بعض طرقه "لم يعمل خيرا إلا التوحيد" وقد قال حين قال الله تعالى : لم فعلت هذا؟ قال : من خشيتك يا رب . والخشية لا تكون إلا لمؤمن مصدق؛ قال الله تعالى : «إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » . وقد قيل : إن معنى « فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ » الاستفهام وتقديره : أفظن ؛ فحذف ألف الاستفهام إيجازا؛ وهو قول سليمان (١) [أبو] المعتمر . وحكى القاضى منذر بن سعيد : أن بعضهم قرأ « أفظن » بالألف .

(١) فى الأصل « سليمان بن المعتمر » وهو تحريف والتصويب من « تهذيب التهذيب » .

قوله تعالى : ﴿ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾

فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : « فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ » اختلف العلماء فى جمع الظلمات ما المراد به ، فقالت فرقة منهم ابن عباس وقتادة : ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة الحوت . وذكر ابن أبى الدنيا حدّثنا يوسف بن موسى حدّثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبى إسحق عن عمرو بن ميمون قال حدّثنا عبد الله بن مسعود فى بيت المال قال : لما ابتلع الحوت يونس عليه السلام أهوى به إلى قرار الأرض ، فسمع يونس تسبيح الحصى فنادى فى الظلمات ظلمات ثلاث : ظلمة بطن الحوت ، وظلمة الليل ، وظلمة البحر « أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » « فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ » كهيئة الفرخ الممعوط الذى ليس عليه ريش . وقالت فرقة منهم سالم بن أبى الجعد : ظلمة البحر ، وظلمة حوت التقم الحوت الأول . ويصح أن يعبر بالظلمات عن جوف الحوت الأول فقط ؛ كما قال : « فِي غَيَابَاتِ الْجُبِّ » وفى كل جهاته ظلمة فجمعها سائغ . وذكر الماوردى : أنه يحتمل أن يعبر بالظلمات عن ظلمة الخطيئة ، وظلمة الشدّة ، وظلمة الوحدة . وروى : أن الله تعالى أوحى إلى الحوت : « لا تؤذ منه شعرة فإنى جعلت بطنك سجنه ولم أجعله طعامك » وروى : أن يونس عليه السلام سجد فى جوف الحوت حين سمع تسبيح الحيتان فى قعر البحر . وذكر ابن أبى الدنيا حدثنا العباس بن يزيد العبدى حدثنا إسحق[1] ابن إدريس حدثنا جعفر بن سليمان عن عوف عن سعيد بن أبى الحسن قال : لما التقم الحوت يونس عليه السلام ظن أنه قد مات فطول رجليه فإذا هو لم يمت فقام إلى عادته يصلى فقال فى دعائه : « واتخذت لك مسجدا حيث لم يتخذه أحد » . وقال أبو المعالى : قوله صلى الله عليه وسلم "لا تفضّلونى على يونس بن متى" المعنى فإنى لم أكن وأنا فى سدرة المنتهى بأقرب إلى الله منه ، وهو فى قعر البحر فى بطن الحوت . وهذا يدل على أن البارى سبحانه وتعالى

(١) كذا فى الأصل ؛ ولعله « عبد الله بن إدريس » فإن عبد الله المذكور حدث عنه العبدى كما فى « تهذيب التهذيب » .

ليس فى جهة . وقد تقدم هـذا المعنى فى « البقرة » و « الأعراف » . « أَنْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » يريد فيما خالف فيه من ترك مداومة قومه والصبر عليهم . وقيل : فى الخروج من غير أن يؤذن له . ولم يكن ذلك من الله عقوبة ؛ لأن الأنبياء لا يجوز أن يعاقبوا ، و إنما كان ذلك تمحيصا . وقد يؤدّب من لا يستحق العقاب كالصبيان ؛ ذكره الماوردى . وقيل : من الظالمين فى دعائى على قومى بالعذاب . وقد دعا نوح على قومه فلم يؤاخذ . وقال الواسطى فى معناه : نزه ربه عن الظلم وأضاف الظلم إلى نفسه آعترافا وآستحقاقا . ومثل هذا قول آدم وحواء : « رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا » إذ كانا السبب فى وضعهما أنفسهما فى غير الموضع الذى أنزلا فيه .

الثانيــة — روى أبو داود عن سعد بن أبى وقاص عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "دعاء ذى النون فى بطن الحوت « لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » لم يدع به رجل مسلم فى شىء قط إلا آستجيب له" وقد قيل : إنه اسم الله الأعظم . و رواه سعد عن النبى صلى الله عليه وسلم . وفى الخبر : فى هذه الآية شرط الله لمن دعاه أن يجيبه كما أجابه وينجيه كما أنجاه ، وهو قوله : « وَكَذَٰلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِينَ » وليس هاهنا صريح دعاء و إنما هو مضمون قوله : « إِنِّى كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ » فاعترف بالظلم فكان تلويحا .

قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى نخلصهم من همهم بما سبق من عملهم . وذلك قوله : « فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ » وهذا حفظ من الله عز وجل لعبده يونس رعى له حق تعبده ، وحفظ زمام ما سلف له من الطاعة . وقال الأستاذ أبو إسحق : صحب ذو النون الحوت أياما قلائل فإلى يوم القيامة يقال له ذو النون ، فما ظنك بعبد عبده سبعين سنة يبطل هذا عنده ! لا يظن به ذلك . «مِنَ الْغَمِّ» أى من بطن الحوت .

قوله تعالى : « وَكَذَٰلِكَ نُنْجِى الْمُؤْمِنِينَ » قراءة العامة بنونين من أنجى ينجى . وقرأ ابن عامر « نُجِّى » بنون واحدة وجيم مشدّدة وتسكين الياء على الفعل الماضى وإضمار المصدر أى وكذلك نُجِّى النجاءُ المؤمنين ؛ كما تقول : ضُرِب زيدا بمعنى ضُرِب الضربُ زيدا وأنشد:

ولو وَلَدتْ قُفَيْرَةُ(١) جرو كَلْبٍ * لَسُبَّ بذلك الجـرو الكلابَا

أراد لَسُبَّ السبُّ بذلك الجرو. وسكنت ياؤه على لغة من يقول بَقِي ورَضِى فلا يحرك الياء. وقرأ الحسن «وَذَرُوا مَا بَقِي مِنَ الرِّبَا» ٱستثقالا لتحريك ياء قبلها كسرة. وأنشد:

خَمَّـر الشّيبُ لِمَّتِي تَخْمِـيرَا * وَحَدَا بي إلى القُبور البعيرَا

ليتَ شِعْرِى إذا القيامةُ قامتْ * ودُعِى بالحسابِ أين المصيراَ

سكن الياء فى دعى استثقالا لتحريكها وقبلها كسرة وفاعل حدا المشيبُ؛ أى وحدا المشيبُ البعير؛ ليت شعرى المصير أين هو. هذا تأويل الفراء وأبى عبيد وثعلب فى تصويب هذه القراءة. وخطأها أبو حاتم والزجاج وقالوا: هو لحن؛ لأنه نصب اسم ما لم يسم فاعله؛ وإنما يقال: نُجِّى المؤمنون. كما يقال: كُرِّم الصالحون. ولا يجوز ضُرِب زيدا بمعنى ضُرِب الضَّربُ زيدا؛ لأنه لا فائدة [فيه](٢) إذ كان ضُرِب يدل على الضرب. ولا يجوز أن يحتج بمثل ذلك البيت على كتاب الله تعالى. ولأبى عبيد قول آخر - وقاله القتبى - وهو أنه أدغم النون فى الجيم. النحاس: وهذا القول لا يجوز عند أحد من النحويين؛ لبعد مخرج النون من مخرج الجيم فلا تدغم فيها، ولا يجوز فى «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ» «مجّاءَ بِالْحَسَنَةِ» قال النحاس: ولم أسمع فى هذا أحسن من شىء سمعته من علىّ بن سليمان. قال: الأصل ننجى فحذف إحدى النونين؛ لاجتماعهما كما تحذف إحدى التاءين؛ لاجتماعهما نحو قوله عز وجل: «وَلَا تَفَرَّقُوا» والأصل تتفرقوا. وقرأ محمد بن السَّمَيقع وأبو العالية «وَكَذَٰلِكَ نَجَّى الْمُؤْمِنِينَ» أى نجى الله المؤمنين؛ وهى حسنة.

قوله تعالى: وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾

---

(١) قفيرة (كجهينة): أم الفرزدق. والبيت لجرير من قصيدة يهجو بها الفرزدق.

(٢) الزيادة من «إعراب القرآن» للنحاس.

قوله تعالى : ﴿ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ ﴾ أى وآذكر زكريا . وقد تقدم فى «آل عمران» (١) ذكره . ﴿ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا ﴾ أى منفردا لا ولد لى وقد تقدم . ﴿ وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴾ أى خير من يبقى بعد كل من يموت ؛ وإنما قال «وأنت خير الوارثين» لما تقدم من قوله : « يرثنى » أى أعلم أنك لا تضيع دينك، ولكن لا تقطع هذه الفضيلة التى هى القيام بأمر الدين عن عقبى . كما تقدم فى « مريم » بيانه .

قوله تعالى : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ ﴾ أى أجبنا دعاءه : ﴿ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ ﴾ . تقدم ذكره مستوفى : ﴿ وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ ﴾ قال قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين : إنها كانت عاقرا فجعلت ولودا . وقال ابن عباس وعطاء : كانت سيئة الخلق، طويلة اللسان، فأصلحها الله فجعلها حسنة الخلق .

قلت : ويحتمل أن تكون جمعت المعنيين فجعلت حسنة الخلق ولودا . ﴿ إِنَّهُمْ ﴾ يعنى الأنبياء المسمين فى هذه السورة ﴿ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ ﴾ . وقيل : الكناية راجعة إلى زكريا وآمرأته ويحيى .

قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ فيه مسئلتان :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ﴾ أى يفزعون إلينا فيدعوننا فى حال الرخاء وحال الشدة . وقيل : المعنى يدعون وقت تعبدهم وهم بحال رغبة ورجاء ورهبة وخوف، لأن الرغبة والرهبة متلازمان . وقيل : الرغَب رفع بطون الأكف إلى السماء، والرهَب رفع ظهورها ؛ قاله خصيف ؛ وقال ابن عطية : وتلخيص هذا أن عادة كل داع من البشر أن يستعين بيديه فالرغب من حيث هو طلب يحسن منه أن يوجه باطن الراح نحو المطلوب منه، إذ هو موضع إعطاء أو بها يتملك، والرهب من حيث هو دفع مضرة يحسن معه طرح ذلك، والإشارة إلى ذهابه وتوقيه بنفض اليد ونحوه .

الثانية — روى الترمذى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا رفع يديه فى الدعاء لم يحطهما حتى يمسح بهما وجهه وقد مضى فى « الأعراف » (٢)

---

(١) راجع ج ٤ ص ٧٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية . (٢) راجع ج ٧ ص ٢٢٤ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

الاختلاف فى رفع الأيدى، وذكرنا هذا الحديث وغيره هناك . وعلى القول بالرفع فقد اختلف الناس فى صفته وإلى أين؟ فكان بعضهم يختار أن يبسط كفيه رافعهما حذو صدره وبطونهما إلى وجهه ؛ روى عن ابن عمر وابن عباس . وكان علىّ يدعو بباطن كفيه؛ وعن أنس مثله ، وهو ظاهر حديث الترمذى . وقوله صلى الله عليه وسلم : " إذا سألتم الله فاسئلوه ببطون أكفكم ولا تسألوه بظهورها وامسحوا بها وجوهكم " . وروى عن ابن عمر وابن الزبير برفعهما إلى وجهه، واحتجوا بحديث أبى سعيد الخدرى؛ قال : وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعرفة فجعل يدعو وجعل ظهر كفيه مما يلى وجهه، ورفعهما فوق ثدييه وأسفل من منكبيه . وقيل : حتى يحاذى بهما وجهه وظهورهما مما يلى وجهه . قال أبو جعفر الطبرى والصواب أن يقال : إن كل هذه الآثار المروية عن النبى صلى الله عليه وسلم متفقة غير مختلفة المعانى، وجائز أن يكون ذلك عن النبى صلى الله عليه وسلم لاختلاف أحوال الدعاء كما قال ابن عباس : إذا أشار أحدكم بإصبع واحد فهو الإخلاص، وإذا رفع يديه حذو صدره فهو الدعاء، وإذا رفعهما حتى يجاوز بهما رأسه وظاهرهما مما يلى وجهه فهو الابتهال . قال الطبرى وقد روى قتادة عن أنس قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يدعو بظهر كفيه وباطنهما . و « رَغَبًا وَرَهَبًا » منصوبان على المصدر؛ أى يرغبون رغبا ويرهبون رهبا . أو على المفعول من أجله؛ أى للرغب والرهب . أو على الحال . وقرأ طلحة بن مُصَرِّف « وَيَدْعونَا » بنون واحدة . وقرأ الأعمش بضم الراء وإسكان الغين والهاء مثل السُّقْم والبُخْل، والعُدْم والضُّر لغتان . وابن وثاب والأعمش أيضا « رَغْبًا وَرَهْبًا » بالفتح فى الراء والتخفيف فى الغين والهاء، وهما لغتان مثل نَهْر ونَهَر وصَخْر وصَخَر . وروت هذه القراءة عن أبى عمرو . ﴿ وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴾ أى متواضعين خاضعين .

قوله تعالى : ﴿ وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩١﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا ﴾ أى واذكر مريم التى أحصنت فرجها . وإنما ذكرها وليست من الأنبياء ليتم ذكر عيسى عليه السلام ؛ ولهـذا قال : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ ولم يقل آيتين لأن معنى الكلام : وجعلنا شأنهما وأمرهما وقصتهما آية للعالمين . وقال الزجاج : إن الآية فيهما واحدة ؛ لأنها ولدته من غير فحل ؛ وعلى مذهب سيبويه التقدير: وجعلناها آية للعالمين وجعلنا ابنها آية للعالمين ثم حذف . وعلى مذهب الفراء : وجعلناها آية للعالمين وابنها ؛ مثل قوله جل ثناؤه : «وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ» . وقيل : إن من آياتها أنها أول امرأة قبلت فى النذر فى المتعبد . ومنها أن الله عز وجل غذاها برزق من عنده لم يجره على يد عبد من عبيده . وقيل : إنها لم تلقم ثديا قط . « وَأَحْصَنَتْ » يعنى عفّت فامتنعت من الفاحشة . وقيل : إن المراد بالفرج فرج القميص ؛ أى لم تعلق بثوبها ريبة ؛ أى إنها طاهرة الأثواب . وفروج القميص أربعة : الكمان والأعلى والأسفل . قال السهيلى : فلا يذهبن وهمك إلى غير هذا ؛ فإنه من لطيف الكناية لأن القرآن أنزه معنًى ، وأوزن لفظا ، وألطف إشارة ، وأحسن عبارة من أن يريد مايذهب إليه وهم الجاهل ، لا سيما والنفخ من روح القدس بأمر القدوس ، فأضف القدس إلى القدوس ، ونزه المقدسة المطهرة عن الظن الكاذب والحـدس . ﴿ فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا ﴾ يعنى أمرنا جبريل حتى نفخ فى درعها ، فأحدثنا بذلك النفخ المسيح فى بطنها . وقد مضى هذا فى « النساء »(١) و « مريم » فلا معنى للإعادة . ﴿ آيَةً ﴾ أى علامة وأعجوبة للخلق ، وعلما لنبوة عيسى ، ودلالة على نفوذ قدرتنا فيما نشاء .

قوله تعالى : إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ﴾ لما ذكر الأنبياء قال : هؤلاء كلهم مجتمعون على التوحيد ؛ فالأمة هنا بمعنى الدين الذى هو الإسلام ؛ قاله ابن عباس ومجاهـد وغيرهما . فأما المشركون فقـد خالفوا الكل . ﴿ وَأَنَا رَبُّكُمْ ﴾ أى إلهكم وحدى . ﴿ فَاعْبُدُونِ ﴾ أى أفردونى بالعبادة . وقرأ عيسى بن عمر وابن أبى إسحق « إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ » ورواها

---

(١) راجع جـ ٦ ص ٢٢ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية .

حسين عن أبي عمرو . الباقون «أُمَّةً وَاحِدَةً» بالنصب على القطع بمجىء النكرة بعد تمام الكلام؛ قاله الفراء . الزجاج : انتصب « أمةً » على الحال ؛ أى فى حال اجتماعها على الحق ؛ أى هذه أمتكم ما دامت أمة واحدة واجتمعتم على التوحيد؛ فإذا تفرقتم وخالفتم فليس من خالف الحق من جملة أهل الدين الحق ؛ وهو كما تقول : فلان صديق عفيفا أى ما دام عفيفا فإذا خالف العفة لم يكن صديق . وأما الرفع فيجوز أن يكون على البدل من «أمتكم» أو على إضمار مبتدإ؛ أى إن هذه أمتكم ، هذه أمة واحدة . أو يكون خبرا بعد خبر . ولو نصبت « أمتكم » على البدل من « هذه » لجاز و يكون « أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ » خبر « إن » .

قوله تعالى : وَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَٰجِعُونَ ﴿٩٣﴾ فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ﴿٩٤﴾

قوله تعالى : ﴿ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ ﴾ أى تفرقوا فى الدين؛ قاله الكلبي . الأخفش : اختلفوا فيه . والمراد المشركون؛ ذمّهم لمخالفة الحق، واتخاذهم آلهة من دون الله . قال الأزهرى : أى تفرقوا فى أمرهم ؛ فنصب « أَمْرَهُمْ » بحذف « فى » . فالمتقطع على هذا لازم وعلى الأول متعد . والمراد جميع الخلق ؛ أى جعلوا أمرهم فى أديانهم قطعا وتقسموه بينهم ، فمن موحد ، ومن يهودىّ ، ومن نصرانىّ ، ومن عابد ملك أو صنم . ﴿ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ ﴾ أى إلى حكمنا فنجازيهم .

قوله تعالى : ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ ﴾ « مِن » للتبعيض لا للجنس إذ لا قدرة للمكلف أن يأتى بجميع الطاعات فرضها ونفلها؛ فالمعنى : من يعمل شيئا من الطاعات فرضا أو نفلا وهو موحّد مسلم . وقال ابن عباس : مصدقا بمحمد صلى الله عليه وسلم . ﴿ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ ﴾ أى لا جحود لعمله ؛ أى لا يضيع جزاؤه ولا يغطى . والكفر ضدّه الإيمان . والكفر أيضا جحود النعمة ، وهو ضدّ الشكر . وقد كفره كفورا وكفرانا . وفى حرف ابن مسعود « فَلَا كُفْرَ لِسَعْيِهِ » . ﴿ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ ﴾ لعمله حافظون . نظيره « أَنِّى لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى » أى كل ذلك محفوظ ليجازى به .

قوله تعالى : وَحَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُم مِّن كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ ﴿٩٦﴾ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾

قوله تعالى : ﴿ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾ قراءة زيد بن ثابت وأهل المدينة « وَحَرَامٌ » وهى آختيار أبى عبيد وأبى حاتم . وأهل الكوفة « وَحِرْمٌ » ورويت عن على وابن مسعود وابن عباس رضى الله عنهم . وهما لغتان مثل حِلّ وحَلَال . وقد روى عن ابن عباس وسعيد بن جبير « وَحَرِمَ » بفتح الحاء والميم وكسر الراء . وعن ابن عباس أيضا وعكرمة وأبى العالية « وَحَرُمَ » بضم الراء وفتح الحاء والميم . وعن ابن عباس أيضا « وَحَرَمَ » وعنه أيضا « وَحَرَّمَ » ، « وَحُرِّمَ » . وعن عكرمة أيضا « وَحَرِمٌ » . وعن قتادة ومطر الوراق « وَحَرْمٌ » تسع قراءات . وقرأ السُّلَمى «عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْتُهَا» . واختلف فى « لا » فى قوله : « لَا يَرْجِعُونَ » فقيل : هى صلة ؛ روى ذلك عن ابن عباس ، واختاره أبو عبيد ؛ أى وحرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا بعد الهلاك . وقيل : ليست بصلة ، وإنما هى ثابتة ، ويكون الحرام بمعنى الواجب ؛ أى وجب على قرية ؛ كما قالت الخنساء :

وَإِنَّ حَرَامًا لَا أَرَى الدَّهْرَ بَاكِيًا * عَلَى شَجْوِهِ إِلَّا بَكَيْتُ عَلَى صَخْرِ

تريد أخاها ؛ فـ « لا » ثابتة على هذا القول . قال النحاس : والآية مشكلة ومن أحسن ما قيل فيها وأجلّه مارواه ابن عيينة وابن عُلَيّة وهشيم وابن إدريس ومحمد بن فضيل وسليمان بن حيان ومعلّى عن داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس فى قول الله عز وجل : «وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا » قال : وجب أنهم لا يرجعون ؛ قال : لا يتوبون . قال أبو جعفر : واشتقاق هذا بيّن فى اللغة ، وشرحه : أن معنى حُرِّم الشىء حُظِر ومُنع منه ، كما أن معنى أحل أبيح ولم يمنع منه ، فإذا كان « حَرَامٌ » و « حِرْمٌ » بمعنى واجب فمعناه أنه قد ضيق الخروج

منه ومنع فقد دخل فى باب المحظور بهذا؛ فأما قول أبى عبيد : إن « لا » زائدة فقد رده عليه جماعة ؛ لأنها لا تزاد فى مثل هذا الموضع ، ولا فيما يقع فيه إشكال ، ولو كانت زائدة لكان التأويل بعيدا أيضا ؛ لأنه إن أراد وحرام على قرية أهلكناها أن يرجعوا إلى الدنيا فهذا ما لا فائدة فيه ، وإن أراد التوبة فالتوبة لا تُحرّم . وقيل : فى الكلام إضمار أى وحرام على قرية حكمنا باستئصالها ، أو بالختم على قلوبها أن يتقبل منهم عمل لأنهم لا يرجعون أى لا يتوبون ؛ قاله الزجاج وأبو على ؛ و «لا» غير زائدة . وهذا هو معنى قول ابن عباس .

قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ ﴾ تقدّم القول فيهم . وفى الكلام حذف ؛ أى حتى إذا فتح سد يأجوج ومأجوج ، مثل « وَٱسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ » . ﴿ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴾ قال ابن عباس : من كل شرف يُقبلون ؛ أى لكثرتهم ينسلون من كل ناحية . والحدب ما ارتفع من الأرض ، والجمع الحِداب ، مأخوذ من حدبة الظهر ؛ قال عَنْتَرة :

فما رعِشت يداى ولا آزدهانى * تواتُرهم إلىّ من الحِدَاب

وقيل : «يَنْسِلُونَ» يخرجون ، ومنه قول آمرئ القيس :

* فَسُلِّى ثيابِى من ثِيابكِ تَنْسُلِ[(١)] *

وقيل : يسرعون ، ومنه قول النابغة[(٢)] :

عَسَلَانَ الذئبِ أَمْسَى قَارِباً[(٣)] * بَرَدَ الليلُ عليهِ فَنَسَلْ

يقال : عَسَل الذئبُ يَعسِل عَسَلا وعَسَلانا إذا أعنق وأسرع . وفى الحديث : "كَذَبَ عليك العَسَلَ" أى عليك بسرعة المشى . وقال الزجاج : والنَّسَلان مِشية الذئب إذا أسرع ؛ يقال : نسل فلان فى العدو يَنْسِل بالكسر والضم نَسْلا ونُسولا ونَسَلانا ؛ أى أسرع . ثم قيل فى الذين ينسلون من كل حدب : إنهم يأجوج ومأجوج ، وهو الأظهر ؛ وهو قول ابن مسعود وابن عباس . وقيل : جميع الخلق ؛ فإنهم يحشرون الى أرض الموقف ، وهم يسرعون من كل

(١) البيت من معلقته وصدره : * وإن تك قد ساءتك منى خليقة *

(٢) وقيل : هو للبيد ؛ كما « اللسان » مادة « عسل » . (٣) القارب : السائر ليلا .

صوب . وقرئ فى الشواذ « وَهُمْ مِنْ كُلِّ جَدَثٍ يَنْسِلُونَ » أخذا من قوله : « فَإِذَا هُمْ مِنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ » . وحكى هذه القراءة المهدوى عن ابن مسعود والثعلبى عن مجاهد وأبى الصهباء .

قوله تعالى : ﴿ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ ﴾ يعنى القيامة . وقال الفراء والكسائى وغيرهما : الواو زائدة مقحمة ؛ والمعنى : حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج اقترب الوعد الحق «فاقترب» جواب « إذا » . وأنشد الفراء(١) :

* فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى *

أى انتحى ، والواو زائدة ؛ ومنه قوله تعالى : « وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ . وَنَادَيْنَاهُ » أى للجبين ناديناه . وأجاز الكسائى أن يكون جواب « إذا » « فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا » ويكون قوله : « وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ » معطوفا على الفعل الذى هو شرط . وقال البصريون : الجواب محذوف والتقدير : قالوا يا ويلنا ؛ وهو قول الزجاج ، وهو قول حسن . قال الله تعالى : « وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى » المعنى : قالوا ما نعبدهم ، وحذف القول كثير .

قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ ﴾ «هى» ضمير الأبصار ، والأبصار المذكورة بعدها تفسير لها ، كأنه قال : فإذا أبصار الذين كفروا شخصت عند مجىء الوعد . وقال الشاعر :

لَعَمْرُ أبيها لا تقول ظَعِينَتِي * أَلَا فَرَّ عَنِّي مالكُ بن أَبِي كعب

فكنى عن الظعينة فى أبيها ثم أظهرها . وقال الفراء : « هى » عماد ، مثل « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ » . وقيل : إن الكلام تم عند قوله : «هى» التقدير : فإذا هى ؛ بمعنى القيامة بارزة واقعة ؛ أى مِن قُربها كأنها آتية حاضرة ، ثم ابتدأ فقال : ﴿ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ على تقديم الخبر على الابتداء ؛ أى أبصار الذين كفروا شاخصة من هذا اليوم ؛ أى من هوله لا تكاد تطرف ؛ يقولون : يا ويلنا إنا كنا ظالمين بمعصيتنا ، ووضعنا العبادة فى غير موضعها .

---

(١) البيت لامرئ القيس وهو من معلقته ، وتمامه :

* بنا بطن خبت ذى قفاف عقنقل *

قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾ (٩٨)

فيه أربع مسائل :

الأولى — قوله تعالى : ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ ﴾ قال ابن عباس : آية لا يسألنى الناس عنها! لا أدرى أعرفوها فلم يسألوا عنها، أو جهلوا فلا يسألون عنها؛ فقيل: وما هى؟ قال: « إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ » لما أنزلت شقّ على كفار قريش، وقالوا : شتم آلهتنا، وأتوا ابن الزّبعرى وأخبروه، فقال : لو حضرتُه لرددتُ عليه . قالوا : وما كنت تقول ؟ قال : كنتَ أقول له : هذا المسيح تعبده النصارى واليهود تعبد عزيرا أفهما من حصب جهنم ؟ فعجبت قريش من مقالته ، ورأوا أن محمدا قد خُصم ؛ فأنزل الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى أُولَئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ » وفيه نزل « وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا » يعنى ابن الزبعرى « إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ » بكسر الصاد؛ أى يضجون؛ وسيأتى (١) .

الثانية — هذه الآية أصل فى القول بالعموم وأن له صيغا مخصوصة، خلافا لمن قال : ليست له صيغة موضوعة للدلالة عليه، وهو باطل بما دلت عليه هذه الآية وغيرها؛ فهذا عبد الله بن الزّبعرى قد فهم « ما » فى جاهليته جميع من عبد، ووافقه على ذلك قريش وهم العرب الفصحاء، واللسن البلغاء، ولو لم تكن للعموم لما صح أن يستثنى منها، وقد وجد ذلك فهى للعموم وهذا واضح .

الثالثة — قراءة العامة بالصاد المهملة؛ أى إنكم يا معشر الكفار والأوثان التى تعبدونها من دون الله وقود جهنم؛ قاله ابن عباس . وقال مجاهد وعكرمة وقتادة : حطبها . وقرأ على ابن أبى طالب وعائشة رضوان الله عليهما «حَطَبُ جَهَنَّمَ» بالطاء . وقرأ ابن عباس «حَضَبُ» بالضاد المعجمة؛ قال الفراء : يريد الحصب . قال : وذكر لنا أن الحضب فى لغة أهل

(١) فى تفسير آية ٥٧ من سورة « الزخرف » .

اليمن الحطب، وكل ما هيجت به النار وأوقدتها به فهو حَضَب؛ ذكره الجوهرى. والموقد مِحضب. وقال أبو عبيدة فى قوله تعالى: «حَصَبُ جَهَنَّمَ» كل ما ألقيته فى النار فقد حصبتها به. ويظهر من هذه الآية أن الناس من الكفار وما يعبدون من الأصنام حطب لجهنم. ونظير هذه الآية قوله تعالى: «فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ». وقيل: إن المراد بالحجارة حجارة الكبريت؛ على ما تقدّم فى «البقرة»[1] وأن النار لا تكون على الأصنام عذابا ولا عقوبة؛ لأنها لم تذنب، ولكن تكون عذابا على من عبدها: أول شىء بالحسرة، ثم تجمع على النار فتكون نارها أشد من كل نار، ثم يعذَّبون بها. وقيل: تحمى فتلصق بهم زيادة فى تعذيبهم. وقيل: إنما جعلت فى النار تبكيتا لعبادتهم.

الرابعة — قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ﴾ أى فيها داخلون. والخطاب للشركين عبدة الأصنام؛ اى أنتم واردوها مع الأصنام. ويجوز أن يقال: الخطاب للأصنام وعبدتها؛ لأن الأصنام وإن كانت جمادات فقد يخبر عنها بحكايات الآدميين. وقال العلماء: لا يدخل فى هذا عيسى ولا عزير ولا الملائكة صلوات الله عليهم؛ لأن «ما» لغير الآدميين. فلو أراد ذلك لقال: «ومن». قال الزجاج: ولأن المخاطبين بهذه الآية مشركو مكة دون غيرهم.

قوله تعالى: لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوهَا﴾ أى لو كانت الأصنام آلهة لما ورد عابدوها النار. وقيل: ما وردها العابدون والمعبودون؛ ولهذا قال: ﴿وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ﴾ أى لهؤلاء الذين وردوا النار من الكفار والشياطين؛ فأما الأصنام فعلى الخلاف فيها؛ هل يحييها الله تعالى ويعذبها حتى يكون لها زفير أو لا؟ قولان: والزفير صوت نفس المغموم يخرج من القلب. وقد تقدّم فى «هود»[2]. ﴿وَهُمْ فِيهَا

(١) راجع جـ ١ ص ٢٣٥ وما بعدها طبعة ثانية أو ثالثة.
(٢) راجع جـ ٩ ص ٧٨ وما بعدها طبعة أولى أو ثانية.

لَا يَسْمَعُونَ ﴾ قيل : فى الكلام حذف ؛ والمعنى وهم فيها لا يسمعون شيئا ؛ لأنهم يحشرون صما ، كما قال الله تعالى : « وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا » . وفى سماع الأشياء رَوْح وأنس ، فمنع الله الكفار ذلك فى النار . وقيل : لا يسمعون ما يسرهم ، بل يسمعون صوت من يتولى تعذيبهم من الزبانية . وقيل : إذا قيل لهم « اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ » يصيرون حينئذ صما بكما ؛ كما قال ابن مسعود : إذا بقى من يخلد فى النار فى جهنم جعلوا فى توابيت من نار ، ثم جعلت التوابيت فى توابيت أخرى فيها مسامير من نار ، فلا يسمعون شيئا ، ولا يرى أحد منهم أن فى النار من يعذب غيره .

قوله تعالى : إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١٠١﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١٠٢﴾ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمُ الَّذِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١٠٣﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى ﴾ أى الجنة ﴿ أُولَئِكَ عَنْهَا ﴾ أى عن النار ﴿ مُبْعَدُونَ ﴾ فمعنى الكلام الاستثناء ؛ ولهذا قال بعض أهل العلم : « إن » ها هنا بمعنى « إلا » وليس فى القرآن غيره . وقال محمد بن حاطب : سمعت على بن أبى طالب رضى الله عنه يقرأ هذه الآية على المنبر « إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى » فقال سمعت النبىّ صلى الله عليه وسلم يقول : " إن عثمان منهم " .

قوله تعالى : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ﴾ أى حسّ النار وحركة لهبها . والحسيس والحسّ الحركة . وروى ابن جريج عن عطاء قال قال أبو راشد الحَرورىّ لابن عباس : « لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا » فقال ابن عباس : أمجنون أنت ؟ فأين قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » وقوله تعالى : « فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ » وقوله : « إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا » . ولقد كان من دعاء من مضى : اللهم أخرجنى من النار سالما ، وأدخلنى الجنة فائزا . وقال أبو عثمان النهدى :

على الصراط حيات تلسع أهل النار فيقولون : حَسّ حَسّ . وقيل : إذا دخل أهل الجنة لم يسمعوا حسّ أهل النار وقبل ذلك يسمعون؛ فالله أعلم . ﴿وَهُمْ فِيمَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ أى دائمون وهم فيما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين . وقال : « وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِى أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ » .

قوله تعالى : ﴿لَا يَحْزُنُهُمُ ٱلْفَزَعُ ٱلْأَكْبَرُ﴾ وقرأ أبو جعفر وابن محيصن « لَا يُحْزِنُهُمْ » بضم الياء وكسر الزاى . الباقون بفتح الياء وضم الزاى . قال اليزيدى : حزنه لغة قريش ، وأحزنه لغة تميم ، وقد قرئ بهما . والفزع الأكبر أهوال يوم القيامة والبعث ؛ عن ابن عباس . وقال الحسن : هو وقت يؤمر بالعباد إلى النار . وقال ابن جريج وسعيد بن جبير والضحاك : هو إذا أطبقت النار على أهلها ، وذبح الموت بين الجنة والنار . وقال ذو النون المصرى : هو القطيعة والفراق . وعن النبي صلى الله عليه وسلم : "ثلاثة يوم القيامة فى كثيب من المسك الأذفر ولا يحزنهم الفزع الأكبر رجل أمّ قوما محتسبا وهم له راضون ورجل أذّن لقوم محتسبا ورجل ابتلى برق فى الدنيا فلم يشغله عن طاعة ربه" . وقال أبو سلمة بن عبد الرحمن : مررت برجل يضرب غلاما له ، فأشار إلىّ الغلام ، فكلمت مولاه حتى عفا عنه ؛ فلقيت أبا سعيد الخدرى فأخبرته ، فقال : يا بن أخى ! من أغاث مكروبا أعتقه الله من النار يوم الفزع الأكبر" سمعت ذلك من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ ٱلْمَلَائِكَةُ﴾ أى تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهنئونهم و يقولون لهم : ﴿هَـٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ . وقيل : تستقبلهم ملائكة الرحمة عند خروجهم من القبور . عن ابن عباس : « هَـٰذَا يَوْمُكُمْ » أى و يقولون لهم ؛ فحذف . « ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ » فيه الكرامة .

قوله تعالى : يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ كَطَىِّ ٱلسِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ۚ وَعْدًا عَلَيْنَآ ۚ إِنَّا كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٠٤﴾

قوله تعالى : ﴿يَوْمَ نَطْوِى ٱلسَّمَآءَ﴾ قرأ أبو جعفر بن القعقاع وشيبة بن نِصَاح والأعرج والزُّهرى « تُطْوَى » بتاء مضمومة « ٱلسَّمَآءُ » رفعا على مالم يسم فاعله . مجاهد « يَطوِى »

على معنى يطوى الله السماء . الباقون « نَطْوِى » بنون العظمة . وانتصاب « يوم » على البدل من الهاء المحذوفة فى الصلة ؛ التقدير : الذى كنتم توعدونه يوم نطوى السماء . أو يكون منصوبا بـ « نعيد » من قوله : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » . أو بقوله : « لا يحزنهم » أى لا يحزنهم الفزع الأكبر فى اليوم الذى نطوى فيه السماء . أو على إضمار واذكر ، وأراد بالسماء الجنس ؛ دليله : « وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » . ﴿ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكِتَابِ ﴾[1] قال ابن عباس ومجاهد : أى كطى الصحيفة على ما فيها ؛ فاللام بمعنى «على» . وعن ابن عباس أيضا اسم كاتب رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس بالقوى ؛ لأن كُتّاب رسول الله صلى الله عليه وسلم معروفون ليس هذا منهم ، ولا فى أصحابه من اسمه السِّجل . وقال ابن عباس أيضا وابن عمر والسدى : « السّجل » ملك ، وهو الذى يطوى كتب بنى آدم إذا رفعت إليه . ويقال : إنه فى السماء الثالثة ، ترفع إليه أعمال العباد ، يرفعها إليه الحفظة الموكلون بالخلق فى كل خميس واثنين ، وكان من أعوانه فيما ذكروا هاروت وماروت . والسجل الصك ، وهو اسم مشتق من السّجالة وهى الكتابة ؛ وأصلها من السّجْل وهو الدّلو ؛ تقول : ساجلت الرجل إذا نزعت دلوا ونزع دلوا ، ثم استعيرت فسميت المكاتبة والمراجعة مساجلة . وقد سَجّل الحاكمُ تسجيلا . وقال الفضل بن العباس بن عتبة بن أبى لهب :

مَنْ يُسَاجِلْنى يُساجِلْ ماجِدًا * يملأ الدَّلوَ إلى عَقْدِ الكَرَبِ[2]

ثم بنى هذا الاسم على فِعِلّ مثل حِمِرّ وطِمِرّ وبِلِىّ . وقرأ أبو زرعة بن عمرو بن جرير « كَطَىِّ السُّجُلِّ » بضم السين والجيم وتشديد اللام . وقرأ الأعمش وطلحة « كَطَىِّ السَّجْلِ » بفتح السين وإسكان الجيم وتخفيف اللام . قال النحاس : والمعنى واحد إن شاء الله تعالى . والتمام عند قوله : « لِلْكِتَابِ » . والطَّى فى هذه الآية يحتمل معنيين : أحدهما ــ الدَّرْج الذى هو ضد النّشر ، قال الله تعالى : « وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » . والثانى ــ الإخفاء والتعمية والمحو ؛ لأن الله تعالى يمحو ويطمس رسومها ويكدر نجومها .

(١) « الكتاب » بالإفراد قراءة نافع .

(٢) الكرب : حبل يشد على عراقى الدلو ثم يثنى ثم يثلث ليكون هو الذى يلى الماء فلا يعفن الحبل الكبير .

قال الله تعالى : « إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ . وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ » « وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ » . « لِلْكِتَابِ » وتم الكلام . وقراءة الأعمش وحفص وحمزة والكسائى ويحيى وخلف : « لِلْكُتُبِ » جمعا ثم استأنف الكلام فقال : ﴿ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ ﴾ أى نحشرهم حفاة عراة غرلا كما بُدئوا فى البطون . وروى النسائى عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : " يحشر الناس يوم القيامة عُراة غُرْلا أوّل الخلق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام — ثم قرأ — « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » " أخرجه مسلم أيضا عن ابن عباس قال : قام فينا رسول الله صلى الله عليه بموعظة فقال : " يأيها الناس إنكم تحشرون إلى الله حُفاة عُراة غُرْلا « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » ألا و إن أوّل الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام " وذكر الحديث . وقد ذكرنا هذا الباب فى كتاب « التذكرة » مستوفى . وذكر سفيان الثورى عن سلمة بن كهيل عن أبى الزعراء عن عبد الله بن مسعود قال : يرسل الله عن وجل ماء من تحت العرش كمنىّ الرجال فتنبت منه لُحمانهم وجسمانهم كما تنبت الأرض بالثرى . وقرأ « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » . وقال ابن عباس : المعنى نهلك كل شىء ونفنيه كما كان أوّل مرة[1]؛ وعلى هذا فالكلام متصل بقوله : « يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ » أى نطويها فنعيدها إلى الهلاك والفناء فلا تكون شيئا . وقيل : نفنى السماء ثم نعيدها مرة أخرى بعد طيها و زوالها؛ كقوله : « يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ » والقول الأوّل أصح وهو نظير قوله : « وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » وقوله عز وجل : « وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » . ﴿ وَعْدًا ﴾ نصب على المصدر؛ أى وعدنا وعدا ﴿ عَلَيْنَا ﴾ إنجازه والوفاء به أى من البعث والإعادة، ففى الكلام حذف . ثم أكد ذلك بقوله جل ثناؤه : ﴿ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴾ قال الزجاج : معنى « إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » إنا كنا قادرين على ما نشاء . وقيل : « إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ » أى ما وعدناكم وهو كما قال : « كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولًا » . وقيل : « كان » للإخبار بما سبق من قضائه . وقيل : صلة .

(١) هذا القول يحتاج إلى تدبر كما قال الألوسى .

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ ﴾ الزبور والكتاب واحد ؛ ولذلك جاز أن يقال للتوراة والإنجيل زبور . زَبرت أى كتبت وجمعه زُبُر . وقال سعيد بن جبير : « الزّبور » التوراة والإنجيل والقرآن . ﴿ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ﴾ الذى فى السماء ﴿ أَنَّ الْأَرْضَ ﴾ أرض الجنة ﴿ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ رواه سفيان عن الأعمش عن سعيد بن جبير . الشعبي : «الزّبور» زبور داود ، و « الذكر » توراة موسى عليه السلام . مجاهد وابن زيد : « الزّبور » كتب الأنبياء عليهم السلام ، و « الذّكر » أم الكتاب الذى عند الله فى السماء . وقال ابن عباس : « الزّبور » الكتب التى أنزلها الله من بعد موسى على أنبيائه ، و « الذكر » التوراة المنزلة على موسى . وقرأ حمزة «فِي الزُّبُورِ» بضم الزاى جمع زِبْر . « أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ » أحسن ما قيل فيه أنه يراد بها أرض الجنة كما قال سعيد بن جبير ؛ لأن الأرض فى الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم . وهو قول ابن عباس ومجاهد وغيرهما . وقال مجاهد وأبو العالية : ودليل هذا التأويل قوله تعالى : « وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ » وعن ابن عباس : أنها الأرض المقدّسة . وعنه أيضا : أنها أرض الأمم الكافرة ترثها أمة محمد صلى الله عليه وسلم بالفتوح . وقيل : إن المراد بذلك بنو إسرائيل ؛ بدليل قوله تعالى : « وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا » وأكثر المفسرين على أن المراد بالعباد الصالحين أمة محمد صلى الله عليه وسلم . وقرأ حمزة «عِبَادِي الصَّالِحُونَ» بتسكين الياء . ﴿إِنَّ فِي هَذَا﴾ أى فيما جرى ذكره فى هذه السورة من الوعظ والتنبيه . وقيل : إن فى القرآن ﴿ لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴾ قال أبو هريرة وسفيان الثورى : هم أهل الصلوات الخمس . وقال ابن عباس رضى الله عنهما : «عابدين» مطيعين . والعابد المتذلل الخاضع . قال القشيرى : ولا يبعد أن يدخل فيه كل عاقل ؛ لأنه من حيث الفطرة متذلل للخالق ، وهو بحيث لو تأمل القرآن واستعمله لأوصله ذلك إلى الجنة . وقال ابن عباس أيضا : هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم الذين يصلون الصلوات الخمس ويصومون شهر رمضان . وهذا هو القول الأول بعينه .

قوله تعالى : وَمَا أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰٓ
إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٨﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ
ءَاذَنتُكُمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ وَإِنْ أَدْرِىٓ أَقَرِيبٌ أَم بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٠٩﴾

قوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ ﴾ قال سعيد بن جبير عن آبن عباس قال : كان محمد صلى الله عليه وسلم رحمة لجميع الناس فمن آمن به وصدّق به سعد ، ومن لم يؤمن به سلِم مما لحق الأمم من الخسف والغرق . وقال ابن زيد : أراد بالعالمين المؤمنين خاصة .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ فلا يجوز الإشراك به . ﴿ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ أى منقادون لتوحيد الله تعالى ؛ أى فأسلموا ؛ كقوله تعالى : « فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ » أى آنتهوا .

قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ تَوَلَّوْا ﴾ أى إن أعرضوا عن الإسلام ﴿ فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَى سَوَاءٍ ﴾ أى أعلمتكم على بيان أنا و إياكم حرب لاصلح بيننا ؛ كقوله تعالى : « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ » أى أعلمهم أنك نقضت العهد نقضا ، أى آستويت أنت وهم فليس لفريق عهد ملتزم فى حق الفريق الآخر . وقال الزجاج : المعنى أعلمتكم بما يوحى إلىّ على آستواء فى العلم به ، ولم أظهر لأحد شيئا كتمته عن غيره . ﴿ وَإِنْ أَدْرِي ﴾ « إن » نافية بمعنى « ما » أى وما أدرى . ﴿ أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ ﴾ يعنى أجل يوم القيامة لا يدريه أحد لا نبى مرسل ولا ملَك مقرّب ؛ قاله ابن عباس . وقيل : آذنتكم بالحرب ولكنى لا أدرى متى يؤذن لى فى محاربتكم .

قوله تعالى : إِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلْجَهْرَ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿١١٠﴾
وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُۥ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَـٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١١١﴾ قَـٰلَ رَبِّ ٱحْكُم بِٱلْحَقِّ
وَرَبُّنَا ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١١٢﴾

قوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴾ أى من الشرك وهو المجازى عليه . ﴿ وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ ﴾ أى لعل الإمهال ﴿ فِتْنَةٌ لَكُمْ ﴾ أى اختبار ليرى كيف صنيعكم

وهو أعلم . ﴿ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾ قيل : إلى آنقضاء المدّة . وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى بنى أمية فى منامه يلون الناس، فخرج الحَكَمُ من عنده فأخبر بنى أمية بذلك؛ فقالوا له : ارجع فسله متى يكون ذلك . فأنزل الله تعالى « وَإِنْ أَدْرِى أَقَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ » « وَإِنْ أَدْرِى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ » يقول لنبيه عليه السلام قل لهم ذلك .

قوله تعالى : ﴿ قُلْ(١) رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ ﴾ ختم السورة بأن أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم بتفويض الأمر إليه وتوقع الفرج من عنده ، أى آحكم بينى وبين هؤلاء المكذّبين وانصرنى عليهم . روى سعيد عن قتادة قال : كانت الأنبياء تقول : « رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ » فأمر النبيّ صلى الله عليه وسلم أن يقول : « رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ » فكان إذا لقى العدو يقول وهو يعلم أنه على الحق وعدوه على الباطل « رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ » أى آقض به . وقال أبو عبيدة : الصفة هاهنا أقيمت مقام الموصوف والتقدير: رب آحكم بحكمك الحق . و «رب» فى موضع نصب؛ لأنه نداء مضاف. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وابن محيصن «قُلْ رَبُّ احْكُمْ بِالْحَقِّ» بضم الباء . قال النحاس : وهذا لحن عند النحويين؛ لا يجوز عندهم رجلُ أقبلْ، حتى تقول يارجلُ أقبلْ أو ما أشبهه. وقرأ الضحاك وطلحة ويعقوب «قَالَ رَبِّى أَحْكَمُ بِالْحَقِّ» بقطع الألف مفتوحة الكاف والميم مضمومة . أى قال محمد ربّى أحكَمُ بالحق من كل حاكم . وقرأ الجحدرى « قُلْ رَبِّى أَحْكَمَ» على معنى أحكم الأمور بالحق . ﴿ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ أى تصفونه من الكفر والتكذيب . وقرأ المفضل والسلمى «عَلَى مَا يَصِفُونَ» بالياء على الخبر . الباقون بالتاء على الخطاب .

(١) « قل » على صفة الأمر قراءة نافع .

تم الجزء الحادى عشر من تفسير القرطبي

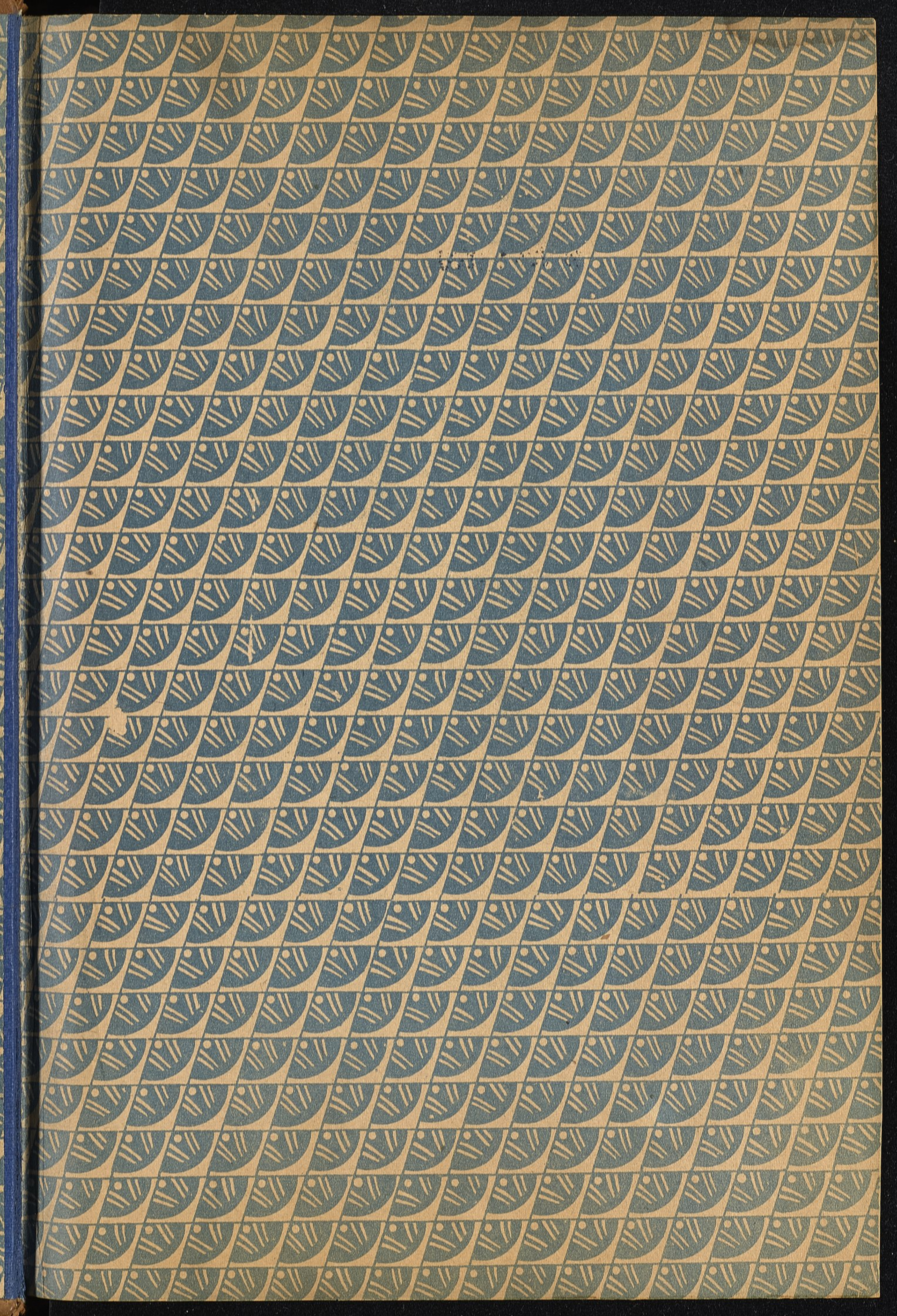
يتلوه إن شاء الله تعالى الجزء الثانى عشر وأوّله : "سورة الحج"

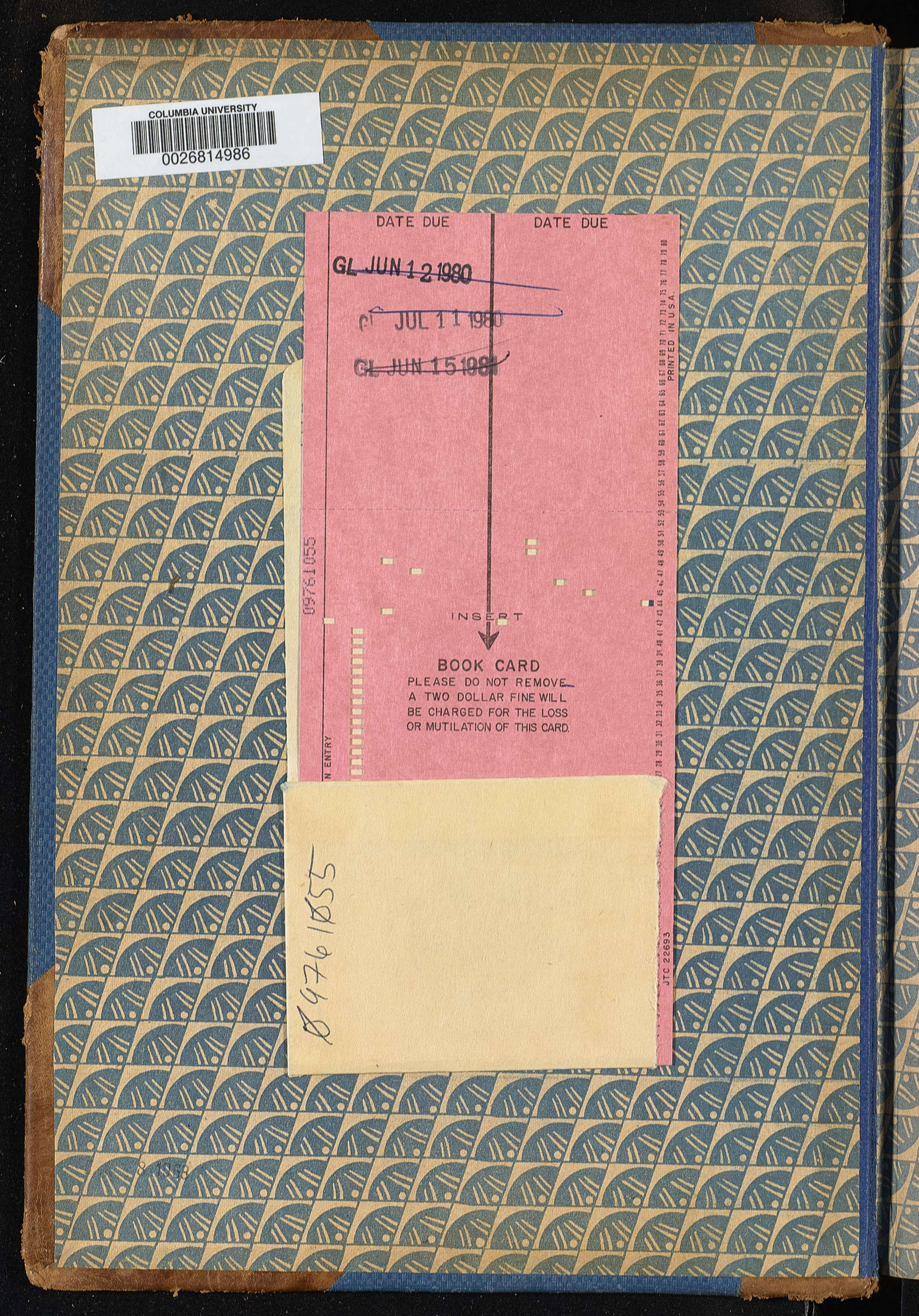
⁂

كَمُلَ طبع الجزء الحادى عشر من كتاب "الجامع لأحكام القرآن للقرطبي"
بمطبعة دار الكتب المصرية فى يوم الخميس ٢٢ جمادى الآخرة سنة ١٣٦٠
(١٧ يوليه سنة ١٩٤١) م

محمد نديم
ملاحظ المطبعة بدار الكتب
المصرية

(مطبعة دار الكتب المصرية ٨/ ١٩٤٠/ ٢٠٠٠)




COLUMBIA UNIVERSITY
0026814986
DATE DUE
DATE DUE
GL JUN 12 1980
GL JUL 11 1980
GL JUN 15 1981
PRINTED IN U.S.A.
09761055
INSERT
BOOK CARD
PLEASE DO NOT REMOVE
A TWO DOLLAR FINE WILL
BE CHARGED FOR THE LOSS
OR MUTILATION OF THIS CARD.
JTC 22693
09761055

